عالم الفكر

المجلد الثامن - العدد الرابع - يناير - فبراير - مارس ١٩٧٨

آفاق المعرفة

عالم الفكر

رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة اشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * يناير - فبراير - مارس ١٩٧٨
المراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية - وزارة الاعلام - الكويت : ص.ب ١٩٣

المحتويات

آفاق المعرفة

★★★

عرض الكتب

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء اصحابها وحدهم

آفاق المعرفة



لعل اهم ميزة ينفرد بها الانسان ويتميز بها على سائر الكائنات هى بحثه الدائب عن معنى الاشياء ، وقدرته الفائقة على اثارة التساؤلات ومحاولة الوصول الى اجابة شافية لهذه التساؤلات ويبدو ان هذه الخاصية كانت صفة ملازمة للجنس البشرى منذ تاريخه المبكر ، كما انها هي الخاصية التي تلازم الانسان الفرد منذ طفولته المبكرة حين يبدأ الطفل يوجه انتباهه الى ما يدور حوله من احداث كما لو كان يريد ان يكشف سرها ويصل بالتالي الى فهم غموض الحياة ، وتظل هذه الخاصية ملازمة له طيلة حياته مثلما لازمت الجنس البشرى كله خلال تاريخه الطويل .. وعلى الرغم من أن كل الانواع الحيوانية المعروفة لنا والتي يصل عددها الى حوالي مليون نوع تمتلك امخاخا من نوع او آخر ، فان الجنس البشرى كله ــ وبخاصة الانسان المعروف باسم الانسان العاقل HOMO SAPIENS كان هو النوع الوحيد الذى افلح (مخه) فى ان ينتجما نسميه الآن بالحضارة، بكل مظاهرها ومقوماتها وعناصرها ومكوناتها المادية وغير المادية كما ان المخ ــ يقدر ما نعرف

ــ هو الوحيد الذى يدرك طبيعة تكوينه ونوع العمليات التي يقوم بها ، كما يدرك انه قادر على التفكير المنطقى ومدى هذه القدرة التي لا تكاد تحدها حدود ، بل تكاد نقول ان المخ هو الوحيد الذى يدرك انه موجود وان عليه أن يكشف أسرار الكون بكل ما يحدث فيه من ظواهر طبيعية وحياتية ، كما أن عليه ان يكشف أسرار الانسان وما يعتمل فى داخله من عمليات عقلية وعاطفية ، وما يصدر عنه من ظواهر اجتماعية وثقافية ، ويحاول ان يجد لها تفسيرا وتعديلا مقبولين ، وان يربط بقدر الامكان ليس فقط بين الظواهر التى تنتمى الى طبيعة واحدة ، بل وايضا بين الظواهر التي تبدو متباينة أشد التباين، بحيث تنتظم في آخر الامر فى نسق واحد مفهوم رغم ما بينها من تفاوت واختلاف وتنوع.

والواقع ان خاصية البحث عن الحقيقة واثارة التساؤلات ومحاولة الاجابة عنها تشير الى عدد من الامور التى تستحق الانتباه فيما يتعلق بموقف الانسان من البحث عن الحقيقة. واول هذه الامور هو ان مجالات المعرفة واسعة الى ابعد حدود الاتساع ومتنوعة الى ابعد حدود التنوع ، وان امكانيات البحث فيها لا تكاد تتوقف عند حد خاصة وان التوصل الى الاجابة عن أى تساؤل من التساؤلات من التى يثيرها العقل الانسانى تفتح في الوقت ذاته مجالات وآفاقا جديدة للبحث ولمزيد من التساؤلات .

والظاهر أن الانسان مدفوع الى ارتياد هذه المجالات الجديدة برغبته فى اشباع فضوله الطبيعي للتعرف على اسرار هذا الكون ثم استخدام تلك المعارف المتنوعة فى السيطرة على تلك الظواهر والتحكم فيها واستغلالها لصالحه الخاص . الا أن هذه الجهود المتكررة المتجددة للبحث عن الحقيقة والمعرفة هى دليل فى الوقت ذاته على عجز الانسان عن الالمام بكل هذه المعارف وقصوره عن الاحاطة بها احاطة كاملة ، وان كان العقل الانسانى لا يتوقف عن ملاحقة هذه المجالات المتشعبة المتشابكة وارتيادها واحدا بعد الآخر . وهذا فى الواقع هو المبدأ الاصلي الكامن وراء حركة الفكر وسير الحضارة الانسانية ، كما أنه العامل الاساسي الفعال الذى يدفع الى التقدم فى كافة المجالات .

فالبحث عن الحقيقة اذن وطلب المعرفة أمر شاق وصعب ويحتاج الى بذل الكثير من الجهود والوقت . وطريق المعرفة طويل تكتنفه الصعوبات ، وان كان بعض هذه الصعوبات هى من خلق الانسان نفسه ترجع الى موقف الانسان من المعرفة ومن الحقيقة . بمعنى ان الانسان وبخاصة في الوقت الحاضر ، هو الذى كثيرا ما يفرض على نفسه القيود والحدود التى تمنعه من الانطلاق فى شتى المجالات وبالتالي الى الانحصار داخل قوقعة من صنعه يحدد هو نفسه اتساعها ومجال التحرك فيها ، وذلك باسم التخصص الذى يعتبر بغير شك احدى السمات الرئيسية للعصر الحديث . فالذى لا شك فيه هو ان التخصص يؤدى الى نوع من العزلة رغم ما قد يبدو في ذلك القول من تناقض . وهذا ينطبق على سائر المجالات ، سواء في ذلك المجالات العلمية او المهنية وكما يقول JOSEPH ROYCE فى كتابه القصير الممتع THE ENCAPSULATED MAN ان التخصص هو الذى يجعل عشرين (اخصائيا) مثلا يشتركون معا فى صنع حذاء واحد بدلا من ان يقوم صانع واحد ماهر بصنع الحذاء كله، كما كان يحدث فى الماضى ، كما ان التخصص هو الذى يؤدى الى تقسيم المعرفة وتجزئتها بحيث تجد مثلا أن هناك الآن فى صناعة البترول ٣٧٥ عملا مختلفا ، وفى صناعة النسيج ١٨٥ عملا متخصصا . ويصل هذا الى حد تتعدد

معه الخطوات والمراحل التي يجب ان تمر بهاالسلعة الواحدة مثلا قبل ان يتم صنعها . وكل خطوة من هذه الخطوات تقوم علىمعرفة متخصصة ودقيقة أو على الاصح معرفة « ضيقة » **يتوفر عليها اخصائيون** ينقطعون لها فلا يكادون يخرجون عنها ، وبالتالى لا يكادون يعرفون كيف يمارسون أى جزء من العمل غير ذلك الجزء الذى تؤهلهم له معرفتهم ، وبذلك لا يمارسون غيره ، **بحيث نجد مثلا ان صنع سلعة بسيطة مثل الدبوس** يقسم الآن الى ثماني عشرة خطوة متمايزة يتوفر على كل خطوة فيها متخصص بحيث اصبحت كل خطوة مجهولة تماما من **العمال الآخرين الذين يشتغلون فى نفس** الصناعة ولكنهم يؤدون أدوارا مختلفة . وقد يصل الامر ان بعض هذه المهن لا يكاد يعرف معناها أو أهميتها الا الذين يمارسونها بالفعل . بل ان العامل الذى يقوم بأداء عمل جزئى معين كثيرا ما يجهل أهمية ذلك العمل ومكانه فى نسق الانتاج كله ، وبذلك أصبح **(انعدام) معنى العمل الصناعي** الذى يشترك العامل فى انجازه نتيجة للمبالغة في التخصص من أهم مميزات نظام تقسيم العمل في المجتمع الصناعى الحديث .

وهذا نفسه يصدق على المعرفة فى أوسع معانيها ، اذ يؤدى التخصص فى آخر الامر الى الانغلاق داخل (كبسولة) أو قوقعة من صنع الانسان نفسه بحيث لا يكاد يرى الا جانبا ضئيلا جدا من المعرفة الواسعة **الرحبة المتشعبة العميقة، وان ينظر الى الاشياء من تلك الزاوية الضيقة المتخصصة مما يؤدى** به فى النهاية الى العجز عن الاحاطة الشاملة بأى من المشكلات التي تعرض له ، أو ان يعالج أى موقف معالجة عامة شاملة ، وان كان هذا لا يمنعه فى الاغلب من أن يصدر أحكاما عامة — غالبا ما تكون خاطئة — وتلك المعلومات الجزئية البسيطة التي اتيح له ان يلم بها .

ولقد ارتبط التخصص ارتباطا قويا منذ البداية بالثورة الصناعية فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، وهو نفس الوقت الذى تفاضلت فيه العلوم بشكل قوى واضح لم يسبق له مثيل . وبدأت المعرفة تتفرع الى اقسامها الثلاثة الكبرى : العلوم الطبيعية والعلوم البيولوجية والعلوم الانسانية والاجتماعية ، بل بدأ كل مجموعة منها تدخلها كثير من التفرعات والتخصصات بحيث انسلخت علوم برمتها من كل علم من العلوم السابقة ، وبدأ كل علم فرعي يتفرع بدوره تفريعات عديدة بحيث اصبح من العسير الاحاطة بكل هذه التفريعات مما اقتضى ضرورة التخصص . وهذا وحده كفيل بأن يعطينا فكرة عن حجم المشكلة التى تواجه المثقف في العصر الحديث ، ونعني بها العجز عن الاحاطة بكثير من مجالات المعرفة وضرورة **الاكتفاء بالتالي بأحد تلك الفروع الجزئية** من مجالات العلم .

ولقد شغل كثير من العلماء أنفسهم **بمشكلة العلاقة بين مختلف العلوم وتصنيفها وتسلسلها وترتيبها وتطورها** . ولعل اشهر هذه المحاولات هي تلك التى قام بها أوجيست كونت لتصنيف العلوم فى كتابه الشهير « **دروس فى الفلسفة الوصفية** Cours de Philosphic Positive » الذى رتب فيه العلوم المختلفة في سلسلة واحدة تبدأ بالرياضيات فالفلك فالفيزياء فالكيمياء ثم البيولوجيا واخيرا علم الاجتماع الذى كان يسميه في أول الامر « الفيزياء الاجتماعية » لكي يدلل على طبيعة المنهج العلمى الذى **يصبغ او يجب ان يصبغ ذلك العلم . وكان** اوجيست كونت فى ذلك يذهب الى أن الرياضيات كانت أسبق العلوم جميعا — لبساطتها — فى الوصول الى المرحلة الوصفية،

بينما كان علم الاجتماع هو آخر العلوم وصولاالى تلك المرحلة نظرا لتعقده وظهوره متأخرا ، بل انه لا يزال في الواقع يحاول اللحاق تلك المرحلة . واوجيست كونت في ذلك انما يعكس الوضع العام الغريب الذى ساد تطور المعرفةالانسانية . فلقد اهتم الانسان أول ما أهتم بالظواهر والحقائق الخارجية وقطع فى دراستها شوطا بعيدا بحيث بلغت هذه المعارف الخارجية عنه درجة عالية من التقدم والعمق قبل ان يوجه اهتمامه الى الظواهر والحقائق الداخلية ومنها البيولوجية ثم السيكولوجية (مع العلم بأن كونت لم يغير علم النفس ضمن العلوم) واخيرا الاجتماعية . وقد مرت هـذه العلوم وبالتالى ـ المعرفة الانسانية ككل ـ بمراحل ثلاثة ضمنها كونت قانونه الشهير باسم قانون الحالات الثلاث ـ والذى يقوم فى أساسه على الاعتقاد بأن العقل البشرى مر بثلاث حالات من حيث النظر الى الاشياء وتفسيرها. ففي المرحلة الاولى كان العقل يفسر الظواهر عن طريق ردها لكائنات وقوى يمكن مقارنتها بالانسان نفسه ، وفى المرحلة الثانية التي يسميها بالمرحلة الميتافيزيقية يفسر العقل الظواهر عن طريق الرجوع لبعض القوى المجردة ، كالطبيعة ، واخيرا تأتي المرحلة الوضعية التى يقنع فيها الانسان بملاحظة الظواهر واقامة علاقات وروابط منتظمة بينها، سواء في أى فترة محددة بالذات أو خلال الزمن ، ويسقط من اعتباره البحث عن المبادىء النهائية التي تكمن وراء الاشياء والوقائع والحقائق ويكتفى باقامة القوانين التي تحكمها . ومع ان العلوم المختلفة تمر بالضرورة أثناء تطورها خلال هذه المراحل الثلاث فان ذلك لا يعنى انها تنتقل معا ككل من مرحلة لاخرى وفي نفس الوقت . وموقع أى علم من العلوم الى السلسلة التصنيفية التى أشرنا اليها يحدد لنا وضع ذلك العلم من الوصول الى المرحلة الوضعية ، أى أن هـذا الترتيب هو فى الحقيقة ترتيب لبلوغها الحالة الوضعية ، وبذلك تكون الرياضيات أسبق العلوم جميعا فى تطبيقها للمنهج الوضعي ، كما أن العلوم جميعا سبقت علم الاجتماع فى تحقيق هذا المنهج كما ذكرنا .

واذا استثنينا علم الاجتماع الذى يعتبره كونت علما طبيعيا كالفيزياء والكمياء فان كونت لم يشر فى تصنيفه من قريب أو بعيد الى أى علم من علوم الدراسات الانسانية وربما لانها لا تخضع للمناهج الوضعية ، مع أن الدراسات الانسانية تؤلف جزءا رئيسيا من المعرفة الانسانية . والتعارض بين العلم والانسانيات تعارض هام جذب اليه اهتمام الكثيرين من المفكرين الذين حاولوا التدليل على تهافت الفكرة الشائعة من عدم تداخلهما واستحالة التقريب بينهما . ولعل أشهر ـ ان لم تكن أفضل هذه المحاولات هي محاضرة C.P. Snow عن « الثقافتين » .

والمعروف أن الصراع بين العلم والانسانيات يرجع الى ما قبل عصر النهضة فى أوروبا ، وهو صراع افلح في أن يجرف رجال الكنيسة الكاثوليكية الذين اضطهدوا العلماء ورجال الفكر العلمي ، ووصل هذا الاضطهاد الى حد اعدام عدد منهم . الا أن هذه الفترة لم تلبث ان انتهت فى القرن السابع عشر والثامن عشر (عصر العقل The Age of Reason حين أمكن التقريب بين (الثقافتين) ، أو على الاقل الملاءمة بينهما بحيث وجدت بعض العناصر العلمية سبيلها الى الادب ، وامكن بذلك التعبير عنها تعبيرا أدبيا رائعا ، وذلك قبل أن يبدأ عصر الثورة الصناعية الذى أدى الى التباعد من جديد بين الاثنين ، وهو تباعد اتخذ فى أحيان كثيرة صورة الصراع .

ولقد انتبه « سنو » الى هـذا الوضـع المأساوي الناجم عن ذلك التباعد بين العلم والانسانيات ، خاصة وانه هو نفسه جمع في تكوينه الفكري بين الناحيتين باعتباره متخصصا في الفيزياء من ناحية ،واحد كبار كتاب القصة في بريطانيا من الناحية الاخرى . وتعرض « سنو » في محاضرته التي اشرنا اليها الى تلك الهوة العميقة التي تفصل بين العلماء ،وبخاصة علماء الفيزياء وبين من يسمون انفسهم (أهل الفكر) ، وبخاصة الادباء الذين يعتبرون العلماء فئة ممجوجة من البشر ،يركبهم الغرور على الرغم من فراغ عقلياتهم وضيق أفق وسطحية تفكيرهم وان كانوا لا يتورعون في الوقت ذاته من اتهام (أهل الفكر) بقصر النظر وافتقارهم الى العقلية التحليلية العميقة .والادهى من ذلك ــ في نظر سنو ــ ان التخصصين في فروع العلم المختلفة لا يكادون يتابعون منجزات زملائهم في الفروع الاخرى ، او يفهمون ما يقومون به من بحوث ، فعلماء البيولوجيا مثلا كثيرا ما لا يعرفون سوى القليل عن الفيزياء المعاصرة رغم اتفاق العلماء جميعا الى حد كبير في الاتجاهات والمستويات والانماط السلوكية والفروض والاساليب الفنية للبحث ، اي رغم اشتراكهم جميعا في (ثقافة) واحدة . ومن الطريف ان « سنو » يذكر انه أثناء الحرب العالمية الثانية كان عليه ان يختبر حوالي ثلاثين أو اربعين الفا من العلماء والمهندسين والفنيين ، وانه رغم اعجابه بحصيلتهم العلمية في فروع تخصصهم فقد هاله جهلهم بالثقافة الادبية ، وان كان يعترف في الوقت ذاته بأن عددا كبيرا من خيرة العلماء على دراية واسعة بالادب وبالمشكلات التي يعرض لها الادباء والمتخصصون في الدراسات الانسانية بوجه عام .

وهذه ذاتها ناحية أشار اليها رجل من اكبر مؤرخي الفن في بريطانيا في الوقت الحاضر وهو الاستاذ جومبريتش E.H. Gombrich اذ يقول في مقال طريف في مجلة Daedalus (ربيع عام ١٩٧٣) انه عاصر الوقت الذي كان فيه جيل الاطباء والمحامين والموظفين العموميين ورجال المال يقرأون الكلاسيكيات على انها أمر مسلم به في تربيتهم واعدادهم . ولكن يبدو ان ذلك العصر قد ذهب وانقضى ولم يعد العلماء يهتمون كثيرا بهذه الامور ، لان تخصصاتهم ادت بهم الى الانغلاق والانعزال .. ومن الطريف ان جومبريتش يرى ان الدعوة الى ضرورة اطلاع العلماء على ذلك التراث الثقافي الواسع المتنوع يحمل ثناياه التنبؤية الى ان المجتمع لم يعد يقدس تراثه وقيمه القديمة ،وانه طالما كان المجتمع واثقا ومتأكدا من القيم السائدة في حضارته فان الاحساس بضرورة الاتصال بتلك الرموز والاثار التي تنتمي الى الماضي يكون احساسا قويا ولا يحتاج للمناقشة أو الجدل ، بل يتقبلها الناس كأمر مسلم به وتصبح جزءا من تربيتهم وتنشئتهم الاجتماعية والعلمية ، وهو ما لا يحدث الان في كثير من الاحوال .

ولكن الطريف حقا في هـذا الصـدد ان جومبريتش يرى أن كلمة « المعرفة » بكل ما تحتويه من اتساع وتنوع تصدق على الانسانيات والعلوم الاجتماعية اكثر مما تصدق على العلوم الطبيعية المختلفة ، كما ان التخصص في فرع من فروع الانسانيات كثيرا ما يحتاج الى معرفة واسعة ببقية الفروع ، واطلاع واسع على منجزاتها . فلو أخذنا تاريخ الفن مثلا فسوف نجد ان كثيرا من الصور والرسوم التي رسمها كبار الاساتذة الفنانين من امثال ميكلا نجلو أو تيسيان لن يمكن فهمها فهما عميقا الا اذا كنا على معرفة وثيقة بالاساطير اليونانية القديمة ، لانها تسجيل لمثل هذه الاساطير ، اذ على الاقل تظهر فيها بعض شخصيات آلهة اليونان على شكل مسوخ يصعب فهمها وتفسيرها الا في ضوء تلك الأساطير كما هو الحال مثلا في صورة

بتسيان عن « يوروبا فوق ظهر الثـور » . والامر يحتاج على اية حال الى دراسة تاريخ الرسم دراسة متعمقة لكي نفهم هذه الصوربقدر ما يتطلب معرفة الرموز التـي كانـت تسود حضارة من الحضارات .

الا ان المسألة مع ذلك ليست مجرد دعوةالى فرض الانسانيات على العلماء او القيام بأية محاولة لادخالها الى عقولهم عنوة بقصـد« تمدينهم » ورفع مستواهم الفكرى والثقافى ـ حسب تعبير الاستاذ ايزيا برلين Isaiah Berlin فالعلماء قوم أذكياء كما يقول « سنو » ، ولهم ثقافتهم الرائعة الصعبة حتىوان كانت هذه الثقافة تخلو من معظم الفنون باستثناء الموسيقى ، حتى وان لم تكن القراءةفي الانسانيات تستهويهم او تـروق لهـم . ويلاحظ برلـين ان هـذا نفسه يصدق علىالكثيرين جدا من الادباء والمتخصصين فى فروع الانسانيات بل والعلوم الاجتماعية ممن يأخذونعلى العلماء الطبيعيين جهلهم وضيق افقهم مع انهم هم انفسم لا يكادون يعرفون شيئا عـنبعض النظريات الهامة السائدة فى العلـوم الطبيعية ، او حتى بعض المبادىء والقوانـينالاساسيـة مثل القانـون الثانـي للديناميكا الحرارية ، وهو فى راي سنو احد البديهاتفى العلم التي يمكن مقارنتها بقراءة أعمـال شيكسبير عند الادباء بل ان « سنو » يذهبفى تدليلاته الساخرة على جهل الادباء بالعلم الى حد ان يقول انه لوسأل هؤلاء الادباء سؤالابسيطا جدا مثل:ما الكتلة ؟ او ما هو التسارع؟ وهو سؤال يعادل في العلم السؤال : هل تعرفالقراءة ؟ فسوف تكون النتيجة مفجعة .

والواقع ان مشكلة الحواجز التي تفصـلبين التخصصات العلمية الدقيقة والتي تفرق بين خاصة المثقفين شغلت بال عدد كبير منالتربويين الذين يرون انه اذا لم يكن باستطاعة التعليم ان يزيل الحواجز القائمة بالفعل فانهيجب الا يعمل على زيادة سمكها وارتفاعها أو تشجيع الانقسامات عن طريق توجيه العقولوالمخيلات فى قنوات ضيقة تزداد ضيقا طيلة الوقت بدعوى التخصص الدقيق ، بـل انالعكس يجب ان يكون هو الحال . بمعنى ان وظيفة التعليم فى العصر الحاضر يجب ان تكونهي معاونة المتخصصين على الانفتاح على العلوم الاخرى وفهم مناهجها واساليبهـا والتعرفعلى منجزاتها دون ان يتعارض ذلـك مـع التخصص الذى هو بلا جـدال سمة العصر . وبقول آخر ، فان ما يهـدف اليـه هـؤلاء التربويون هومساعدة الانسان رغم تخصصه ـعلى البحث عن الآفاق الارحب للمعرفة ، وان الاستزادة من المعارف المختلفة كفيلة فى حـدذاتها بتحقيق مزيد منانسانية الانسانوتوكيد لذاته .

والملاحظ ان كثيرا من الجامعات فى الخارج قد انتبهت لهذه المشكلة . وكانت الوسيلـة الطبيعية للتوفيق بـين التخصص الدقيـقوالانفتاح على آفاق المعرفة هي محاولة الربط بين اكثر من مجال للتخصص فيمرحلة الدراسةالجامعية ، كالجمع بين السياسة والاقتصاد والفلسفة ، أو بين التاريخ والادب ، او حتىبين الفلسفة والفيزياء ، ولكن لا تزال هنـاك مجالات اخرى كثيرة يمكن التقريب بينها حتىيتم تحرير العقل البشري مـن القيـود التي يفرضها عليها التخصص الضيق الدقيق .

ولكن هل يعني هذا مجرد الاكتفاء بتشجيعاصحاب التخصصات الضيقة على الخروج من قيود تخصصاتهم والاطلاع على نتائج العـلومالاخرى والاحاطة بهاأهل هو يعني مثلا الاكتفاء

بتشجيع الفيزيائيين على قراءة التاريخ أوالفلسفة أو الكلاسيكيات ، وتشجيع الادباء والمؤرخين على انتعرف على دقائق البيولوجيا الجزئية او طبيعة الجوامد او نظرية الاعداد ؟ مثل هذا الاتجاه لن يؤدي فى الاغلب الى ايةنتيجة قاطعة ، على الاقل لان ضيق الوقت أمام اصحاب التخصصات الدقيقة سوف يمنعهم من متابعة كل تطورات العلوم الاخرى ، فضلا عما سوف يبعثه ذلك فى نفوسهم من السأم والملل . **ان ما يمكن عمله هو شيء مختلف** تماما عن ذلك ، وهو ان نساعد العلماء اوالرياضيين مثلا على ان يفهموا الطريقة التي يصل بها المؤرخون او نقاد الادب الى احكامهم ،وما تتضمنه هذه الطريقة من استبصار وتخيل، ونوع المنطق الذي يعتمدون عليه فى تبرير تلك الاحكام حتى وان كان هذا المنطق يختلف تماما عن منطق العلماء والرياضيين . ويقول آخرون ان لب المشكلة يكمن فى فهم العمليات الذهنية التي يعتمد عليها أصحاب التخصصات المختلفة وليس مجرد اقامة جسور سريعة بين الثقافات. ولن يتأتى ذلك الا عن طريق التربية الطويلة التي تبدأ منذ الطفولة وتستمر طيلة الحياة لتدريب الناس على رؤية العلاقات بين مختلف فروع المعرفة .

فكأن المسألة تتعلق فى المحل الاول بالتنشئة الاجتماعية . والعقل البشري يمتاز على العموم بقدرته الفائقة على الاستيعاب والتكيف وفهم العلاقات . وسواء كان الهدف من التعليم هو مساعدة النشء على النجاح في حياتهم العملية ، او تزويدهم بقدر كبير من المعلومات المتنوعة السهلة العلمية الدقيقة ، أو مساعدتهم على الارتقاء بانفسهم الى مرتبة عالية من السمو النفسي والعقلي او تربية العقل او الخلق والشخصية فالمهم هو ألا يكون الهدف من التعليم هو مجرد « حشو الدماغ » بمعلومات لا طائل تحتها ولا معنى لها ، بحيث لا تلبث ان تنسى ويزول أثرها تماما . ولن يتاح للمرء ذلك الا اذا توفر له منذ الصبا قدر معين من الافكار الرئيسية التي تساعده على فهم العمليات الذهنية المختلفة ، مع العمل على تنمية ملكة البحث والارتياد عنده بحيث يتخذ موقفا معينا من العالم الذي يحيط به ويعيش **فيه ، مما يدفعه دائما الى استطلاع آفاق** جديدة من المعرفة ، وسوف يساعده هذا كله على التخلص من أية محاولة قد يراد بها وضع تفكيره داخل اطار محدود ضيق متزمت من الافكار والمعلومات . ولن يتسنى ذلك الا اذا تغير اسلوب التعليم بحيث يصبح وسيلة لاكتساب المهارات الذهنية بدلا من اكتساب المعلومات واختزانها ، وبحيث يصبح الرجل المتعلم هو ـ كما يقول بيترسون A.D.C.PETERSON الشخص الذي يفهم كيف يستجيب المؤرخ ـ مثلا ـ للماضي وليس هو الشخص الذي يكون على معرفة وثيقة بحقائق التاريخ واحداثه ووقائعه . اى ان المهم فى العملية التعليمية هو التركيز على تنمية القدرات ومساعدة الفرد على التفكير العقلاني مع تنمية احساسه العميق الحقيقي بالجمال والاخلاق فى الوقت نفسه ، وذلك عن طريق تنويع خبراته العقلية والانفعالية على السواء .

وسوف يؤدي ذلك به فى النهاية الى ان يشارك فى التراث العقلي والعلمي والانساني بحيث يحس بأنه عضو فى مجتمع معين ، بل وايضا في المجتمع الانساني الكبير .

والدراسات ألتي يضمها هذا العدد تعالجموضوعات متفرقة قد يبدو لاول وهلة أنـه لا يربطها رابط ، ولكنها تعطي فى الحقيقة فكرةعن المجالات الواسعة التي يمكن للعقل البشري ان يرتادها فى بحثه عن المعرفة ، والتي يحاولبعض العلماء المغرمين بالتصنيف ردها الىاربعة مجالات رئيسية هي المجال التحليلي (كما هوالشأن فى الرياضيات) والامبيريقي (كما هو الحال فى العلوم الطبعيـة والاجتماعيـة) ثمالمجالين الاخلاقي والجمالي . ولسنا نزعم ان هذه الدراسات تغطي هـذه المجالات الاربعـةكلها ، ولكننا نرجو ان يجد فيها القارىءعرضا لبعض المشكلات الهامة التـي تثير فى الوقتالحالي كثيرا من المناقشات العلمية الهادفة ، مثلما نجدفيها شيئا من المتعةالذهنية الراقية. والدراسات كلها على اية حال قام بكتابتها علماء متخصصون تخصصا دقيقا في فروع معينة منالمعرفة ولكنهم يقدمونها معا كمنوذج لما يمكن للمتخصصين ان يقدموه للمثقف الذي يحاولان يكتشف اكبر مساحة ممكنة مـن آفـاق المعرفة ولكنهم يقدمونها معا كنموذج لما يمكنبين تلك المجالات الاربعة الرئيسية ما أمكنـه ذلك .



خصائص الفن المصري القديم

عبد الحميد زايد

الفن المصرى القديم فن متماسك ، ثابت الدعائم ، نابع من التقاليد القائمة عند الشعب المصرى . وهو يعكس فى موضوعه اقوى الحضارات التى قامت فى العصور البعيدة فى القدم . ونستطيع ان نقرر باطمئنان ان جميع المظاهر الثقافية التى ظهرت فى العالم القديم ، غالبا ما تمثل اشكالا خاصة من طراز الفن المصرى القديم ، وانها انفصلت عنه بعد فترة من الزمن .

ان جفاف مناخ مصر ، وسماءها الصافية اغلب ايام السنة ، والتى تتمتع بزرقة ناصعة، وشمسها المشرقة دائما ، وما ينتج عن ذلك من ضوء طبيعى صاف ينير لنا ابعد الاشياء .

كل هذه الظواهر ، ساعدت المصرى على ان يحقق غريزة المحافظة على الاشياء ، والتمسك بالتقاليد . كما ان انتظام فيضان النيل ، اذ يفيض في مواعيد ثابتة تقريبا ، ويغيض في مواعيد ايضا شبه ثابتة ، دعم ثبات الفن المصرى فترة من الزمن طويلة .

اثرت هذه الطبيعة الهادئة فى نفسية الفنان المصرى القديم ، فراح يبحث فيما وراء الطبيعة، وما بعد الموت ، وخرج لنا بمفاهيم روحانية ودينية ، كان لها بالغ الاثر في بناء اطارات الفن عبر التاريخ القديم . ولم تسمح هذه المفاهيم للفنان ان يتخطاها أو يخرج عليها الا في اضيق الحدود . وحدث توافق بين رجال الدين

والفن . وآمن الشعب بعقيدة الحياة الآخرة ، والتزم الفنان بمبادىء الدين .

ومع ان الفن المصرى نابع من وحى الدين ، الا انه كان يخضع للنظام الملكي ، كما يخضع ايضا للمبادىء التى يرسمها رجال الدين . وتمتع الملوك بالسيادة الشاملة داخل المعابد . ولم يقم نزاع بين فرعون ورجال الدين الا فى فترة العمارنة . وظل الفن المصرى عظيما ، طالما كان الفراعنة اقوياء . وتدهور الفن حينما اهتز عرش الفراعنة فى العصرين المتوسط الاول والثانى ، وفى فترات اخرى .

ادعى بعض المفكرين ان الوحدة التى تميز بها الفن المصرى دفعته الى رتابة مملة ،ووصفه البعض بأنه فن جامد . ولكن الحقيقة كما سنرى بعد قليل ، ان الفنان المصرى يتحرك وينشط ، وتتنوع أساليبه، ويخرج لنا تماثيل لها أوضاع متباينة .

وحينما اراد الفنان المصرى أن يصور آلهته وفراعنته ، جعل لها قامة أعلى من غيرها من الناس ، وهو يريد من ذلك ابراز مظاهر القوة. كذلك الحال ، حينما اراد أن يقيم لفراعنته،أو آلهته منازل للعبادة ، جعلها ضخمة ، تبعث الشعور بعظمة أصحابها ، مراعيا فى ذلك القواعد الهندسية الدقيقة . بينما نجد الاغارقة من ورائهم ، جعلوا كل شيء مقتربا من المقاييس البشرية . على أن المصريين اجتهدوا فى الايحاء بالمطلق اللامحدود ، والذى لا يمكن قياسه،والذى يشعر الانسان بالعظمة. والواقع أن الفن المعمارى المصرى ، وما يكمله من فنون أخرى ، كفن نحت التماثيل ، والنقش ، والتصوير ، كلها تتوافق مع منظر الطبيعة المصرية التى تمثل اللامحدود .

ان ارادة الفنان المصرى نحو ابراز العظمة ، لايمكن ان ينتج عنها شعور بالرتابة ، وذلك لتنوع وسائل تنفيذها ، طبقا للموقع . وعلى سبيل المثال، **معبد الدير البحرى** الذى أقامته **الملكة حتشبسوت** فى البر الغربي للنيل تجاه مدينة الاقصر ، تميز عن بقية منازل العبادة المصرية الأخرى بشرفاته البديعة ، وهو يعد قطعة فنية رائعة ، وكان للموقع أثره فى ابرازه على تلك الهيئة . وان ابهاء الكرنك بمدينة الاقصر أيضا بأعمدتها الضخمة الاوزيرية والنخيلية واللوتية والبردية ، تفوق مايتصوره العقل البشرى . وفى أبو سمبل ، تبدو تماثيل فرعون مصر رمسيس الثانى المنحوتة في الصخر (المعبد كله منحوت فى الصخر) ، وكأنها تتطلع الى الأفق المترامى . هل يستطيع بعد ذلك أن يتحدث أحد عن رتابة مملة فى العمارة المصرية خصوصا اذا بدأ من المجموعة المعمارية الضخمة التى أقامها الملك زوسر فى صقارة من ملوك الاسرة الثالثة الى المعبد الذى بناه الامبراطور تراجان فى نهاية التاريخ المصرى القديم فى جزيرة فيله بأسوان . وعلى الرغم من القواعد التقليدية التي كانت تحكم تصميم وزخرفة العمارة المصرية منذ بداية التاريخ ، فى الطوب النيء مما اصطلح على تسميته فى العمارة المصرية بالدخلات والخرجات ، ثم آثار معبد (أبو الهول) بالجيزة ، والتى تتميز حوائطها ودعاماتها بخلوها من النقوش . ثم الاهرامات ، والتي تمثل خطوطها المستقيمة اروع ما وصل اليه فن الهندسة والعمارة . ثم مقابر كبار رجال الدولة ، التى غطيت بنقوش بارزة ملونة . ومعابد الشمس في الأسرة الخامسة . ومعبد منتوحتب الثاني المؤسس الحقيقى للدولة الوسطى فى الدير البحري . ومعابد كبار حكام الاقاليم مثل معبد واح كا ، ومعبد الملك سنوسرة الاول فى الكرنك ، واطلال معبد الاله آتون فى تل العمارنة . ومنازل الولادة فى نهاية العهد المتأخر . لقد تنوعت المناظر فى داخل كل معبد من هذه المعابد «واختلفت موضوعاتها فىأجزاء المعبد الواحد» منها مايخص الشعب ، ومنها مايخص الكهنة .

كانت توجد قواعد مقدسة التزم الفنان بمراعاتها ، فعليه أن يصور آلهته وملوكه فى أوضاع مهيبة ، في صور مخلوقات أسمى من

البشر ، تجلس على عروشها ، والرعية أمامها تقدم لها آيات الاخلاص . وتظهر الوجوه هادئة ، هذا الهدوء الذى يضفى عليها المزيد من النبل . من أجل ذلك ، ظهر فى فن نحت التماثيل الرسمية ، قانون اصطلح على تسميته بقانون (خط الجبهة Frontalité) ، وهو يرمى الى جعل جسم الانسان مقسما الى جزئين متساويين متماثلين وذلك بافتراض وجود خط محورى وهمى مبتدىء من منتصف الجبهة وممتد الى مابين الساقين. هذا القانون لم يكن ليترك للفنان الحرية فى استخدام أكثر من خمسة أو ستة أوضاع فى فن نحت تماثيل الآلهة والملوك وكبار رجال الدولة . وربما ان هذه القواعد كان لها أثرها على وجوه التماثيل فجعلت فيها رتابة فى المظهر ، خصوصا ونحن نراها اليوم فى دور التحف الحديثة . على أن هذه الرتابة الظاهرية التى ينسبها البعض الى التماثيل المصرية ، لم يكن لها وجود فى عين صانعها الأول. وان الاسلوب التقليدى، فى أوضاع التماثيل يختفى سريعا اذا ما نظرنا فى تعبيرات وجوه أصحابها .

اننا مدينون على الارجح لأحد فناني الجنوب بصنع تمثال للملك سنوسرة الثالث لم يبق منه الا الرأس ، تم العثور عليه فى المدامود بالقرب من الاقصر (شكل ١) . ونلاحظ على وجه التمثال ذلك التعبير الحزين ، البادى الألم ، الشيء الذى سوف تلاحظه فى جميع رسوم هذا الملك ، وعلى الأخص فى أحد تماثيله التى وجدت فى الدير البحرى ، وقد صور مكتمل الرجولة (شكل ٢) . وفى وضع آخر وقد تقدم به العمر ، وهو موجود بمتحف اللوفر جزء من رأس تمثال للملك سنوسرة الثالث من حجر الكوارتزيت محفوظ بمتحف المتروبوليتان بنيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية ، ويبلغ ارتفاعه ١٦ر٥ سنتيمترا . ونلاحظ تجعيدين خفيفين على جانبى الأنف . وغطيت العينان بحاجبين نصف تغطية كأن صاحبها ينظر الى أسفل ، والأنف مهشم ، أما الفم فرقيق .

وتدل ملامح الوجه على أن صاحبها كان يتحلى بشخصية قوية (شكل ٣) . هذا العدد الوافر من التماثيل التى تصور ملكا واحدا فى كل مراحل حياته شيء عجيب فيه تجديد ، اذ لم يجرؤ أحد فى عصر الدولة القديمة أن يصور ملكا فى مرحلة من العمر خلاف المرحلة التي يتمتع فيها بكامل قواه، لأنه يعتبر فى أثناء حياته الها لاتحل به الشيخوخة . واعتبارا من هذا العهد ، تغيرت المفاهيم المتصلة بالعالم الأخروى . واصبح عامة الشعب يستطيعون من هذا الحين ارتياد المجالات الأوزيرية ، هذا فضلا عن ان فرعون فقد امتيازه ، وغدا أشبه مايكون بآدمى فان ، ومن ثم نقص احترام الشعب له ، ولم يعد تصويره فى شيخوخته ، وقد خذلته قوته ، جريمة من جرائم انتهاك الحرمات المقدسة . ويبدو من جهة أخرى ان ثمة فكرة انبعثت تسمح بان يصور الميت فى جميع الهيئات والأوضاع، وفى كل سنى حياته، وذلك حتى تصبح الحياة فى العالم الأخروى اكمل واكثر تنوعا ، وحتى يستطيع المتوفى ان يختار الحقبة من حياته التى يرغب فى ان يحياها ثانية بعد مماته .

ولدينا على الاخص تمثالان للملك امنمحات الثالث ، يبرزان لنا بصورة جذابة السمات المختلفة للمدرستين . ويعرض علينا التمثال الاول الذى وجد في هواره بالفيوم صورة ملك شاب ، جسمه مثال للاسلوب الاكاديمى، ولكن رأسه النبيلة الوديعة الرصينة لها سمة من الجمال الهادىء تفوق فى قيمتها تماثيل سنوسرة الأول التى عثر عليها فى اللشت والمحفوظة بمتحف القاهرة ، وتنتسب هى الأخرى الى مدرسة الشمال . استطاع الفنان ان يظهر امنمحات الثالث فى هذا التمثال وسيما فى مقتبل العمر ، مقبلا على الحياة اقبالا فيه لون من الوان السعادة وله آمال عريضة ، وفى نظراته البعيدة مايدل على تفكير عميق نحو مستقبل باهر مملوء بالخير والرفاهية . أما التمثال الثانى لامنمحات الثالث ، كشف عنه فى الكرنك ، فانا نجده

على عكس التمثال الأول قويا وخشنا . فبروز الفك الاسفل ، والفم الملتوى الحزين ، يعيدان ذكرى الواقعية الطيبية ، وقد بولغ فيها الى حد القسوة العنيفة. حقا ان سن الملك المتقدم، من العوامل التي اسهمت فى ابراز هذا المظهر، بيد ان كل مافي تقاطيع الوجه يشير الى الخصائص الرئيسية للمدرسة الجنوبية . وانا لنلتقى من جديد فى رأس لتمثال عثر عليها فى الفيوم تمثل هذا الملك نفسه بمزيج موفق للغاية من سمات المدرستين . وان ذلك النبل الرفيع الذى يتجلى على الوجه ، والجمال الصارم الذى يميز جانب الرأس ، ويكاد يكون كلاسيا، وذلك التعبير الذى يفصح عن العزة الملكية الهادئة والهيمنة فى وقت واحد ، والتشكيل النهائي للتمثال حيث تتداخل المقاطع فى توافق وتناسق ، كل ذلك يجعل من تلك الراس عملا رائعا ليس هناك من سبيل الى انكاره . فاذا ما انتقلنا الى رأس لامنمحات الثالث ايضا صنعت فى الايام الاخيرة من عهده ومحفوظة بلندن فى مجموعة خاصة (شكل ٤ ، ٥) نجد فى ملامح وجهه جميعها ، بما فى ذلك العينين والذقن نظرة رجل امتلأت عيناه بأسرار كثيرة، وسعد بما قدم من خير لذلك الشعب ، ثم هو بعد صارم حازم .

اما عن تلك الراس التي يحتفظ بها متحف برلين من حجر الثعبان، فتمثل امنمحات الثالث مثقلا باعباء الحكم ،وتنفيذ مشروعاته الضخمة، وفى جفون عينية ثقل واضح لرجل اتعبه السهر . كما نرى فى تقاسيم وجه تمثال له على هيئة جسم أسد ووجه انسان محفوظ بمتحف القاهرة تعبيرات تدل على الاجهاد . اما راس تمثاله المصنوع من حجر الاوبسديان والموجود بمجموعة ماك جريجور وما فيها من تجاعيد غائرة تحت عينيه ، وفمه الجامد الصارم ، يدل على شيخوخة غمرتها كثرة المسئوليات . واخيرا، يضع النحات المصرى بين ايدينا خاتمة المطاف فى حياة امنمحات الثالث فى تلك الراس التى بقيت من تمثال له عثر عليه فى العرابة المدفونة ، يمثله فى آخر مرحلة من مراحل حياته . اذ وضح في الراس ان الرجل بلغ من العمر ارذله ، فقد استطاع الفنان الذى صنعه ان يصوره وعنده احساس بقرب أجله ، فظهر امنمحات الثالث ، وفى وجهه حزن عميق .

وبعد ، لقد استطاع فنانو عهد امنمحات الثالث ان يقدموا لنا قطعا فنية رائعة ، صادقة التعبير لاعسر فيها ولا جمود ، ارتسمت فى محياها ابتسامة لطيفة، وهو فى شرخ الشباب، بينما ظهر فى تماثيل الحلقة الاخيرة من حياته ، حزن واضح ، وتعب ظاهر ، تعبر عنهما عيناه الثقيلتان .

اما التمثال الخشبى **للملك حور** (شكل ٦) والمحفوظ بمتحف القاهرة والذى عثر عليه فى دهشور ، فهو انموذج مدهش فيما يتألق به من شباب انيق ورشيق لذلك الجمال الساحر الذى عرفت مدرسة الشمال كيف تحافظ عليه ، ويعد نصرا للاسلوب الاكاديمي الممتاز . ويعتبر هذا التمثال من الامثلة النادرة التى عرفت الى يومنا هذا (ان لم نقل انه الوحيد)، والتى تصور رأس ملك فوق جسد عار ، فيما عدا تمثال للملك بيبي الثاني وهو طفل . على ان تمثال الملك حور يصوره مكتمل الرجولة .

●●●

كان على النحات المصرى ان يخرج تمثالا ، تعطى صورة وجهه شبها تاما لصاحبها ، لان المصريين القدماء يعتقدون فى ان (كا = روح) الميت تتردد على القبر . وحتى تتعرف الروح على صاحبها ، لابد أن صورة الوجه فى التمثال تتشابه مع الاصل . فاذا ما فنى الجسم حل التمثال محل الجسد . من أجل ذلك، اتصف فن نحت التمثال المصرى القديم بالواقعية . الا ان هذه الواقعية تطورت في الدولة القديمة ، فقد تميزت مدرسة منف بالرصانة والنبل، وجعلت منها نمطا يكاد يكون مجردا مثل تمثال الكاتب الجالس القرفصاء بمتحف اللوفر (شكل ٧) وتمثال كاتب آخر جالس محفوظ بمتحف

القاهرة (شكل ٨) ، وتمثال الملك خفرع المشهور والمصنوع من حجر الديوريت ، والمحفوظ بمتحف القاهرة ، ويعد هذا التمثال الاخير من اجمل ما اخرجه فنانو الدولة القديمة من حيث جمال الصناعة واتقانها ومعرفتهم التامة بعضلات الجسم . واستطاع الفنان ان يحمى رقبة التمثال من الكسر (لان الرقبة تعد اضعف جزء فى التمثال) ، فنحت فى كتلة الديوريت من الخلف صقرا باسطا جناحيه ، وهو فوق حمايته لرقبة التمثال ، يرمز الى اله الدولة الرسمى ، الاله حورس . تمكن الفنان من اخفاء هذا الطائر خلف الرقبة بحيث لا يستطيع الناظر الى التمثال من الامام أن يراه . (انظر شكل ٩ يمثل صورا جانبية للنصف العلوى لتمثال خفرع) . وتمثالا رع حتب وزوجه نفرة (شكل ١٠ ، ١١) يعبر وجهاهما عن السمو والرقة ، وفى عينيهما حياة وسحر وعذوبة .

اما تماثيل الدولة الوسطى ، كما سبق ان أوضحنا ذلك منذ قليل ، فقد ظهر على وجوه اصحابها من الملوك مسحة من حزن وألم ، وانعكس ذلك على وجوه الناس فى ذلك الزمان . وفى الدولة الحديثة ، امتزجت الواقعية بمثالية رقيقة ، تتضمن نبلا وفتنة انيقة . بينما تميز فن العمارنة بالسمو فى الواقعية ، حتى اصبح تصويرا كاريكاتوريا (شكل ١٢) . على حين ان العصر الصاوى ، وهو الحلقة الاخيرة فى الفن الفرعونى الاصيل ، حينما كان يقوم الفنان بنحت رأس التمثال يحاول جادا ان يخضع سمات اصحابها لكثير من القواعد التى نلاحظها فى رؤوس كبار رجالات ذلك العصر ، وعلى الاخص الندوب فى الوجوه (شكل ١٣) يمثل رأسا لرجل عادى محفوظ بمتحف اللوفر ، اغلب الظن انه من العهد الصاوى .

واذا ما انتقلنا الى تماثيل الافراد ، نلاحظ ان الفنان تحرر فى اخراجها ، خصوصا التماثيل الخشبية الصغيرة ، وتماثيل نماذج القبور ، مثل تمثال (حاملة القرابين) الملون والمحفوظ بمتحف القاهرة (شكل ١٤) .

●●●

اما فى النقوش ، فقد ظهرت البيئة المصرية بموضوعاتها النباتية والحيوانية وظهر الناس داخل الدور وخارجها ، فى اوضاع متباينة ، تتناسب مع طبقتهم ورتبهم وحروفهم ، وتعددت الموضوعات ، واتسمت بالمرونة . وتمثل هذه النقوش ، اجمالا ، جميع مشاهد الحياة المعتادة للمصرى ، وعلى وجه الخصوص ، الحركات التى يؤديها من يخدمونه ، حين يقومون بتوفير مؤونته واشباع مطالبه فى الحياة الآخرة . ومن ثم نرى المصرى فى تلك المشاهد وهو يصيد فرس النهر او طيور الماء (شكل ١٥) او غيرها التى يسقطها بعصا الرماية (البومارنج) ، او هو يراقب خدمة المنهمكين فى صيد الاسماك او الحيوانات البرية بالشباك . ونراه بالمثل وهو يباشر تربية الحيوانات ، وزراعة الحقول ، وجنى الكروم ، وصناعة النبيد ، ويشرف على اعمال الحصاد ، او تشوين الغلال . ولم تغفل النقوش تصوير الحرف المختلفة التى يمارسها خدمه : كصناعة الخبز ، والجزارة ، واشغال الصياغة ، والنجارة ، وصناعة الاحذية . ونرى فى نقوش اخرى رجاله يبنون السفن ، ويصنعون السلال الخفيفة من نبات البردى ، او بحارته يبرزون فوق مراكبهم التى فرغوا من صنعها . واخيرا نرى عزف الموسيقى ، والرقص ، والحفلات ، والرياضة البدنية ، والالعاب .

واستطاع الفنان ان يجمع الموضوعات بعضها لبعض ويمزجها او يفصلها ، ويستحدث منها الكثير من الموضوعات غير المتوقعة الطريفة او الفكاهية ، واحيانا الهزلية . ومن الغريب ، ان هذه التفاصيل ، سوف تصبح عناصر تقليدية يسير على نهجها الفنانون . واستطاع

التصوير ، مثلما استطاع النقش ، التحرر من القواعد المعقدة لفن الرسم ، فمثلت الاجسام من الجانب دائما ، والاكتاف من الامام دائما ، والجذوع من ثلاثة الارباع دائما (شكل ١٦) واستطاع الفنان ان يقدم لنا صنوف الحيوانات من قطعان الماشية تتقدم في سيرها بهدوء ، او تتدافع فى عجلة ، وقد ظهرت تموجات فى جلودها . كذلك ، ظهرت الطيــور بأوضاع مختلفة فى مســتنقعات البردى ، وهى تطير مرفرفة باجنحتها . كما لم ينس الفنان تصوير الحيوانات البرية من نمــور وثيران وحشية وقطط ، وهى تسير سيرا هادئا ، او وهى تتاهب للوثوب على فريستها . كما صور جموع البط ، وهى تسير فى هدوء . كل ذلك ، يبدو وكانه شيء حى واقعى .

ومع ذلك ، فاننا اذا درسنا تلك المشاهد ، وحللناها تحليلا عميقا ، ظهر لنا بجلاء ان قتل فرس النهر ، وهو عمل كان الى عهد قريب من خصائص الملك الرسمية ، ليس الا قتل روح الشر التى قد تؤذى المتوفى . والامر كذلك فى مشاهد قبور طيور المستنقعات التى ترمز الى الشياطين . ويتيح صيد الماء اصطيــاد ســمك البلطى التى تسكنها روح الميت بعد بعثها . ونستطيع بالمثل ان نفسر بعض المشاهد الزراعية : كجنى الكتان ، بل ومكافأة العمال ، الامر الذى يدل على أن اجود قماش كتانى هو الذى سوف تحفظ فيه المومياء ابد الدهر . وكذا بذر الحبــوب ، والحصاد ، وصناعة الخبز . كل هذا يتيح توسعا زخرفيا فى تصوير القرابين ، الشيء الجوهرى لتأمين استمرار الحياة بالنسبة للميت بعد وفاته . وجدير بالذكر ، اننا لا نرى في نقوش المقابر من الدولة القديمة مناظر دينية اصيلة ، وانما نجد بالاحرى مناظر تتصل بالطقوس الجنائزية ، كادخال تمثال الميت فى المقبرة ، ومنظر حاملات القرابين التى ترمز الى ضيعات المتوفى واملاكه وحاصلاته الزراعية ، واخيرا رحلات الحــج الغامضة فى المراكب الى المدن المقدسة .

• • •

واستطاع الفنان أن ينحت مــن الحجارة والخشب والمعدن تماثيل للاشخاص والحيوانات والطيور والزواحف . وقد نبهتنا مجموعــة التماثيل النحاسية للملك بيبى الأول وولــده (انظر شكل ١٧ يمثل غالبا ابن بيبى الاول من النحاس) التى كشف عنها فى هيراكونبوليس الى التقدم فى صناعة التماثيل المعدنية ، كذلك تماثيل العجول المنحوتة من الحجر الجيرى التى كشف عنها فى معبد جد كارع ازيزى بصقارة ، والاجزاء البازلتية لتمثال الكبش وعليها اسم خوفو والمحفوظة بمتحف برلين ، وابو الهول الصغير وقد لون بلون أصفر ، والذى عثر عليه فى معبد جدف ــ ع بناحية ابو رواش . وتمثال بيبى الثانى (شكل ١٨) المصنوع من المرمر ، يمثل الملك وهو طفل ، وقد جرد من جميع ملابسه . كل ذلك يدل على وجود مجال واسع لمختلف اشكال التماثيل ، وكذلك استخدام مختلف المواد اكثر ممــا نتصوره . وراس الصقر الذهبى الذى كشف عنه في هيراكونبوليس يذكرنا بالتماثيل المصنوعة من المعادن النفيسة التى كانت توضع بدون شك فى مقاصير دور العبادة ، مثل تمثــال (حى) ابن الالهة حاتحور ، والذى يخبرنا بسرد بالرمو ان نفراير كارع أمر بعمله من اجل مقصورة خاصة بالملك سنفرو .

وحينما اراد الفنان ان يجعل الفن فى خدمة الحياة اليومية ، اثبت مهارة كبرى . ففــى الدولة الحديثة ، ولما اتسعت رقعة الارض المصرية ، فكر الناس فى التمتع بثمرات الجهاد الطويل . ومن تلك المتع ، أوعية الزينة ، فاخذ الفنان يتجه اتجاها جديدا يلائم العصر ، فمثل بعضا من الاسرى الآسيويين والجنوبيين ، كذلك الجوارى ، يحملون أوعية الزينة والتجميل (اشكال من ١٩ الى ٢٢) كما مثلت بعض الاوعيــة على شــكل حيوانات (شكل ٢٣) و (شكل ٢٤) يمثــل جاريــة تمشى على استحياء ، بين زهر البردى ، وهى تحمل قيثارة ، وعلى راسها زهرات من لوتس يخرج منها تجويف مغرفة الزينة ، والتحفة كلها

مصنوعة من الخشب . كما اتخذ الفنـان ، فى هذا الميدان اياد لمقارف الزينة على هيئـة فتيات سابحات تجردن من الثياب الا من بعض الاقمطة حول الخصروزين الجيد ببعض الزينة . و (شكل ٢٥) يمثل احدى السابحات المعروضة بمتحف القاهرة ، وهى من خشب . وتمثـل جارية ، طرحت على بطنها ، ومدت ذراعيها لتضع فوقهما تجـويف مغرفـة مساحيق التجميل على هيئة بطة تفتح فمها .(١)

● ● ●

استهدف الفنان المصرى من وراء فنه النفع وليس الجمال . واشاد الفنانون بجودة المواد التى كانوا يستخدمونها فى العمارة او النحت . ولم نجد فيها ذكرا لجمال القوام فى التماثيل . كما انهم استهدفوا من وراء ذلك تخليد العمارة او التماثيل ، او النقوش ، او الصور . من اجل ذلك ، اختاروا لها اجود مواد البناء . حتى فى الاشكال المعمارية ، اختاروا الاشكال التى تتميز بقاعدة اكثـر ثباتـا كالاهرامات والمصاطب والمعابد المستطيلة الشكل ، والجدران المائلة التى كانت لها قاعدة اوسع من الطبقات التى تعلوها (انظر كسوة هرم دهشور المنكسر للملك سنفرو) .

لم يستهدف الفنان الجمال فى نحت التمثال ، لان القاعدة فى نحت التمثال ، هو ان يكون شبيها بصاحبه حتى تتمكن (الكا) من التعرف عليه . وحتى يبقى التمثال اكبر مدة ممكنة ، ولا يتعرض للتلف ، فضلوا اختيار الحجارة على الخشب فى كثير من الاحيان .

واخيرا ، نلاحظ ان الفن المصرى سبـق الفن الاغريقى والغربى فى معرفة اهمية اتباع قواعد التشريح فى جسم الانسان ، وكذلـك اهتمامه بنقل الطبيعة . كذلك ، تميز الفن المصرى ، كما تميزت الفنون الآسيوية السابقة عن الفن الاغريقى بانطوائه على رموز تمثـل وحدة الوجود ، فنجده يمزج شكل الانسان بشكل الطائر او الحيوان فى هيئات بشعة مثل جلجامش فى الفن العراقى ، وحورس احيانا فى الفن المصرى القديم يمثل براس صـقر وجسم انسان . او الالهة سنحمة ، التى مثلت احيانا براس لبؤة وجسم انسان . وهو فى هذه الناحية ، يريد ان يبرز مفاهيم كهنوتية كان مضطرا لابرازها مخالفا فى ذلك الواقعية .

الفنان المصرى القديم :

سمى المثال منذ الدولة الوسطى (المحيِّ) (٢) ، وهذا يدل على المكانة التى كان يتمتع بهـا الفنان . ومجد المصريون الشخصيات الفنية ، فقد سجل اسم ايمحتب وزير الملك زوسر على قاعدة تمثال للملك زوسر محفوظ بمتحـف القاهـرة . كما اله المصريون ايمحتب لمهارته فى العمارة ، فقد أشرف على بناء الهرم المدرج وما حوله من ابنية . وكان ايمحتب طبيبا ممتازا وفيلسوفا واديبا . كذلـك ، اَلّـه أمنحتب بن حابو كبير مهندسى الملك امنحتب الثالث . وتمتع بعض الفنانين بثراء كبير ، فهذا مثال ومصور كبير ، قاما(٣) بتنفيذ قبر أمير من الامراء على نفقتيهما . وفنان آخر(٤) من الدولة الحديثة يتباهى باملاكه . كما شجع الملوك الفنانين . وقام الملك اخناتون على تعليم الفنان (بك) ، لان الملك كان نفسه فنانا .

---

(١) انظر « التجميل عند قدماء المصريين » عبد الحميد زايد . مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الثانى عشر ١٩٦٤ ــ ١٩٦٥ . من ص ٢٩ ــ ٣١ .

(٢) H. Schaefer, Von Aegyptischer Kunst. 3 Auffage. Lerpzig 1930.S. 20

(٣) W. S. Smith, A History of Egyptian and Painting in the Old Kingdom London 1946, P. 352.

(٤) K. Sethe, Unkunden der 18 Dynastie IV, 130 ff.

كان الفنانون من طبقات الشعب الممتازة ، فبعضهم من أسرة حاكم مدينة الكاب ، ومنهم من حمل لقب الامارة . ومن الاسر ، من كان يتوارث القاب الفنان الاصلى للاسرة . ومن الفنانين ، النحات ، والمصور ، والرسام ، والمهندس . وكذلك اختلفت درجاتهم ، فمنهم من كان يحمل (رئيس النحاتين) . كل ذلك ، لان المصريين كانوا يقدسون الفن ويقدرون الفنانين . ولا ادل على ذلك ، من ان الملك تحتمس الثالث قام بنفسه برسم اشكال بعض الاوانى وسلمها الى رئيس صناعة الاوانى ليعمل على نمطها اوانيا اخرى .

بقيت نقطة هامة ، وهى ان أغلب الاعمال الفنية بمصر القديمة لم تمهر بأيدى أصحابها مثلما فعل الأغارقة او الرومان ، او ما يفعله فنانو أوروبا وغيرها من اقطار العالم الحديث حاليا . فهل يا ترى كان الفن جماعيا ؟ ، أو انهم كانوا يعتقدون ان مجرد ذكر اسم الفنان فى المقبرة التى قام بتنفيذ اعمالها ، ربما يعطيه هذا الحق فى الانتفاع بالقرابين التى تقدم للميت نفسه لاعتقادهم ان الصورة تولد الحقيقة ؟ كما ان من أسباب بقاء الفنان المصرى مجهول الاسم ، هو ان المصريين كانوا يعتبرون ان الفنان عامل بسيط ، مثله مثل غيره من العمال . ولم يخلد اسماء الفنانين مثلما ذكرت اسماء الملوك وكبار رجال الدولة . وليس سوى القليل ، مثل (حوى) المصور و (تحتمس) و (يويوتى Jououti) فى عصر العمارنة .

ربما أن مجهول الاسم هذا كان يشعر بضعفه ، أو أن هذا يدل على نكران الذات . وحتى يصبح حكمنا على هذا الموضوع واقعيا ، لابد ان نقوم بدراسة كل عمل على حدة ، والظروف التى صاحبت العمل . فهذا (ايرتيسن Iritisen) من الاسرة الحادية عشرة يحدثنا عن مقدرته فى تمثيل الانسان فى عدة أوضاع . (٥) وعلى اية حال ، اننى اعتقد أن السبب الرئيسى فى عدم ذكر اسم الفنان ، هو أن العمل الفنى فى مصر كان عملا جماعيا .

تلقى الفنان المصرى تعليمه فى المدارس والمصانع التى تلحق بدور العبادة ، والتى كانت تحتفظ بنماذج تتمثل فيها أسماء الملوك والآلهة والبلاد (كل ذلك على لوحين من الخشب منذ الدولة القديمة) ، عثر عليهما ريزنر Reisner فى الجيزة ، وصور مختلفة من طيور الماء مثل البط والاوز . وهذه كانت تمثل الحلقات الأولى فى علم الرسم والتصوير . وأحيانا نجد الدروس مصممة بأيدى المدرسين بالمداد الاحمر . وبعض هذه الرسوم تقليد لاعمال فنية قديمة . واتضح من هذه الرسوم ، قيام الرسامين الكبار بتدريب الطلبة على كتابة العلامات الهيروغليفية ، والقيام بأعمال أخرى كنحت بعض عناصر معمارية . ومن هؤلاء ، من كان له خبرة فى الصباغة ونحت العاج والآبنوس .

واتضح أن الفنان كان يستعين بخطوط ونقط او مربعات لتحديد نسب الاشكال ، وهذا يدل على دقة الفنان فى اخراجه الموضوعات التى تطلب منه . على أن الفنان ، كا ن يتحرر احيانا من هذه النقط أو الخطوط معتمدا فى ذلك على مواهبه وتقديراته الفنية .

واستخدم الفنان ادوات فى غاية البساطة مع صلابة الاحجار التى كانت تصنع منها التماثيل مثل الديوريت والجرانيت والكوارتزيت فلم يستخدم الحديد او الصلب أو الصلب **او حتى النحاس خصوصا فى اوائل الدولة القديمة . وكانت ادواته عبارة عن مدق** من الحجر ، المصنع . واستخدم احيانا المنشار

(٥) Marcelle Baud, Le Mitier d'Iritisen. Chronique d'Egypte, 1938 P. 21 ff

النحاسي أو البرونزى أو الحديدى فى العصور المتأخرة ، مع استخدام مساحيق من رمــــل وخلافه يستعين بهاعلى كشط الاجزاء الزائدة. كما استخدم المثقاب الانبوبى من النحاس . أما عملية الصقل ، فتتم بواسطة مصاقل من حجر أشد صلابة من الحجر المصـــنع (ســوف نتعرض لكيفية تنفيذ العملية بعد قليل) . أما التماثيل المصنوعة من حجارة رخوة ، فقــد استخدم منحتا من نحاس ومدق خشبى ، واستخدم القشرفى صناعة التماثيل الخشبية.

وفى التصوير ، استخدم الرسام والمصـــور اقلاما من الاسل . أما الفراجين، فكانت تصنع من الياف الحشائش ، أو من جريد النخيل بعد أن تدق أطرافه . واستخدم الخيوط بعد غمسها فى اللون الاحمر ، وذلك ليخط بهـــا المربعات لتحديد الصور .

واتخذ الالوان من المعادن والصخور بعد أن يقوم بتحويلها الى مساحيق ، ويخلطها بنوع من الصمغ أو زلال البيض .

●●●

المراحل التى اتبعها الفنان فى صناعة التمثال

سوف أحاول فى هذه النظرة السريعة أن اعرض صورا من النحت المصرى القديم لا عسر فيه ولا جمود . ولن أستطيع فى ذلك العرض الخاطف أن استوعب جميع التماثيل التــى تذخر بها دور التحف العالمية ، وانما ساكتفى بنماذج من ذلك النحت الراقى فى مصر الفرعونية.

وقبل أن أعرض للجوهر فى هذا الموضوع ، ارى من الخير الاشارة الى الطريقة التى كان يتبعها الفنان المصرى فى اخراجه التماثيل من مختلف المواد بالاوضاع المتباينة .

يختلف فن النحت أولا من حيث المــادة ، وثانيا من حيث الموضوع . اما من حيث المادة التى كان يصنع منها التمثال ، فغالبا ما تكون من مختلف أنواع الحجارة او الخشـــب او المعدن . وقد جاء على كثير من صفحات القبور المصرية الخطوات التى اتبعها الفنان المصرى فى صناعة التماثيل . كما كشف فى كل من جبانة منف بمنطقة الجيزة الاثرية ، وفى تل العمانــة بمحافظة المنيا عن تماثيل ، استطعنا أن نعرف منها القواعد التى كان يتبعها الفنان فى صناعة التماثيل الحجرية ، اذ عثر على تماثيل بداها الفنان ثم تركها لسبب غير معروف (انظر شكل ٢٦) وهو عبارة عن رأس ارتفاعها ٣٣ سنتيمترا . ويمكننا ملاحظة الخطوط باللون الاسود التى وصفها الفنان ليهتـــدى بها فى نحت تفاصيل الرأس . وواضح أن التاج كان يشكل جزءا منفصلا عن الرأس . وفصلت العينان عن الحاجبين ، وأخذتا شكل لوزتين. وشحمات الانف واضحة ، واستطاع الفنان أن يظهر فتحة الفم بصفاء ونحت الذقن بدقة . والرقبة رقيقة وطويلة ومائلة الى الامام قليلا، وهذه هى من سمات فن العمارنة ، والرأس حاليا معروض بمتحف القاهرة وواضـــح أن الفنان تركها دون أن يتمها ويضــــع عليها اللمسات الأخيرة) .

اذا ما أراد الفنان نحت تمثال ، كان يعمل واقفا أو جالساً على مقعد ، أو جاثيا علــى ركبتيه ، واختلفت جلسته باختلاف التمثال الذى يقوم بعمله . فعلى جدران احد حوائط قبر الشريف(ابى) من الدولة القديمة والموجود حاليا بناحيةدير الجبراوى مركز ابنوب محافظة اسيوط . يرى المثالون في أوضاع مختلفـــــة (شكل ٢٧) ، فقد وضع أحدهم قدمه على المقعد ، بينما يشاهد الآخر وهو يعمل واقفا ، وثالث يجلس على الارض . اما عن المادة التى كانت تصنع منها هذه التماثيل الموضحة فى هذا الشكل ، فغالبا ما تكون من الخشـــب ، لأن الادوات التى استخدمها الفنانون ، أدوات خاصة بعمليات التنجير من قواديم أو مقاشر أو مدقات او مطارق . وجاء فى بعض النصوص التى صاحبت أعمال هؤلاء الفنانين غالبا ذكر للاجور التى كان يتقاضاها الجالس بجــوار احد مثالى قبر الشريف (ابى) . الســـابق

الاشارة اليه ، ويشاهد هذا الصبى ماسكا باوزة ، وكتب فوقها بالهيروغيليفية ما معناه (هذه الأوزة سمينة جدا) . فمن الجائز ، انها كانت ضمن أجر احد المثالين، اذ ان الاجور فى هذه العصور كانت بالتبادل . او ربما كانت طعاما يهيأ للمثالين .

اما عن مناظر صناعة التمثال فى الدولة الوسطى ، فلم نعثر حتى اليوم على مناظر تبين كيفية صناعة التماثيل فى هذه الفترة ، فيما عدا بعض المناظر الموجودة على جدران مقابر بنى حسن من هذا العهد ، والتى تبين فقط الفنانين وهم يقومون فقط بتلوين التماثيل .

وحينما انقشعت الغمامة التى مرت على مصر من جراء استعمار الهكسوس انتعشت الفنون مرة أخرى أيام الدولة الحديثة . وأهم تلك المناظر ما وجد مصورا على قبر وزير تحتمس (رخمى رع) ، وفيها نرى مصنعا كاملا خاصا بتماثيل الملك نفسه (شكل ٢٨) . فمثل على أحد حوائط القبر تمثالان كبيران من الجرانيت ، يمثلان الملك تحتمس الثالث ، ويظهر الملك فى أحد التمثالين جالسا ، بينما فى الآخر واقفا . والتمثالان من الحجم الكبير ، بدليل أن المثالين كانوا يعملون على ما يسمى فى لهجة المعماريين (سقالات) ، فقام المشرفون على العمل بتنصيب كتل خشبية ليعمل فوقها المثالون . ولوحظ أن احد المثالين يقوم بتركيب الصل على جبهة التمثال الجالس، بينما أخذ زميله فى صقل لباس الراس المسمى (نمس)، ووقف الثالث ، من أسفل يهيىء القاعدة . ويبلغ المثالون الذين يقومون بصناعة التمثال خمسة اشخاص ، جلس احدهم على (سقالة) يصقل التاج الابيض ، بينما يقوم آخر بتلوين النقوش الهيروغليفية الموجودة على ظهر التمثال، ووقفت الثالث على (السقالة) السفلى يهيىء صدر التمثال ، بينما أخذ أحد العاملين اللذين وقفا على الارض فى صقل التمثال ، والثانى يقوم بحفر النقوش . ويتوسط المنظر تمثال كبير لأبى الهول ، ومائدة قربان كبيرة . وهنا نرى أحد الرجال وقد جثا بركبته اليسرى على قدمى ابى الهول، يثبت الصل على جبهته، بينما وقف آخر منحنيا يصقل لباس الرأس (نمس) ، ووقف الثالث منحنيا متكئا بركبته اليسرى وممسكا بفرجون فى يده اليمنى وباليسرى اناء ، وغالبا ما كان يقوم بتلوين التمثال أو ترميم جزء ضعيف فى الحجر بجص مجهز وضع فى الاناء . واذا صح ذلك ، فلم يكن ذلك الذى بيده فرجون وانما اداة اخرى . اما الصناع الذين يقومون بعمل مائدة القربان ، فثلاثة بأيديهم أدوات من الحجر كبيرة لصقل المائدة تحت اشراف مشرف ، وظهر الصاقل الايسر بهيئة نادرة وطريفة ، منحنيا الى أسفل .

واما عن مخلفات المصريين القدماء من نحت يبين الخطوات التى كانت تتخذ فى صناعة التماثيل ، فقد عثر فى الحفائر التى أجرتها البعثة الامريكية تحت اشراف ريزنر Reisner بالمعبد الجنازى الملحق بهرم الملك منكاورع بالجيزة على مصنع للنحت مملوء بتماثيل لم يتم صنع بعضها . اذ وجد ان بينها ما كان فى الحلقة الاولى ، وبعضها تقدمت صناعته ، والبعض قرب من الانتهاء . واستطاع ريزنر ان يعرف الخطوات التى كانت تتبع فى صناعة التمثال ، ووجد لها نماذج حية ، فنظمها تنظيما فنيا حتى وصل بها الى الحلقة الاخيرة ، ووافق على رايه جمهرة من العلماء والفنانين . وانتظمت دراسته فى ثماني خطوات (شكل ٢٩) .

١ ـ يقوم المثال بنحت قطعة من الحجر، يجدد فيها الهيئة التى يرغبها للتمثال، ويخط بقلمه على الكتلة الحجرية بالمداد الخطوط الرئيسية للتمثال . وجدير بالذكر ، انه عثر على تمثال لمنكاورع وعليه بقايا خطوط حمراء .

٢ ـ قام المثال بنحت الخطوط الرئيسية لرأس التمثال وما حول الذراع الايمن والمقعد

٣ ــ يظهر تقدم ملحوظ فى الاعضاء السابق البدء فى عملها فى الخطوة السابقة .

٤ ــ تقدم فى هذه الخطوة ، اذ لوحظ نحت الساقين .

٥ ــ يظهر فى هذه المرحلة تقدم في نحت بعض التفاصيل .

٦ ــ تتم هذه التفاصيل فى تلك الخطوة .

٧ ــ لم يبق هنا غير صقل التمثال وحفر النصوص .

٨ ــ تحفر النقوش على التمثال (٦) .

وبذلك يستطيع عشاق الفنون القيام بدراسة خطوات الفنان المصرى القديم فى تماثيل الملك منكاورع ، والاسلوب العلمى الذى كان يتبعه فى نحت التماثيل . وفى يقينى ، ان هذه التماثيل التي وجدت لمنكاورع ولم يتم صنعها كانت بمثابة نماذج يهتدى بها المبتدئون من المثالين . وهذا يؤيد ماذهبنا اليه ، من أنه كانت توجد مدارس ملحقة بالمعابد يشرف عليها كبار الفنانين ، وزودت تلك المدارس بنماذج حية من الاعمال الفنية لتكون تحت بصر طلاب الفن .

وبمتحف برلين تمثال للملك اخناتون جاثيا يقدم قربانا ، وعلى صفحة الحجر الخطوط التي تحدد أعضاء جسمه . وعثر ايضا على رؤوس واجزاء من تماثيل بمنطقة تل العمارنة من عهد اخناتون ايضا تبين الخطوط التى كان يحددها الفنان ، وكذلك عثر على بعض تماثيل لاخناتون لم يتم صنعها بعد .

وبعد أن ينتهي الفنان من نحت التمثال ، يقوم بصقله صقلا جيدا . ومن الجائز أن المشرف العام كان يلقى نظرة على هذه العملية لأنها هى التى سيتم بها عرض التمثال .

وبقبر الفنان (حوى) بتل العمارنة منظر (شكل ٣٠) ظهر الفنانون جالسين على مقاعد بسيطة داخل مصنع أو ماتسميه الآن (استديو) . ومن الصورة ، يتضح ان السقف رفع على عمودين لهما هيئة سيقان البردى . وظهر رئيس المصنع فى صورة أكبر من بقية العمال الآخرين . كما يظهر رئيس المصنع وهو يعمل فى تلوين تمثال صغير للاميرة (باكةآتون) ابنة اخناتون . والى اليسار ، احد العمال ، يقوم بوضع اللمسات الاخيرة لرأس ممسكا اياها من الرقبة ، بينما يقوم عامل آخر بتهذيب أحد اجزاء مقعد ، لعلها رجل المقعد ، وذلك بواسطة مايسمى بلغة النجارين (قادوم) .

اما عن التماثيل الحجرية التي كانت تصنع من اكثر من قطعة ، فلدينا بمتحف القاهرة تمثال كامل صنع من المرمر (شكل ٣١) للملك سيتى الاول بالحجم الطبيعى تقريبا ، عثر عليه بمعبد الكرنك ، وجدير بالذكر ، ان المثال لم يكن قد انتهى بعد من نحت هذا التمثال . وهو يتكون من ست قطع (الساقان ــ الذراعان ــ الجذع ــ الرأس) . وقد عرف عهد اخناتون، واتبع فى تنفيذه الاساليب التي كانت تتخذ في صناعة التماثيل الخشبية منذ عهد الدولة القديمة (مثل تمثال شيخ البلد بمتحف القاهرة) . ولم تعرف هذه الطريقة على نطاق واسع فى صناعة التماثيل الحجرية ، الا فى عهد الملك اختاتون . ومن الراجح ، انها عرفت ايضا فى عهد تحتمس الثالث أو الرابع ، اذ عثر على قناع يمثل ملكا . وفى الواقع ، ان نحت هذا القناع ، وتفاصيل ملامح الوجه ، شبيه بوجه تمثال سيتى الاول الذى عثر عليه فى الكرنك سابق الذكر . ولولا فقدان تطعيم العينين والحاجبين من تمثال سيتى الاول لظهر ملامح التمثال اكثر وضوحا . اما عن

(٦) الصورة رقم ٩ باللغة الاجنبية فى هذه اللوحة تبين نفس التمثال من الجانب .

القطع الفنية التى عثر عليها من عهد اخناتون ، فاهمها تلك الرؤوس الحجرية لبعض التماثيل من عهده لها رقبة كانت دون شك تركب فى التمثال، وكذلك لها تاج، يوضع فوق الرأس، مثل راس الملكة نفرتيتى المحفوظ بمتحف القاهرة (شكل ٢٦) . ويمكننا ملاحظة الخطوط التي وضعا الفنان ليهتدى بها فى نحت الرأس ، وواضح ان التاج كان يشكل جزءا منفصلا عن الرأس ، وأما عن تفاصيل الوجه فواضحة تماما ، فقد اخرج الفنان العينين على هيئة لونتين . والانف رقيق ، وفتحة الفم صافية ، والذقن نحت بدقة واعية ، والرقبة رقيقة وطويلة ومائلة الى الامام قليلا ، وهذه من سمات فن العمارنة .

اما عن استخدام المعادن في صناعة التماثيل فقد عرف المصريون صناعة التماثيل من هذا النوع منذ الدولة القديمة، واهم مثل على ذلك تمثالا بيبى الأول وولده بمتحف القاهرة ، وتمت صناعتهما بطريق الطرق على المعدن . و (شكل ١٧) يمثل التمثال النحاسى الصغير الموجود بجوار التمثال الكبير لبيبى بمتحف القاهرة ، والذى يرجح العلماء انه لولده .

● ● ●

عرض سريع عن نماذج من نحت التماثيل عبر التاريخ

لم تستطع النهضة الكبرى التى شملت الفنون أيام بناة الأهرام ان تمثل الناس فى غير التمثيل الدينى المألوف سواء الجالس منهم او الواقف ، ما كان منها خاصا بالملوك او كبار رجال الدولة . ومثل الكاتب بهيئته المعروفة عند المصريين ، جالسا القرفصاء ، باسطا قرطاسا من البردى على فخذيه منتظرا ما يمليه عليه سيده . واستطاع الفنان ان يلقى على هذه التماثيل الأبهة والجمال ، فظهر فيها حدة التقاطيع ، ويقظة الملامح ، ورقة الافواه ، اذ تعلوها ابتسامة لطيفة تنم عن عمق فى التفكير

(شكل ٨) يمثل احد الكتبة بمتحف القاهرة ويمكننا ان نضيف الى هذه المجموعة راسا ضخما للملك اوسركاف مؤسس الأسرة الخامسة، ارتفاعه ٧٥ سنتيمترا من الجرانيت الوردى ، محفوظا حاليا بمتحف القاهرة ، ويظهر وجنة صاحب التمثال مملوءة ، والانف كبيرا ، والفم واسعا ، ونحت المثال الذقن بدقة واعية . وان غياب اللحية المستعارة فى التمثال جعلت الوجه معبرا تعبيرا صادقا . ويعد هذا الرأس فى مجموعة عمل فنى ممتاز فى حجر شديد الصلابة مثل الجرانيت .

كان فرعون مصر فى الأيام الأولى من الدولة القديمة مؤلها . وحينما انطلقت الحريات فى اعقاب الاسرة الخامسة ، لم يحاول الفنان مرة واحدة التخلص من تقاليد الماضي ، وانما اخذ يرجع اليها ويقتبس منها ، ويحاول ان يتجه بفنه اتجاها لا اقول جديدا في موضوعه وانما فى اسلوبه .

وحينما رفع النقاب عما استتر فى حياه الناس ، تأكدوا ان فرعون ماهو الا بشر كسائر خلق الله ، يمرض ويحيا ويموت ، وانه نزل من السماء الى الارض ليشارك الناس نعيم الدنيا ، ويعمل كما يعملون . كذلك ، تأكدوا ان فى الناس قوة لا يستهان بها ، وان سلطان الملوك يقوض أمام قوة الشعب . وملأ هذا الشعور نفوس الناس ، وامتد الى جميع أنحاء البلاد ، فاندك صرح الملكية ، ووقعت البلاد فى فوضى . ويأفل نجم الفنون فى أعقاب الدولة القديمة فترة من الزمن. ومع ذلك كله، ومهما عصفت بالبلاد المحن والشدائد ، فقد اتصف شعب مصر بالصبر والثبات والكفاح ، من أجل ذلك ، خرج من المحنة بعافية . ولم يتخلف عن ركب الحضارة ، واستمر الناس فى تمثيل ملوكهم على الصورة القديمة أيام الدولة الوسطى ، فهذه الابتسامة الطيبة على وجوه تماثيل سنوسرة الاول ، ومن قبل ، صورت الآلام الحادة، والهموم التى ملأت نفوس المناتحة

(عائلة منتوحتب) على وجوه تماثيلهم ، وفى قسمات وجوههم ، وظهرت عليها ارادتهم القوية البناءة . وصورت اغلب تماثيل الملوك من فراعنة الدولة الوسطى عليها تلك القوة البشرية الجبارة المهيبة ، والخشونة الصارمة (شكل ٣٣ يمثل جزءا من وجوه سنوسرة الثالث محفوظ بمتحف اللوفر) وهذا التمثيل لم يكن مألوفا في الدولة القديمة. اما فى تماثيل الافراد ، فقد ظهر لون جديد لم يكن معروفا ايام الدولة القديمة ، وهى التماثيل الجالسة المؤتزرة واستمر استخدامها حتى الدولة الحديثة وما بعدها ، وهو منظر مألوف عند المصريين ، بل عند أهل الشرق الادنى جميعا ، وليس مألوفا عند الأوروبيين (شكل ٣٤ يمثل احد هذه التماثيل من الدولة الحديثة المحفوظة بمتحف فلادلفيا بامريكا) .

ثم تصاب البلاد بنكسة مرة أخرى ، فيضع الهكسوس أيديهم على كل شيء ، ويستعمرون البلاد ، ويعيش الناس فى مصر قرنا ونصف القرن تقريبا تحت كابوس الاستعمار، وتتخلف دنيا المصريين القدماء فترة من الزمن . ثم تأتى الثورة الحمراء ، وينتصر الشعب المصرى على الهكسوس . وتنهض البلاد نهضة لم نر مثيلا لها فى الشرق كله ، نهضة سياسية وحربية واجتماعية وفنية . وكان لتلك النهضة أثرها فى تغيير مجرى حياة الناس ، ويتطور التفكير السياسي والاقتصادى والحربي والفنى ، خصوصا بعدما خرجوا الى الشرق ، والى جزر البحر المتوسط ، وحاكوا بعض ما رأوا من فنون هذه الأمم ، فاقتبسوا مافيها من زخرف يتناسب مع الموضوعات المصرية القديمة . واستطاع الفنان ان يسجل مظاهر الترف واليسار ، كما تفنن فى تمثيل تصفيف الشعر وعقصه . واقترب النحت فى هذه الفترة من غايات الجمال والاتقان . وكان وجه التمثال معبرا بصدق عن طباع صاحبه ومزاجه، اذ نلاحظ فى تماثيل الدولة الحديثة ملامح التأمل العميق، وفى بعضها جمال الشيخوخة، ووقار السن المتقدمة ، كما تبين في عيونها الهدوء الواضح . وفى الواقع ، يعد النحت فى هذه الفترة مرآة صافية نستطيع ان نرى فيها حياة الناس ومايدور فيها .

والى القارى طرفا مما راجعته فى كتاب مدام ديروسن نوبكلور (٧) Desroches Noblecourt يجمع فن نحت التماثيل فى عصر الدولة الحديثة بين الاتجاهين اللذين سيطرا على هذا الفن بالتوالى فى العصور السابقة : واقعية مدرسة منف ، ومثالية عصر الامبراطورية الطيبية الأولى . وقد زاد على هذين المذهبين الأساسيين ، عناصر اخرى نبعت من واقع حدثين هامين : اولهما الفتوح فى آسيا ، ومن شأنها ان تخلق فى مصر ترفا لم يكن لها عهد به، من ذلك زخارف جديدة والوان أشد نضرة وزهوا ، ومفاهيم فنية حديثة يانعة . اما الحدث الثانى ، فيتمثل في ثورة اخناتون التى فرضها هو نفسه ، والتى لم تلبث ان تسببت فى قيام ثورة فكرية من شأنها ان تنمى فى العقلية المصرية مشاعر أكثر عمقا وذاتية من ذى قبل، تنزع الى الظهور .

ومن ثم يكتسب فن نحت التماثيل ، فوق ما كان يتصف به قبلا من قوة وصلابة اناقة وجاذبية ، ومرونة فى الخطوط ، واحساسا بجمال القوالب التشكيلية لم يخبره احد من قبل . واخيرا الاهتمام بتصوير الحقيقة ، ومن ثم يغدو فن نحت التماثيل فى عصر الدولة الحديثة اشد تعبيرا منه فى أى عصر مضى ، بل وازخر بالحياة ، واكثر تحررا ، بقدر ما

---

(٧) Christiane Desroches Hoblecourt, L'Art Egyptian, Paris 1962

وترجمه الى العربية : احمد رضا ومحمود النحاس ،وراجعه عبد الحميد زايد تحت عنوان (الفن المصرى القديم) القاهرة ١٩٦٦ . من ص ١٦١ - ١٧١ .

تسمح به صفته الرسمية وسلطة الكهانة والتقاليد التى تفرضها مقتضيات الطقوس الدينية . ولا يلبث ان يصيبه فى الواقع ما اصاب فن الافراد من تعديلات . وكان لا بد لفن نحت التماثيل من أن يهتم بكل تلك الثياب الجديدة التى حلت محل القديمة ، والاردية ذات الثنيات الطويلة البديعة ، والعقود العريضة والجواهر ، واغطية الراس الكبيرة. وفى الوقت الذى تستخدم فيه العمارة كتلا اشد واقوى ، نرى في مقابل ذلك الاجسام وهى تستطيل ، والاوضاع والاشارات تزداد ليونة ومرونة ، والايدى والاقدام وهى تنال قدراً من العناية اوفر من ذى قبل . حقا ان الانسان لن يلمس فى هذا العصر تلك القوة او الشدة اللتين انطبعت بهما صور الملوك فى عصر الدولة الوسطى . بيد ان فن نحت التماثيل سوف يكتسب من الحلاوة والسحر ما قد يفقده من القوة ، حتى تؤدى المبالغة فى هذه الصفات فى غضون الاسرة التاسعة عشرة الى التكلف ، فى حين تعود العمارة فتصبح قوية لدرجة الثقل .

وتدل أولى الاعمال الممتازة فى اواخر الاسرة السابعة عشرة على ان تقاليد عصر الدولة الوسطى ، والاتقان الفنى الذى بلغ حد الكمال فى المصانع الطيبية القديمة كل ذلك لم تختف معالمه في العاصفة الهوجاء . فالتمثال الصغير للملكة احمس نفرتارى زوجة محرر البلاد الثالث احمس الاول ، يعرض بسمات من الهدوء والجلال البسيط ، وتعبيرا تشريحيا قويا يبشر كثيرا بتقدم لم يلبث ان تحقق فى وقت قصير . وسرعان ما ظهرت الروائع الفنية . يشهد بذلك عمل رائع لا يبارى ، ذلك هو التمثال البديع للملكة حتشبسوت ، الذى وجد فى معبدها الجنازى فى الدير البحري ، ويمثلها مشتملة بزي فرعون وغطاء راسه (والتمثال حاليا محفوظ بمتحف متروبوليتان بنيويورك) ويبدو الجسم فى مظهر رجولة ، وعلى شيء من الصلابة ، ولكنه مع ذلك مفعم بالجمال والاناقة . اما الراس فانها تمثل نصرا للحقيقة السيكولوجية التى روعيت الى اقصى حد مستطاع . وتدل قسمات الوجه الذى يشبه قليلا وجه القطة بنظراتها المستقيمة الحادة ، على كل الدقة والدهاء الخليقتين بالانثى ، وقد اقترنا بارادة لا تقهر. (انظر شكل ٣٥ يمثل راسا للملكة وقد وضعت لحية مستعارة للتشبه بالرجال ومحفوظ بمتحف المتروبوليتان ولها نفس الملامح الموجودة فى التمثال المحفوظ بنفس المتحف) وانا لنجد نفس الصفات التعبيرية فى تمثال تحتمس الثالث (شكل ٣٦) المحفوظ بمتحف القاهرة.

ولم نزل ، مع مجموعة التماثيل الضخمة التى تصور امنوفيس الثالث وزوجه تى فى نطاق مجموعة التماثيل التقليدية التى سوف ينالها ، اعتبارا من هذا العصر ، تغيير هام عميق (هذه المجموعة محفوظة بمتحف القاهرة) . وعلى اية حال ، يبدأ في عهد امنوفيس الثالث على الاخص ، الازدهار الفنى العظيم لعصر الدولة الحديثة . وفى المتحف البريطانى تمثال بديع لوجه هذا الملك ، قوى التشكيل ، ومنحوت كله فى قطاعات متداخلة بمهارة فائقة . وانا لنلمس فى هذا التمثال امنوفيس الثالث : من ذلك العيون المشقوقة الصفات المميزة لتماثيل العظماء فى عهد على هيئة اللوز ، والتى تميل زاويتها الداخلية وترتفع من ناحية الصدغين ، والفم الذى ترتسم عليه بسمة غامضة شاردة . ونجد نفس الصفات التعبيرية فى رأس للملك نفسه محفوظ بمتحف اللوفر (شكل ٣٧) .

وقامت حركة اخناتون والنزعات الفنية الحديثة التى اراد امنوفيس الرابع اخناتون ان يفرضها ، فتركت آثارها على الاخص فى فن نحت التماثيل الرسمية والدينية . ولم تكن محاولة التخلص من القواعد الفنية الطيبية القديمة لتجرى دون ان تقابلها بعض الصعوبات بسبب قلة الفنانين القادرين على خلق قواعد

جديدة . ولجأ اخناتون الى الفنانين الاهليين المتخصصين حتى ذلك العهد في الفنون الصغرى ، والذين كانوا يتمتعون بقدر من حرية العمل والمرونة اوفر من ذى قبل . ولقد اتبع هؤلاء الفنانون اسلوبا واقعيا جديدا ، تتمثل اوضح انماطه فى تماثيل امنوفيس الرابع الضخمة التى وجدت فى الكرنك (شكل ١٢) . فاستهدفوا المبالغة في ابراز الصفات التشريحية المميزة للملك ، حتى لقد صوروا بروز فكيه ، وجمجمته المصابة باستسقاء دماغى ، وبطنه المنتفخة ، واطرافه الهزيلة ، وانما في اسلوب نبيل المظهر الى حد ما . وتبدو قسمات الوجه خاصة جلية معبرة . فالفم الملتوى والعينان اللوزيتان المرققتان بنظرة داخلية ، نظرة الرجل الملهم الحالم ، المتاهب لعمل كل شىء فى سبيل نجاح مثله الاعلى ، وعظام الوجه التى تعكس العذاب والالم . وكان كل ما يبدو فى قسمات وجه الملك يمثل ايمانا يحطم كل ارادة معادية ، ان لم يكن هذا الايمان متسما بموت عاجل (شكل ٣٨) . (تفاصيل من شكل ١٢) .

وفى الواقع ، منيت هذه المحاولة التى استهدفت اقرار مذهب جديد بالفشل ، وبالتالى لم يقدر لفن العمارنة الدوام الا لما كان يتسم به من الجمال والحياة العذبة والالفة . وتجلت هذه الصفات حتى في التماثيل الملكية ، الشىء الذى لم يكن متوقعا . ونشاهد الملك لاول مرة ، ولاسباب عقيدية فى الظاهر ، وهو ممسك بالملكة فوق ركبتيه ، يضمها فى رفق او يمسك بيدها ، كما يبدو فى المجموعة الصغيرة من الحجر الجيرى المحفوظة بمتحف اللوفر . (شكل ٣٩) هذه المجموعة الساحرة التى يتجلى فيها الترف والاناقة ، الامران اللذان يميزان الازياء الجديدة ، تثبت لنا كيف ان مذهب العمارنة الاول قد خفت وطأته ورقت شدته ، وتتضح العودة الى الاسلوب الواقعى العذب الذى احس الفنانون الاهليون فى طيبة بنزعة طبيعية نحوه ، من واقع عملين مدهشين : الاول منهما تمثال نصفى للملك محفوظ فى اللوفر ، وعلى الرغم من التشابه الذى لا سبيل الى انكاره ، فان آثار الانحلال البدنى الذى اصاب الملك تبدو مخففة لدرجة عجيبة ، ويبدو الوجه مطبوعا بلمحة من الحزن والرقة المتألمة . اما الثانى ، فهو احد التماثيل النصفية للملكة ، وقد وجد فى مصنع النحات تحتمس ، ويصور على ما يبدو الملكة نفرتيتى زوج امنوفيس الرابع. وان ما يتجلى فى التمثال من رقة الوجه ، وبساطة وسلامة التشكيل ، وذلك التعبير الذكى ، وتلك النظرة اللطيفة ، والانف الرقيق الدقيق ، كل ذلك يتعاون في جعل التمثال عملا فنيا ربما يبدو احدث عهدا من التمثال النصفى المشهور لنفرتيتى المنحوت من الحجر الجيرى الملون ، والمحفوظ كذلك فى متحف برلين . ولا ريب ان التى نراها فى متحف برلين هى الملكة الوالدة (تى) الاكبر سنا ، وقد شاخت قسمات وجهها ، وزادت جمودا ، من اثر المحن التى قاستها ، وربما ايضا بسبب الحسرة التى استشعرتها نتيجة لفشل الثورة الدينية . اما تمثال الاميرة الصغيرة المحفوظ فى متحف اللوفر ، فانه على العكس من ذلك انموذج حلو للجمال المتمرد ، الوحشى بعض الشىء ، وللفتنة الحزينة ، هذا التمثال يصور ولا ريب آخر بنات (تى) المولودة فى العمارنة. وقد اختفت المبالغات فى رسم اعضاء الجسم اختفاء يكاد يكون تاما فى تمثال الملك سمنخ كارع الموجود بمتحف اللوفر . واذا كانت هذه المبالغات ظهرت ثانية بشكل اوضح فى تمثال الرأس الخشبى البديع المحفوظ بمتحف اللوتر ، فلم يعد لها ذلك المظهر الكاريكاتورى . كل هذه التماثيل انما تمثل الفن العمارنى ابرز تمثيل ، ذلك الفن الدينى الذى بنى قبل كل شىء على مبدأ التأمل الباطنى المعبر ، الذى يميل مع ذلك نحو الجانب العاطفى والمعنوى من الاشياء اكثر مما يميل نحو الحقيقة المادية الخالصة . والواقع ان الفنانين الاهليين الذين التجأ اليهم الملك درسوا بدقة الطبيعة ، الشىء الذى تؤكده سلسلة الاعمال الدراسية ، والاقنعة

المصنوعة من الجص ، والقوالب التى وجدت في العمارنة ، وعلى الاخص فى مصنع تحتمس. وربما كان من ابدع هذه الاعمال القناع الجنازى (؟) ذو التعبير المفجع الخاص بأمنوفيس الثالث. وانتهت التجربة العمارنية، ولكن التأثير الذى طبعه الفن الجديد فى ذلك العصر لم يكن شأنه ان يزول تماما ، فقد بقى منه تلك النزعة الفضولية الباطنية ، والميل الى انتاج الاعمال التى تتسم بالاناقة والرشاقة. وقد استمرت تلك الصفات حية حتى فى الفن الملكى ، الذى يبدو أنه قد تبنى بصفة نهائية الاتجاهات الحميدة التى اختص بها الفن الاهلى . ومما يبرهن على ذلك مجموعة التماثيل التى تصور آمون وهو يحيط توت عنخ آمون بحمايته ، وهو موجود بمتحف اللوفر ، وكذا الثالوث المشوه الموجود بمتحف القاهرة الذى يمثل توت عنخ آمون بين آمون وموت . وبالمثل تمثال حورمحب البديع القسمات ، الواضح فيه التأمل الروحانى ، المحفوظ بنيويورك .

اننا نفخر كثيرا برأس تمثال نفرتيتى الذى يحتفظ به متحف برلين ، والذى يعد من القطع الفنية الرائعة اخرجها فنانو تل العمارنة بخطوطه التى تتميز بالرشاقة والميل الى تمثيل الملكة تمثيلا طبيعيا مع المبالغة فى انحدار الخطوط واطالة الرقبة . فهل هذا الاتجاه كان اتجاها مصريا ، فى خطوطه المبالغ فى انحدارها، وفى السطح المائل ؟ وهل معنى ذلك ان هذه التماثيل أو هذه الرسوم (التى وجدت على جدران صفحات بعض مقابر تل العمارنة او عثر عليها فى بعض الحفائر التى اجريت بالمنطقة) كانت تشبه التصوير الفوتوغرافى الذى يستخدم فى عصرنا الحديث ؟ الواقع ان فن العمارنة فن يميل الى الاسلوب الطبيعى مع اتجاه الى المبالغة والتشويه ، وهو يختلف عن الاسلوب الواقعى الذى شوهد عند ملوك الاسرة الثانية عشرة، كما انه يختلف ايضا عن التماثيل الجادة للدولة القديمة التى يتمثل فيها المثل العليا . فلم تتشبه كل اميرات ذلك العهد بالملك في شذوذه الجسمى . ويحتفظ متحف جامعة لندن بجذع تمثال لاميرة من هذا العهد صنع من الحجر الجيرى وليس به اى شذوذ جسمى . اما عن اصل هذا الفن فهو مصرى صميم ، اذ لا نجد فيه أى تأثير اجنبى ، لان مذهب اخناتون الدينى مذهب مصرى اصيل.

واذا ما انتقل فنانو العمارنة الى تصوير الحياة اليومية ، فبدلا من تصوير مظاهر العظمة والابهة التى كانت تحيط كبار الموظفين، فبعد ان كان يرسم الوزير محاطا بالجلال والعظمة ، نجد صوره وهو يجرى بجوار عربة الملك . ثم نجد الفنان يصور الملك وبناته كلا على عربته ، تجرى بسرعة كبيرة ، وبحماس عجيب ، كأنهم في حلبة سباق .

كذلك ، فى لعب اطفال تل العمارنة ، فقد اخذت فكرتها من العربات التى كان يركبها الملك . ويحتفظ متحف القاهرة بلعبة طريفة (I.E. 5302) تمثل عربة يجرها قردان ، وقردا ثالث يستحث القردين اللذين يجران العربة . ووقف الى جانب هذا القرد الاخير ، انثى القرد تحاول مداعبة القردين اللذين يجران العربة . وقد جمع القردان كما تجمع الخيول ورفضا التزحزح من مكانهما . وفي يقينى ، ان الفنان كان يهدف تقليد عربات الملك والملكة واطفالهما . ولعب الاطفال في كل زمان تعبر عن الاساليب التى تدور فى حياة الناس . واطفالنا في العهد الذى نعيش فيه الآن يميلون الى اللعب التى تمثل الحرب والمعارك الحربية والاحداث العالمية كالصعود الى القمر ، فنجد فيها الصاروخ والدبابة والطائرة ومركبة الفضاء. لقد استطاع فنانو العمارنة ان يتجراوا (ان صح ذلك) على ما كان يحيط الملك من هيبة فمثلوه في لعبه على هذه الصورة هو وافراد اسرته .

وتحتفظ الاسرة الثامنة عشرة بالتقاليد الخاصة بالرقة والجمال الساحر ، التى كانت

متبعة في نهاية الاسرة الثامنة عشرة . وان اجمل الامثلة لفن نحت التماثيل ليتجلى فيها ايضا الدقة المتناهية، مثال ذلك التمثال المشهور المحفوظ بمتحف تورين في ايطاليا (شكل ٤٠)، الذى يصور الملك رمسيس الثاني ، ولكنه ينسب احيانا الى الملك سيتى الاول ، وفيه يميل الجذع العلوى ميلا قليلا الى الامام ، ويتجلى فيه تعبير نبيل وهادىء الى حد كبير .

برهن النحاتون المصريون ، في تمثيلهم للوحوش او الحيوانات الاليفة ، على تمتعهم بنفس الصفات المتازة . فالآساد الرهيبة العضلات، والسنانير ذات المشية الرقيقة المرنة المكتومة الصوت التى تهدد الفريسة، ثم الكلاب الذئبية (Chien Loup) ذات الحركة المترصدة الجديرة بالحرس الامناء الاكفاء . والقردة الكبيرة بمظهرها الوقور ، الذى يدعو احيانا الى السخرية ، كل هؤلاء يظهرون وحركتهم الخاصة بهم في واقعية صادقة ، تقل غلوا عن واقعية تمثيل الحيوانات المتوحشة الاشورية . واظهر امثلة على ذلك : تمثال البقرة حاتحور وهى ترضع الطفل امنوفيس الثاني والمحفوظ بمتحف القاهرة . وتمثالا القرد المعروضان حاليا في قرية الاشمونين بمحافظة المنيا حيث كشفا في هذا المكان .

ذلك عرض خاطف لتطور فن النحت في مصر الفرعونية ، نحا فيه المصريون اسلوبا له اصالته القديمة ، كما تميز عن غيره من النحت السومرى او الاشورى او البابلى او الحثي او الفينيقى او غير ذلك من الفنون المعاصرة . كما اتخذ لنفسه طابعا قويا في تعبيره الصادق الدقيق . وابرز مظاهر العواطف التى كانت تضطرب في النفس برسمها على معالم الوجوه . وكثيرا ما انطلق الفنان حرا ولم يتقيد بقاعدة من القواعد . ولو ان اكثر التمثيل شيوعا ، كان الواقف او الجالس ، او الكاتب صاحب الجلسة المصرية الاصيلة . الا انه تحرر من تلك الاوضاع منذ الفترة الاخيرة من الدولة القديمة ، حيث بدا يشعر الناس من حول فرعون بقوتهم ، فلا يجد الفنانون في انفسهم حرجا من تمثيل الناس جميعا بعين حرة طليقة .

• • •

نماذج من تماثيل مصرية غير مالوفة

بمتحف بروكلين بالولايات المتحدة الامريكية تمثال صغير من المرمر للملك بيبى الاول (شكل ٤١) مثل الملك جالسا على عرشه ، وظهر على ملامحه شيء من الرخاوة والطراوة ، كما ان فيه مظهر الملك الهادىء اللطيف ، وهذه ترجمة صادقة للعصر الذى كان يعيش فيه ملوك الاسرة السادسة (الفترة الاولى منها) ، حيث هدات حياة الناس . من اجل ذلك ، ترك الفنان على وجه تلك الابتسامة الهادئة الرضية . مثل الملك في هيئة جنائزية ، اذ كان يستخدم التمثال في حفل يطلق عليه هيد (سد) ، وتدثر الملك برداء خاص بهذا الاحتفال يشبه العباءة . ثم بدا الفنان في تغيير الأسلوب الفني دون ان يمس الروح الجنائزية التى كان يهدف اليها في اخراج هذا التمثال ، فنحت خلفه الطائر المقدس (حورس) على هيئة صقر ، لكنه بصورة اختلفت عن سابقتها ولا حقتها . فمن قبل ، مثل الملك خفرع جالسا ومن خلفه الطائر الصقر ايضا (حورس) باسطا جناحيه ليحمى الملك حماية جنائزية وفنية (شكل ٩) . كما نجده بعد ذلك في تمثال للملك محفوظ بمتحف القاهرة (شكل ٤٢) . اما في تمثال بيبى الاول هذا ، فقد مثل الطائر حورس واقفا على ما نسميه واجهة القصر (سرخ) ، والتى كان يكتب فيها اسم الملك .

وبمتحف القاهرة تمثال صغير للملك بيبى الثاني ، ظهر فيه الملك في جلسة غير مالوفة على عيون الغرب ، ولكنها مالوفة لدينا نحن الشرقيين ، ولا ادرى لذلك من سبب الا ان تكون حرارة الجو هى الدافع لذلك اذ كثيرا ما نجدها عند بعض الاطفال (وجدير بالذكر

ان هذا الملك تولى العرش منذ نعومة اظفاره اى في سن السادسة) . ظهر بيبى الثاني مجردا من ثيابه تماما ، جالسا القرفصاء . وعلى جبهته الصل . (شكل ١٨)

بمتحف القاهرة تمثال يجلس صاحبه جلسة غير مألوفة في ذلك العهد (الدولة القديمة) (شكل ٤٣) . اذ مثل الرجل جاثيا على ركبتيه ، قابضا على كفيه ، ونظرات عيونه تدل على الانتباه والذكاء ، وعلى فمه ابتسامة لطيفة ، وعلى وجهه مسحة من رقة .

تمثال الملك حور من الخشب (شكل ٦) عثر عليه في دهشور ، بمحافظة الجيزة ، وحاليا محفوظ بمتحف القاهرة ، وغالبا ما يؤرخ من الاسرة الثالثة عشرة . مثل الملك واقفا ، وفوق رأسه رمز الروح ، والذى ينطق بالهيروغليفية (كا) ، على هيئة ذراعين مرفوعين على رأس التمثال . ووجه التمثال يعد مثاليا فى نحته ، وقد طعمت العينان (شكل ٤٤) . كما اتقن الفنان نحت الساقين . وكان في السابق يغطى بعض اعضاء جسمه بصفائح رقيقة من الذهب . والتمثال ، نموذج بديع الملك يتألق شبابه ، انيق ورشيق ، وهو يمثل الجمال الساحر الذى عرفت به مدرسة الشمال ، وهو نصر للاسلوب الاكاديمى المتاز . والشيء الذى يميز هذا التمثال عن غيره من تماثيل ملوك مصر هو ان يظهر الملك مجردا من ثيابه تماما ، وهو امر غير مألوف عند فراعنة مصر . وفي يقينى ، ان التجرد من الملابس تماما كما هو واضح فى هذا التمثال ، لابد ان له دلاله دينية جنائزية . وان التمثال لم يكن ليعرض على عيون الناس كما هو حاليا ، وان مكانه الاصلى هو قبر من القبور . انما لماذا جرده الفنان من ثيابه تماما ، بينما نجد جميع التماثيل الجنائزية للمصريين التى وضعت في دور العبادة او المقابر كانت مغطاة ؟ لاندرى لذلك من سبب الا ان يكون فنان ذلك العصر اراد ان يسهل على الروح امر التعرف على صاحبها ، فصور الملك مجردا من تعرض اجساد الملوك على هذه الهيئة . (وجدير بالذكر انه توجد تماثيل صغيرة لعمال يؤدون بعض الاعمال جردوا من ثيابهم ، وهذا يختلف عن تمثال الملك حور ، لان طبيعة بعض الاعمال تستوجب خلع جزء كبير من الملابس ، او الملابس كلها . كذلك وجدنا ايضا بعض الجاريات وهن يرقصن في بعض الحفلات وقد جردن من ثيابهن تماما) .

بمتحف اللوفر تمثال لاحدى الاميرات (غالبا من عهد اخناتون) (شكل ٤٥) تضع على راسها شعرا مستعارا ، والقت بخصلة جانبية ، وهى آخر المبتكرات الحديثة في فن التجميل وتصفيف الشعر الحديث في عهدنا الحالي . والى جانب تمثال المراة ، تمثال لرجال شد قميصه بحمالة واحدة .

وتزخر دور التحف العالمية بالعديد من التماثيل التى لها اوضاع غير مألوفة . وقد قام الاستاذ فاندييه G. Vandier بدراسة وافية للنحت الفرعوني فى موسوعته عن الآثار المصرية ، فى الامكان الرجوع اليها واستخلاص الكثير من هذه الاوضاع .

• • •

تلك امثلة من بدائع النحت المصرى القديم ، استطاع فيها الفنان ان يعبر عن شخصيات اصحابها اصدق تعبير . والمثال الماهر هو الذى يستطيع ان يضفى على عمله الفني ، وملامح وجوه تماثيله الكثير مما يجول فى خواطر اصحابها واخلاقهم وميولهم ، ويبتكر ويجدد فى اسلوبه دون ان يمس الجوهر او الفكرة العامة او يخرج عليها . ولقد بقيت هذه الروائع وخلدت رغم ما مر بها من محن . وقد بلغت اقصى ما كان ينتظر لها من كمال رغم قلة ما اتيح للمثال المصرى من وسائل القطع والنحت والصقل .

المراجع

لم استطع أن اقدم للقارىء الكريم سوى بعض المراجع العامة وذلك بسبب كثرة المصنفات التى كتبت عن الفن المصرى القديم . منها ما كتب عن الفن بصفة عامة أو منها ماتخصص فى بعض فروعه ، ومنها ما نشر بين المكتشفات الاثرية. واضع تحت بصر القارىء الكريم مصنفات عامة ، وبعض المؤلفات التى ابرزت ناحية من نواحى الفن ، او فترة معينة ، او مركز حضارى معين ؟

1. Aldred (C), Old Kingdom Art in Ancient Egypt (LONDON 1949)

2. , Middle Kingdom Art in Ancient Egypt („ 1950)

3. , New Kingdom Art in Ancient Egypt (LONDON 1951)

4. Bénédite (G), L'Art Egyptien dans ses lignes générales (Paris, 1923)

5. Boreux (Ch.) , L'Art egyptien, (Paris 1926)

6. , La sculpture égyptienne au Musée du Louvre (pd.) Galavao, Paris 1938)

7. Bothmer (B. V.) , Egyptian sculpture of the late period (Brooklyn, 1960)

8. Capart (I) , Lecons sur I'art égyptien (Liege, 1920)

9. Daumas (F.) , La civilisation de I'Egypte Pharaonique (Arthaud, Paris, 1965)

10. Daires, Frakfort, Glanirille and Wittemore, The Nural Paintings of el Amarneh (London, 1929).

11. Daires (N. W.) , Ancient Egyptian paintings (2 Vol., Chicago, 1938)

12. Desoches Noblecourt (Ch.), L, (Art égyptien an Musée du Louvre (Paris, 1941)

13. Le Style égyptien (Paris, 1946).

14. L'Extraordinaire aventure amarnience (Paris 1960).

15. L'art égyptien (Paris, 1961).

16. Des trésors menacés (Paris, 1961).

17. Toutankhamon (Paris, 1963).

18. Denadoni (S.) Arte egizia (Torino 1935).

19. Drioton (Et.) La statuaire égyptience, dans I'art vivant (Paris, année, 1930, pp.557 a 560).

20. L'art égyptien dans Histoire unwerwelle de I'art sous la direction do M. Aubert (Paris, 1931).

21. Edwards (I.E.S), Introduction guide to the collections in the British Museum, (London 1969).

22. Engelbach (R.) Introduction to Egyptian Archaeology, with special reference to the Egyptian Museum (Cario, 1946).

23. Glanville (S.R.K.), The Legacy of Egypt (Oxford, 1953).

24. Hayea (W.C.), The Scepter of Egypt, I (Now York, 1953), II (Cambridge, Massachusetts, 1959).

25. Iversen (E.) Canon and Proportions in Egyptian art (London, 1955).

26. Kees (H.) Aegyptische Kunset (Breslzu, 1926).

27. Mekhitarian (A.), La peointure égyptienne (Geneve, 1954).

28. Montet (P.), L'Egypte Eternelle (Fayard, Paris 1970).

29. Murray (M.A.), Egyptian Sculpture (London, 1930).

30. Petrie Flinders, The Art and Crafts of Ancient Egypt (London, 1923).

31. Posener (G.), Dictionnaire de la civilization égyptienne (Fernand Hazan, Paris VI, 1959).

32. Schaefer (H.), Von Aegyptischer Kunst (Leipzig, 1930).

33. Smith W. S.) The Art and Architecture of Ancient Egypt (Harmondsworth, 1958).

34. , Ancient Egypt as represented in the Mesuem of Fine Arts, Boston' (Boston, 1960).

35. Vandier.(I.), Manuel d (Archeologis Egyptenne, quatre volumes (Paris 1952-1964).

36. Winlock (H.E.), Egyptian statues and statuettes (Metropolitan Museum of Art, New York, 1937).

37. Wolf (W.), Die Kunst Aegyptens (Stuttgart, 1957).

★ ★ ★



شكل (١)



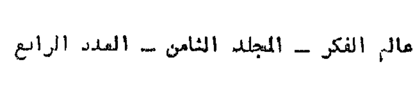
شكل (٢)

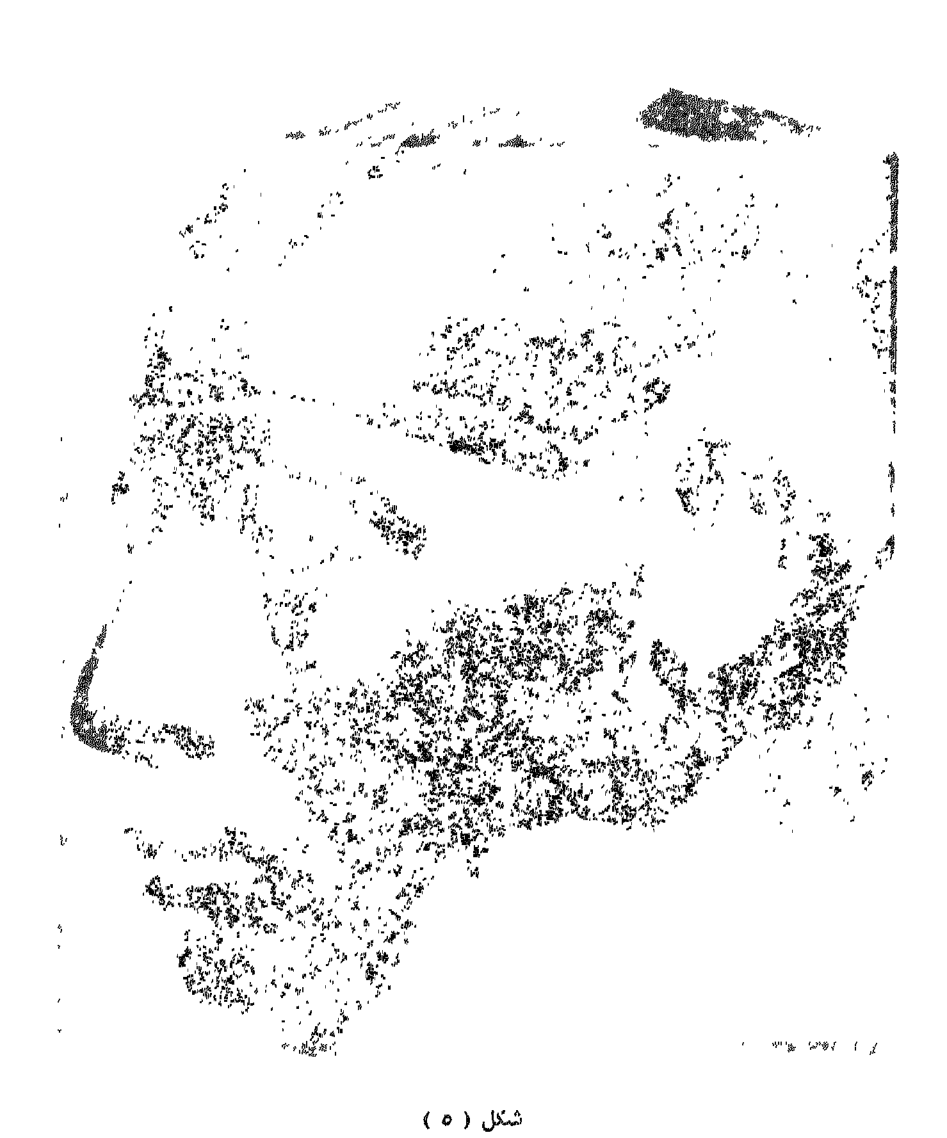


شكل (٣)



شكل (٤)





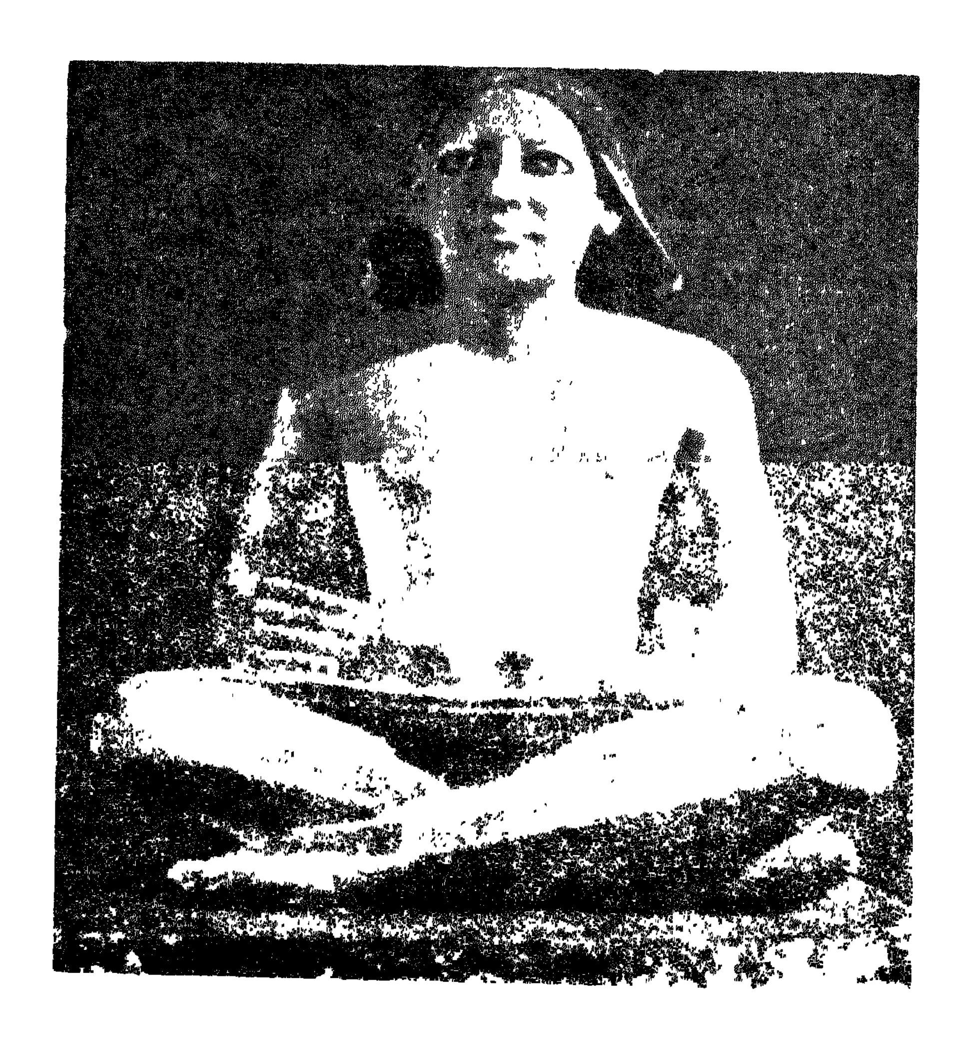
شكل (٥)



شكل (٦)



شكل (٧)



شكل (٨)



شكل (٩)

٨٦٥

حصاحص ادى المصرى الملد .



شكل (١٠)



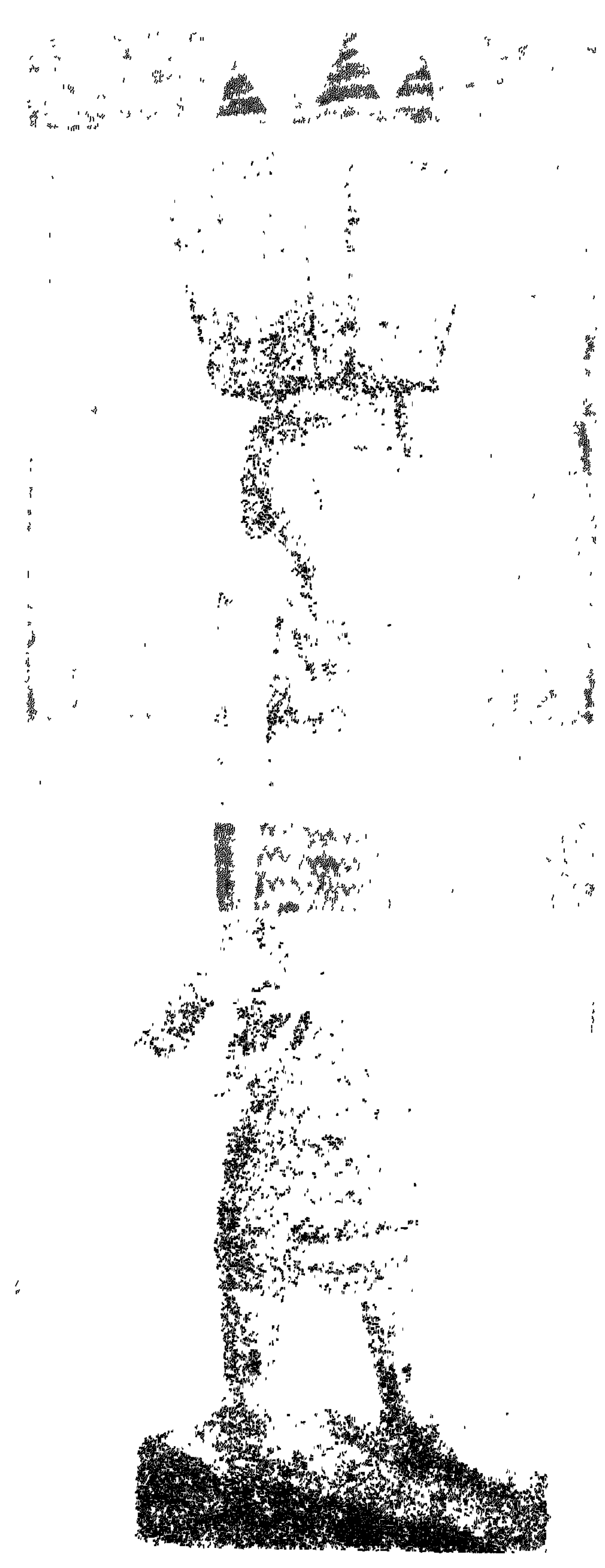
شكل (١١)



شكل (١٢)



شكل (١٣)



شكل (١٤)



شكل (١٥)



شكل (١٦)



شكل (١٧)



شكل (١٨)



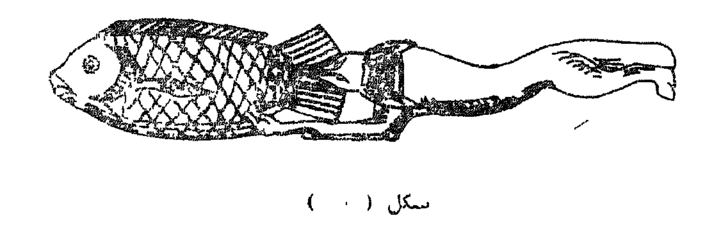
شكل (١٩)



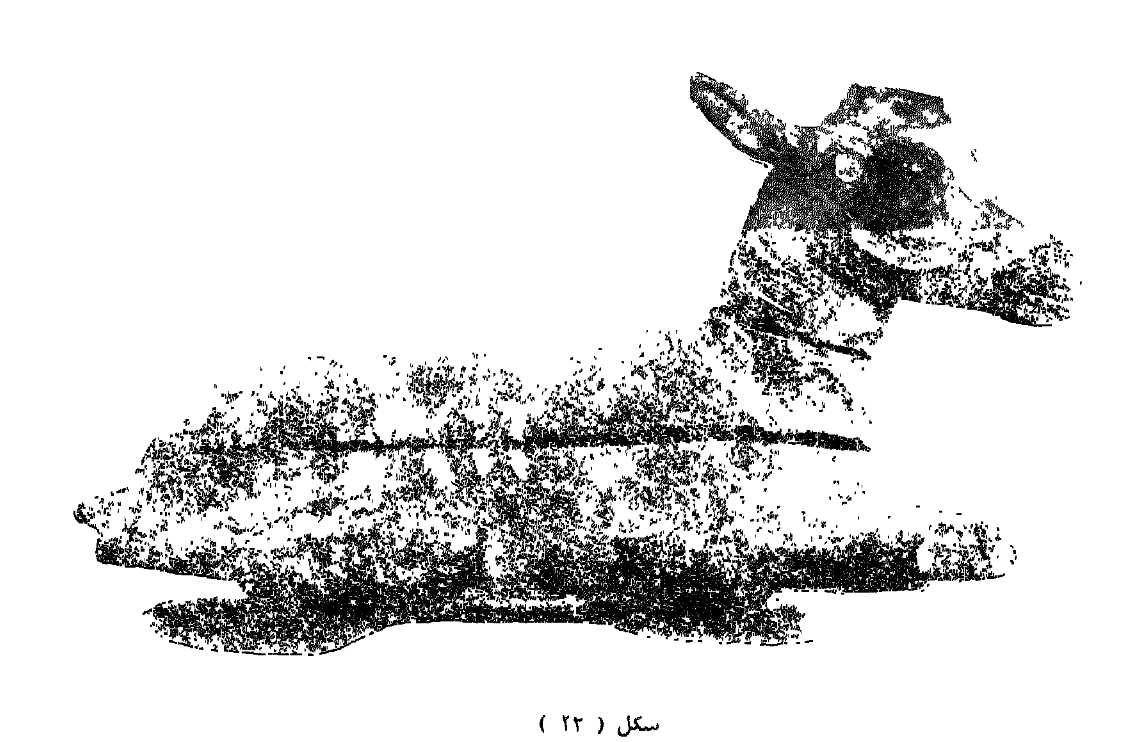
شكل (٢٠)



شكل (٢١)



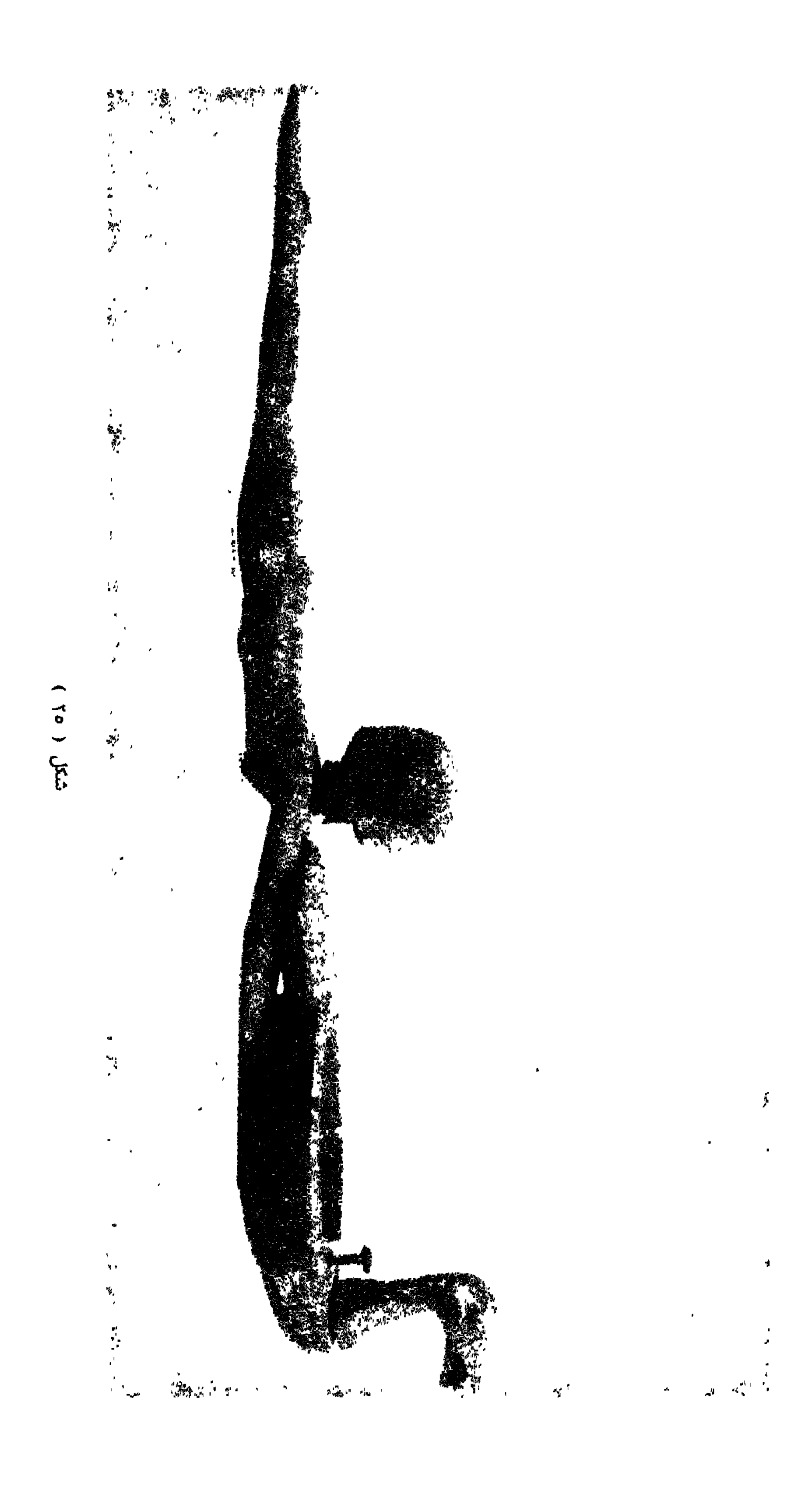
شكل (٠)



شكل (٢٢)



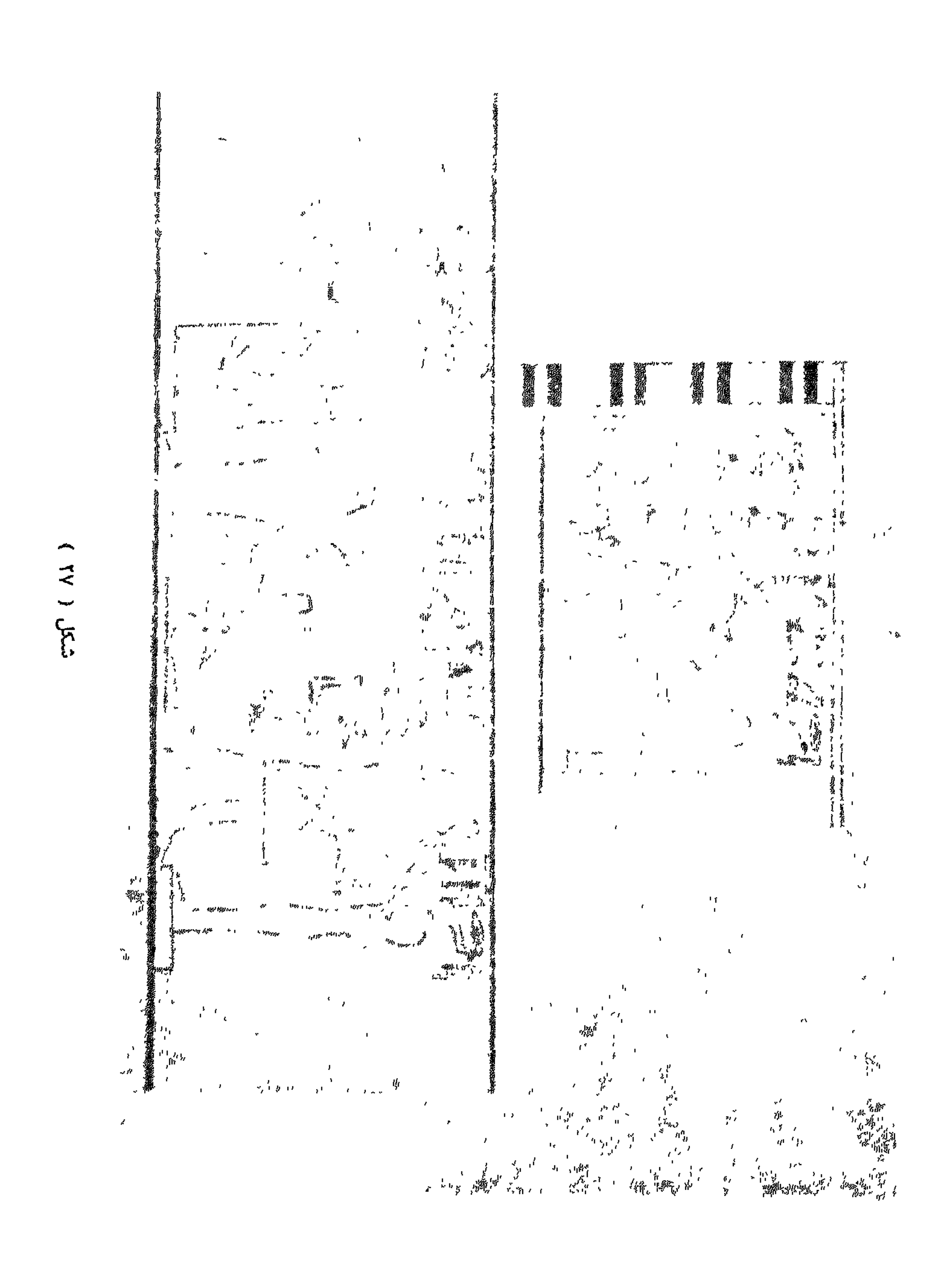
شكل (٢٤)



شكل (٢٥)



شكل (٢٦)



شكل (٢٧)

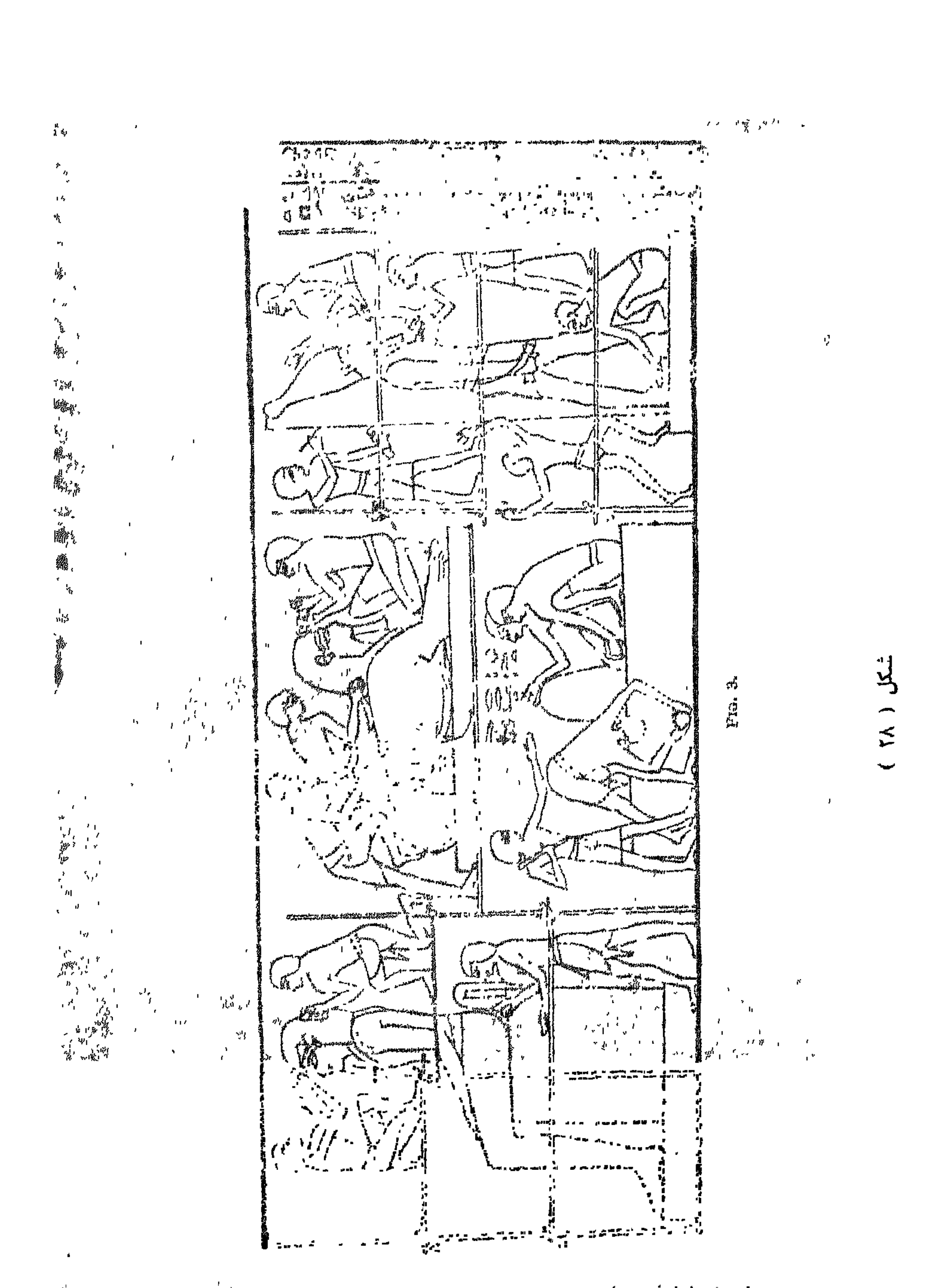
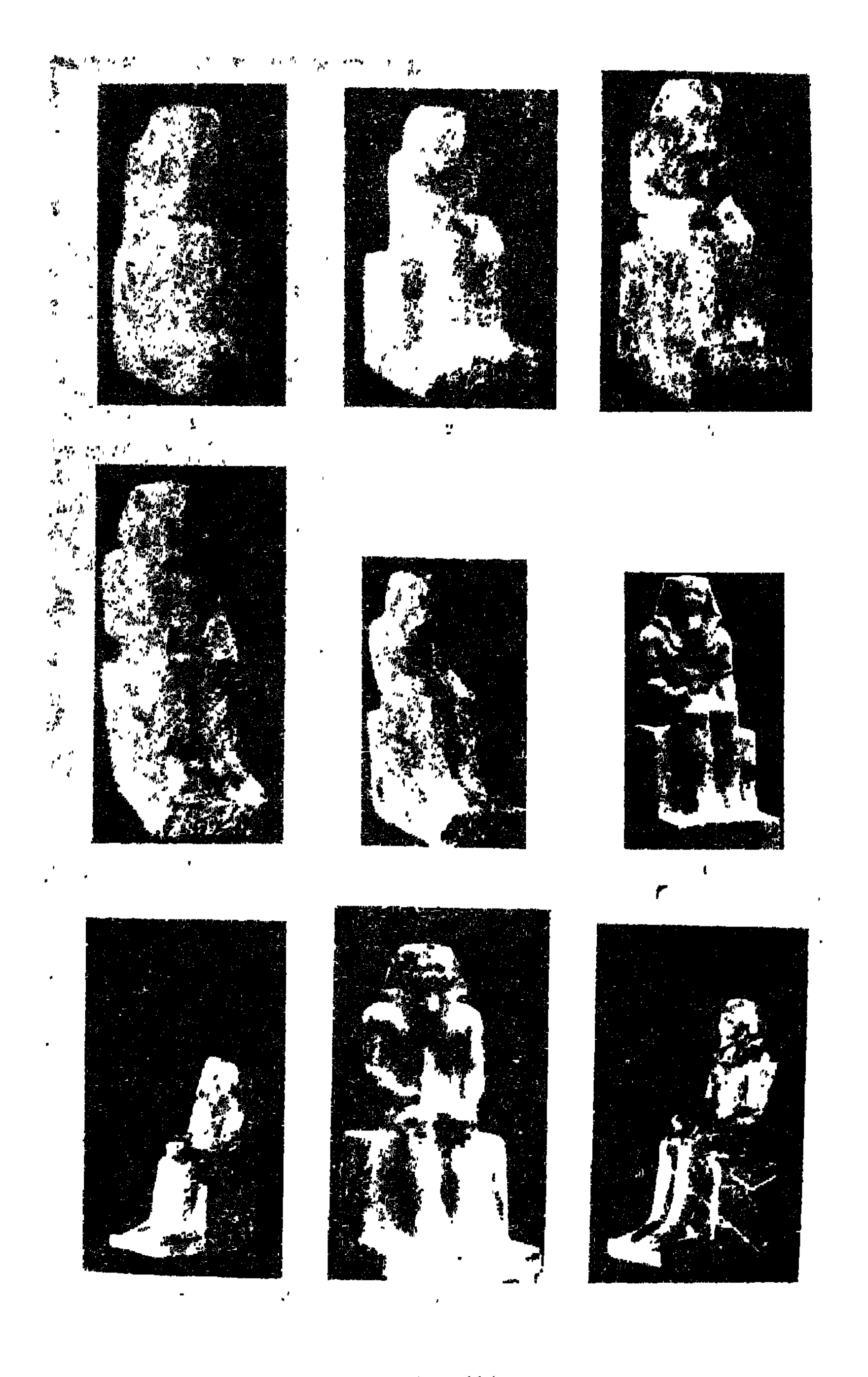
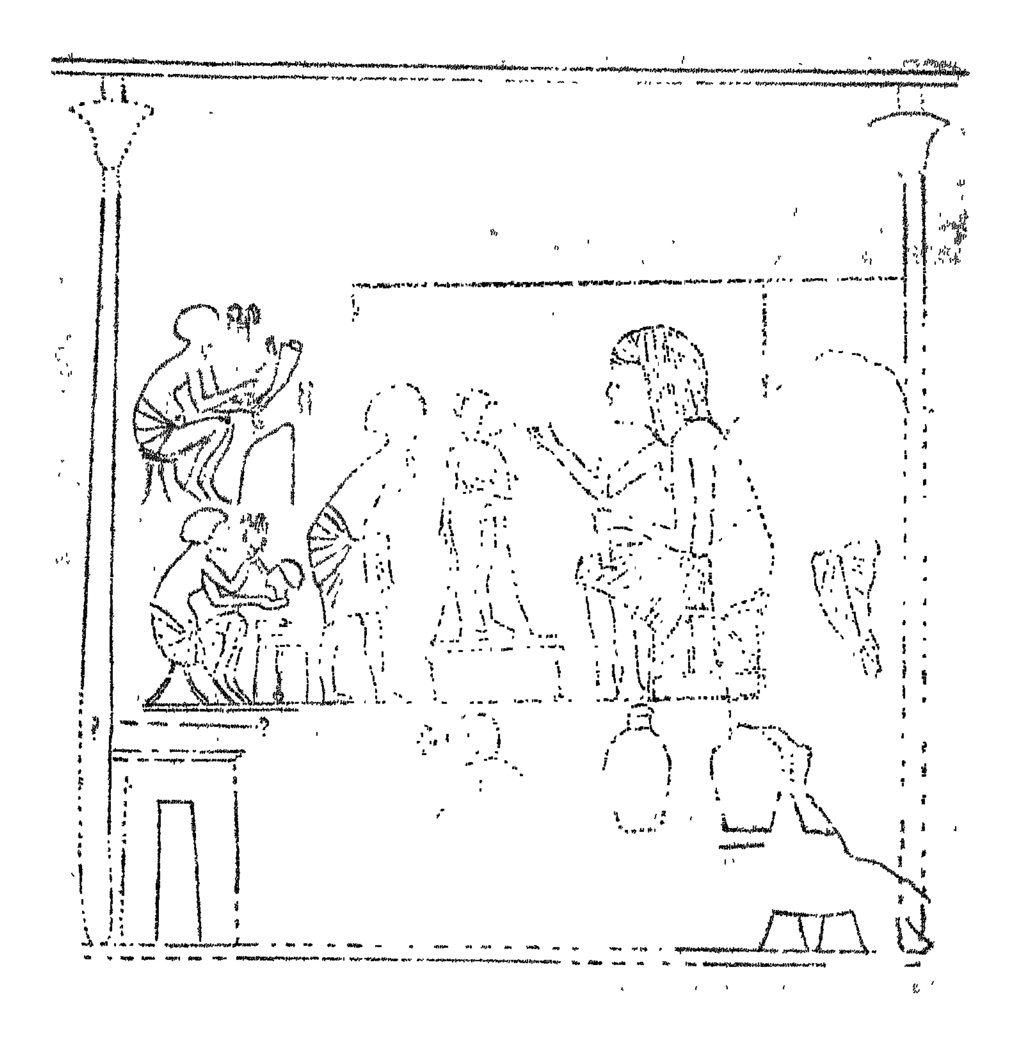


Fig. 3.

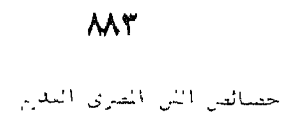
شكل (٢٨)



شكل (٢٩)



شكل (٣٠)



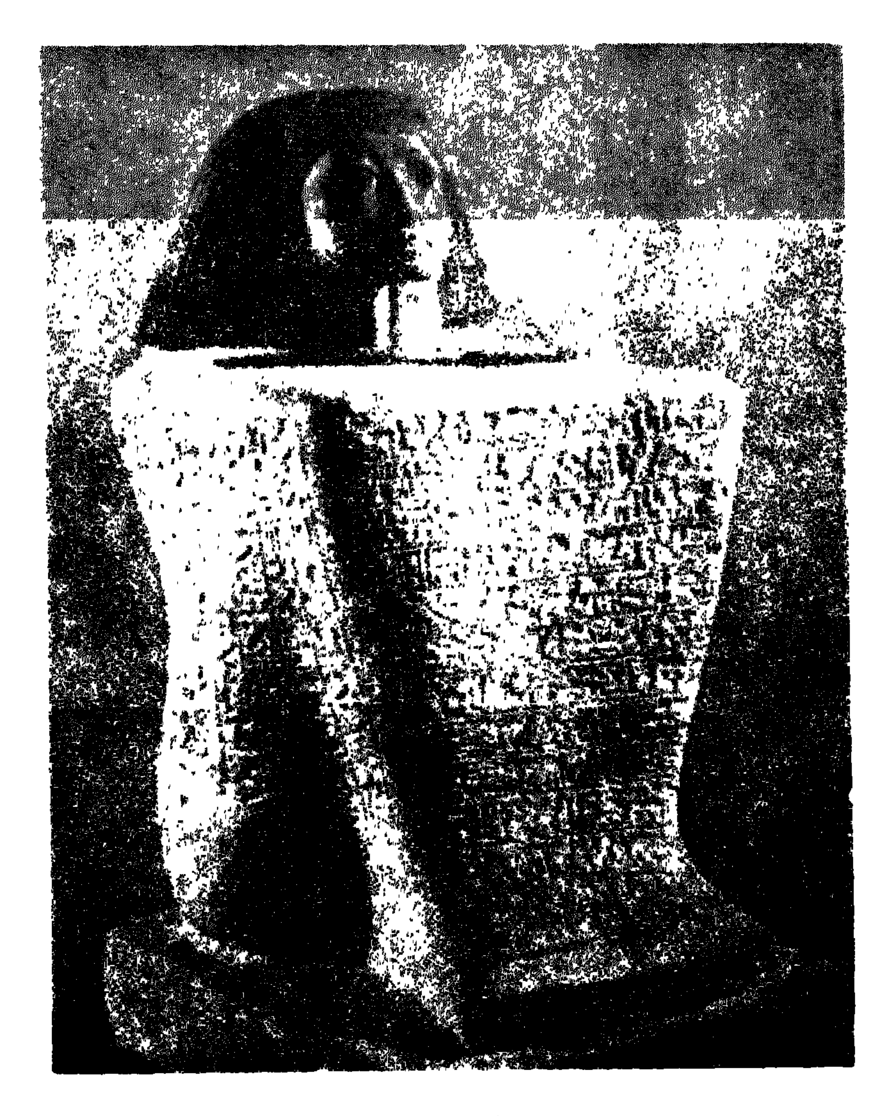
شكل (٢١)



شكل (٣٢)



شكل (٣٣)



شكل (٣٤)



شكل (٣٥)



شكل (٣٦)



شكل (٣٧)



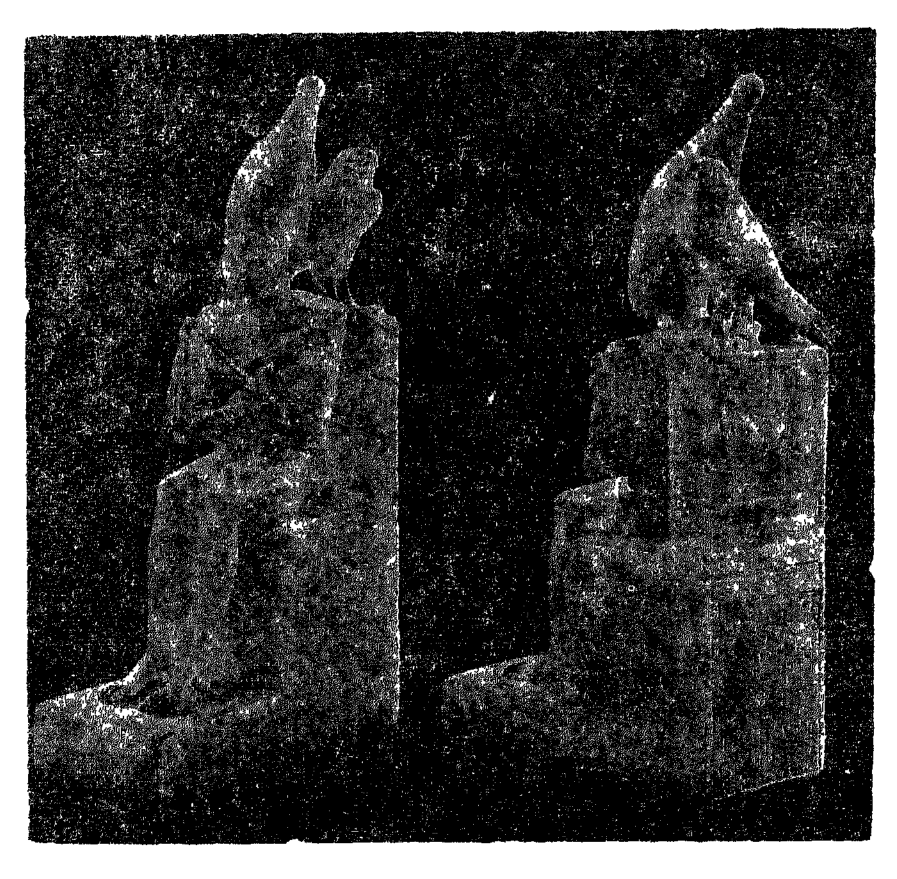
شكل (٣٨)



شكل (٣٩)



شكل (٤٠)



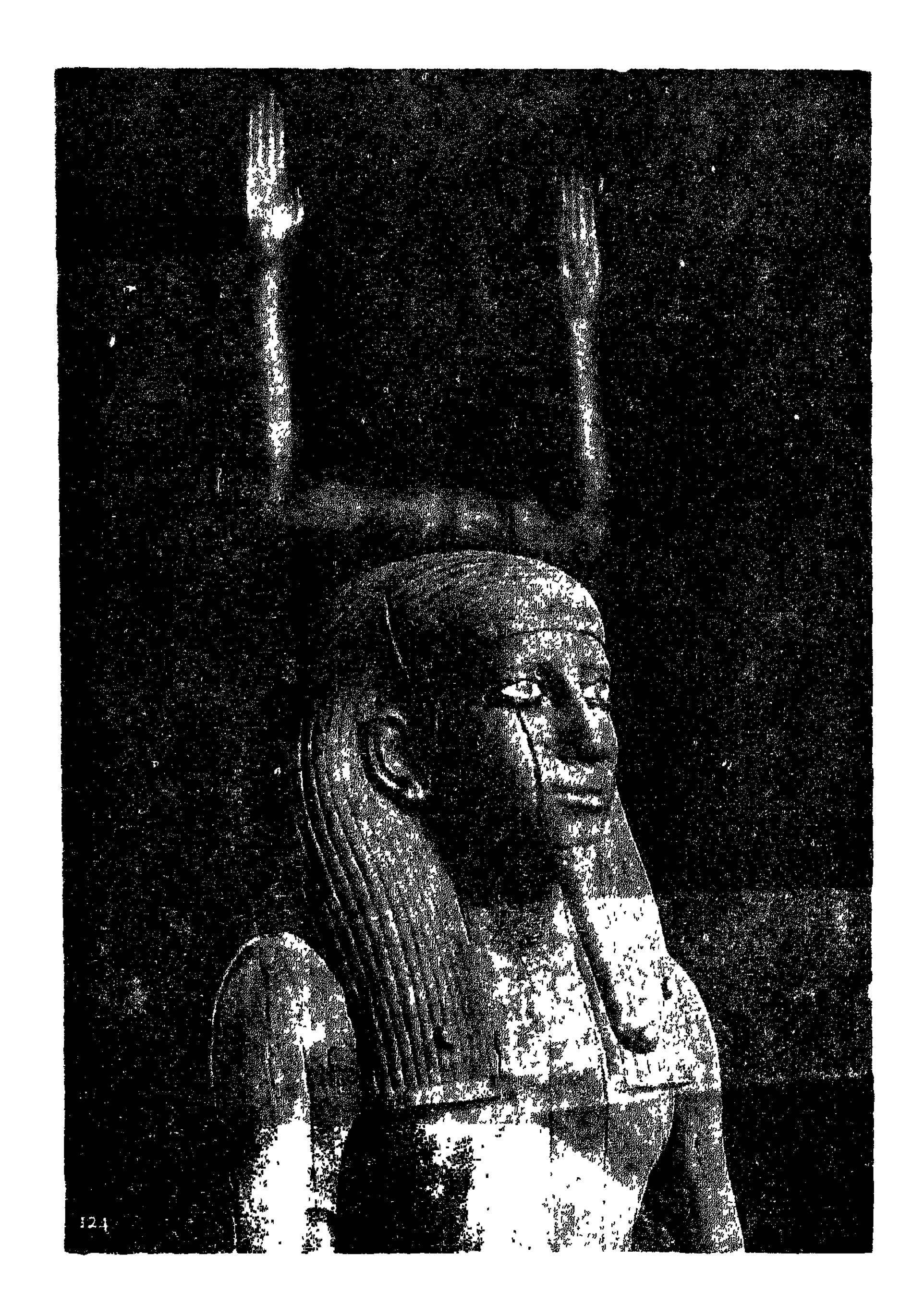
شكل (٤١)



شكل (٤٢)



شكل (٤٣)



شكل (٤٤)



شكل (٤٥)

اتجاهات جديدة في الفكر التنظيمي

علي السلمي *

شهد الفكر التنظيمى فى السنوات القليلة الماضيـة تطـورات كبيرة فى مجـالات بحثـه والأساليب المستخدمة للوصـول الى حقائـق علمية واضحة تفسر مايجرى داخل التنظيمات المختلفة مـن افعـال ، وتسهم فى توضـيح محددات الفعالية التنظيمية .

ولقد كانت مشكلة سلوك اعضاء التنظيمات من أكثر الموضوعات التى اجتذبت اهتمـام المفكرين والدارسين فى هذا الميدان ، وتبع على مدى سنوات طويلة العديد من النظريات التى تقاربت فى بعض الأحيان ، وتباعدت أو تناقضت فى أحيان أخرى .

وفى خضم النظريات المتصارعة حول تفسير الظواهر السلوكية فى المنظمات ، **ظهر اتجـاه** جديد يستخـدم مفهوما مستحـدثا بالنسبة للعلوم الاجتماعية وان لم يكن كذلك بالنسبة للعلـوم الطبيعية ، ذلـك هـو **مفهوم النظم** Systems Concept . وقـد ترتب علـى استخدام هـذا المفهوم ، كأسـاس لتحليل الظاهرة السلوكية فى المنظمات ، أن وضحت صورة مغايرة تماما لما كـان المفكرون الأوائل يُروّجونه حول محددات السلوك التنظيمى .

وهدفنا فى هذا البحث التعريف بمفهـوم النظم ، ثم عرض الاطـار العام لفكرة النظم

* استاذ مساعد ادارة الاعمال بكلية التجارة جامعـة القاهرة ، ومعار للتدريس بكلية التجارة والاقتصاد والعلوم السياسية جامعة الكويت .

السلوكية باعتبارها من أحدث التطورات العلمية فى الفكر التنظيمى الحديث .

مدخل الى مفهوم النظم :

يتجه الفكر الانسانى عادة الى التفكير فى الظواهر المختلفة التى يشاهدها ويعايشها على أنها نتيجة لسبب واحد . فاذا واجه الانسان موقفا يعانى منه اقتصاديا مثلا فانه يميل الى اعتبار شخص معين وكانه المسئول عن هذا الموقف. أو اذا واجه الانسان مشكلة اجتماعية فانها تنشأ فى ذهنه بفعل عامل معين . ومثل هذا التفكير يجافى الى حد بعيد طبيعة الأمور التى يتضح منها تعدد الأسباب المؤدية الى ظاهرة معينة . فاذا نظرنا على سبيل المثال الى موقف طالب فصل من الجامعة بسبب فشله فى تحقيق معدل الدرجات المطلوب للاستمرار فى الدراسة ، فانه يلقى اللوم عادة على شيء معين كالأستاذ القائم بالتدريس ، او المرشد المسئول عن التوجيه حين اختيار المقررات أو ماشابه ذلك من أسباب . ولكن حقيقة الامر أن هذا الموقف ينشأ عادة نتيجة لعدد من التغيرات والأسباب التى تتفاعل جميعا لانتاج الظاهرة المشاهدة وهى فشل الطالب فى تحقيق معدل معين للدرجات ، ومن ثم فصله من الجامعة . من ناحية أخرى ، فان مجموعة الاسباب أو العوامل تلك تقوم بينها علاقات ذات طبيعة خاصة فى كل حالة ، بحيث تدعم بعض العوامل من تاثير عوامل أخرى ، بينما تخفف عوامل ثانية من تأثير بعضها البعض . وهكذا نكتشف ان هناك ثمة حركة تفاعلية بين مجموعة من العوامل يتحدد على اساسها نوع ومدى النتيجة النهائية وهى الظاهرة المشاهدة .

بالاضافة الى تعدد الأسباب وتفاعلها ، فان التحليل المنطقى البسيط يقودنا الى اكتشاف حقيقة ثالثة ، وهى أنه فى اى موقف تتفاعل فيه مثل تلك العوامل.. فان بعضا منها ينبع من صفات وخصائص الانسان الذى يعانى من الموقف ويعيش أحداثه ، بينما تصدر بعض العوامل الأخرى عن طبيعة وخصائص الموقف او البيئة المحيطة بالانسان والظروف السائدة فى تلك البيئة . بمعنى آخر ، ان بعض العوامل المسببة للظواهر التى يعيشها الانسان هى عوامل ذاتية يستطيع هو أن يتحكم فيها ويسيطر على اتجاهاتها . بينما البعض الآخر مفروض عليه من خارج ذاته ولا يستطيع بالتالى أن يسيطر عليه سيطرة كاملة .

تلك الحقائق الثلاث تجعلنا نقترب الى حد بعيد من التعرف على مفهوم أساسى له شان كبير فى توجيه الفكر الانسانى ناحية التحليل السليم للظواهر المشاهدة ، ذلك هو مفهوم النظم Systems . وعلى ذلك نستطيع تركيز الأسس التى يقوم عليها مفهوم النظم فى تلك الحقائق السابقة وهى :

١ ــ تعدد الاسباب والعوامل المنشئة للظواهر المختلفة .

٢ ــ تداخل تلك الاسباب والعوامل وتفاعلها معا بدرجات متباينة لانتاج الظاهرة المشاهدة.

٣ ــ انقسام مصادر تلك الاسباب الى ذاتية تتعلق بالشخص (أو الاشخاص) المتصل بالظاهرة ، وخارجية تنبع من طبيعة المناخ او البيئة التى تحدث فيها الظاهرة .

وحين نحاول تفهم السلوك الانسانى فاننا نجد أن المنطق الذى يستند الى وحدانية الأسباب المنشئة للسلوك لايصلح لتفسير المظاهر والانماط السلوكية المشاهدة ، بل ان الواقع يفرض علينا الاتجاه نحو مفهوم النظم لنتخذه اطاراً ندرس من خلاله السلوك الانسانى ، ونصل بذلك الى استنتاجات واقعية سليمة . ولذلك فاننا نخصص هذا الجزء من البحث لدراسة مفهوم النظم وخصائصها ثم نعمد الى تطبيقه بالنسبة للسلوك الانسانى .

تعريف النظام :

النظام System هو الكيان المتكامل الذى يتكون من اجزاء وعناصر متداخلة تقوم بينها علاقات تبادلية من أجل اداء وظائف وانشطة تكون محصلتها النهائية بمثابة الناتج الذى يحققه النظام كله .

اى أن النظام هو « الكيان الكلى المنظم او المعقد ، الذى يضم تجمعا لاشياء او أجزاء تتكون منها وحدة متكاملة » . (١) ويشير مفهوم النظام الى عديد من الظواهر المشاهدة منها على سبيل المثال النظام الشمسى ، ونظام الأنهار وغيرها من مظاهر الطبيعة . كذلك فالجسم الانسانى هو بذاته مثال جيد لفكرة النظام حيث يحتوى على مجموعة من النظم منها النظام العصبى ، النظام التنفسى ، والنظام الهضمى ، واخيرا فان حياتنا اليومية تحفل بمشاهد من النظم مثل نظام المواصلات، والنظام النقدى ، والنظم السياسية والاجتماعية .

وحين نتأمل العالم من حولنا نجد انه مكون من سلسلة من النظم العليا super systems تحتوي داخلها عددا من النظم الفرعية sub-systems التى تضم كل منها اجزاء ومكونات تفصيلية parts .

ومن اهم انواع النظم ما يسمى بالنظام المفتوح open system الذى يتصف بوجود علاقة اساسية بينه وبين البيئة المحيطة به . وتركز هذه الصفة على أهمية التفاعل المستمر بين النظام المفتوح وبين الظروف والاوضاع البيئية المحيطة به ، ومن ثم فهو يتأثر بها ويؤثر فيها فى الوقت ذاته .

خصائص النظام المفتوح :

تتميز كل النظم المفتوحة بمجموعة من الخصائص التى تعكس طبيعة وجودها وشروط استمرارها وحيويتها. ولأهمية هذه الخصائص لدراستنا عن السلوك الانسانى نعرضها فيما يلى بدرجة من الايضاح : (٢)

١ ــ استيراد الطاقة او الموارد الاساسية :

تعتمد كل النظم المفتوحة على اختلاف انواعها على استيراد نوع من انواع الطاقة من المجتمع او البيئة المحيطة. فالخلية البسيطة في جسم الانسان تحصل على الاوكسجين من الدم المحيط بها ، والجسم الانسانى ذاته يحصل على الهواء والغذاء من العالم الخارجى، وتحصل المنظمات المختلفة على احتياجاتها من العمال والمواد ومصادر الطاقة الاخرى من المجتمع المحيط . واذا نظرنا الى السلوك الانسانى باعتباره نظاما مفتوحا هو الآخر ، فان المؤثرات الاساسية المحركة والدافعة فى هذا النظام السلوكى تستمد أيضا وبدرجة كبيرة من البيئة الخارجية .

وبصفة عامة فان خاصية أساسية من خصائص النظم المفتوحة هو اعتمادها على المجتمع وعلاقاتها التبادلية الوثيقة معه ، اى انفعالها وتأثرها بالاوضاع والظروف السائدة فيه وذلك من خلال انعكاس تلك الاوضاع والظروف على نوعية الموارد (أو المؤثرات) التى يتمكن النظام من الحصول عليها .

---

(١) Johnson, R., Kast, F., and Rosenzweig, J., The Theory and Management of Systems, N. Y. McGraw-Hill Book, Co., 1967, P. 4.

(٢) Katz, D. and Kahn, R. The Social Psychology of Organizations, N. Y. Wiley & Sons, 1966, pp 8-13,

٢ ــ الانشطة الداخلية

تجرى بالنظام المفتوح انواع مختلفة من النشاط تستهدف تحويل الطاقات والموارد (أو المؤثرات) الى اشكال وقيم ومنتجات تمثل الناتج الذى يصدر عن النظام ويتوجه الى المجتمع مرة أخرى . فالمنظمات الانتاجية مثلا تعمل على تحويل ما حصلت عليه من موارد الى سلع وخدمات تتوجه بها الى المجتمع فى سعيها لتأكيد ضرورة وجودها واستمرار هذا الوجود. وقد تتباين الانشطة الجارية فى النظم المختلفة حتى وان اتحدت فى الغاية او الهدف ، ولكن المهم هو حدوث حركة يشير تدفقها الى حيوية النظام . وفى النظام السلوكى تجرى أنشطة وعمليات مختلفة تعمل على استقبال المؤثرات الخارجية والداتية واستيعاب معانيها ثم تحويلها الى اشارات واختيارات تنتهى الى اداء وسلوك يشبع للانسان رغبة ، ويحقق له هدفا .

وتخضع الحركة فى النظم المفتوحة لقواعد وضوابط تحددها طبيعة النظام وتكوينه الداخلى من ناحية ، ونوعية الموارد (المؤثرات) وخصائصها فى التفاعل .

٣ ــ ترابط الاجزاء وتكاملها

ينقسم النظام المفتوح الى اجزاء وعناصر داخلية تختلف فى عددها ومدى تطورها بحسب درجة تقدم النظام وتطوره . وتختص تلك الاجزاء بأداء الوظائف والانشطة الاساسية فى النظام وهى :

أ ــ استقبال الموارد (المؤثرات) او السعى اليها .

ب ــ اعداد الموارد (المؤثرات) للاستخدام فيما يتجه النظام الى انتاجه .

جـ ــ تحويل الموارد (المؤثرات) الى صور نهائية معدلة تتناسب وطبيعة اهداف النظام .

د ــ الحفاظ على النظام وصيانة وجوده وتأمينه فى مواجهة التطورات والتفاعلات مع البيئة وعناصرها .

هـ ــ استثمار ناتج النشاط فى اعادة الحصول على موارد جديدة (أو تيسير استقبال مؤثرات جديدة) .

وتتوزع تلك الانشطة بين اجزاء النظام المفتوح فى تناسق بحيث يختص كل جزء ببعض الانشطة يؤديها متفاعلا مع الاجزاء الاخرى ومتكاملا معها ، بحيث ان الناتج النهائي لحركة النظام كله تمثل حصيلة نشاط كل الاجزاء . والصفة الاساسية التى تميز اجزاء النظام المفتوح هى صفة الاعتماد المتبادل Interdependence . ان القلب مثلا يمارس وظيفة اساسية فى الجسم الانسانى تتعلق بتوزيع الدم والسيطرة على الدورة الدموية ، ولكنه لا يقوم بهذا العمل منفردا أو منعزلا عن الرئتين او المخ مثلا ، بل هناك اتصال مستمر وتكامل بين وظائف تلك الاعضاء بحيث ان اى قصور أو تخلف فى مستوى الاداء فى أى منها يترتب عليه تأثير واضح فى أداء الاعضاء الاخرى .

٤ ــ استمرار النشاط ودوريته :

ويتميز النظام المفتوح باستمرار النشاط واتصاله بصفة دورية . ويأخذ النشاط شكل دورة cycle كاملة تغذى نفسها أو تتكامل فيها البدايات والنهايات . فالموارد او المؤثرات التى تثير حركة النظام تتحول الى نتائج output يكون لها تأثيرها مرة اخرى فى نوعية وكمية الموارد الجديدة الذى يستطيع النظام الحصول عليها وهكذا تستمر دورة النشاط .

وما يهمنا من هذه الصفة ، انه بالنسبة للنظم الانسانية والسلوكية فانها تشير الى تراكم آثار الاحداث والمؤثرات حيث ان حدوث حادثة معينة يكون لها دور فى اثارة حادثة تالية تنشأ

بسببها وتتأثر بها ، وهكذا تتراكم الآثار وتدور الدائرة دورتها .

٥ ـ البقاء والاستمرار للنظام

يستطيع النظام المفتوح ان يصمد لعوامل التغيير واحتمالات الفناء وذلك بسبب قدرته على استيراد الطاقة او تعرض نفسه للمؤثرات الخارجية . ولذلك فان هذه الصفة تدلنا على ان فناء بعض النظم المفتوحة (مثل النظم السلوكية) يمكن تصور حدوثه فى معنى غير مادى وذلك حين ينعزل النظام عن البيئة المحيطة ويتوقف عن التفاعل معها .

٦ ـ التوازن الحركى (الديناميكى) :

يهدف النظام المفتوح الى أن يكون دائما فى حالة توازن . ونقصد بحالةالتوازن هذه أمرين: الاول تناسب وتجانس التركيب الداخلى للنظام وتوافق اجزائه وعناصره واقبالها على التعاون والتفاعل معا بلا تناقضات أساسية . والامر الثانى هو تكيف النظام مع البيئة او المناخ وتعايشه مع الاوضاع والظروف السائدة . ويتميز النظام المفتوح بوجود بعض الاجزاء الداخلية بهتختص باستشعار الاختلال فى التوازن وتحذير النظام كله لكى يتخذ من الاجراءات ما يكفل تجنب هذا الاختلال قبل حدوثه ، او استعادة التوازن مرة أخرى اذا وقع الاختلال فعلا .

وتشير حالة التوازن الحركى الى استمرار حركة النظام وتطوره ، فالنظام لا يتجمد او يتوقف عن الحركة ، بل هو يتفاعل دائما مع المناخ ويمارس نشاطاته الذاتية ، ولكن كل ذلك يتم فى توافق بحيث تستمر العلاقات بينه وبين عناصر المناخ . كما تستمر صفة التجانس بين اجزائه عند المستويات التى تحقق له الازدهار والبقاء .

٧ ـ الاتجاه الى التميز والاختلاف :

تميل النظم المفتوحة الى التميز والاختلاف بعضها عن البعض . فكل نظام يبدأ عادة عند مستوى بسيط من التركيب والتعقيد بحيث تتشابه النظم جميعا تقريبا . ولكن مع تطور حركة النظام وتفاعله مع المناخ تتاح له الفرص للحصول على مزايانسبية تفوق ما يحصل عليه غيره من النظم . ويكون لهذه المزايا آثارها فى اذكاء روح التنافس والصراع بين النظم حتى تتمكن تلك الفقيرة اليها من تحقيق مستوى من التميز يعادل ما تتمتع به النظم المتفوقة وتصل بذلك كل النظم او اغلبها الى درجة متقاربة مما يدفع بالنظم الاولى الى البحث عن مصادر وأشكال جديدة للتفوق تسمح لها باستمرار تميزها ، وهكذا تستمر دورة السباق بين النظم .

●●●

اجزاء النظام

يتكون النظام المفتوح من اجزاء رئيسية ثلاثة ترتبط معا فى تكامل وثيق . ولكل من هذه الاجزاء اهمية خاصة فى حركة النظام الكلى وسلوكه . والجزء الاول فى النظام هو المدخلات Inputs اى عوامل التأثير التى تستثير حركة النظام وتدفعه الى السلوك . وهذه المدخلات هى بمثابة الاسباب التى تحرك النظام وتنتقل به من مستوى معين للسلوك الى مستوى آخر . وقد تكون المدخلات مستمرة كما فى حالة نظام الانتاج فى مصنع حيث يتوالى ادخال المواد الخام لتحويلها الى منتجات . ففى هذه الحالة تتدفق المواد الداخلة الى نظام الانتاج بشكل مستمر . وفى حالات أخرى تكون المدخلات متقطعة التوافد على النظام كما هو الحال فى الموقف الذى يتقاطر فيه ورود الرسائل المشحونة من الخارج الى شركة للاستيراد . اذ لاتتخذ الرسائل الواردة شكل تدفق مستمر ، بل تكون فى صورة شحنات متقطعة.

وفى أغلب الاحيان تأتى المدخلات من خارج النظام (٣) ، فمصدرها الاساسى هو المناخ المحيط وما يضمه من نظم أخرى . فكل نظام مفتوح يحصل على الموارد الاساسية لحركته ويستقبل المؤثرات المحركة لنشاطاته من المناخ الذى يوجد به .

وتختلف انواع المدخلات اختلافا كبيرا بحسب طبيعة النظام والاهداف التى يسعى اليها والانشطة التى يختص بالقيام بها . ولكن يمكن تقسيم المدخلات الى قسمين رئيسيين ، الاول هى المدخلات التى يسعى النظام الى الحصول عليها بسبب حاجته اليها ، ومن هنا يخصص بعض أعضائه للبحث عنها وتدبير توافرها بانتظام واستمرار .

والقسم الثانى هو المدخلات التى تفرض على النظام من واقع المناخ المحيط وظروفه ولا يكون أمامه سوى استقبالها واستيعابها ومحاولة الافادة منها . ومثالنا على القسم الاول من المدخلات المواد الخام والامكانيات البشرية والمادية والمعلومات وأنوع الخبرة والمعرفة التى يسعى النظام الى امتلاكها وتأمين توافرها نظرا لضرورتها واهميتها لحركة النظام واستمرار وجوده . اما النوع الثانى من المدخلات فيتمثل فى انواع التغييرات فى الظروف والاوضاع المحيطة بالنظام والتى يواجه ضرورة التكيف معها وادماجها ضمن عملياته . ومنها ايضا اشكال الموارد التى قد لايحتاجها النظام ولكنها تفرض عليه فى مقابل حصوله على مايحتاج من موارد أخرى محدودة العرض .

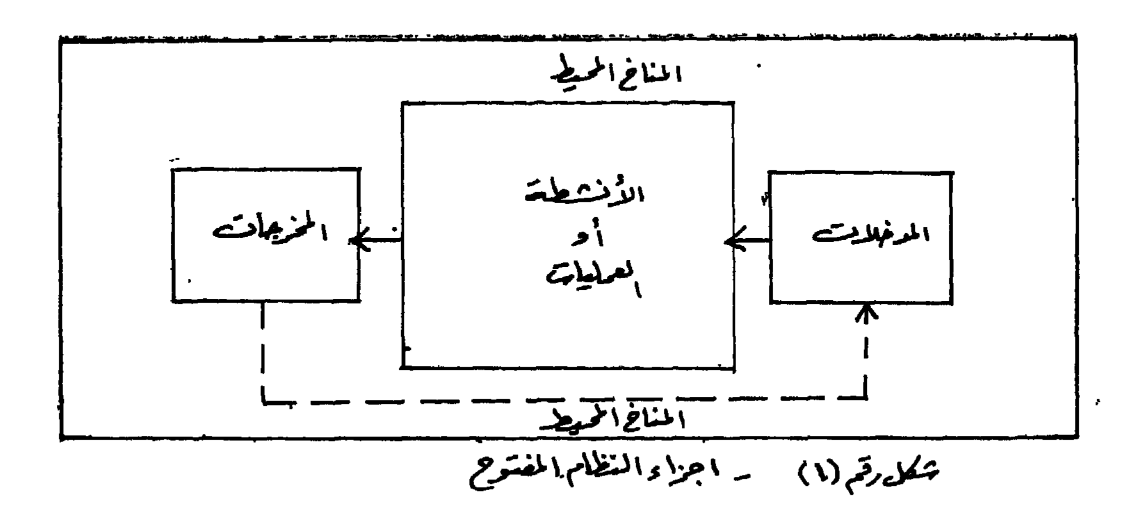
وتؤدى المدخلات على اختلاف أنواعها وظيفة أساسية فى النظام المفتوح وهى اثارة الحركة وتوفير الظروف الملائمة لكى ينطلق النظام فى سلوك معين . ومن هذا تتضح لنا الاهمية الخاصة التى تتمتع بها المدخلات فى أى نظام اذ يعتمد النشاط فيه على نوعية تلك المدخلات ومعدلات تدفقها .

اما الجزء الثانى فى النظام المفتوح فهو ذلك المختص باداء العمليات والانشطة الهادفة الى تحويل المدخلات وتغييرها من طبيعتها الأولى الى شكل آخر يتناسب ورغبات النظام وأهدافه . ويماثل هذا الجزء فى الانسان مثلا الاجهزة المختصة بالتفكير والتأمل والاختيار والمقارنة (أى المخ ومايجرى فيه من عمليات ذهنية) . وقيمة هذا الجزء من النظام أنه الذى يتولى ممارسة الواجبات والانشطة التى ينتقل بها النظام خطوة نحو تحقيق أهدافه . وهو الجزء الذى يتمكن النظام بفضله من استثمار المدخلات والافادة منها (أو التخلص من المدخلات غير المتوافقة مع النظام) . وفى هذا الجزء يستهلك النظام الطاقات المتاحة له ويستنفد الموارد التى تمكن من تدبيرها .

ويتمثل الجزء الثالث من النظام المفتوح فى سلسلة الانجازات أو النتائج المتحققة عن العمليات والانشطة التى قام بها النظام ، بمعنى ان هذا الجزء الاخير يضم نتاج عمل النظام الذى يتبلور فى اشكال وانماط مختلفة تمثل مايقدمه النظام للمناخ فى صورة مخرجات Output . وتلك المخرجات هى وسيلة النظام للحصول مرة أخرى على الموارد او المدخلات اللازمة لاستمراره فى النشاط . والشكل التالى يصور النمط العام للنظام المفتوح باجزائه الثلاثة :

---

(٣) فى بعض الاحيان ينبع الاحساس بالمؤثرات التىتمارس دور المدخلات من داخل النظام ذاته . ومثال ذلك الاحساس بالجوع عند الانسان ، فان هذا التاثير ينبع من اوضاع طبيعية داخل الانسان ولكنها تؤدى وظيفة اثارة السلوك شانها شان المثيرات الخارجية .



شكل رقم (١) ـ اجزاء النظام المفتوح

من الشكل السابق تتضح لنا اجزاء النظام المفتوح ، كما نستدل على طبيعة العلاقة المتداخلة بين المخرجات والمدخلات او مايطلق عليه « ارجاع الاثر » Feed Back ويقصد بها احساس النظام بقيمة المخرجات ومدى تقبل المناخ لها ، ومن ثم تاثير ذلك على مايمكن ان يحصل عليه النظام مرة اخرى فى شكل مدخلات .

وفى ضوء هذا التصور للنظام المفتوح ، نستطيع ادراك وجود مجموعة من النظم الفرعية subsystems يشملها النظام الاكبر ويختص كل منها بجانب من العمليات التى تتم فى الجزء الثانى من النظام . واهم هذه النظم الفرعية مايلى :

١ ـ نظام فرعى يختص بالاحساس بالتغييرات التى تطرأ على النظام وقياس مداها وتوفير حلقة للاتصال بين النظام والمناخ .

٢ ـ نظام فرعى لتحليل المعلومات وتداولها بحيث تتجه الى اجزاء النظام التى تحتاجها فى عملياتها .

٣ ـ نظام فرعى لاتخاذ القرارات والتوصل الى اختيارات بشأن بدائل السلوك المطروحة امام النظام .

٤ ـ نظام فرعى للرقابة والتأكد من سلامة العمليات التى تقوم بها اجزاء النظام وتناسقها .

٥ ـ نظام فرعى لاختزان المعلومات والخبرات (ذاكرة) وتصنيفها بحيث يمكن للنظام او اجزائه استرجاعها والافادة منها فى المواقف التى يتطلب الامر فيها الرجوع الى الخبرة الماضية . (٤)

• • •

(٤) Kast, F. & Rosenzweig, J., „Systems Concepts ; Pervasiveness and Potential" in French W. & Hellriegel, (Eds.) Personnel Management and Organization Development : Fields in Transition. Boston. Houghton Mifflin Co. 1971, pp 3-15.

الفائدة التحليلية لمفهوم النظم :

يوفر مفهوم النظم مدخلا علميا سليما يساعد الباحث على تحقيق أهدافه فى تفسير الظواهر والتنبؤ بها ، كما يسهم فى تمكينه من السيطرة على مسارات تلك الظواهر وأنماط سلوكها . وتنبع القيمة العلمية لهذا المفهوم من الامكانيات التحليلية الهائلة التى يستطيع الباحث الاستفادة منها فى دراساته . ومن دراستنا لمفهوم النظم نستطيع استنتاج عديد من الحقائق التى تصف الظواهر الطبيعية والانسانية المختلفة والتى تتخذ شكل النظام. ومن أهم هذه الحقائق مايلى :

١ ـ ان الظاهرة التى تتخذ شكل النظام ترتبط ارتباطا وثيقا بالمناخ الذى توجد فيه . ومثل هذا الارتباط يفسر لنا كثيرا من سلوك تلك الظاهرة . واذا اتخذنا المنظمة مادة لدراستنا الآن ، يمكن أن نفهم الكثير عن انماط ومظاهر السلوك التنظيمى من خلال تأمل العلاقة بينها وبين المناخ . وبشكل عام فالمنظمة (أو النظام عموما) ترتبط بعلاقة اعتماد متبادل بالمناخ حيث تتأثر بالظروف والاوضاع السائدة فيه وتلتزم بكثير مما يفرضه من قيود ومتطلبات ، كما تحاول التأثير فى تلك الظروف والأوضاع وتغييرها أو اخضاعها لنظم العمل بها ومتطلبات حركتها ونموها . وتتحدد أبعاد العلاقة بين الظاهرة والمناخ فى الآتى :

أ ـ تستمد النظم وجودها كله ومبرر استمرارها ونموها من حاجة المناخ اليها والى ما يمكن ان تقوم على انتاجه .

ب ـ تستمد النظم الموارد والامكانيات اللازمة لها كى تمارس نشاطاتها وتحقق اهدافها من المناخ المحيط بها ، وتتوقف كفاءتها الى حد بعيد على مدى مايسمح لها به المناخ من تلك الموارد والامكانيات .

ج ـ يستوعب المناخ ماتفرزه النظم من منتجات مادية او معنوية (أو بشرية) . وبذلك فهو المصب الرئيسى الذى تتجه اليه مخرجات النظم ومن هنا يستطيع ممارسة اشكال من الضغط عليها من خلال قبوله أو رفضه لتلك المخرجات .

وبصفة عامة فان المناخ هو الذى يهيء للنظام فرص الوجود والنشاط والاستمرار ، كما يستطيع أن يحجب عنه الامكانيات والموارد الضرورية لبقائه وفعاليته. ومن ناحية اخرى، فان النظم ومايجرى بها من حركة وما يتراكم لديها من خبرات وقدرات تعمل من جانبها على تغيير المناخ وتطوير اوضاعه بما يهيء لها فرصا أفضل للعمل والبقاء .

٢ ـ فى ضوء دراستنا لمفهوم النظم نصل الى حقيقة هامة هى أن مايتحقق عنه من منجزات ونتائج (مخرجات) ان هى الا نتيجة حتمية لنوعية وكفاءة المدخلات والانشطة بالنظام . ومعنى هذا أن النظام لايستطيع انجاز وتحقيق نتائج تفضل نوعية مايحصل عليه من موارد وامكانيات ، أو تتفوق على جودة مايتم به من انشطة . ان المخرجات هى حصيلة التفاعل بين المدخلات والانشطة ، ومن ثم فان أى تخلف أو تدهور فى أيهما يسبب تخلفا وتدهورا فيما يمكن أن يصل اليه النظام من مخرجات . وعلى سبيل المثال اذا اعتبرنا الخريجين هم مخرجات الجامعة باعتبارها نظاما متفاعلا مع البيئة ، فان نوعية هؤلاء الخريجين ومستواهم العلمى تتوقف تماما على نوعية الطلاب الذين يلتحقون بالجامعة وكفاءة أعضاء هيئة التدريس ومستوى الامكانيات المادية والعلمية المتاحة للجامعة ، بالاضافة الى دقة وكفاءة العمليات التعليمية والادارية والعلمية بها . والاستنتاج الهام الذى يعنينا هنا هو أن الرغبة فى تحسين وتطوير الناتج تعتمد بالدرجة الاولى على تحسين الموارد وترشيد الانشطة وتطويرها .

٣ ــ وثمة حقيقة ثالثة ندركها من تأمل فكرة النظام ، هى أن كفاءة الانشطة ومستوى العمليات التى يمارسها النظام تتأثر الى حد بعيد بجودة المدخلات ووفرتها . أى أن الاعمال التى يقوم بها اجزاء النظام تتحدد فعاليتها نسبيا بحسب نوعية الموارد والامكانيات المتاحة فترتفع الفعالية اذا كانت الموارد جيدة ، وتنخفض بانخفاض الجودة . ولعل مثالنا السابق عن الجامعة خير دليل على هذه الحقيقة . ان كفاءة الانشطة التعليمية ترتفع اذا كان الطلاب بالجامعة قد حققوا مستوى علميا وثقافيا طيبا بالمرحلة الثانوية يمكنهم مثلا من الدراسة باللغات الاجنبية والاطلاع على المراجع بتلك اللغات ، بينما تتدنى العملية التعليمية اذا اقتصر هؤلاء الطلاب الى معرفة اللغات الاجنبية .

٤ ــ كذلك يتضح لنا ان المدخلات يمكن ان يتحقق عنها مخرجات متباينة فى المستوى والجودة وذلك تبعا لتباين كفاءة وفعالية الانشطة . بمعنى أن المدخلات ذاتها يمكن ان ينتج عنها مخرجات تختلف فى جودتها من نظام لآخر ، وذلك طبقا لدرجة كفاءة الانشطة فى تلك النظم . فعلى سبيل المثال اذا كانت أنشطة البحث والتحليل العلمى على درجة عالية من الكفاءة فى أحد النظم السياسية فانه يستطيع استنتاج مؤشرات وحقائق غاية فى الدقة والاهمية من تحليل مجموعة معينة من البيانات أو الاحصاءات ، بينما لا يصل نظام آخر الى نفس النتائج رغم حصوله على البيانات ذاتها وذلك بسبب تخلف الانشطة المختصة فيه . ولعل القيمة الرئيسية لهذه الحقيقة تكمن فى كونها تشير بدقة الى خطأ الاعتقاد السائد بضرورة اتفاق المخرجات وتشابهها اذا اتفقت المدخلات . ولهذهالحقيقة اهميتها فى الدراسات السلوكية حيث تنبه الى خطأ توقع تشابه السلوك بين الافراد المختلفين الذين يخضعون لنفس الظروف أو يواجهون معلومات وحقائق واحدة .

٥ ــ ومن الحقائق الهامة التى يكشف عنها تحليل فكرة النظم ، ان ما يتحقق عن النظام من مخرجات يعود ليؤثر فى قدرته على استقطاب موارد الانشطة . ولكى تتضح لنا هذه الحقيقة لنتصور معا شركة صناعية تقوم بانتاج سلعة ما ، ولتكن سيارة . لا شك اننا نستطيع ادراك أن جودة السيارات المنتجة وسعرها ومواصفاتها الاخرى تحدد قبول المستهلكين لها (الى جانب عوامل اخرى) ، وأن حجم المبيعات من هذه السيارات يحكم الى مدى بعيد قدرة الشركة على ايجاد مصادر الغيار وأداء كافة النفقات الانتاجية والادارية اللازمة لكى تستمر فى النشاط ومواصلة التمويل اللازمة لاعادة شراء المواد الخام وقطع الغيار وأداء كافة النفقات الانتاجية والادارية اللازمة لكىتستمر فى النشاط ومواصلة الانتاج والنظم كلها تتصف بهذه السمة الهامة ، وهى اعتماد النظم فى مواصلة نشاطه على قبول المناخ لمخرجاته حتى يتمكن من الاستمرار فى جلب المدخلات اللازمة . وبشكل عام فان هذه الحقيقة تشير الى تأثير المخرجات وكذا الانشطة المستقبلة للنظام . (٥)

٦ ــ وتلعب الاجزاء المختصة باستقبال المدخلات دورا هاما وحيويا فى كفاءة النظام كله . اذ تستطيع تلك الاجزاء اذا أحسنت الاداء أن توفر للنظام المدخلات السليمة فى التوقيت المناسب ، كما تستطيع افساد هذه المدخلات وتشويه خصائصها ، الامر الذى ينعكس على كفاءة الانشطة والمخرجات كما أوضحنا من قبل . وعلى سبيل المثال فان ادارة المشتريات وادارة الاستلام فى أحد

(٥) سوف نستفيد بهذه الحقيقة الى حد بعيد عنددراسة النظم السلوكية حيث انها تشير الى ان السلوك النهائى للفرد (مخرجات النظام السلوكى) يؤثر فى اختيارهلانواع المدخلات الجديدة (معلومات او قيم) كما يؤثر فى طريقة تفكيره وادراكه للامور وغير ذلكمن العمليات السلوكية.

المصانع هى أهم اجزاء النظام حيث تعنى بتوفير المواد (المدخلات) واستقبالها واعدادها للاستخدام . فاذا انخفضت كفاءة تلك الادارات فان كفاءة المصنع كلها تكون عرضة للانهيار . وبنفس المنطق فان ادارة الافراد التى تقوم على اختيار العاملين (أحد عناصر المدخلات) واستقبالهم وتدريبهم يمكن أن تسهم بدرجة عالية فى نجاح النظام اذا ارتفعت كفاءتها ، كما تستطيع احداث أضرار بالغة به اذا لم ترتفع الى المستوى المناسب من الكفاءة والفعالية .

والانسان يعانى من نفس الحقيقة ، اذ يعتمد السلوك الانسانى بدرجة كبيرة على دقة وحسن مراكز الحس والشعور عند الانسان وهى أدوات الادراك واستقبال المؤثرات (المدخلات) . فاذا افتقر الانسان الى حاسة الابصار مثلا فان قدرته على الادراك تنخفض ومن ثم تتأثر العمليات السلوكية لديه وتنحصر انماط السلوك الممكنة عنده فى نطاق ما يمكنه ادراكه .

كذلك فان اجزاء النظام المعنية باظهار المخرجات والتعبير عنها وتقديمها للمناخ تلعب هى الاخرى دورا هاما فى انهاء العمليات وتكليلها بالنجاح . واذا عدنا الى الانسان فلا شك ان طريقته فى التعبير عن افكاره وأسلوبه فى الكلام مثلا لهما أشد الاثر فى قبول او رفض مايقول . وقد يتخذ الناس موقفا معاديا ليس لأن الانسان أخطأ فى التعبير عنها .

ان ماذكرناه عن الفوائد التحليلية لمفهوم النظم يتبلور فى نتيجة رئيسية ، هى اننا نستطيع تحقيق الاهداف التى يسعى اليها العلم اذا استخدمنا هذا المفهوم كاطار للبحث والتحليل . ان العلم يسعى الى تفسير الظواهر والتنبؤ بسلوكها المحتمل من اجل تحقيق السيطرة عليها واخضاعها لانماط سلوك محددة . وتتحقق هذه الاهداف من خلال تحليل النظم اذ أن تحليل العلاقة بين المدخلات والمخرجات يسهم فى تفسير الظاهرة. كما ان دراسة علاقة الانشطة بكل من المدخلات والمخرجات يوفر الاساس للتنبؤ بسلوك الظاهرة وبالتالى السيطرة عليها .

●●●

ماهية السلوك الانسانى :

نحن نستخدم كلمة السلوك للدلالة على كل أشكال الحركة الانسانية ، فالافعال والتعبيرات ومحاولات التأثير وغيرها من الانشطة التى يمارسها الانسان خلال حياته كلها تدخل جميعا فى نطاق مانشير اليه بكلمة السلوك .

والسلوك الانسانى فى تصورنا يتمثل فى سلسلة متعاقبة من الافعال actions وردود الافعال reactions التى تصدر عن الانسان فى محاولاته المستمرة لتحقيق اهدافه واشباع رغباته المتطورة والمتغيرة . كذلك هى الافعال أو الاستجابات التى يعبر بها الانسان عن قبوله أو رفضه لمحاولات التأثير الموجهة اليه من عناصر المناخ المحيط به سواء كانت عناصر بشرية أم مادية .

ان السلوك الانسانى هو مصدر كل القيم فى حياتنا البشرية ، وهو مصدر كل النشاط المنتج المحقق للغايات والأهداف الانسانية . وتعم آثار السلوك الانسانى مختلف مجالات الحياة . فنحن نلمس ونشعر بتلك الآثار من حولنا فى صور شتى . فالعلوم والفنون والآداب والثقافات جميعا هى حصيلة العمل الانسانى . ومظاهر الحضارة المادية التى نستخدمها فى اشباع حاجاتنا هى الأخرى نتاج الجهد الانسانى .

وللسلوك الانسانى الى جانب آثاره الايجابية البناءة . آثار أخرى مدمرة للقيم الانسانية ومعوقة لمسيرة الانسان على طريق التقدم

والرخاء . فالحروب والغزوات العدوانية ، وتسخير طاقات العقل البشرى لنشر الموت والدمار ، واشكال الاستغلال التى يمارسها بعض البشر بالنسبة لغيرهم ان هى جميعا الاصور للآثار السالبة للعمل الانسانى .

واذا كان العلم قد اتجه الى محاولة فهم ظواهر الطبيعة من أجل تحقيق ارادة الله سبحانه وتعالى فى تسخيرها لخير البشرية ، فان جانبا رئيسيا من اهتمام العلم يجب ان يتجه فى الاساس الى تحليل السلوك البشرى والقاء الضوء على متاهات النفس البشرية .

مجالات الدراسة العلمية للسلوك

تتجه الدراسة العلمية للسلوك الانسانى الى مجالات ثلاثة هى :

١ ـ البحث فى محددات السلوك وعوامل نشأته والأسباب التى تجعل الافعال وردود الافعال الانسانية أمورا ملحوظة ومشاهدة . والتساؤل الاساسى هنا يدور حول عملية اثارة السلوك arousal . فالعلم يريد استكشاف المثيرات stimuli التى تحرك الانسان لكى يتصرف أو يفعل أو يستجيب respond .

وتتركز اهمية الدراسة فى هذا المجال فى انها تسمح للباحث بالفهم الموضوعى والتفسير السليم لمظاهر السلوك التى قد لا يستطيع المشاهد (وفى بعض الاحيان الانسان الذى صدر عنه السلوك ذاته) ان يجد لها تفسيرا منطقيا مقنعا .

٢ ـ اما المجال الثانى للبحث السلوكى فيتجه فيه الباحث للتعرف على كيفية تكون السلوك وتبلورة قبل أن يتبدى فى الصورة الظاهرة . وعملية التكون هذه formation تمثل الجانب الاصعب فى الدراسة السلوكية حيث تتم عادة فى الذهن الانسانى وتتمثل فى عدد من العمليات الذهنية المستترة التى يستحيل مشاهدتها أو ملاحظتها ، ومن ثم لابد للباحث من الاعتماد على بعض الاساليب المتطورة التي تسمح له بدراستها وقياسها .

وتكمن خطورة هذه المرحلة من الدراسات السلوكية فى أنها توفر الاساس الموضوعى للتنبؤ بالسلوك المحتمل دون انتظار لتحققه فعلا . ويسمح التنبؤ بالسلوك بان يتخذ من الاجراءات والاساليب ما يوفر القدرة على السيطرة عليه والتحكم فى مساره اعتمادا على الفهم المسبق لأسبابه ودوافعه الذى تحقق من دراسة عوامل اثارته فى المرحلة السابقة .

٣ ـ ويختص المجال الثالث للدراسة السلوكية بالبحث فى اشكال وانماط ووسائل التعبير عن السلوك ، اى عملية تحليل الانماط السلوكية المشاهدة وتصنيف السلوك واستنتاج العلاقات المنطقية بين الإنماط المختلفة من ناحية ، والعلاقات بين تلك الإنماط ومسبباتها وبالظروف المحيطة بها من ناحية أخرى .

وتفيد هذه الدراسات فى متابعة آثار محاولات السيطرة على السلوك وتبين مدى فعالية الاجراءات والاساليب المتبعة فى احداث التغييرات المستهدفة فى سلوك الأفراد أو الجماعات المعنية .

ويلاحظ اننا اعتمدنا فى تحديد مجالات الدراسة السلوكية على منطق النظم فالمجال الأول وهو دراسة المثيرات او المحددات السلوكية يختص بالمدخلات فى النظام السلوكى behavioral inputs ، اما المجال الثانى الذى يدرس عملية تكوين السلوك فانه يتعادل مع فكرة الانشطة activities فى مفهوم النظام . ويختص المجال الثالث بدراسة انماط السلوك المشاهدة وهى عبارة عن مخرجات النظام السلوكى behavioral outputs .

● ● ●

السلوك الانسانى باعتباره نظاما مفتوحا

يمكن تصور السلوك فى هيئة نظام مفتوح تنطبق عليه كل خصائص وصفات تلك النظم. وفى ضوء هذا التصور ينقسم النظام السلوكى الى اجزاء رئيسية ثلاثة هى :

١ ــ المدخلات السلوكية ــ وهى المثيرات الأولية stimuli .

٢ ــ العمليات السلوكية ــ وهى الانشطة الذهنية التى تتعامل مع المثيرات وتهيء النظام لاتخاذ قراراته السلوكية .

٣ ــ المخرجات السلوكية ــ وهى الاستجابات responses التى تصدر عن النظام السلوكى فى مواجهة المثيرات .

كذلك يتضمن النظام السلوكي فكرة « ارجاع الاثر » feed back وهى عودة المعلومات مرة أخرى عن رد فعل المناخ بالنسبة للمخرجات السلوكية وتأثير تلك المعلومات فى اعادة تشكيل المدخلات والعمليات السلوكية .

ونستطيع تمثل النظام السلوكى بصورة أوضح اذا تأملنا معا الشكل رقم (٢) الذى يعرض نموذجا للنظام السلوكى باجزائه المختلفة :

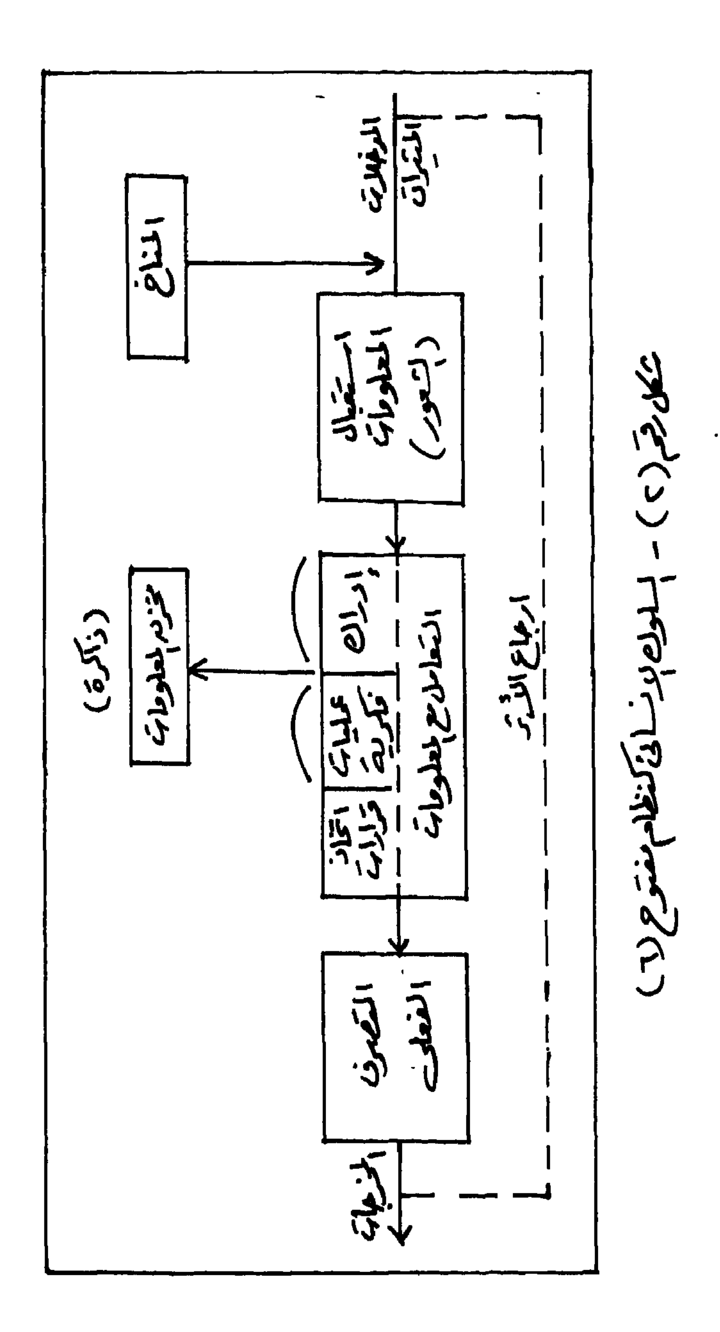
المدخلات واستقبال المعلومات :

ان الشكل السابق يدلنا على خاصية هامة للنظام السلوكى وهى أن حركة النظام كلها تتوقف على ورود المدخلات واستقبال المعلومات . والنظام السلوكى يماثل فى ذلك كل النظم الأخرى . وحين نتأمل النظام السلوكى نجد أن الحركة السلوكية المتمثلة فى عمليات مختلفة والمتبلورة فى النهاية على شكل استجابات محددة ، تبدأ عند استثارتها بتأثير مثيرات تصل الى النظام فى شكل معلومات تتخذ رموزا وانماطا متعددة . وحين تصل المعلومات تستقبلها أجهزة الاحساس بالنظام السلوكى وهو ما يعبر عنه بعملية الشعور sensation وهى تتولى ارسالها فى صور جديدة الى منطقة التعامل معها ضمن مجموعة العمليات الذهنية المختلفة .

وفى ضوء النموذج فى الشكل رقم (٢) فان حركة النظام السلوكى تنشأ وتتطور بتأثير المدخلات او المثيرات ، وهى عبارة عن أشكال من المعلومات تتدفق على النظام السلوكى من المناخ المحيط به ، كما يحسها من تكوينه الداخلى ذاته . ونقصد بتعبير المعلومات information كل المؤشرات والرموز والدلالات والايحاءات التى تعكس للنظام السلوكى الاوضاع والظروف والأجواء المحيطة به ، وما يعتريها من تغيير وتطور . أن النظام السلوكى اذ يوجد فى مناخ يضم نظما سلوكية أو مادية أخرى ، فانه يتفاعل مع تلك النظم ، ويتم التفاعل جزئيا من خلال استقبال النظام السلوكى للمعلومات عن تلك النظم الاخرى من ناحية ، كما يتحقق عن طريق ارسال النظام السلوكى لاشارات منه تمثل معلومات تستقبلها النظم الأخرى بدورها .

ويستقبل النظام السلوكى اذن انماطا مختلفة من المعلومات يمكن تصنيف مصادرها فى الآتى :

١ ــ معلومات صادرة عن نظم سلوكية اخرى ، وهى تمثل افعال وتصرفات وانماط سلوك البشر الآخرين الذين يتعامل معهم الانسان سواء بشكل مباشر أو غير مباشر .



شكل رقم (٢) - السلوك الإنساني كنظام مفتوح (٦)

---

(٦) اعتمدنا فى هذا الشكل على :

Kolasa, B., Introduction to Behavioral Science for Business
N. Y. Willey & Sons, 1969, p. 153

٢ ـ معلومات صادرة عن نظم مادية تعيش فى المناخ ، ومنها أصوات السيارات ودقات الساعة ، وسرعة القطارات ، وأحجام المبانى وارتفاعاتها ، وحركة الآلات ووقعها ، الى غير ذلك من الاشارات والرموز الصادرة عن آلات النوعيات من النظم المادية التى يعايشها الانسان فى كل لحظة من حياته ويستخدمها او يستفيد منها بدرجة أو اخرى

٣ ـ معلومات صادرة عن نظم معنوية تحتوى بداخلها مجموعات متباينة من النظم السلوكية والمادية . ومثالنا على تلك النظم المعنوية المنظمات والمؤسسات المختلفة فى المجتمع وما يصدر عنها من تصرفات وبيانات واجراءات ومحاولات تأثير مختلفة تستهدف الانسان بشكل أو آخر .

٤ ـ معلومات صادرة عن نظم طبيعية natural كالشمس والقمر والرياح والبحار والانهار والمحيطات وغيرها من عناصر الطبيعة وما يصدر عنهامن أصوات وحركات ومؤشرات مختلفة .

٥ ـ والمصدر الاخير للمعلومات التى يستقبلها النظام السلوكى هو النظام ذاته واجزاؤه المختلفة . ان حركة أجزاء النظام وتفاعلاتها معاتستهلك الموارد والطاقات المتاحة للنظام ، ومن ثم تصدر عن تلك الحركة مؤشرات (معلومات) توجه النظام لضرورة تدبير طاقات جديدة . كذلك فان الحركة بين اجزاء النظام اذ تنتهى الى ناتج معين فانه يصاحب ذلك الناتج مؤشرات تنبه النظام الى ضرورة العمل من أجل التعبير عنه أو التصرف فيه .

وسائل استقبال المعلومات

ان المعلومات أو المثيرات لا قيمة لها اذا لم يستقبلها النظام السلوكى . ومن ثم فان ادوات استقبال تلك المعلومات تمثل ركنا أساسيا من النظام كما أسلفنا . وفى النظام السلوكى تتركز عملية استقبال المعلومات فى عدد من الاعضاء أو الاجهزة هي أعضاء الاستقبال الحسى sense receptors وتختص هذه الاعضاء باستقبال المعلومات عن الغيرات فى المناخ المحيط بالانسان واعادة ارسالها فى صور متطورة الى أجهزة التحليل والتعامل مع تلك المعلومات . وهذه الاعضاء هى :

البصر vision

ان جانبا كبيرا من المعلومات التى يستقبلها النظام السلوكى يتم من خلال حاسة الابصار . فالعين عبارة عن جهاز غاية فى الدقة والتعقيد . « ان الابصار عملية تأخذ اشكالا متعددة غير الشكل التقليدى الذى نعتقد به » (٧) . وفى الظروف العادية تستطيع عين الانسان رؤية شعلة عود ثقاب على بعد ٥٠ ميلا ، كما يمكنها رؤية سلك قطره $\frac{1}{١٦}$ من البوصة على بعد نصف ميل (٨) . والمثير الذى تتم رؤيته فى النهاية فى صورة ضوء هو فى الحقيقة انعكاس لطاقة كهرومغناطيسية . ولا تستطيع عين الانسان استقبال كل تلك الانعكاسات الصادرة اليها ، بل هى تستقبل فقط جزءا من تلك الطاقة التى تنتقل فى شكل موجات متباينة الأطوال . « ويمر الضوء العابر الى العين باكثر من وسط قبل ان يصل الى خلايا الابصار فى الجزء الخلفى للشبكية . فالضوء

---

(٧) عمر محمد جبرين ، الابصار ـ بعض الياتهالعضوية والنفسية ـ مجلة عالم الفكر المجلد الخامس ـ العدد الثالث ـ اكتوبر ، نوفمبر ، ديسمبر ، ١٩٧٤ ص ٢٠٦

(٨) Kolasa, op.cit, p.155

يعبر القرنية فالتجويف الامامى للعين فالعدسة ثم يصل الى التجويف الخلفى (الكبير) فى العين (٩) وعند وصول الضوء الى خلايا الابصار تقوم في هذه الخلايا الضوئية عمليات كيماوية تنتهى بارسال نتائجها بشكل اشارات كهربائية فى اتجاه معاكس لاتجاه الضوء . (١٠) وتترجم عملية الابصار فى النهاية داخل الجهاز الحسى الى شحنات كهربائية رمزية يفهمها الدماغ الذى لايفهم سوى لغة الكهرباء .

ومن العوامل الهامة التى تجدر دراستها عند تأمل موضوع الابصار مايلى : قدرة عدسة العين على تغيير شكلها لتتناسب مع نوع المثير الضوئى . وينتج عن هذه القدرة دقة استقبال العين للمرئيات ، كما نتوقع ان يؤدى عدم انضباط عدسة العين الى تشويه الصورة المرئية . من ناحية أخرى تعتبر درجة حساسية العين على مستوى بالغ من الأهمية اذ تحدد الحد الادنى من الضوء الذى يمكن رؤيته ، والقدرة على تمييز الفروق الدقيقة بين ضوئين ، وكذلك تحدد قدرة العين على التكيف مع حالات نقص الضوء (الاظلام) . كذلك فان حساسية العين بالنسبة للألوان تلعب دورا هاما فى عملية الابصار . ان الألوان جميعا تبدو رمادية فى حالات الضوء شديد الانخفاض ، كذلك فان الألوان تزداد وضوحا او عتامة بحسب درجة الضوء . ونظرا لاهمية الالوان فقد استقر العرف على استخدام بعضها لنقل معان معينة الى النظام السلوكى. فاللون الاحمر مثلا ينقل رمز الايحاء بالخطر ، بينما يعنى اللون الاخضر الأمان .

وتتلخص قدرة الابصار بشكل عام عند الانسان (وهى محصلة لتركيب العين وكفاءة الاجهزة المختلفة بها) فيما يسمى القدرة الابصارية acuity وهى قدرة الانسان على تمييز الفروق الدقيقة بين المثيرات وتقاس بمقياس عبارة عن خريطة تحتوى حروفا من أحجام مختلفة تمثل بعضها مايستطيع الانسان العادى رؤيته على بعد معين ، وتنسب القدرة الابصارية للاشخاص المختلفين الى هذه القدرة المتوسطة . (مثلا المقياس ٢٠/٢٠ يعنى ان الشخص موضع الاختبار يستطيع رؤية مايراه الانسان العادى على مسافة ٢٠ قدما من نفس البعد ، اما المقياس ٢٠/٢٠٠ فيعنى ان هذا الشخص يرى من بعد ٢٠ قدما مايراه الانسان العادى على بعد ٢٠٠ قدم) .

السمع Audition

يمثل السمع وسيلة ثانية يستقبل بها النظام السلوكى المثيرات الخارجية . ولا تقل اهمية السمع عن عملية الابصار ، بل انه يزيد فى الاهمية فى كثير من المواقف التى لاتتوفر فيها الظروف المناسبة للابصار السليم . وتتم عملية السمع بسبب التغييرات المادية فى ضغط الهواء الناتجة عن اهتزاز الاجسام فينتقل الصوت فى شكل موجات تستثير الاذن وتجعل النظام السلوكى قابلا لاستقباله .

وتتميز المثيرات الصوتية بثلاثة خصائص هى التذبذب frequency ، والشدة intensity ، والتعقيد complexity . وتشير خاصية التذبذب للتباين فى الموجات الصوتية وتقاس بمقياس سيكل/ثانية cycle/second ، اما الشدة او القوة فهى درجة ضغط الصوت . وكذلك تتصف الاصوات المسموعة بدرجات من التعقد ، اذ انه يندر فى الحياة الحقيقية ان نسمع صوتا من

(٩،١٠) عمر محمد جبرين ، المرجع سابق ، ص ٢١٦

(١١) Davis, H. Excitation of auditory receptors,. In field et al. (eds.) Handbook for physiology. (vol. I. Washington, D. C. American physiological society, 1959, pp. 565-584.

نغمة واحدة فهذا لايحدث الا فى معمل التجارب ، بل عادة نحن نسمع أصواتا معقدة مركبة من نغمات مختلفة .

ويجب أن نلاحظ أن الصفات السابقة للاصوات هى الخصائص المادية للمثير الصوتى،ولكن مايسمعه الانسان او مايستقبله النظام السلوكى فعلا هو أمر مختلف . ان النظام السلوكى يستقبل الانعكاسات النفسية لتلك الخصائص المادية . فالذبذبة مثلا يقابلها من الناحية النفسية مايسمى pitch او الارتفاع ، كما يعادل القوة أو الشدة خاصية نفسية هى الضخامة loudness .

وتقوم الاذن بوظيفة تحويل الضغط المادى للموجات الصوتية الى تجربة نفسية يستقبلها النظام السلوكى ويتعامل معها . وتتم هذه العملية من خلال عبور الموجات الصوتية قناة الاذن لكى ترتطم بطبلة الاذن Eardrum وبالتالى تسبب اهتزازها . وتنتقل تلك الاهتزازات الى عظام الاذن الوسطى وتمر بواسطتها الى الاذن الداخلية ومن ثم تنتقل فى صورة نبضات عصبية الى الدماغ .

ومن الواضح أن للسمع وظائف حسية واخرى نفسية . ان الانسان يجب أن يسمع مايدور حوله ، كما يجب أن يسمع نفسه . لذلك فان حالات ضعف السمع التى قد تصل الى الصمم تسبب ازعاجا نفسيا بالاضافة الى التشويه المادى لقدرة النظام السلوكى على استقبال المثيرات وبالتالى تخفيض قدرته على الاستجابة لها .

الشم والتذوق

وهاتان الوسيلتان فى استقبال المثيرات تنتميان الى مجموعة الحس الكيماوى .

وتعتبر عملية الشم من أكثر عمليات الاحساس دقة وتعقدا . وتتم عملية الشم حينما تثير التكوينات الكيماوية فى الهواء أعضاء الحس الشمى فى الأنف لدى الانسان . ويلاحظ ان الانسان حين يحتاج الى التدقيق فى الشم فانه يعمد الى استنشاق كمية أكبر من الهواء . وتتفاوت حاسة الشم لدى النظم السلوكية المختلفة ومن ثم تختلف قدرتها على استقبال مثيرات شمية معينة مما يؤثر فى درجة استجابتها لتلك المثيرات .

اما عملية التذوق فهى تتعلق باستقبال المعلومات عن جانب من خصائص المناخ او عناصره . ويمكن تقسيم عملية التذوق الى اربعة أجزاء هى تذوق العناصر الحلوة (السكرية) والعناصر المالحة ، والعناصر المرة واخيرا العناصر عديمة الطعم . فلكل من تلك العناصر اعضاء استقبال حسى خاصة بها فى مناطق معينة فى اللسان والحلق .

وبرغم اهمية الشم والتذوق الا انه من غير المعروف على سبيل التأكد كيف تتم هاتان العمليتان . وكل ماهو معروف هو ان المثيرات تتحول بعملية ما الى رموز بواسطة أعضاء الحس الشمى والذوقى لكى ترسل الى مناطق تحليل المعلومات والتعامل معها ضمن العمليات الذهنية المختلفة ومنها تخرج فى صورة نبضات للدماغ يتم فى ضوئها التصرف او الاستجابة . (١٢)

اللمس

تحتوى طبقة الجلد التى تغطى الجسم الانسانى على أدوات لاستقبال معلومات عن نوع آخر من المثيرات . تلك هى الحرارة ، والبرودة ، والضغط والألم . ويختص بعض أدوات الاستقبال الحسي فى الجلد بكل نوع من تلك المثيرات .

---

(١٢) Zotterman, Y. (ed.) Olfaction and Taste. GOxford. Pergamon Press, 1963, pp. 205-213.

وتقل المعلومات المتعلقة بتلك المثيرات فى اهميتها كمدخلات فى نظم السلوك الانسانى ، الا انها لاتزال تمثل احد المصادر التى يتشكل السلوك جزئيا تبعا لها .

الاحساس بمركز الانسان وتوازنه :

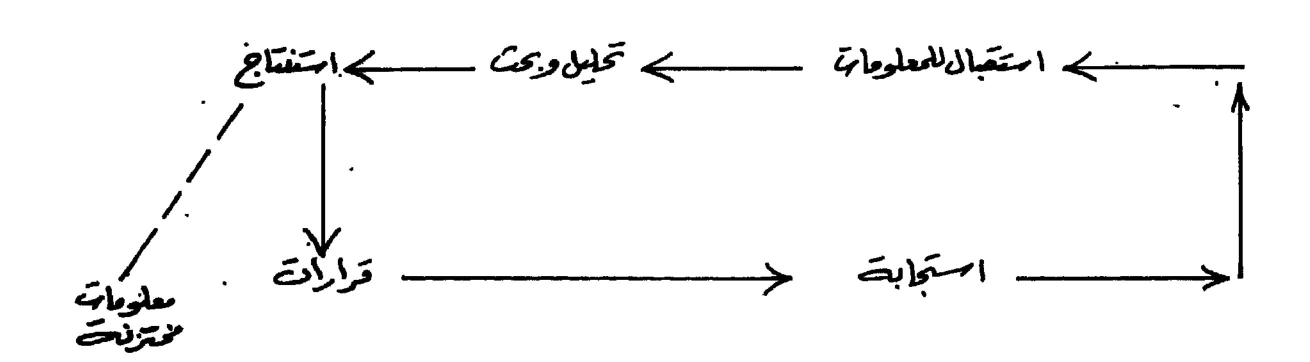
وثمة نوع اخير من المعلومات يلعب دورا هاما فى النظم السلوكية ، وهو معلومات الانسان عن مركزه بالنسبة للاشياء الاخرى فى المناخ المحيط . وهذه المعلومات هى التى توفر للانسان الاحساس بالتوازن او بانعدام التوازن. وتتمركز أجهزة استقبال هذه المعلومات فى الاذن الداخلية وهى لاتتصل بعملية السمع ، ولكنها تختص بالاحساس بالتوازن Balance . ومن المعروف أن اختلال هذه الادوات يؤدى الى فقدان الشخص لتوازنه وهى حالة مرضية شائعة ، كما ان استثارة تلك الادوات بشكل زائد يؤدى الى الاحساس بالدوار كما فى حالة دوار البحر .

كذلك يستقبل النظام السلوكى معلومات عن مدى تناسق حركات وأبعاد أعضاء الجسم الانسانى المختلفة .

نخلص مما سبق الى اهمية وخطورة عمليات استقبال المثيرات الخارجية بواسطة أعضاء الاستقبال الحسى فى النظام السلوكى . وتتضح لنا حقيقة هامة هى ان الاستجابات التى تصدر عن هذا النظام (المخرجات) تكون عادة نتيجة لتكامل عدد كبير من تلك المعلومات عن المثيرات . وكلما كانت تلك المعلومات متناسقة ومتجانسة كانت الاستجابة أوضح وفى الاتجاه السليم . أما اذا تناقضت المعلومات المستقبلة بواسطة أعضاء استقبال مختلفة ، ففى تلك الحالة يعانى النظام السلوكى من اشكال الوهم المختلفة Illusion كما هو الحال حين ترى العين عصا مستقيمة فى الاصل على انها مقوسة نتيجة غمر جزء منها فى الماء .

التعامل مع المعلومات

حين يستقبل النظام السلوكى المعلومات عن المثيرات المختلفة ، يتم نقلها الى منطقة متخصصة لمعالجتها بالتحليل والبحث حتى يستخرج النظام منها الدلالات والمعانى التى يعتمد عليها فى اختيار أنواع الاستجابات التي تصدر عنه. وبالتالى فان تدفق المعلومات داخل النظام السلوكى يتم وفقا للتتابع الآتى :



وعلى ذلك فان مجرد استقبال النظام للمعلومات لا يكفي لانتاج استجابات معينة ، بل لا بد وأن تخضع تلك المعلومات للتحليل من جانب اجزاء متخصصة تستطيع التوصل الى المعاني الحقيقية التي تعكسها هذه المعلومات .

ويختص الجزء الاوسط من النظام السلوكي (الدماغ الانساني) بتلك العمليات الذهنية المختلفة . ونظرا لاهمية هذا الموضوع فسوف نعرض تصورا سريعا لتلك العمليات الآن ، على أن نعود اليها بتفصيل أكثر في الجزء الثالث من الكتاب حين نتعرض بالتحليل للانشطة او العمليات السلوكية .

وتتركز العمليات السلوكية المختصة بمعالجة المعلومات وتحليلها في الآتي :

١ ـ عملية الادراك Perception

٢ ـ عملية التفكير Thinking

٣ ـ عملية التعلم Learning

٤ ـ عملية تكوين الاتجاهات Attitude formation

٥ ـ عملية الدافعية Motivation

٦ ـ عملية اتخاذ القرارات Decision making

الادراك

هو عملية تفسير المعلومات الواردة للنظام السلوكي وتكوين المفاهيم والتصورات عن العالم المحيط . وتنطوي عملية الادراك على عمليات فرعية يمتد بعضها ليشمل عملية استقبال المثيرات التي تحدثنا عنها ، ثم تختص عمليات فرعية اخرى بتنظيم تلك المثيرات وتفسيرها أي اعطاءها معان ومدلولات خاصة ، ثم تصل عملية الادراك الى ذروتها بتكوين مفاهيم شاملة وعامة عن البيئة المحيطة بالنظام السلوكي والتغييرات التي تطرأ عليها ، وهذا ما نطلق عليه « المدركات » .

والادراك عملية شخصية يصعب اخضاعها للمقاييس الموضوعية حيث تتداخل في التأثير عليها عمليات نفسية أخرى كالدافعية والتعلم ، كما تتأثر بالظروف الموضوعية التي تحيط بالنظام السلوكي وبما تراكم فيه من معلومات وخبرات سابقة .

كذلك فالادراك عملية مستمرة ومتراكمة تخفي وراءها تاريخ النظام السلوكي كله الذي يتبلور في صورة « تنظيم فكري » يسهم في تحديد المعاني التي يستخرجها النظام من المعلومات الواردة اليه .

ومما يزيد في أهمية الادراك ارتباطه بكل مظاهر النشاط الذهني للانسان ومن ثم تأثيره المباشر وغير المباشر على استجابات الانسان وانماط سلوكه في المواقف المختلفة .

التفكير

ان عملية التفكير أو التعقل والتدبر هي التي تتناول المدركات بالتأمل والتعمق في ضوء الخبرات والتجارب السابقة وفي اطار التوقعات expectations والاهداف goals . والرغبات needs التي يسعى اليها النظام السلوكي . وتختص عملية التفكير بالدرجة الاولى بمحاولة الكشف عن العلاقات بين المدركات وتبين الاحتمالات والنتائج المتوقعة بالنسبة لبدائل السلوك المختلفة المتاحة للنظام السلوكي استجابة للمثيرات التي تم ادراكها .

وتختلف أسس التفكير وان كان التقسيم المنطقي لها يراها تتخذ أحد نمطين ، اما أسس رشيدة ومنطقية rational أو أسس خيالية .

التعلم

يستقبل النظام السلوكي عديد من المعلومات التي تعكس الخبرات والتجارب التي يمر بها او تلك التي مرت بنظم سلوكية اخرى . وتتم عملية ادراك تلك المعلومات وينتهي النظام

السلوكى الى تفهم معين لها ، ومن ثم قد يقرر احداث تغيير فى أنماط استجاباته نتيجة للمفاهيم التى استوعبها من تلك التجارب ، وبذلك يحدث التعلم . فالتعلم اذن هو العملية الذهنية المستمرة التى يستوعب بها النظام السلوكى تجاربه وتجارب الآخرين ويترجمها فى شكل انماط سلوكية جديدة .

وتترابط عملية التعلم مع عملية الادراك وعملية التفكير . اذ ان قرار تغيير السلوك لابد وان يعتمد على تفهم سليم للتجربة او الخبرة ، كذلك لابد وان يسبقه تدبر فى الآثار الناشئة عن استمرار النظام السلوكى على نفس أنماط سلوكه أو الفوائد التى يحتمل تحققها حال تغييره لتلك الانماط السلوكية .

تكوين الاتجاهات

حين تتجمع لدى النظام السلوكى معلومات عن مثيرات خارجية ، وحين تتكامل وتتضح معانى تلك المعلومات وتتخذ شكل مدركات محددة ، وحيث يستهدف النظام تحقيق اهداف ورغبات معينة ، فانه يميل الى اتخاذ مواقف تجاه تلك المدركات . فالمدركات التى يرى النظام السلوكى انها معاونة له فى تحقيق اهدافه او تلك التى تتقبل انماط استجاباته يتخذ حيالها موقفا ايجابيا يتسم بالتأييد والقبول . اما تلك المدركات التى لاتسهم فى تحقيق النظام السلوكى لاهدافه فيتم اتخاذ مواقف معادية أو معارضة لها . وبصفة عامة تمثل عملية تكوين الاتجاهات احدى العمليات الذهنية الوسيطة (شأنها شأن التعلم) التى تتوسط المرحلة بين ادراك المعلومات من ناحية واتخاذ قرار بشأنها من ناحية اخرى .

وتتفاوت عملية تكوين الاتجاهات فى النظم السلوكية من مجرد اتخاذ مواقف منفردة حيال موضوعات بذاتها الى تكوين معتقدات وعقائد متكاملة ومترابطة بشأن قضايا وامور متصلة ومتداخلة .

الدافعية

لابد لكى تؤدى المثيرات الخارجية الى احداث حركة فى النظام السلوكى من أن تتوفر لهذا النظام الرغبة فى الاستجابة ، بمعنى ان السلوك يتجه دائما الى تحقيق رغبات واهداف النظام السلوكى . ونستطيع تفهم عملية الدافعية اذا اعتبرنا ان الهدف الدائم والمستمر للنظام هو المحافظة على حالة من التوازن النسبى فى علاقته بالمناخ من ناحية وفى تركيبه الداخلى من ناحية اخرى . وحيث يتعرض النظام لمثيرات خارجية (بالاضافة الى مصادر ذاتية للاثارة) فانه يعانى من حالات متباينة من اختلال التوازن . ويدرك النظام فى حالات الاختلال هذه فرصا لتحقيق التوازن مرة اخرى عند مستويات اعلى من الاشباع ودرجات اكبر من انجاز اهدافه . كما يدرك فى حالات اخرى مخاطر تحتم ضرورة التنازل عن قدر من الاشباع الحالى والتضحية بقدر من الانجازات التى سبق تحقيقها وذلك لاستعادة النظام السلوكى لتوازنه المفقود .

وبذلك فان الدافعية هى العملية الذهنية المستمرة التى يحدد بها النظام السلوكى رغباته وحاجاته ويستخدمها فى توجيه باقى العمليات الذهنية وصولا الى اختيارات مناسبة لانماط السلوك الممكنة .

والدافعية بذلك عملية مساعدة فى توجيه السلوك وتحديد درجة قوته واستمراره . وهى عملية متجددة اذ أن حالات اختلال التوازن متكررة ومتجددة ، ومن ثم تنشأ دائما فرص للنظام لاكتساب رغبات ومستويات اشباع اعلى ، كما تهدده باستمرار فرص اخرى للحرمان من بعض الاشباع الذى تحقق فعلا .

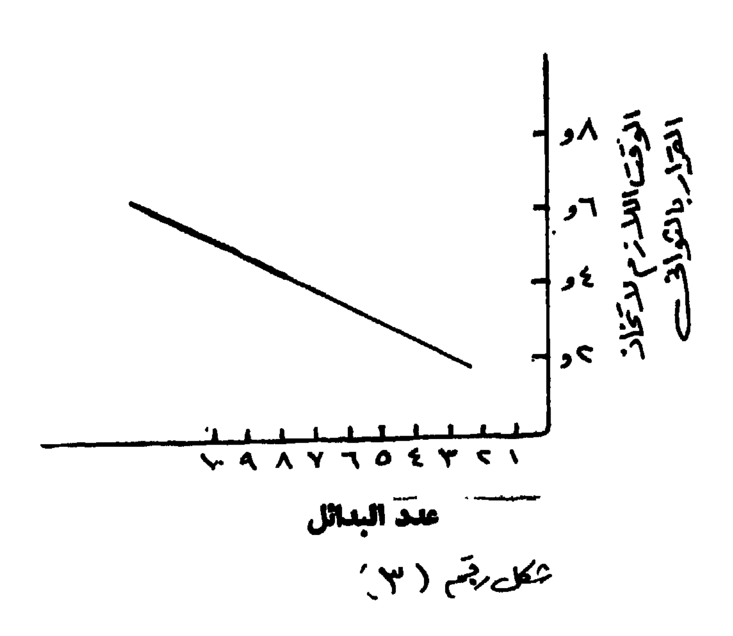
وتعتمد عملية الدافعية على مصدرين رئيسيين للمعلومات ، المصدر الاول هو المثيرات الخارجية التى تعكس للنظام السلوكى الفرص المتاحة فى المناخ لاشباع اعلى او جديد

وبالتالى تتكون دوافع ايجابية توجه السلوك ناحية الحصول على تلك الفرص ، او تعكس احتمالات الحرمان والمخاطر ، ومن ثم تتكون دوافع سالبة تستهدف تجنب تلك المخاطر . اما المصدر الثانى للمعلومات فهو المؤشرات والايحاءات الصادرة عن النظام ذاته والتى تعكس حالات نقص الاشباع (أو زيادته) وبالتالى تسهم فى عملية تكوين الدوافع .

اتخاذ القرارات

تتبلور المعلومات الواردة للنظام السلوكى عن المثيرات الخارجية بعد تحليلها ودراستها فى شكل مجموعة من البدائل او الاختيارات . وهنا تبدأ العملية الذهنية الاخيرة والهامة وهى أن يختار النظام أحد تلك البدائل لكى يترجم فى شكل سلوك أو استجابة . وتمر عملية اتخاذ القرارات عادة بعدة مراحل فى ذاتها ويستخدم النظام السلوكى عدداً من القواعد والمعايير التى يستند اليها فى اتخاذ قراره .

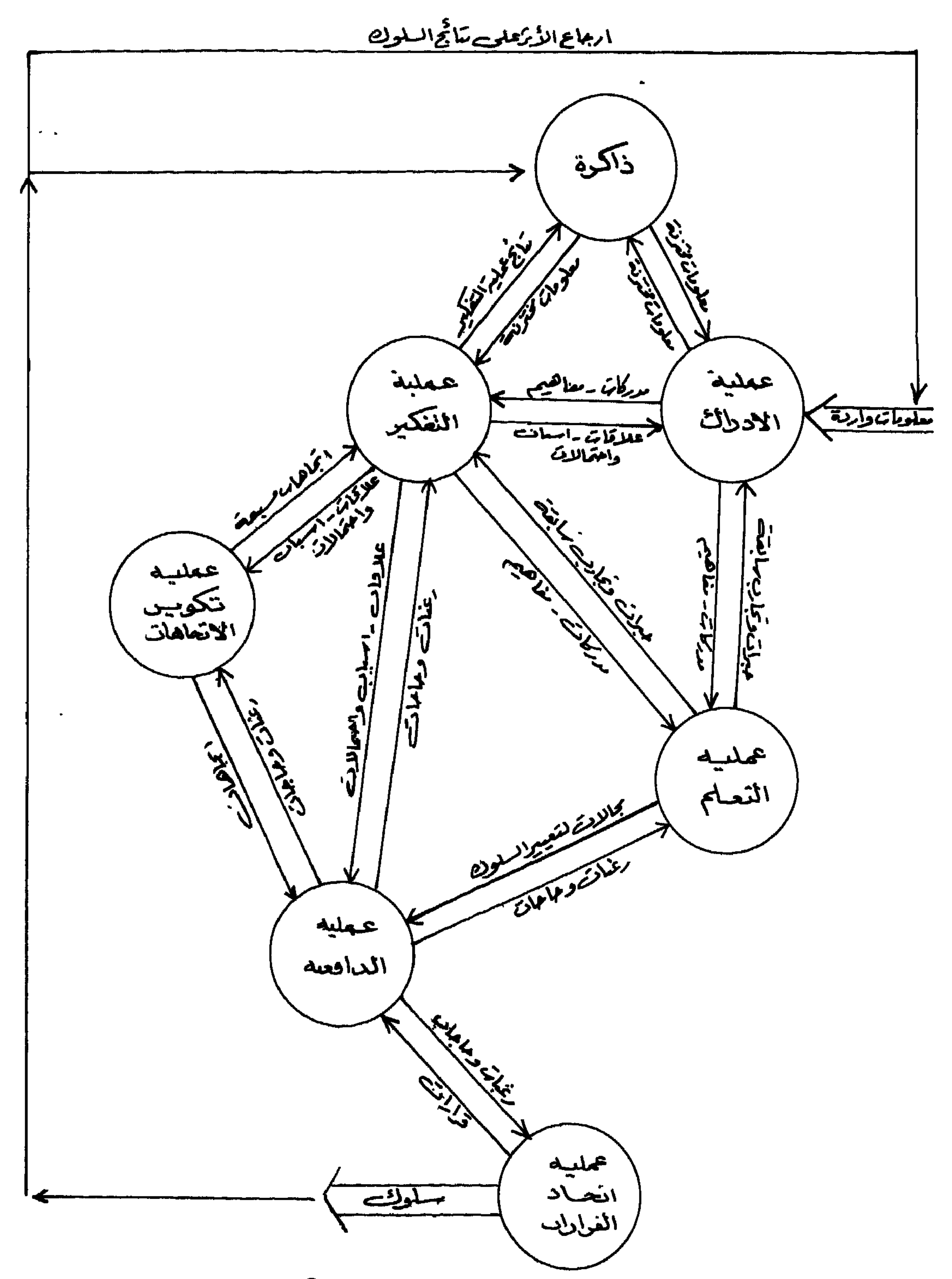
وتتفاوت عملية اتخاذ القرارات فى صعوبتها تبعا لتعدد البدائل المطروحة للاختيار وبحسب تداخل العوامل والمتغيرات المتفاعلة فى الموقف. وبناء على ذلك سنجد حالات كثيرة يصل فيها النظام السلوكى الى قرار ، ومن ثم تبدو الاستجابة فى وقت قصير نسبيا قد يبدو احيانا وكأنه رد فعل تلقائى أو آلى للمثير الخارجى . تلك هى القرارات الروتينية التى اعتمدها النظام السلوكى واختبر نتائجها ووجدها فى صالحه ومن ثم يميل الى تكرارها كلما تهيئات الظروف (نلاحظ هنا أثر عملية التعلم) . وهناك حالات أخرى يطول فيها الوقت الذى يستغرقه النظام السلوكى فى الوصول الى قرار حيث تكون المشكلة موضع البحث جديدة فى نوعها لم يألفها النظام بعد ، أو حيث ترتفع درجة تعقيدها . والشكل التالى يصور العلاقة بين درجة تعقد المشكلة المتمثلة فى عدد البدائل المطروحة للاختيار من ناحية وبين الوقت اللازم للنظام السلوكى كى يصل الى قرار . (١٣)



شكل رقم (٣)

(١٣) Fitts, p., The Influence of response coding on performance in motor tasks. In current trends in information theory pittaburg : University of Pittaburg Press, 1963.

تلك هى العمليات الذهنية الأساسية التى تتعامل مع المعلومات التى استقبلتها ادوات الاستقبال الحسى فى النظام السلوكى . ويمكن تصوير تتابع تلك العمليات وعلاقاتها المتداخلة حتى تنتهى الى سلوك مشاهد كما فى الشكل التالي رقم (٤) .



شكل رقم (٤) ديناميكيه العمليات السلوكيه

المخرجات

ان المحصلة النهائيـة لسلسلة العمليـات السلوكية هى انمـاط السلوك المشـاهدة او الباطنة . ونقصد بانماط السلوك هذه أيا من الأمور الآتية :

١ ـ الافعال Actions

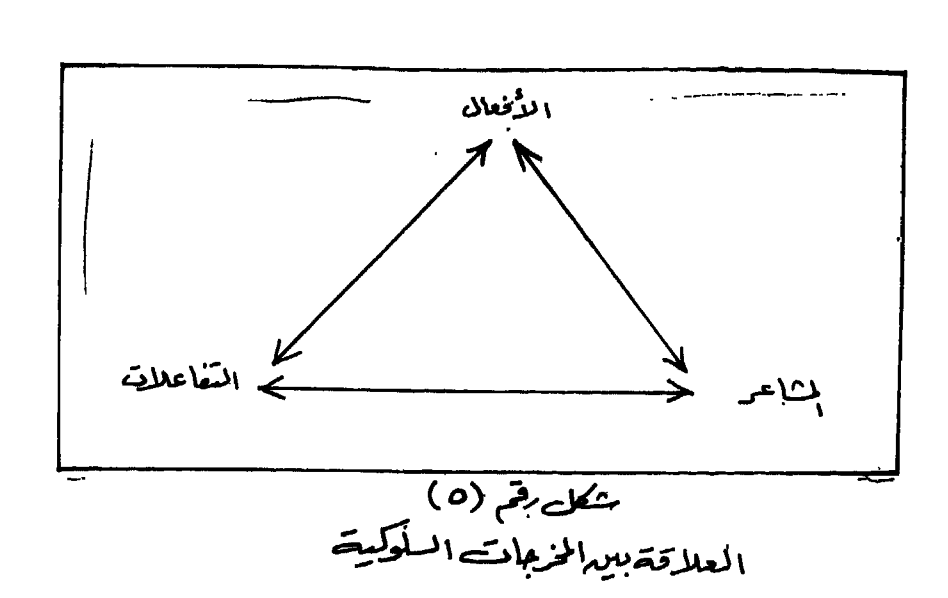
وهي كل مايصدر عن النظام السلوكى من تصرفات كالعمـل ، والكـلام ، والكتـابة ، والقراءة ، واللعب ، والبيع ، والشراء الـى آخر ما يمكن تصوره مـن انشطة . وتتطلب الافعال عادة أن يبذل النظام السلوكى قدرا من الجهد أو الطاقة وتتبدى فى شكل حركـات متباينة يستغرق اداؤها وقتاً يختلف بحسب اتجاهات تلـك الحركات ومدى بساطتها او تعقدها .

٢ ـ التفاعل Interaction

ويرمز التفاعل الى الاتصالات التى تتم بين الانسـان وغيره من الافراد . وقد نعبر عـن التفاعل بأنه نوع من الفعل action اذا كان النظام السلوكى موضع الدراسة هو البادىء بالاتصال كما هو الحال حين يوجه الاستاذ المحاضر سؤالا الى أحد طلبته . وقد يكـون التفاعل هو نوع من رد الفعل reaction وذلك حين يجيب الطالب عن سؤال أستاذه . ومـن ثم فاننا نستطيع أن نصـف عمليـات التفاعل بأنها سلسلة متتابعة مـن الافعـال وردود الافعال بين النظم السلوكية المختلفة .

٣ ـ المشـاعر sentiments

والمشـاعر هى انماط العاطفة التى تنمو فى النظـام السلوكى اثنـاء ممارسته للافعـال واشتراكه فى التفاعلات مع الآخرين . ومثل هذه المشاعر امور الحب والكراهية والثقـة والايمان وغيرها . وتسهم المشاعر فى تأكيد او اضعاف آثار الافعال والتفاعلات التى تصدر عن النظام السلوكى . كذلـك فان للافعـال والتفاعلات تأثيرها هى الأخرى على المشاعر . وبذلـك فتلك الأشـكال الثلاثـة للمخرجات السلوكية تتشابك عادة وتتداخل كما يتضح من الشكل التالى رقم (٥)



شكل رقم (٥)
العلاقة بين المخرجات السلوكية

والآن وبعدمناقشتنا لاجزاءالنظام السلوكي الثلاثة باختصارلابد من استكمال تحليل الدورة السلوكيةبأن نأخذفى الاعتبار ان النظامالسلوكى يعمل على تحسب نتائج السلوك وردودافعالها لدى النظم السلوكية الاخرى فى المناخ المحيط وذلك عن طريق ما يسمى بعملية « ارجاعالاثر » feed back . وتتم هذه العمليـة فى صـورة معلومات جديدة تصل الى النظام السلوكـى بالطرق السابق شرحها . وتسهم هذهالمعلومات فى اثارة عمليات سلوكية جديدة قد تسفر عن تأكيد المخرجات او تغييرها .

وخلاصة ما توصلنا اليه من تحليلنا للسلوك الانسانى انه يتخذ نموذج النظام المفتوحالمتعامل مع المناخ والمتفاعل معه ، وانه يتصف بكـل الخصائص التى تميز النظم المفتوحة ، كمـا تنطبق عليه جميع الاستنتاجات المستمدة من فكرة النظام .

* * *

مراجع البحث

1. Johnson. R., Kast, F. and Rosenzweig, J.,
The Theory and Management of Systems
N. Y. McGraw-Hill, 1967.

2. Kolasa, B., Introduction to Behavioral Science for Business N. Y., Wiley and sons 1969

3. March, J. & Simon, GH., Organizations N. Y. Wiley & Sons, 1958.

4. Seiler, J. Systems Analysis in Organzational Behavior Romewood, III. Iwin and the Dersey Press, 1967.

٥ ــ د.علي السلمي ، الادارة العلمية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ .

٦ ــ د.علي السلمي ، السلوك الانساني في الادارة ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٣ .

* * *

منع الحمل

سامي علوان

تعريف منع الحمل (Contraception) — هو ان يمنع الحمل بوسائل اخرى غير الامتناع عن الجماع ويتبعه تحديد النسل (Birth Control) او التخطيط الاسرى (Family Planning) . ويمارس منع الحمل فى الوقت الحالي حوالي ٨٠٪ من الازواج فى بريطانيا واوروبا الغربية والولايات المتحدة وهي نسبة فى ازدياد . وقد اكتسب منع الحمل بالنسبة للزيادة المضطردة فى عدد سكان العالم اهمية اجتماعية عظمى فى الوقت الحالي وضرورة صحية ملحة .

والفريزة الجنسية هى الوسيلة المؤكدة لاستمرار الجنس البشرى وبقائه . ويهدف منع الحمل الى فصل النتائج عن المقدمات ، اى الى اشباع الغرائز الطبيعية بدون الخوف من انجاب اطفال غير المرغوب فيهم . (أى لا يتعارض مع استمرار الجنس البشرى وبقائه) .

ومع ذلك فان منع الحمل ينتقد احيانا للاسباب الآتية : —

١ — يشجع على البغاء — ومنع الحمل بالتأكيد يحمل هذه المخاطرة ، ولكن اذا كان الهدف الوحيد منه هو التشجيع على الانحراف وتسهيل الفجور ففي هذه الحالة يجب على المجتمع ادانته فورا والعدول عنه .

ومع ذلك فان البعض قد يعتبره أهون الضررين فى مجتمع متسيب يبيح اختلاط الجنس قبل الزواج بدلا من أطفال السفاح .

٢ ـ **وسيلة غير طبيعية** ـ وهذا عيب يمكن ان ينسب لأى وسيلة حضارية أخرى مثل ارتداء الملابس والنظافة والصحة والدواء .

فى الظروف الطبيعية تتوازن نسبة الحمل العالية بنسبة عالية مماثلة فى معدل وفيات الاطفال والأمهات مع عوامل مساعدة من قصر معدل الأعمار الناتج عن المرض والعنف .

ولكن عندما تؤثر عوامل اخرى على هذه الظروف الطبيعية بازالة أسباب المرض والوفاة بممارسة الطب والعلاج ، فان نسبة المواليد ـ التي لا تحدها عوامل ولا مؤثرات ـ سوف تحطم هذا التوازن وتهدد هذا المجتمع بالازدحام والاكتظاظ السكاني الزائد عن الحد المعقول الذى يسبب هبوطا فى المستوى المعيشي للافراد والمجاعة فى بعض الاحيان . والبديل الوحيد لمنع الحمل والتحكم فيه هو تحريم الجماع بين الأزواج ، وهذه ضد الطبيعة وأكثر صعوبة من الأولى وتسبب ضغوطا تهدد الزواج نفسه بالانهيار او سلامة الصحة العقلية للزوجين .

وقد مورس منع الحمل بوسيلة أو اخرى خلال عصور التاريخ ولكن كان يعارض ويمنع بالقانون أو العادات المتبعة الموروثة ، ودائما كان ذلك لاسباب إقتصادية أو سياسية كالرغبة فى احكام سيطرة الجماعة أو الامة على غيرها من الجماعات او الامم مغلفة بغلاف من الاخلاقيات لاخفاء الغرض الحقيقي منه وما زال حتى يومنا هذا ـ بالرغم من اباحة منع الحمل قانونيا ـ مصرفا محرجا للعديد من الافراد والجماعات الذين تأبى ضمائرهم اباحة منع الحمل وتحديد النسل .

الاسباب الداعية لمنع الحمل

(أ) ـ اسباب تتعلق بالمجتمع ـ

١ ـ **الحد من النمو السكاني** ـ ليلائم المستوى الاقتصادى لمجتمع معين ، وتحديد عدد السكان يعتبر الآن عاملا ضاغطا فى جميع انحاء العالم فى الأمريكيتين كما فى اوروبا وآسيا وفى الدول المتقدمة والنامية على حد سواء ، ذلك لأن التقدم فى الطب والعلاج قد سيطر على المرض وما يسببه من وفيات . وفى الماضي عندما كانت نسبة الوفيات تبلغ ٤٠ / الألف فى السنة كانت نسبة المواليد البالغة ٤٠ / الف فى السنة تعتبر معقولة ، ولكن الآن وقد هبط معدل الوفيات السنوى الى ٢٠ / الألف وأقل فان نسبة التوالد اذا لم تحد فانها سوف تؤثر تأثيرا سيئا على مستوى المعيشة ، وقد تضاعف عدد سكان العالم فى الخمسين سنة الاخيرة حيث كان تعداده ٢٥٠٠ مليون عام ١٩٥٠ زاد الى ٣٥٠٠ مليون عام ١٩٦٥ وينتظر أن يصل الى ٦٠٠٠ مليون عام ٢٠٠٠ م .

والعوامل التي تؤثر على معدل التوالد وحجم العائلات والزيادة السكانية تشمل المناخ ، الغذاء ، الخصوبة ، سن الزواج ، العادات والرغبة فى انجاب الأطفال ، قوانين الوراثة ، العقيدة الدينية ، السياسة ، التعليم ومعدل وفيات المواليد ، كل هذه العوامل لها تأثيرها الكبير فى النمو السكاني لمجتمع ما ، وتختلف من مجتمع لآخر ، وهذا يؤكد الحاجة الملحة الآن للتشجيع على انتشار وسائل منع الحمل مع التوضيح الكافي لممارستها واستعمالها بانتظام .

٢ ـ **تحسين النسل** ـ وهذا غرض سابق لأوانه ـ ولكن لوحظ ان الذين يمارسون منع الحمل هم الفئات العليا فى المجتمع والأكثر ذكاء وتحضرا ، فى حين ان الطبقات الدنيا من المجتمع تتوالد وتتكاثر دون حساب ، وهذه قسمة خطرة على التوازن فى المجتمع والتى

سوف تؤدى الى هبوط فى المستوى العام للمجتمع من الناحية الفكرية والحضارية .

ولتحسين المستوى العام فى المجتمع للحصول على الانسان الأرقى والأكثر تفوقا يجب ان يمارس المتخلفون عقليا والكسالى والعالة وحثالات المجتمع منع الحمل للحد من ذريتهم التي سوف ترث صفاتهم .

(ب) ـ اسباب فردية ـ

١ ـ سوء صحة الزوج او الزوجة ـ لحماية النسل من حمل جنين ضعيف أو به عيوب خلقية بسبب مرض أحد الزوجين ، هذا بالاضافة الى الاعباء المادية والنفسية التي سوف توضع على كاهل الاسرة بسبب الحمل فى هذه الظروف غير المناسبة وهذا السبب ايضا ينسحب على الفترة التي تعقب العمليات الجراحية او المرض .

٢ ـ مرض الزوجة المزمن ـ

● **مرض مزمن عام ـ** كالسل والالتهاب الكلوى وارتفاع الضغط وأمراض القلب وقصور الرئتين والاختلال العقلي،واضطرابات الدم ـ وأى مرض يجعل المراة غير قادرة على تحمل اعباء الحمل والولادة او تربية طفل آخر ، وتأجيل الحمل فى هذه الظروف يهيىء الظروف المناسبة للشفاء اذا كان ذلك ممكنا .

● **بعض مضاعفات الولادة ـ** تكرر الحمل التسممي ـ تكرر العملية القيصرية ـ عقب العمليات الخاصة بالناصور المثاني المهبلي أو حالات السقوط النسوية (Prolapse) .

● **امراض يمكن ان تنتقل للجنين ـ** ومن احسن الأمثلة على ذلك مرض الزهرى (Syphilis) وبعض امراض تكسر الكرات الدموية الحمراء ، كذلك بعض الامراض الوراثية كالصرع ، والبكم المصحوب بالصمم ومرض هيموفيليا . كما ان منع الحمل يوصى بممارسته عندما يُخشى أن يكون الجنين متخلف عقليا أو جسديا فى حالة وجود طفل أو طفلين لنفس العائلة مصابين بهذه الأمراض .

٣ ـ توقيت الحمل (Birth Spacing) على فترات متباعدة

يسبب الحمل السريع المتتابع اصابة المراة بضعف الدم Anaemia ، اجهاد العضلات والاوتار العضلية ـ الاجهاد العصبي والعيوب الجسديةالمختلفة كما لا يعطيها الفرصةالكافية للاشراف على المنزل أو العناية بأطفالها .

٤ ـ تحديد عدد افراد العائلة
(Family Limitation)

تزداد الاخطار بالنسبة للأم أو الطفل بعد الحمل الرابع أو الخامس ، ومعظم الزوجات من جميع الاجناس يكتفين فى الوقت الحاضر بطفل أو طفلين طالما كن على ثقة من سلامة تنشئتهن حتى سن النضج .

٥ ـ الزواج المبكر ـ

ان الزواج فى الوقت الحالي يمثل سلسلة من الاعباء والمسئوليات والمشاكل التي تجابه الزوجين الحديثين وخاصة اذا كانا صغيرين فى السن ، والحمل والولادة يمثلان عبئا اضافيا جديدا يضاف الى الاعباء السابقة من تجهيز المنزل وادارته والتكيف فى الحياة الجديدة بالنسبة لزوجة غريرة حديثة السن .

٦ ـ السنوات المتاخرة للزواج ـ

يُمنع الحمل بعد سنوات طويلة من الزواج عندما يتكامل عدد العائلة ويستقر الابوان فى حياتهما ، ويجب الاستمرار فى منع الحمل بالنسبة للزوجة فى سن اليأس حتى ينقطع الحيض تماما لمدة سنتين .

خطورته وعيوبه

١ ــ بعض وسائل منع الحمل قد تؤثر على عملية الجماع نفسها ، وفي بعض حالات الزواج الذى لم يكن الاختيار فيه موفقا قد يؤدى الى البرودة الجنسية للزوجة أو يصبح الزوج عِنّينا .

٢ ــ قد تذهب الفكرة بعقم الاتصال الجنسي ببهجته واثارته في بعض الاحيان (ولو ان العكس صحيح في حالة وجود عدد كبير من الاطفال في الأسرة حيث يوفر الشعور بالأمان لكلا الزوجين) .

٣ ــ وعموما ليس لمنع الحمل اى ضرر بالنسبة لزوجين متفاهمين على ممارسته ويستعملان الوسيلة المناسبة ــ أما الادعاء بأن منع الحمل بواسطة المواد الكيماوية الموضعية قد تسبب التهابات وقرحة في عنق الرحم وصغر حجم الرحم فهذه كلها ادعاءات على غير أساس علمي .

٤ ــ تأجيل الحمل لمدة طويلة قد يسبب بعض الامراض النسائية كالأورام الليفية والأورام الطمثية (Endomitriosis) بالاضافة الى اضعاف الخصوبة نوعا ما ، ولكن هذه هي ضريبة التقدم في العمر وليس منع الحمل .

● ● ●

فسيولوجية الحمل

لكي يتم الحمل الناجح لا بد من وجود حيوان منوى سليم وبويضة صحيحة ومسالك تناسلية انثوية سالكة وطبيعية لكي يستطيع الحيوان المنوى أن يصل الى مكان البويضة في الثلث الخارجي من قناة فالوب ــ كذلك لا بد من أن تكون الظروف مهيأة ومواتية لكى تتمكن البويضة الملحقة من ان تنغرز في جدار الرحم وتستمر في البقاء والنمو .

هذه العملية المعقدة القديمة قدم الحياة على هذه الارض تتحكم فيها وتسيطر عليها وتوجهها افرازات الغدد الصماء أو الهرمونات سواء أكان ذلك في الذكر أم الانثى .

وهذا الطريق الطويل الذى يقطعه الحيوان المنوى من لحظة تكوينه في خصية الرجل الى تلقيحه البويضة في قناة فالوب في اعماق حوض المرأة ليس بالسهل ولا بالهين ولا يكاد ينجح في ذلك الا حيوان منوى واحد من مائة مليون في المرة الواحدة لو تصادف وكانت هناك بويضة صالحة وجاهزة للتلقيح خلال ساعات من الجماع الناجح (وتوضح الرسوم المقابلة فسيولوجية الحمل) .

ووسائل منع الحمل ما هي الا عقبات توضع في هذا الطريق الطويل في اى مكان فيه لقطع الطريق على الحيوان المنوى لكي لا يصل الى البويضة بطريقة أو بأخرى فهي اما وسائل تتعلق بالرجل أو وسائل تتعلق بالمرأة أو وسائل تتعلق بعملية الجماع ذاتها .

وسائل منع الحمل قبل عام ١٩٦٥

تنوعت وسائل منع الحمل واتسعت مجالاتها لتشمل طرقا لم تكن متبعة في العالم قبل عام ١٩٦٠ ولم تكن تندرج تحت هذا الباب ، ويوضح الجدول المبين ادناه أهم الطرق التي كانت متبعة في انجلترا وامريكا من الثلاثينيات الى أوائل الستينات من هذا القرن ونسبتها في عدد محدد من الافراد .

عدد الحالات

الطريقة	انجلترا ١٩٣٠ – ١٩٦٠	امريكا ١٩٣٥ – ١٩٥٥
الغلاف الذكرى	٤٩	٤٣
العزل	٤٤	١٥
فترة الامان	١٦	٣٤
الكيميائيات	١٦	١٠
الحاجز المهبلي	١١	٣٦
الدوش المهبلي	٣	٢٨
طرق أخرى	٦	٤
	١٤٥ حالة	١٧٠ حالة

ومن هذا الجدول نجد أنه قبل عام ١٩٦٠ كان الغلاف الذكرى أو الكوندوم يأتي فى المرتبة الأولى ويليه مباشرة طريقة العزل (القذف خارج المهبل) أى أن منع الحمل كان يقع على كاهل الرجل فى النصف الاول من هذا القرن بعكس النصف الثاني منه حيث دخلت أقراص منع الحمل واللولب الرحمي الى الحلبة ، لتحمل المراة بدورها هذا العبء عن الرجل وتتحمل وحدها مسئولية منع الحمل فى معظم الاحوال ولو أن هذا فى الحقيقة لا يمنع من أن الغلافالذكرى ما زال الوسيلة الفعالة والمتبعة فى كثير من مناطق العالم وتحت العديد من الظروف التي لا تتوافر فيها العناية الطبية اللازمة للاشراف على أقراص منع الحمل أو تركيب اللولب .

وسائل منع الحمل بعد عام ١٩٦٥ .

وسائل مستديمة	وسائل مؤقتة	الاجهاض
فى الذكر التعقيم ربط أو قطع الحبل المنوى **فى الانثى** ١) ربط أو قطع قناتي فالوب ٢) استئصال الرحم ٣) الاشعاع	١) أقراص منع الحمل ٢) اللولب الرحمي ٣) الغلاف الذكرى ٤) الحاجز المهبلي ٥) الكيميائيات القاتلة للحيوانات المنوية **وسائل اقل اهمية** ٦) الغسول المهبلي ٧) العزل والتحكم فى القذف ٨) الاسفنج المبلل ٩) رفع حرارة كيس الصفن ١٠) مضادات الحيوانات المنوية	١) الاجهاض الذاتي ٢) **الاجهاض المتعمد** أ ــ الطبي ب ــ غير الشرعي

منذ أوائل الستينات استطاعت ابحاث منع الحمل وتكنولوجيا البحث العلمي ان تزود العالم بهرمونات منع الحمل واللوالب الرحمية وهما ذات فاعليةعالية جدا وبذلك قل استعمال الوسائل التقليدية القديمة ، وثبت من الاحصائيات التي اجريت عام ١٩٧٢ فى مراكز الحمل المختلفة فى لوس انجلوس بالولايات المتحدة ان حوالي ٨٧٪ من المترددات على هذه المراكز اخترن ممارسة احدى هاتين الوسيلتين ، فى حين ان ١١٪ فقط اخترن بين الغلاف الذكرى والحاجز المهبلي او الكيميائيات القاتلة للحيوانات المنوية .

وفى احصائية اخرى اعم واشمل تبين كل السيدات اللائى يمارسن وسائل منع الحمل المختلفة حول عام ١٩٧٠ وجد ان ٣٤٪ يستعملن اقراص منع الحمل ، ١٦٪ سواء من الذكور او الاناث اجري لهم عمليات تعقيم ، الغلاف الذكرى ١٤٪ ، اللولب الرحمي ٧ ١/٢٪ ــ الكيميائيات ٦٪ ، الحاجز المهبلي ٥ ١/٢٪ وسائل اخرى ١٦٪ .

وفى عام ١٩٧٠ قدر عدد الاشخاص الذين يستعملون وسائل منع الحمل المختلفة فى الولايات المتحدة الأمريكية كالآتي : ــ

اقراص منع الحمل	٧ ــ ٨ مليون
الغلاف الذكرى	٤ ــ ٥ مليون
الحاجز المهبلي	٢ ــ ٣ مليون
الكيميائيات (الايروسول)	١ ــ ٢ مليون
اللولب الرحمي	١ ــ ٢ مليون

ويلاحظ فى هذه الاحصائية ان اقراص منع الحمل تاتي فى المرتبة الاولى فى الاستعمال فى الولايات المتحدة ، وياتي اللولب الرحمي فى المركز الاخير فى الترتيب وذلك فى عام ١٩٧٠ ، أما الاعوام التي تلته فقد شهدت انتشار استعمال اللولب الرحمي حتى يأتي ترتيبه الثاني مباشرة بعد اقراص منع الحمل بعد عام ١٩٧٢ .

وفى هذه الاعوام ١٩٧٥ ــ ١٩٧٦ يكاد يساوى الاقراص فى سعة الانتشار بين النساء . كما ان هذه الاحصائية تدل على ان هناك بعض الاشخاص ما زالوا يستعملون الوسائل التقليدية القديمة لبعض الوقت على الأقل .

ما هي الشروط الواجب توافرها فى اى وسيلة من وسائل منع الحمل ؟

١ ــ ان تكون سليمة العواقب مأمونة الاستعمال .

٢ ــ ان تكون فعالة .

٣ ــ ان يتقبلها الناس ويستعملونها بطريقة صحيحة .

هذه الاهداف الثلاثة هي التي يهتم بها الطب عندما يتعامل مع وسيلة من وسائل منع الحمل .

١ ــ فالغلاف الذكرى والحاجز المهبلي والرغاوى الكيميائية ((Foam) كلها يتوافر فيها الشرط الأول ، فهي مأمونة وسليمة تماما ولا تسبب اية اعراض عامة ولا يحرم استعمالها فى اى حالة طبية معينة .

٢ ــ اما فعالية وسائل منع الحمل فهي تعتمد على عاملين هامين هما : ــ

ــ الفعالية النظرية وهى درجة النجاح النظرية للوسيلة .

ــ الفعالية العملية ــ (أو الاستعمالية) وهي درجة النجاح الفعلية عند الاستعمال حيث يوضع الخطأ البشرى فى الاعتبار .

ففي حالة ربط بوقا فالوب تتساوى الفالية النظرية مع الفعالية العملية . وكذلك بالنسبة للولب الرحمي فهما متقاربتان . وتتسع الهوة بين الفعاليتين عندما تكون الطريقة المستعملة معقدة أو غير مريحة فى الاستعمال أو تحد من حركة مستعملها أو غير مقبولة من الناحية الخلقية او التهذيبية عند بعض الهيئات أو الجماعات .

٣ ـ تقبل الناس لطريقة معينة من طرق منع الحمل تختلف باختلاف الاشخاص ففالبية الازواج تفضل اتباع طرق لا تتصل او تتداخل فى عملية الجماع بطريقة مباشرة ، وقد يجد البعض ان الوسائل المهبلية غير مريحة وتحد من بهجة ومتعة الجماع فيلجأ الى اقراص منع الحمل واللوالب الرحمية .

• • •

طرق ووسائل منع الحمل

اولا : I هرمونات منع الحمل Hormenal Contraceptives

اثبت علم وظائف الاعضاء أن الدورة الحيضية فى الانثى وكذلك الحمل بأطواره المختلفة تقع تحت السيطرة الكاملة للهرمونات التى تفرزها الغدد الصماء فى الجسم ولكى نلم بتأثير هذه الهرمونات علينا أن نقوم بدراستها على اربعة محاور على الاقل والتى يجب أن تعمل جميعها فى وقت واحد وبتوافق وبدقة تامتين حتى تنتظم الدورة الشهرية وبذلك تنتج حملا طبيعيا فى حالة تلقيح البويضة .

١ ـ الاعضاء الهدفية الخارجية

(Peripheral Target organs)

الرحم وعنق الرحم والمهبل تخضع لبعض التغيير بطريقة دورية اثناء الدورة الشهرية للحيض وكذلك اثناء الحمل ، وهذه التغيرات تقع تحت سيطرة هرمونات المبيض وهرمونات المشيمة اثناء الحمل .

٢ ـ المبايض (Ovaries)

تفرز هرمونى الايستراديول والبروجستيرون التى تنظم تغيرات الاعضاء الخارجية كما تفرزهما ايضا المشيمة البشرية بالاضافة الى هرمون الجونادوتروفين (Gonadotrophin) الذي يفرز فى البول ويكون اساسا لاختبارات الحمل .

٣ ـ الغدة النخامية الامامية

(Anterior pituitary)

تفرز هرمونات تنظم وتسيطر على المبايض وبالتالى الاعضاء الخارجية بطريق غير مباشر وهذه الهرمونات هى (أ) المنبه البويضى (F.S.H.) وهو ينبه افراز البويضة من المبيض .

(ب) المنضج البويضى (L. H.) وهو بالطبع بالتعاون مع الاول ينضج البويضة ويؤهلها للخروج من المبيض بواسطة عملية التبويض (Ovulation)

٤ ـ افرازات الغدة النخامية يسيطر عليها وينظمها هرمونات تفرز من جسم آخر فى المخ اسمه الهيبوثالاموس (Hypothalamus) وهى تنبه الغدة النخامية لافراز هرمون (F.S.H) وهرمون (L.H.) اما الهرمون الثالث ويدعى برولاكتين ((Prolactin)) فهو يؤدى الى هبوط افراز هرمون الـ (L.T.H.) السابق ذكره .

وهذا العرض المبسط للهرمونات المختلفة التى تؤثر على النشاط الجنسى الطبيعى للمرأة يوضح امكانية تأثرها بالعقاقير المختلفة بل والسيطرة على هذا النشاط وتوجيهه الوجهة المطلوبة .

اما عمل هذه الهرمونات واثرها على الاعضاء الهدفية الخارجية فهو باختصار كالاتى :

عقب الحيض مباشرة يبدأ الغشاء المبطن لجدار الرحم الداخلي فى التكون من جديد (بسبب قذف الغشاء القديم مع دم الحيض) وهذه العملية تقع تحت سيطرة هرمون الايستروجين (الذى يفرزه المبيض) والذى ينظمه هرمون (F.S.H.) الذى تفرزه الغدة النخامية والذى ينبه البويضة للنضج وازدياد الحجم وافراز هرمون الايستروجين وبعد ذلك تبدأ الغدة النخامية فى افراز هرمونها الثانى (L.H.) التى تسبب عملية التبويض بالاشتراك مع الاول وتكون الجسم الاصفر (Corpus Luteum) الذى يبدأ بدوره فى افراز هرمون البروجستيرون (Progesterone) بالاضافة الى الايستراديول (Oestradiole) وهذان الهرمونان يؤثران على الغشاء المخاطى الرحمى (Endomitrium) الذى يبدأ الطور الافرازى (Secretary Phase) فى النصف الثانى من الدورة الشهرية ، وفى حالة عدم تلقيح البويضة يبدأ الغشاء المخاطى الرحمى فى التحلل والفساد لينتهى بالحيض . أما اذا حدث حمل فلا يحدث تحلل لهذا الغشاء بل تزداد سماكته وحيويته لكى يستقبل البويضة عندما تنغرز فيه .

كذلك فان الافراز المخاطي لعنق الرحم (Cervical Mucus) يتغير اثناء الدورة الحيضية فيصبح اقل لزوجة واكثر سيولة فى وقت التبويض أما بعد ذلك فهو لزج وسميك ويمنع دخول الحيوانات المنوية الى داخل الرحم . ويمكن التحكم فى درجة اللزوجة هذه بواسطة بعض العقاقير لتظل تمنع الحيوانات المنوية من النفاذ الى داخل الرحم .

كيفية عمل ومكان تاثير هرمونات منع الحمل .

هذه الهرمونات هي الوحيدة بين العقاقير الطبية التى تمنع الحمل بطريقة وقائية وليس لهاأى تأثير على الحمل عند حدوثه ولا شك ان تاثيرها يمتد الى أكثر من موضع فى الجسم .

١ ــ منع التبويض

منذ عام١٩٣٧ والابحاث قد توصلت الى الحقيقة العلمية الى انه اثناء الحمل لا يحدث تبويض جديد من المبيض وذلك بافراز هرمونات بكميات كبيرة اثناء الحمل وقد اثبتت التجارب التي اجريت ان هرمون البروجستيرون يتمتع بهذه الخاصية سواء فى حيوانات التجارب او فى النساء . كما تطورت الابحاث باضافة هرمون الايستروجين لتقوية الاثر المطلوب كما استنبطت مركبات فعالة بواسطة الفم بدلا من الحقن ، أما موضع عمل هذه الهرمونات فى الجسم فقد يكون على الهيبوثالاماس الذى يتحكم فى افراز الغدة النخامية بمنعها من افراز هرمونى (F.S.H.) ، (L.H.) اللازمين لعملية التبويض . (غير معروف بالضبط) .

٢ ــ تغير فى الغشاء المخاطي الرحمي

يحدث تغيير فى هذا الغشاء يجعله يمنع تعشش البويضه فيه (Implantation) وهذا التغيير اثبته الفحص الميكروسكوبى الذى اظهر ضموره وفقدانه لخصائصه . وهذا الاثر يكون بمثابة خط الدفاع الثاني ضد الحمل لو فرض وحدث التبويض .

٣ ــ تغيير فى الافراز المخاطي لعنق الرحم (Cervical) Mucus)

يصبح اكثر لزوجا واقل قابلية للاختراق بواسطة الحيوانات المنوية وهذا التأثير يحدث اساسا بواسطة هرمون البروجستيرون .

وهذا هو خط الدفاع الثالث ضد الحمل ومن المحتمل جدا ان يكون هذا الاثر هو الطريقة الوحيدة لمنع الحمل فى بعض انواع الاقراص المستعمله والتى لا تمنع عملية التبويض ولا تغير فى الغشاء المخاطي الرحمي .

طرق استعمال هرمونات منع الحمل

هناك طريقتان او نوعان ـ ا ـ النوع المتحد (Combined) أو المزدوج .

ب ـ النوع المتتابع (Sequential)

ا ـ النوع الاول ـ مزيج من هرموني الايستروجين (Oestrogen) وهرمون البروجستوجين (Progestogen) ويعطى بانتظام وباستمرار لمدة ثلاثة أسابيع .

ب ـ النوع الثاني ـ وفيه يعطى هرمون الايستروجين منفردا لمدة اسبوعين ويتبعه مزيج الهرمونين لمدة اسبوع آخر .

وفى كلا النوعين لا يعطى أى دواء خلال الاسبوع الرابع ويتبع هذا الاسبوع نزول الدم الذى يشبه دم الحيض(Withdrawal Bleeding)

ج ـ هناك نوع ثالث ـ (قليل الاستعمال نسبيا) وفيه تعطي جرعات صغيرة يومية من هرمون البروجسترجين منفردا بدون الايستروجين ، ونسبة الحمل من هذا النوع مرتفعة وتصل من ٢ ـ ٨٪ فى السنة ويصاحبه نوبات من النزيف المهبلي غير منتظم . (Breakthrough bleeding) وما زالت الابحاث جارية حتى يومنا هذا لاستنباط انواع اخرى من عقار منع الحمل الهرمونية وغير الهرمونية مثال ذلك زرع امبولات تحتوى على مادة السيلاستيك (Cilastic implant) تحت الجلد والخواتم المهبلية (Intravaginal Rings)

هرمونات منع الحمل :

١ ـ هرمون البروجستوجين Progestogen وانواعه المختلفة

وهو يستعمل فى اقراص منع الحمل بدلا عن هرمون البروجسترون (Progesterone) حيث لا يعطى الأخير الا عن طريق الحقن وتقل فعاليته بطريق الفم .

ومن انواعه نوع يحتوى على مادة (١٩ نورتستسترون (19 Nortostosterone) ومن هذا الصنف طورت اصناف مختلفة تستعمل فى اقراص منع الحمل فقط (وليس فى حقن منع الحمل) وهذه الاصناف تختلف فى فعاليتها باختلاف تركيبها الكيميائي وتقاس فعالية المستحضر بتعيين اقل جرعة منه التي اذا اضيفت الى (١ر٠) ملجم من هرمون ايثينل اوستراديول (Oethenyl Oestradiel) تسبب تأخير العادة الشهرية لمدة اسبوعين .

وزن هذه الجرعة يستعمل كأساس لقياس ومقارنة فعالية مختلف انواع البروجستوجين . ومن هذه المركبات نجد أن مركبي نورايثيندرون و نورايثيندريل Norethindrone & Norethyaedrel متساويان فى الفعالية فى حين أن مركب خلات نورايثيندرون Norethindrone Acetate تبلغ فعاليته ضعف المركبين السابقين ، ومركب خلات ايثينوديول Ethynodiol Diacetate فتبلغ فعاليته ١٥ ضعفا ، وهذه الفعالية المرتفعة تعتمد على مقاومة المركب لعملية الهضم عندما تؤخذ بالفم . (ومركب نورجستريل (Norgestril) فتبلغ فعاليته ثلاثين ضعفا) .

٢ ـ هرمون الايستروجين ومركباته ومشتقاته المختلفة :

وهو الهرمون الثانى المكون لاقراص منع الحمل وهو محضر كيميائيا من مواد تشبه الايستروجين فى الفعالية والتى تحتفظ بهـا حين تؤخذ عن طريق الفم .

والنوعان الموجودان فى اقراص منع الحمل هما :ـ

أ ـ ايثينيل ايستراديول
(Ethenyl Oestradiol)

ب ـ ١٧ ايثينيل ايستراديول
(17 Ethenyl Oestradiol l وهو الميسترانول (Mestrano)

وتبلغ فعالية المركب الاول ضعف فعاليـة المركب الثانى وهي ايضا لا تعتمد على وزن الهرمون الموجود فى الاقراص ولكن على فعاليته الحيوية فى الجسم اذا اخذ بالفم وربما كـان المركب ذو الوزن الاقل اكبر فاعلية من ذى الوزن الكبير .

وعند وصف اقراص منع الحمل لسـيدة ما يجب ان يوضع فى الاعتبار هذان العاملان اي وزن الهرمون الفعال ونشـاطه الحيـوى فى الجسم لكي نختار النوع المناسب لها وخاصة اذا كانت السيدة تشكو من النزيف المهبلي اثناء تعاطي الاقراص او توقف نزول الـدم كليـة (Break through bleeding & Amenorrhoea) وتعالج هذه الحالات بزيادة هرمون الايستروجين فى الاقراص لعلاج النزيف المهبلي وتخفيض كمية او نوع هرمون بروجستوجين لعلاج انقطاع الحيض .

ويستحسن عند وصـف نوع معين مـن اقراص منع الحمل ان نصف انواعا تحتوى على اقل نسبة ممكنة من الهرمونات(حيث انها كلها فعالة تماما فى منع الحمل) تكون بمثابة تمهيد للاستمرار فى تعاطي الاقراص ، وفى حالة حدوث اعراض جانبية كالنزف المهبلي تزاد جرعة الهرمون او يستعمل مركب هرموني اقوى فاعلية .

كما وجد ان الاقراص التى تحتوى على ٥٠ ميكروجرام ايستروجين يصاحبها هبـوط فى معدل الاصابة بانسداد الاوعية الدموية .

وقد استعملت اقراص تخفض فيها نسبة الهرمونات الـى درجة ٢٠ ميكروجرام مـن هرمون الايستروجين مع ١ مجم فقط مـن هرمون البروجستوجين وهى فعالة فى منع الحمل كغيرها من المستحضرات التى تحتوى نسبة اعلى من هذين الهرمونين الا انها تمتاز عنهما بضعف الاعراض الجانبية التي يسببها .

أ ـ النوع المتحد من اقراص منع الحمل (Combined)

وهو اكثر الوسائل المتاحة لنا حاليا فعالية فى منع الحمل بشرط ان يكون تعاطيه منتظما كل ليلة ولا تنقطع السيدة يوما واحدا عـن تعاطيه ، فى هذه الحالة تكون نسبة الحمل اقل من ٢و٠ من كل مائة سيدة لمدة عام كامل. (٢و٠٪ سيدة/عام) .

وكما اسلفنا فهذه المركبات تستمد فعاليتها من تنوع تأثيرها على الاعضاء المختلفة للجهاز التناسلي للمراة . فهي تمنع عملية التبويض وتغير فى طبيعة الافراز المخاطى لعنق الرحـم فيصبح اكثر مقاومة للحيوانات المنوية ويمنع

دخولها لتجويف الرحم ، كذلك يغير من طبيعة الغشاء الرحمي الداخلي فلا تفرز عدده الكمية الكافية من سكر النشاء (Glycogen) اللازم لدعم واضطراد نمو البويضة الملقحة وهي ما زالت فى مراحلها الاولى قبل ان تعشش فى الجدار الرحمى . كذلك يصبح المبيض اقل استجابة وتأثرا بهرمونات الغدة النخامية . بالاضافة الى التأثير على بوقا فالوب والنسيج العضلى للرحم مما قد يؤثر على عملية نقل الحيوان المنوى والبويضية .

ب ـ النوع المتتابع (Sequential)

وهو اقل فعالية من النوع الاول ، ويقصر استعماله على بعض حالات فردية نادرة ، فنسبة الحمل معه قد تبلغ ضعف النوع الاول حيث لا يمنع التبويض ولا يمنع افراز هرمونات الغدة النخامية وتأثيره على الغشاء الرحمي الداخلي والافراز المخاطى لعنق لرحم لا يبلغ درجة تأثير النوع الاول . ولكونه يحتوى على نسبة اكبر من هرمون الايستروجين ، فأعراضه الجانبية اشد من النوع الاول ، وبذلك فان استمرار السيدات ومواظبتهن على تعاطية اقل من النوع الاول .

الآثار والاعراض الجانبية لاقراص منع الحمل

(Systemic Effect)

هرمونات منع الحمل لها تأثير على كل اجهزة الجسم تقريبا بالاضافة الى تأثيرها على الجهاز التناسلي . وتبدو هذه التأثيرات على شكل اعراض جانبية غير مستحبة مثل الرغبة فى القيء ، النزيف المهبلي ، الانتفاخ ، ازدياد الوزن ، الورم ، واعراض خاصة بالجهاز العصبي المركزى مثل الصداع ، العصبية الزائدة ، التعب ، الدوخان ، هبوط الرغبة الجنسية والتغيرات النفسية . وهناك اعراض اخرى مثل قلة الطمث او انقطاع الطمث ، آلام الثدى ، كلف الوجه .

وهذه الاعراض تزداد شدة بارتفاع نسبة الهرمونات الداخلة فى تركيب الاقراص .

وهذه النسبة المرتفعة سببها الآتي : ـ

١ ـ تعطى الجرعة اللازمة لمنع التبويض بدلا من منع الخصوبة وهذه تحتاج لجرعة اكبر .

٢ ـ يراعى تقارب نسبة الهرمونات فى جميع انواع الاقراص برغم اختلافها فى الفعالية .

٣ ـ طريقة تناول الاقراص مرة واحدة فى اليوم تسبب ارتفاعا سريعا فى نسبة الهرمونات فى الدم ثم ينخفض تدريجيا خلال الـ ٢٤ ساعة التالية .

وعلى الصفحات التالية يوضح الجدول المرفق بيانا تفصيليا للاعراض الجانبية غير المستحبة لاقراص منع الحمل والهرمون الذى يسببها اذا كان معروفا .

تؤثر اقراص منع الحمل على عملية التمثيل الغذائي (حوالي ٥٠ أثرا) وقد قسم تأثيرها على باقى اجهزة الجسم الى ثلاثة اقسام رئيسية هي : ـ

(١) اثرها على الجهاز التناسلي

ـ **المبيض** ـ تسبب التليف المؤقت للمبيض الذى يعود لطبيعته بوقف استعمال الاقراص .

ـ **النسيج العضلي للرحم** ـ فى حالة وجود اورام ليفية (Fibroids) تزداد فى الحجم لتسبب أعراضا اكلينيكية تشعر بها المريضة ووجود هذه الاورام يمنع استعمال الاقراص .

الآثار الجانبية لاقراص منع الحمل والهرمون المسبب لها

الاثر الجانبي	هرمون بروجستوجين	هرمون ايستروجين
١ ـ القيىء والغثيان (عارض مؤقت) ويزول بعد عدةشهور ويخف اذا اخذت الحبة مع الحليب		×
٢ ـ الصداع والدوخان والصداع النصفي		×
٣ ـ الم الصدر (عارض مؤقت)	×	×
٤ ـ كلف الوجـه (Chloasma)		×
٥ ـ الضعف والاكتئاب (هذا العرض عادة موجـود قبـل تعاطي الاقراص) ويعالج بواسطة أقراص فيتامين ب٦ ٥٠ ملجم يوميا)	×	
٦ ـ حب الشباب وفروة الرأس الدهنيـة	×	
٧ ـ الصلع يسببه القلق وليس الاقراص	ـ	ـ
٨ ـ البرود الجنسي (غير موجود في صغيرات السن مـن النساء) سببه جفاف المهبل .	×	
٩ ـ المغص والتقلصا تالبطنيـة والطمث المؤلـم (عارض مؤقت)	×	
١٠ ـ تقلص عضلات ةالساقين	×	
١١ ـ النزف المهبلي (Spotting) عارض مؤقت ويعالج بنوع من الاقراص فيه جرعة اكبر من هرمون الايستروجين	×	×
١٢ ـ اضطرابات الحيـض :		×
ا ـ قلة الطمث ويعالج باعطاء مركب فيه جرعة اكبر من هرمون البروجسترون .		
ب ـ كثرة الطمث بغير او بأدرار الحليب		
جـ ـ امتناع الحيض ، توقف الاقراص	×	×
١٣ ـ ازدياد الافرازات المهبلية البيضاء وقد يصاحبه قرحة الرحم		×
١٤ ـ الفطريات المهبليـة	×	×

الاثار الجانبية لاقراص منع الحمل والهرمون المسبب لها

الاثر الجانبي	هرمون بروجستوجين	هرمون ايستروجين
١٥ ـ زيادة الوزن ويعالج بعمل رجيم { مؤقتا ـ بواسطة احتباس السوائل		×
دائما ـ بواسطة ترسب الدهن وتحسن الشهية	×	
١٦ ـ بعض التغيرات فى عملية التمثيل الغذائي		
زيادة البروتين فى الدم أ ـ زيادة هرمون الكورتيكستيرون المتلصق بهما زيادة هرمون الغدة الدرقية ب ـ زيادة مادة الصفراء فى الدم وتغيير وظائف الكبد يعالج بوقف الاقراص جـ ـ تغير فى تمثيل حامض الفوليك (اللازم للدم)	←	×
١٧ ـ ازدياد الدهنيات فى الجسم	×	أو ×
١٨ ـ حصو المراره (غير مؤكد)	ـ	ـ
١٩ ـ ارتفاع ضغط الدم فى ١٪ من الحالات (موجود من قبل ويرجع للطبيعي بعد ثلاثة اشهر من توقف الاقراص .)	×	أو ×
٢٠ ـ زيادة الجلوكوز فى الدم (Glycosuria) ويوقف استعمال الاقراص فى هذه الحالة		×
٢١ ـ الجلطة الدموية والانسداد الشرياني لزيادة تجلط الدم بسبب زيادة مادة الفيرينوجين والعامل السابع والعاشر (وربما الثامن والتاسع) اللازمة لعملية تجلط الدم ، وميل الصفائح الدموية للتجمع . (هذا الاثر قاصر على المرأة البيضاء)		×
٢٢ ـ ازدياد حجم الرحم والاورام الليفية (مثلما يحدث فى الحمل)	×	×
٢٣ ـ احتمال الاصابة بسرطان الثدى او الرحم او المجارى التناسلية السفلى ـ (بالعكس من ذلك وجد ان الاقراص تحمي من سرطان الثدى فيما بعد كما تقلل من سرطان الرحم والمبايض) .		×
٢٤ ـ اثر الاقراص على الحمل نظريا فقط ولا يوجد دليل على تأثر الحمل بالاقراص .	ـ	ـ

ـ الغشاء الرحمي الداخلي ـ التأثير الحادث به يسبب انقطاع الحيض أو قلته أو النزيف المهبلي اثناء الدورة الشهرية(Intermenatrual)

ـ **عنق الرحم** ـ زيادة الافراز المخاطي / تضخم عند عنق الرحم الحميد .

ـ **المهبل** ـ ليس هناك تأثير سيىء على الالتهابات المهبلية .

ـ **الثدي** ـ يسبب المأ بالجس (بسبب هرمون الايستروجين) .

يقل ويختلف نوع الحليب اثناء الرضاع فتقل فيه نسبة البروتينات ، وتظهر هذه الهرمونات فى حليب الأم بنسب محسوسة ، لذلك لا ينصح باستعمال اقراص منع الحمل اثناء فترة الرضاع .

(٢) اثرها فى الغدد الصماء ـ

ا ـ الغدة الكظرية (فوق الكلوية) (Adrenal)

تؤثر هرمونات منع الحمل فى تركيز البروتينات فى الدم وبالتالي فى افراز الكبد لانواع معينة من البروتينات اللازمة لهرمونات الغدة الكظرية مما يسبب فى هبوط نسبة افراز كل من هرمون (١٧ كيتوسيترويد (17 Ketosteroid) وهرمون ألدوستيرون (Aldosterone) كما قد تزيد فى افراز هرمون كورتيزول (Cortisol) وهذا يسبب احتباسا للسوائل فى الجسم مما يسبب الصداع والاضطرابات العصبية النفسية .

ب ـ الغدة الدرقية (Thyroid)

تسبب ازديادا فى افراز هرمون الغدة الدرقية يشبه ما هو حادث اثناء الحمل ولكن لا يوجد دليل على انها تسبب تغيرا فى وظيفة هذه الغدة .

ج ـ البنكرياس (Pancreas)

استعمال اقراص منع الحمل لمدة طويلة يؤثر على التمثيل الغذائي للجلوكوز يبدو واضحا فى انحراف منحنى السكر فى الدم عن الطبيعي لذلك لا توصف اقراص منع الحمل لمريضات البول السكرى(Diabetes) كما يجب الحذر ومتابعة الفحص لمن لديهن استعداد وراثي او عائلي للاصابة بهذا المرض او ينجبن اطفالا يكون وزنهم أعلى من الوزن المعتاد أو بموت أطفالهن اثناء الولادة بدون سبب واضح .

د ـ الغدة النخامية (Pituitary)

من المعروف ان اقراص منع الحمل تسبب توقفا عن افراز هرمون (L.R.F.) الذى ينبه الغدة النخامية لافراز هرمون (F.S.H.) اللازم لاتمام عملية التبويض فى المبيض . وقد تستمر هذه الحالة حتى الى ما بعد ان يتوقف استعمال الاقراص نفسها مما يسبب عدم الحيض لفترات متفاوته وقد يمتنع الحيض نهائيا ولكن هذه الحالة نادرة ولا تتجاوز نسبتها ٢و٠٪ وتصيب عادة من كن يشكين من اضطرابات الدورة الشهرية من قبل البدء فى استعمال الاقراص لذا ينصح مثل هاتيك المريضات وخاصة من كن يشتكين من قلة او عدم الطمث بأن يبحثن عن وسيلة اخرى لمنع الحمل غير الاقراص او اذا أصررن على الاقراص فيستعملن النوع المتتالي ولعل هذه هي الحالة الوحيدة التي تستعمل فيها هذه الطريقة (Sequental)

اثرها على باقي الجسم

١ ـ **الدهنيات** ـ تسبب ازديادا فى نسبة الدهنيات فى الدم وهذه بالاضافة الى التغيرات المتعلقة بتمثيل الجلوكوز فى الجسم قد يسبب تصلبا فى الشرايين Atheroscletosis ولكن لا يوجد دليل حتى الان على التعرض

للاصابة بمثل هـذه الحالـة عند استعمال الاقراص لمدة طويلة .

٢ ــ **الكبد** ــ تعرقل هرمونات منع الحمـل نشاط الانزيمات التي تساعد على التخلص من مادة الصفراء يشبه ما يحدث اثناء الحمـل مما يزيد فرص تكون الحصو المرارى . كمـا قد يسبب الاصابة بمرض الصفراء العائد . Recurrent Jaundice . لذا يمنع من اصبن بهذا المرض من استعمال اقراص منع الحمل .

٣ ــ **انسداد الأوعية الدموية** ــ تزداد نسبة هذا الانسداد مع استعمال اقراص منع الحمل بصورة بسيطة ونسبة الوفاة لا تتجاوز ٣ من كل ١٠٠,٠٠٠ فى السنة وهي نسبة ضئيلة جدا . ولا تؤثر على الملايين من النساء اللائي يستعملن هذه الاقراص كل سنة من جميع انحاء العالم . ولكن يوصى بوقف استعمال هذه الاقراص فورا عند الاحساس بألم حاد فى الصدر .

٤ ــ **الجلد** ــ تسبب اسمرار الجلـد كمـا يحدث اثناء الحمل ويزداد بالتعرض لاشعـة الشمس ويستغرق وقتا طويلا للاختفاء بعـد التوقف عن استعمال الاقراص .

٥ ــ **الجهاز العصبي المركـزى** ــ قـد تسبب الاقراص الغثيان والصداع والاكتئاب وبعض الاضطرابات العصبيـة النفسيـة والبـرود الجنسي ، وقد يكون سببه التأثير فى النشاط الكيميائي لخلايـا المـخ وخاصـة فى مادتـي الريبتوفان (Tryptohan) والسيروتينين (Serotinin) . كما ان هناك ازديادا فى معـدل الاصابة بالضربات المخية الدموية وبالرغم مـن كونها زيادة طفيفة جدا الا انه ثبت أن هنالك علاقة اكيدة بين اقراص منع الحمـل وهـذه الضربات المخية . لذا يوقف استعمال الاقراص فورا اذا كان هناك نوبات من الصداع الشديد او ظهرت اعراض خاصة بالاعصاب الخارجية .

٦ ــ **الكلية** ــ قد تسبب ارتفاعا طفيفـا او مؤقتا فى ضغط الدم لاختلال التوازن بين مادتي الرنين (Remin) والانجيوتنسين Angiotensin فى الدم ، وينصح بقياس ضغط الدم بصورة دورية عند استعمال الاقراص لمدة طويلة .

٧ ــ **وزن الجسم** ــ هذه الهرمونات هـي مواد بنـاءة لاقتراب تركيبها الكيميائي مـن الهرمـون البنـاء المعـروف تستستيرون (Testosterone) . لـذا يجـب وقف استعمال الاقراص اذا زاد وزن الجسم عـن (١٠) أرطال في السنة او استبدالها بنوع اخـر يحتوى على نسبة أقـل مـن هرمون البروجسترون .

٨ ــ تغييرات اخرى متفرقة

(Ulcerative colifis)

قد تسبب انسداد الاوعية الدموية للغشاء المعوى او قرحـة القولون الالتهابية وهـذه الحالات تحتم وقف استعمال الاقراص فورا كما تغير فى معدل نسب بعض العناصر الغذائية فى الدم كحمض الفوليك وفيتامين ج ، ولكن المغزى الاكلينيكي لهذه التغييرات غير معروف حتى الان .

كذلك الكالسيوم والزنك . مع ازدياد نسبة فيتامين أ والنحاس والحديد فى الدم .

الحالات المرضية التي تمنع تعاطي اقراص منع الحمل بصفة قاطعة .

١ ــ سرطان الثدى والرحم .

٢ ــ الحمـل .

٣ ــ امراض الكبد الحادة النشطة .

٤ ــ ازدياد معدل تركيز الدهن فى الدم (Hyperlipidaemia)

٥ ــ مرض البول السكرى او الاستعداد الوراثي او العائلي للاصابة به .

الحالات التي قد يمنع فيها اقراص منع الحمل بصفة اختيارية .

١ ـ حالات الاكتئاب النفسي Depression neurosis

٢ ـ الصداع النصفي Migraine

٣ ـ ارتفاع ضغط الدم Hypertension

٤ ـ الصرع Epilipsy

٥ ـ قلة او انقطاع الطمث

وينصح بالفحص الدورى مرة كل سنة على الاقل اثناء تعاطي الاقراص حيث يقاس ضغط الدم ويجرى الفحص المهبلي ويسجل وزن المريضة ويفحص الثدى ويعمل منحنى للسكر فى الدم وتعرف نسبة مادة الصفراء فى الدم ، مثل هذه المتابعة الدورية تمكن استمرار تعاطي هذه الاقراص الى سن الخمسين بدون توقف، وليس هناك اى ضرورة لايقاف استعمالها قبل سن اليأس الا فى حالة الرغبة فى الحمل . اما وقف استعمال هذه الاقراص بصفة مؤقته على فترات معينة كما هو شائع الآن فليس له اى ضرورة ، كما انه يعرض السيدة لحمل غير مرغوب فيه وبذلك يقع المحظور . وعند بلوغ سن اليأس توقف هذه الاقراص مؤقتا ويعطى بدلا عنها جرعة مخفضة من هرمون الايستروجين منفردا واذا ثبت ان المبيض مازال نشطا ويفرز بويضات صالحة للحمل فيعاد تعاطي الاقراص مرة اخرى أو تستبدل بالوسائل التقليدية القديمة كالغلاف الذكرى والحاجز المهبلي أو الرغاوى الكيميائية .

اعراض جانبية مستحبة (حميدة) لاقراص منع الحمل

١ ـ علاج او تخفيف الطمث المؤلم ـ ثبت ان اقراص منع الحمل تعالج الطمث المؤلم فى ٦٠ ـ ٩٠٪ من الحالات (من المعروف ان ٤٥٪ من النساء يشعرن بآلام) اثناء الحيض وفى ١٢٪ منهن يكون الالم شديدا جدا بدرجة لا تحتمل) .

٢ ـ علاج التوتر العصبي الذى يسبق الحيض ـ كثيرات من النساء يشعرن بتوتر عصبي فى الايام الثلاثة او الاربعة السابقة للحيض مع بعض الاعراض كالصداع والاكتئاب وفقدان التركيز واحيانا تصاب بنوبات تشبة نوبات الصرع وقد لوحظ ان اقراص منع الحمل تخفف من حدة هذا التوتر (التوتر العصبي يصيب حوالي ١/٣ من النساء) .

٣ ـ تمنع الحيض ـ من المعروف أن الحيض هو احد مظاهر الحياة الحضارية فالمرأة البدائية اما حامل أو مرضع وفى كلتا الحالتين لا ترى الحيض الشهرى ولا تعاني من هذا النزيف الدورى . فاقراص منع الحمل تخفف الحيض الشهرى الى درجة كبيرة وقد تمنعة كلية وقد لوحظ ان نسبة هيموجلوبين الدم مرتفعة مع اقراص منع الحمل ، وفى ٥٠٪ من الحالات يقل الحيض ، وفى ١٪ يمتنع الحيض بالمرة .

٤ ـ تخفيف حب الشباب (A)cne (مرض جلدى) ـ لوحظ ان اقراص منع الحمل تعالج وتخفف من اعراض مرض حب الشباب الذى يصيب الفتيات في وقت البلوغ ويكون سببه الهرمونات الذكرية التي يفرزها المبيض اثناء البلوغ (Androgens) وقد وجد ان ٨٠ ـ ٩٠٪ من المريضات يتحسن باستعمال اقراص منع الحمل .

٥ ـ علاج اعراض الذكورة (Hirsutism) فى بعض الحالات .

٦ ـ تخفيف آلام التبويض (Mittelschmerz) والذى يحدث فى منتصف العادة الشهرية .

٧ ــ الرغبة الجنسية ــ من الصعب تقدير كمية التغير الحادث فى هذه الغريزة فهي قد تزيد فى ٥٠٪ وقد تنقص فى ٤٠٪ من الحالات.

٨ ــ تحسين الحالة النفسية للزوجين ــ حيث يشعران بالسعادة لتحكمهما فى الحمل والتخلص من الحمل الغير مرغوب فيه .

ثانيا : اللولب الرحمي

Intrauterine Contraceptive Device (loop)

تعريف ــ هي تصميمات وأشكال مختلفة توضع داخل التجويف الرحمي بقصد منع الحمل وهي مصنوعة من لدائن خاملة غير فعالة ورخيصة نسبيا ويراعي فى اللولب ان يكون قابلا للانثناء ويمكن ادخاله الى التجويف الرحمي بسهولة ولا يسبب اى اذى او خطورة على المريضة ويكون من حجم مناسب فلا يطرد من الجسم .

تاريخ استعماله ــ الفكرة نفسها ليست جديدة فقد سبق استعمال اشكال مماثله في القرن التاسع عشر ولكن كانت توضع جزئيا فى الرحم وجزئيا فى المهبل وقد عدل عنها فيما بعد بسبب الالتهابات التي كانت تنتج عنها . وطورت الفكرة بعد ذلك بوضع حلقات معدنية لولبية توضع كلية داخل التجويف الرحمي (كوقاية ضد الالتهابات) ومن امثلتها حلقة جرافنبرج (Grafenberg ring) الالمانية

وحلقة اوتا اليابانية وهاتان الحلقتان ما زالتا تستعملان حتى الان وتصنعان اما من الذهب او من الفضة او من سبيكة من النحاس والنيكل والزنك .

كما استعملت حلقات اخرى من امعاء دودة القز او من مشتقات مادة النايلون ولو انها اقل فاعلية .

ثم استعملت الحلقات المعدنية القابلة للانثناء المعقدة بعض الشيء فى التركيب وتحتاج الى تخدير كلي .

واخيرا استعملت مادة البوليا ثيلين (Polyethylne) فى صناعة اللوالب والتي تجمع بين الرخص فى الثمن والفعالية فى منع الحمل . وتنوعت الاشكال والتراكيب وقد اثبت النوع المسمى لولب ليبيس (Lippes Loop) انه احسنها واكثرها استمرارا فى الرحم كذلك الانواع التي على شكل حرف (T) وكل هذه الانواع لها جهاز خاص بها لادخالها فى جوف الرحم كما ينتهي طرفها بخيط متين من النايلون متدل فى المهبل ويعتبر علامة على وجود اللولب واستمراره داخل الرحم كما يمكن ازالة اللولب من الرحم بالشد عليه اذا حدث ما يستدعي استخراج اللولب .

شيوع اللولب

شاع استعماله فى السنوات الاخيرة من بدء السبعينيات حتى احتل الان المركز الثاني مباشرة بعد اقراص منع الحمل وتمزج المادة البلاستيكية للولب بمادة الباريوم الذى يتيح له الظهور بوضوح فى صورة الاشعة السينية التي تؤخذ للحوض عندما يراد التأكد من وجوده ومن موضعه . وقد أضيف عنصر النحاس على اللولب مؤخرا لزيادة فعاليته . ومعظم اللوالب المستعملة الان تكون على حجمين او اكثر للاختيار منهما على حسب حجم الرحم .

طريقة عمل اللولب

غير معروفة بالضبط حتى الآن ولكن من المتفق عليه الآن ان اللولب يمنع زرع البويضة الملقحة فى الغشاء الرحمي الداخلي بطريقة او بأخرى ولذلك يجب ان يغطي اللولب كل الغشاء الرحمي الداخلي ، ولذلك فان اللولب اذا كان صغير الحجم بدرجة

واضحة او زرع فى احد قناتي الرحم مزدوج التجويف وهو عيب خلقي يسمى (Bicornute uterus) فانه من الممكن حدوث الحمل.

وسبب منع زرع البويضة فى جدار الرحم:

١ ــ قد يكون الالتهاب الناشيء عن وجود جسم غريب داخل الرحم .

٢ ــ او ان هذا الجسم الغريب قد ينبه بعض الدفاعات فى الجسم التي تدمر البويضة بواسطة الخلايا المخصصة لذلك (Macrophages)

٣ ــ وربما سببت مادة النحاس الموجودة في بعض الانواع فى تدمير الحيوانات المنوية او البويضة الملقحة ذاتها او تجعل افراز عنق الرحم طاردا للحيوانات المنوية أو يفقد الغشاء الرحمي الداخلي استجابته لزرع البويضة .

٤ ــ والسبب الاخير قد تكون الهرمونات الداخلية فى تركيب اللوالب لها نفس التأثير اذا اعطيت بالفم او الحلق وهو مشابه لما يحدث فى الحمل .

متى يستعمل اللولب

١ ــ تستعمل اللوالب الرحمية فى حالة رفض المريضة لاقراص منع الحمل ، او عدم امكانية استعمالها لسبب من الاسباب التي تحرم استعمالها .

٢ ــ كما انها ذات اهمية خاصة عندما تكون الزوجة من النوع اللاهي الذى لا يتحمل المسئولية(وكذلك الزوج) وفى حالات الاختلال العقلي والظروف الاجتماعية السيئة .

٣ ــ فى حالة فشل او عدم امكانية الوسائل الاخرى .

٤ ــ اذا توافر الاشخاص المؤهلين لتركيب مثل هذه اللوالب فيمكن استعمالها على نطاق واسع لتحديد النسل .

متى يمنع استعمال اللولب

١ ــ فى الايام الاولى لفترة النفاس التي تعقب الولادة او الاجهاض حيث يجب مرور ستة اسابيع على الاقل علىالولادة او الاجهاض قبل تركيب اللولب .

٢ ــ فى حالة النزيف الرحمي المصاحب لعادة شهرية غير منتظمة واورام الرحم وامراض الحوض الاخرى .

٣ ــ عندما تكون هناك دلائل وشواهد على وجود التهاب حوضي (Pelvic Infection) في الحاضر او الماضي .

٤ ــ عندما يكون الرحم به عيب خلقي كحالة ازدواج التجويف الرحمي (Biornute) حيث يوضع اللولب فى تجويف واحد ويترك التجويف الآخر عرضة للحمل .

٥ ــ عندما تكون المراة بكرية ولم تلد بعد ، قد يكون اللولب ذا خطورةاثناء عملية التركيب بالاضافة الى صعوبة وصغر حجم الرحم .

٦ ــ لا يركب اللولب فى الحالات التي اجرى لها عملية قيصرية او اجهاض عن طريق البطن (Hysterotomy)فهناك احتمال كبير بعدم التئام الجرح داخل الرحم او التئامه جزئيا مما يعرض الرحم لخطورةالخرق بواسطة اللولب.

٧ ــ عندما تثبت محاولات تركيبه وجود اعراض جانبية غير مقبولة (كالنزيف والالتهابات)

فعالية اللولب

يلىالاقراص فىالفعاليةالا انبهكثيرا منالمزايا التي تفوقها مثل : ــ

١ ــ يقتصر عمله على الجهاز التناسلي

فقط وليس له اى اثار عامة على الجسم كاقراص منع الحمل .

٢ ـ يركب لمرة واحدة فقط ويستمر عمله لمدة سنوات بعد ذلك طالما ظل فى مكانه (اى لا يحتاج لاي اشراف طبي دوري مثل الاقراص)

٣ ـ تعرف الاطباء على فاعليته واثاره الجانبية اسرع بكثير من تلك التي جمعت بخصوص الاقراص (استغرق بعضها عدة سنوات وما زال ينقصنا الكثير)

٤ ـ وميزته الحقيقية هو انه فى حالة ثباته فى موضعه فانه غير مسبب لاي اثار جانبية (كالنزيف) ويصبح وسيلة رخيصة وفعالة لمنع الحمل وفى متناول الجميع (بعكس الاقراص التي تعتبر مرتفعة الثمن بالنسبة للولب وتحتاج لان تدفع المراة باستمرار .)

٥ ـ لا يحتاج الى عناية مستمرة وخاصة كالحاجز المهبلي .

٦ ـ لا يؤثر في الخصوبة على اى وجه ، ويمكن الحمل خلال أشهر قليلة من استخراج اللولب .

الفعالية

١ ـ وتختلف فعالية اللولب (اى نسبة الحمل) باختلاف النوع المستعمل وفى النوع المسمى لولب ليبس (Lippes Loop) لا تزيد نسبة الحمل عن ٢ر٧٪ بعد سنة من الاستعمال . ونسبة الحمل اكثر ارتفاعاً في السنة الاولى للاستعمال منها فى السنين التالية .

٢ ـ نسبة الحمل اكثر ارتفاعا كلما صغر حجم اللولب من نفس النوع المستعمل .

٣ ـ عند حدوث الحمل مع وجود اللولب فان اللولب لا يجود ابدا داخل الكيس الامينوس لان البويضة تزرع دائما فى جدار الرحم بعيدا عن اللولب .

عيوب اللولب واخطاره

١ ـ الحمل (Pregnancy) ـ حدوث الحمل مع وجود اللولب داخل الرحم غير مستبعد ، فى هذه الحالة لا يسبب اى تشوه خلقي للاجنة او زيادة فى نسبة الوفيات داخل الرحم . ولكن وجد ان نسبة الاجهاض الذاتي أعلى من المعدل الطبيعي ، وعند حدوث الحمل فتنقسم الآراء حول طريقة التعامل مع اللولب الموجود بداخل الرحم .

الرأى الاول ـ ترك اللولب وشأنه حيث سيرتفع تلقائيا مع كبر حجم الرحم حتى يختفى الخيط عن متناول اليد ويتوارى اللولب بين الاغشية ولا يسبب اى ضرر حتى يقذف به خارجها مع ما يقذف من الاغشية ونتائج الحمل عند الولادة .

الرأى الثاني ـ اذا كان خيط اللولب مازال موجودا ومحسوسا فى المهبل فيمكن الشد عليه لنزع اللولب من الرحم ، ويقول اصحاب هذا الراى ان فرصة استمرار الحمل بعد استخراج اللولب اكثر من فرصتها لو ترك مكانه ، واذا لم يكن خيط محسوسا فيترك وشأنه ولا يباشر البحث عنه داخل الرحم ، لان هذا حتما سيؤدى الى الاجهاض .

ونسبة الحمل مع وجود اللولب هي حوالي ٢ ـ ٥٪ في السنة الاولى لتركيب اللولب ثم تبدأ بالانخفاض بعد ذلك .

اي ان اللولب غير مرض بصفة عامة فى ٣٠ ـ ٤٠٪ من الحالات فى السنة الاولى وبعض اللوالب تسقط من تلقاء نفسها خارج الرحم وبعضها (١٥٪) تستخرج عمدا اذا كانت مسببة لاغراض جانبية غير مستحبة .

كما ان بعضها يفشل فى منع الحمل ولكن تعتمد النتيجة النهائية على اختيار المريضة ونوع وحجم اللولب المستعمل كما ان تقبل المريضة له اهمية خاصة . وهناك امل كبير فى الانواع الجديدة المتطورة النشطة Activated appliances التي تسبب اعراضا جانبية اقل من الاولى وفاعلية اكثر ضد الحمل .

٢ ـ الحمل خارج الرحم (Ectopic Pregnanc)

اللولب يمنع الحمل داخل الرحم بنسبة ٩٧ـ ٦٨٪ من الحالات ولكنه يمنع الحمل خارج الرحم بنسبة اقل اي فى حوالي ٩٠٪ وفى حالة حدوث الحمل واللولب داخل الرحم فهناك احتمال ١/٢٠ ان يكون هذا الحمل خارج الرحم . وفى كل حالة تجرى فيها عملية اجهاض لسبب فشل اللولب فيجب ارسال عينة من البقايا المستخرجة من داخل الرحم للتأكد من ان هذا الحمل داخل الرحم .

٣ ـ طرد اللولب

يحدث ذلك في السنة الاولى فى ٢ ـ ١٠٪ من الحالات (معتمدا على نوع اللولب) وهو يعتبر من عيوب اللولب الرئيسية وخاصة اذا حدث بدون علم المريضة الذى يحدث فى حوالي ٢٠٪ من الحالات وهذا قد يتبعه الحمل غير المرغوب ، وقد وجد ان حوالي ثلث حالات الحمل مع اللولب حدثت عقب طرد اللولب بغير علم من المريضة بذلك ، وهذا يبين أهمية وجود الخيط المتصل باللولب كعامل انذار مهم اذا فقد اثره . ونسبة الطرد أعلى فى الشهور الاولى وكذلك فى السنة الاولى ، وتزداد نسبة الطرد كلما صغر حجم اللولب ولو كان من نفس النوع ، كما ان نسبة الطرد تكون اعلى ، اذا ركب اللولب فى الايام الاولى لفترة النفاس (Puerperium) كما وجد انه كلما صغر سن المريضة وقل عدد الاطفال زادت نسبة الطرد التلقائي من الرحم ، وفى بعض الاحيان النادرة قد تنزعه المريضة بنفسها سواء بالسهو او بالخطأ .

اما اذا اعيد تركيب اللولب بعد طرده فان احتمال الاحتفاظ به يصل الى ٦٨٪ واذا اعيد تركيبه للمرة الثالثة فان هذه النسبة تنخفض الى ٣٤٪ فقط اى لا توجد فائدة تذكر فى اعادة تركيب اللولب اذا تكرر طرده .

٤ ـ التوقف عن استعماله (Discontinuation)

وهذه نسبة ثابته مع كل انواع اللوالب وتبلغ حوالي ٢٠ ـ ٣٠٪ فى السنه الاولى و ١٠ ـ ١٥٪ فى السنوات التالية الى اقل من ١٠٪ فى السنة الخامسة واقل من ٦٪ في السنة السادسة ـ ونهاية السنة السادسة نجد ان حوالي ٤٠٪ من السيدات ما زلن محتفظات باللولب وهذه نسبة جيدة ـ كما وجد ان حوالي ٢/١ ٥٪ من حالات التوقف كان بسبب الحمل .

اسباب التوقف عن استعمال اللولب

١ ـ الحمل .

٢ ـ الالم ـ النزيف المهبلى (ولأسباب طبية اخرى) ونسبة التوقف فى هذه الحالات تبلغ حوالى ١٥٪ فى السنة الاولى وتنخفض الى ٧٪ فى السنة الثانية ، وهذا العامل يشكل نصف حالات التوقف عن الاستعمال تقريبا .

وأحسن اوقات تركيب اللولب هو وقت الحيض الفعلى للتأكد من عدم وجود الحمل ، كما ان الزيادة الطبيعية التى سوف تحدث فى النزيف المهبلى الموجود فعلا لن يزعج المريضة ، وقد يزداد النزيف المهبلى بعد سنة من تركيب اللولب ، وهذا سببه ترسب املاح الكالسيوم على سطح اللولب الاملس فيجعله خشنا مما يسبب قروحا بالغشاء المبطن للرحم ، وهذا يسبب زيادة فى دم الحيض وفى هذه الحالة يستخرج اللولب ويغير نوعه .

٥ ـ خرق الرحم Perforation

هذه الحالةنادرة الحدوثونسبتها١/٢٥٠٠ ولكن مع النوع المسمى دلكان (Dulkan) تزداد النسبة الى ١/٣٥٠ (وقد اوقف استعمال هذا النوع اخيرا وسحب من الاسواق بسبب المضاعفات الخطيرة التى كان يحدثها كالخرق والحمل والاجهاض الملوث) .

ويمكن تجنب هذه الحادثة بتوخى الحذر اللازم واتباع الطرق الصحيحة لتركيباللولب (وذلك باستكشاف تجويف الرحم بواسطة المجس الخاص قبل تركيب اللولب) وقد تساعد انقباضات عضلات الرحم على دفع اللولب خلالجدار الرحم السميكالى التجويف البيروتونى . واختفاء الخيط ليس معناه خرق الرحم بالضرورة فهو يختفى في الحالات التى يدور فيها اللولب على محوره ١٨٠ درجة ساحبا معه الخيط الى داخل الرحم .

ومع ذلك ففى حالة اختفاء الخيط تعمل صور شعاعية لتحديد مكاناللولبويستكشف داخل الرحم (بشرط التأكد من عدم وجود الحمل) . وعند التأكد تماما من وجوده داخل البطن يستخرج بواسطة منظار Laparascope او عن طريق المهبل Coldotomy . هذا اذا كان من الانواع التى قد تسبب انسدادا فى الامعاء (كالانواع الحلقية) ما عدا ذلك يمكن تركه حيث لا ضرر منه .

٦ ـ الالتهاب (Infection) والتلوث الميكروبى

لا يوجد دليل قاطع على ان اللولب هو السبب المباشر فى بعض الالتهابات التىتحدث فى المجاري التناسلية العليا التي تلاحظ احيانا مع وجود اللولب ، ولكن لا يجب تركيباللولب مع وجود التهاب فى قنوات فالوب، لان اللولب سوف يساعد على ادخال عدد اضافى من الميكروبات التى تزيد الحالة سوءا .

وعند فحص النسيج الرحمى بعد استخراج اللولب نجد ان اعراض الالتهاب غير الميكروبى تستمر مدة طويلة. هذا الالتهاب غير ضار وهو الاساس فى عمل اللولب فى منع الحمل .

ووجود اللولب يساعد على انتشار اى التهاب حاد جديد تناسلى يصيب المراة مثل مرض السيلان (Gonorrhoea) واللولب يساعد على انتشار هذا المرض الى ابواق فالوب وفي هذه الحالة يوصى باستخراج اللولب فورا وعلاج الحالة بسرعة وبحسم .

والتهاب ابواق فالوب الحاد والمزمن الذى يحدث فى ١ ـ ٢٪ من حالات تركيب اللولب عادة يحدث اذا ركب اللولب خطأ مع حمل مبكر أو كان هناك التهاب قديم بالابواق غير معلوم وقت التركيب ، أو اذا ركب مبكرا بعد حمل ، او اذا سبب اجهاضا .

٧ ـ هل اللولب يساعد على الاصابة بالسرطان

لم تثبت الابحاث المستفيضة التي اجريت على اللولب انه يؤدى الى سرطان الرحم أو سرطان عنق الرحم .

٨ ـ تمزق عنق الرحم

قد تسبب بعض الانواع التى لها جزء يوضع فى عنق الرحم بعض التمزقات او الجروح به وهي ليست بذات خطر .

٩ ـ كسر اللولب

قد يصبح اللولب هشا ويكسر بعد ٢ ـ ٣ سنة من الاستعمال فيصبح بذلك غير ذى فاعلية ويعسر استخراجه من داخل الرحم كما ان اطرافه الحادة قد تخترقجدار الرحم .

١٠ ـ الاغماء عند تركيب اللولب

قد يحدث ذلك احيانا .

١١ ـ ازدياد كمية النزف الشهري او ظهور بعض البقع الدموية وسط الدورة الشهرية

وهي تحدث في ٥٠٪ من الحالات وشائعة في الايام والاشهر الاولى لتركيب اللولب . وقد تسبب انيميا وتعالج بمستحضر ابسيلون امينو كابوريك اسيد
(Epsilon Amino Caproico Acid)

١٢ ـ الطمث المؤلم (Dyamenonhoea)

وتسببها تقلصات الرحم وهــذه تتحسن بتعود المريضة على اللولب .

التطورات والتحسينات التــى ادخلت علــى اللولب

لما كان اللولب حتى الآن ـ ليس بالوسيلة المثالية لمنع الحمل حيث ان هناك ٢/١٢٪ من حالات الحمل فى السنة الاولى للاستعمال ، كما ان هناك ١٥٪ من حالات طرد او استخراج اللولب لاسباب طبية في السنة الاولى ايضـا فقد جرت محاولات كثيرة لتطويــر اللولب وتحسين فاعليته كمانع للحمل ، من احــدث التحسينات التى ادخلت على اللولب هــو تعميم اللولب على شكل حرف (T) الذى يلف حوله سلك رفيع من النحاس ، وهذه الانواع ذات أهمية خاصة بالنسبة للزوجات اللاتي لم يحملن بعد (Nulliparous) واللائى عـادة لا يتحملن الانواع الاخرى بسبب الالم الـذى تسببه لهن . وقد وجد انهن يحتفظن بهذا النوع ولا يتخلصن منه ، وهذا فتح لهن المجال لمنع الحمل كبديل للاقراص .

وهناك ايضا اللولب النحاسي على شكل رقم (7) اللاتينى وهذا يشبه اللولب (TC 200) من حيث فاعليته ومناسبته للزوجات اللائى لم يحملن .

وما زالت الابحاث تجرى لاستنباط انواع اخرى من هذا النوع حيث يضـاف هرمــون البروجستيرون على الزراع العمودية للولب فى محاولة لتقليل الاعراض الجانبية الى الحــد الادنى .

احسن وقت لادخال اللولب داخل الرحم

الوقت المثالى هو اثناء الحيض او بعــده مباشرة للتأكد من عدم حدوث الحمل ولكن عقب الاجاض او الولادة يستحسن ان تنتظر المريضة ستة أسابيع قبل تركيب اللولب او على الاقل بعد الحيضة الاولى للولادة حيث تفحص المريضة بعد شهر من تركيب اللولب وبعد ثلاثة اشهر ، ثم تفحص دوريا كل سنة للتأكد من وجود اللولب في مكانه ولتغييره اذا جد ما يستدعي ذلك . ويزال اللولب كليــة عند بلوغ سن اليأس وفى اى وقت قبل ذلك اذا سبب اعراضا جانبية شديدة او مضاعفات .

وفى حالة حدوث حمل بالصدفة فيفضل الكثير من الاطباء ترك اللولب وشأنه ، فمــع تقدم الحمل سيرتفع اللولب تلقائيا حتى يختفى تماما .

ثالثا : وسائل منع الحمل التقليدية

١ ـ الغلاف الذكرى (Condom)

نسبة لطبيب يدعى دكتور كوندوم ـ وهى من اقدم وسائل منع الحمل التى ما زالت متبعة حتى الآن . وهى بسيطة وفعالة وأول وصف لها نشر عام ١٥٦٤ م كان عبارة عن غلاف مصنوع من الصوف يستعمل اساسا لمنع العدوى بمرض الزهرى وتطور حتى اصبح يصنع الآن من مادة « لاتكس » مختلفة السمك ويزود احيانا بحلمة صغيرة فى القمة كخزان للحيوانات المنوية ويستعمل اما جافا او مشحما وميزته انه يحفظ الاحساس اثناء الجماع ولكن الانــواع الحديثة مرتفعة الثمن ، وفعاليته

النظرية تكاد تقارب فعالية اللولب الرحمى ، ونسبة الحمل تتراوح بين ٤ ـ ٣٦ سيدة لكل مائة عام من التعرض ـ وتزداد فعاليته اذا استعمل معه مركبات كيميائية لقتل الحيوانات المنوية واسباب الحمل مع الغلاف الذكرى هى الآتية : ـ

١ ـ التمزق اثناء الاستعمال ١٥٠/١ ـ ٣٠٠ حالة (٢ر٠ ـ ٣ر٠٪) .

٢ ـ القذف السريع قبل تثبيت الغلاف .

٣ ـ فقد الغلاف فى المهبل اثناء الجماع .

٤ ـ عدم الخبرة فى استعماله .

٥ ـ وجود عيب فى الغلاف (٣ر٠٪) وربما كان هذا سبب ارتفاع ثمن بعض الانواع التى يجرى اختبارها بوسائل متقدمة قبل طرحها فى الاسواق .

واغراض استعمال الغلاف الرئيسية هي :ـ

١ ـ الوقاية من الحمل .

٢ ـ الوقايةمنالامراض التناسليةكالسيلان والزهرى .

وللوقاية من السيلان يجب توافر عدة شروط كالحرص الزائد وسلامة الغلافالتامة طيلة فترة التعرض وبعدها ، وجدير بالذكر ان هذه الطريقة التى عمرها الان اكثر من اربعمائة عام هى الوسيلة الوحيدة الشائعة لمنع الحمل بالنسبة للذكور ، وبالغم من الابحاث المركزة من جميع انحاء العالم لايجاد بديل شعبى وواسع الانتشار مثلها فما زالت هى الاكثر شيوعا خاصة بالرجل كوسيلة أولى ومساعدة لمنع الحمل .

٣ ـ وقاية الذكر منبعض الالتهابات الانثوية واوقاتالعادة الشهرية (عادة غربية شائعة) .

٢ ـ الحاجز المهبلى Diaphragm

سبق ووصفه ميسينا عام ١٨٨٢ م . ولكن لم يبدأ استعماله الا بعد عام ١٩٢٠ م ووظيفته مزدوجة فهو يعمل كحاجز وقائى وكوعاء لمضاد الحيوانات المنوية ، وتقترب فعاليته مع المادة الكيميائية الخاصة به (جيل او كريم) Gell or Cream من فعالية اللولب الرحمية او الغلاف الذكرى ونسبة الحمل هى حوالى ٦ ـ ٣٠ سيدة في المائة السنة . وهو يعتمد فى فعاليته الى حد كبير على المريضة نفسها وطريقة الاستعمال بالنسبة لوقت التعرض . وميزته هو انه يمكن للمراة ان تثبته فى موضعه قبل التعرض بمدة طويلة ولذا فهو ليست له صلة مباشرة ولا يتدخل فى عملية الجماع .

ولكن هذه الوسيلة لم تلق التشجيع الكافى من جانب السيدات لاحتياجه للتثبيت (ممكن تدريب السيدة نفسها على تثبيته فى موضعه) كما ان المواد الكيميائية التى تستعمل معه قد يتقززن منها . وجدير بالذكر أن الكثير من الاطباء المتدربين على تركيب اللوالب الرحمية ووصف اقراص منع الحمل هم قليلو الخبرة فى تركيب وتشبث الحاجز المهبلى . ويثبت اكبر حجم يمكن للمراة ان تتحمله بدون الم، ومع ذلك تتزحزح الحاجز عن مكانه بفضل تمدد جدران المهبل اثناء عملية الجماع وبذلك يفقد فعاليته ، وقد يحتاج الحاجز لاستبداله عدة مرات بحجوم اكبر منه . وهناك أربعة اشكال من الحاجز المهبلى ـ (يراعى عند تثبيته ان يغطى عنق الرحم تماما) .

١ ـ الحاجز ذو الملف الزنبركى (Coil Snring Diaphragm) وهو سهل الاستعمال بواسطة المريضة نفسها ، ومناسب للاستعمال العام (ينثنى على محور واحد) .

٢ ـ الحاجز ذو الملف المسطح ـ وهو ايضا سهل الاستعمال .

٣ ــ الحاجز المحدب او المقوس ــ مناسب لحالات عيوب الرحم الوضعية كالرحم المائل كثيراً للامام حيث يأخذ عنق الرحم اتجاها خلفيا .

٤ ــ اما فى حالات ارتخاء الجدران المهبلية فيستعمل حاجز مهبلى على شكل عجلة هودج (Hodge Pessary) .

والحاجز المهبلى لا يصلح ولا يستعمل في حالات السقوط الرحمى الناتج عن ارتخاء عضلات الحوض . او بعض حالات العيوب التشريحية للحوض . وفى هذا الحال يستبدل الحاجز المهبلي بغطاء عنق الرحم Cervical Cap.

والطريقة المثلى للحاجز المهبلى هو تركه لمدة ست ساعات على الاقل بعد التعرض وهي المدة الكافية لتوقف حركة الحيوانات المنوية فى المهبل ــ كما تضاف كمية اخرى من الهلام القاتل للحيوانات المنوية اذا ظل فى المهبل لمدة اطول من ستة ساعات قبل التعرض ، وهذه الارشادات من باب الاحتياط ليس الا .

والحاجز المهبلى غير صالح فى حالات الجماع السريع المتتابع لانه عرضة فى هذه الحالة لأن ينزلق من مكانه ويفقد فعاليته (كما فى المومسات مثلا) .

وقد يحمى الحاجز المهبلى الى حد ما من الاصابة بالامراض التناسلية (ولكن درجة هذه الوقاية غير مؤكدة حتى الآن) .

٣ ــ قاتلات الحيوانات المنوية

(Spermicidal Preporations

هناك انواع تستعمل عادة مع الحاجز المهبلى ، وانواع تستعمل منفردة كوسيلة قائمة بذاتها لمنع الحمل ، وفائدتها الرئيسية انها تخلق حاجزا كيميائيا يمنع دخول الحيوانات المنوية الى داخل عنق الرحم (Endocervical Canal)

وهذه المواد الكيميائية تتخذ اشكالا مختلفة فهى اما على شكل هلام (جيلاتين) ، كريم ، معجون ، محاليل ، مساحيق ، لبوس مهبلى ، مساحيق او اقراص رغوية ولكنها اقتصرت الآن على الرغوة ، الكريم ، الهلام واللبوس ، واستغنى عن الانواع الاخرى ومنذ عام ١٩٦١ استعملت رغوة ايروسول aerosol foam وشاعت حتى تساوت مع اللولب الرحمى فى الاستعمال عام ١٩٧٠ م .

والمادة الفعالة في بعض هذه المركبات هي مادة خلات الفنيك الزئبقية او مواد اخرى ذات فعالية سطحية (Surface Active) وتفضل الكثير من السيدات استعمال الرغاوى الكيميائية لسهولتها ونظافتها ولا تترك اثرا ذا اهمية بعد الاستعمال ، ونسبة الحمل مع هذه الكيميائيات هي من ٢ ــ ٣٨ حالة حمل/ مائة سنة من الاستعمال ويراعى عند استعمال هذه المركبات ان توضع عميقا فى قناة المهبل وتقوى بكميات اخرى اذا تكرر التعرض ، وفى حالة اللبوس المهبلى يراعى ان توضع قبل التعرض بوقت كاف للانصهار وبفعل حرارة الجسم داخل المهبل اى من ١٥ الى ٣٠ دقيقة قبل التعرض .

ومن التطورات فى هذه المركبات هي ضخها فى المهبل تحت ضغط عال لتوزع بطريقة متساوية على جدران المهبل ، ويمكن لهذا المحقن ان يظل صالحا ايضا بعد التعبئة لمدة أسبوع . وجدير بالذكر ان هذه المركبات الكيميائية صالحة ايضا كوسيلة وقائية من الامراض التناسلية .

استعمالات وسائل منع الحمل التقليدية (الايروسول / الغلاف الذكرى / الحاجز المهبلى)

١ ــ فى الحالات التي لا تستطيع السيدة ان تستعمل الوسائل الاخرى او لتفضيل شخصي .

٢ ـ فى حالات الجماع المتباعد والمتفرق كسفر الزوج لمدد طويلة متعددة كما فى حالات البحارة والجنود واشباههم .

٣ ـ قد تستعمل في بعض الحالات العاجلة (الجماع المفاجىء مثلا) او لعدم تمكن السيدة من مراجعة عيادات تحديد النسل ، او لكراهيتها للوسائل الأخرى .

٤ ـ وقد تستعمل كعامل ثانوى مساعد كان تنسى السيدة قرصا من اقراص منع الحمل او اكتشاف غياب اللولب الرحمى من الرحم فى هذه الحالة يلجأ الزوجان لهذه الوسائل مؤقتا لحين مراجعة مركز تحديد النسل .

ومن واجب الاطباء دائما الا يقللوا من شأن هذه الوسائل لأن ذلك قد يجعل الزوجين يحجمان عن استعمالها فى بعض الحالات الطارئة مما قد يعرض المراة للحمل . ويجب ان يكون جميع الاطباء العاملين فى مراكز تحديد النسل على علم تام بهذه الوسائل ليستطيعوا افادة مرضاهم وارشادهم على الطريقة الصحيحة لاستعمالها . وجدير بالذكر ان استنباط وسائل منع الحمل المتعددة الاغراض كمضادة للامراض التناسلية والالتهابات المهبلية بجانب الغرض الرئيسي لمنع الحمل قد يؤدى الى زيادة العناية فى تطوير وتحسين الوسائل المهبلية الحالية التي تستعمل فى منع الحمل . كما ان المزيد من النساء ما زلن يفضلن استعمال وسائل منع الحمل البسيطة السهلة المأمونة بالرغم من اباحة الاجهاض فى معظم بلدان العالم الآن .

وسائل منع الحمل الثانوية

١ ـ الفسول المهبلي ـ معروف منذ القدم وذلك بفسل قناة المهبل مباشرة بعد الجماع وهي منتشرة فى الولايات المتحدة اكثر منها فى انجلترا ويستعمل عادة المحاليل المنزلية مثل محلول الخل ـ محلول الشب ـ محلول الملح، حتى الصابون وتستعمل النساء (فى بعض البلدان النامية شراب الكوكا كولا كغسول مهبلي فعال بعد الجماع) وفى الفترة من ١٩٢٥ ـ ١٩٥٥ ثبت أن ٣٥٪ من النساء الامريكيات يستعملن هذه الطريقة .

٢ ـ انواع معينة من الجماع الناقص ـ مثل

١ ـ العزل ـ القذف خارج المهبل (Coitus Interruptus)

٢ ـ منع القذف ـ بالتحكم فى عملية الجماع فلا تصل لذروتها بالقذف Coitus Reservatus

٣ ـ القذف الداخلي ـ بتوجيه الحيوانات المنوية الى المثانة باغلاق قناة مجرى البول بالضغط عليها بالاصبع عند القذف (Coitus Saxonicus)

٣ ـ طريقة الاسفنجة ـ ويمارسها كبار السن من الازواج باستعمال اسفنجة مبللة بمواد قاتلة للحيوانات المنوية او بالصابون او الزيت .

٤ ـ كيس البلاستيك ـ يوضع فى قناةمجرى البول للرجل لتلقى الحيوانات المنوية ، وعيبه انه يسبب التهابات موضعية .

٥ ـ رفع حرارة كيس الصفن ـ على اساس انه بارتفاع درجة حرارة الخصية تتوقف عن افراز الحيوانات المنوية ولكن هذه الطريقة تحت الاختبار وغير مؤكدة عمليا .

٦ ـ فترة الامان Safe Period ـ وفيه يحسب الزوجان الجماع اثناء فترة نزول البويضة فى الدورة الشهرية وهي نظريا تقع حول منتصف الدورة اى فى اليوم ١٤ في دورة من ٢٨ يوما ويحدد وقت الجماع بالفترة المباشرة للعادة الشهرية او قبلها بقليل (فترة

الامان هي اربعة ايام الحيض و٣ أيام بعده وتسعة أيام قبله .) وفى الدورات الشهرية الاقصى تقصر فترة الامان تبعا لذلك .

ونسبة الحمل فى هذه الطريقة يصل من ١٠ ــ ٢٥ ــ ٣٥ حملا/لكل مائة سنة تعرض وهي نسبة عالية سببها ان وقت التبويض يختلف من سيدة لاخرى ومن دورة لاخرى حتى ولو كانت منتظمة .

رابعا : اتساع حقل منع الحمل ليشمل

١ ــ التعقيم Sterilization

٢ ــ الاجهاض المتعمد (Induced Abortion)

(التعقيم) Sterilization

التعقيم البشرى هو الخطوة النهائية لمنع الحمل بطريقة فعالة ، وفى السنوات الاخيرة اخذ التعقيم يلعب دورا رئيسيا فى برامج منع الحمل فى كثير من بلدان العالم . فهو مباح قانونيا فى جميع انحاء الولايات المتحدة (في الخمسين ولاية) ولا يشترط الا موافقة المريضة والجراح على اجراء هذه العملية الجراحية شأنهافىذلك شأنالعمليات الجراحية العادية والاختيارية (Elective)) والتعقيم هو الوسيلة الوحيدة التي تدمر قدرة الفرد ووظيفة الطبيعة فى الانجاب والتوليد Reproductive Function وهو يطبق على الذكر والانثى على السواء .

عمليات التعقيم الخاصة بالانثى

١ ــ ربط أو قطع اجزاء من بوقا فالوب أو استئصال البوق كله . وهذه العمليات تجرى اما عن طريق البطن أو المهبل أو المنظار البطني (Laparoscope) وهي احدث وأسرع الوسائل المتبعة الآن ، ونسبة الحمل لا تتجاوز (١/١٠٠٠) .

٢ ــ استئصال الرحم ((Hysterectomy)

وغالبا ما يستأصل الرحم لأسباب مرضية أساسية كتراخي وسقوط جدران المهبل وعضلات الحوض مع ما يصاحبه من سقوط للرحم والمثانة . ومن الناحية النظرية يعتبر الوسيلة المثلى لمنع الحمل برغم ما يصاحبة من مخاطر جراحية مرتفعة ــ وخاصة فى النساء المنجبات لعدة مرات حول سن الثلاثين حيث تكون عوارض الارتخاء العضلي ومضاعفاته هي شغل المرأة الشاغل فهو يؤمن لها الوسيلة الكاملة لمنع الحمل بالاضافة الى علاجها وشفائهامنمضاعفات الارتخاء الحوضي ومنع امراض الرحم فى المستقبل ، وايضا هي الحل النهائي عند ظهور بعض المضاعفات بعد عمليات التعقيم بواسطة ربط الابواق والتي تبلغ حوالي ٥٠٪من طرقعلاج هذه المضاعفات (أى يستأصل الرحم فى ٥٠٪ من حالات مضاعفات ربط الأبواق) ومنع ذلك فما زال الاتجاه حتى الان ــ هو الى عدم اللجوء لهذه العملية الخطيرة بغرض منع الحمل والتعقيم فقط . وهذه العملية تجرى اما عن طريق البطن او المهبل (Vaginal)

٣ ــ الاشعاع

بواسطة الراديوم أو الاشعة السينية العميقة وهذه الطريقة تؤدي الى حالة تشبه سن اليأس ولكن بطريقة صناعية وهذه تؤدى الى التعقيم ولكن تحمل فى طياتها خطر التحول السرطانى وليس لها مكان فى حقل التخطيط الاسرى الان .

ب ــ التعقيم في الذكر

١ ــ ربط وقطع الحبل المنوى (Vasectomy)

وهذه شائعة فى الهند وتعتبر الوسيلة الاكثر ذيوعا فى منع الحمل وتحديد النسل فى هذا البلد ذى العدد السكانى الهائل .

٢ ـ استئصال الخصيتين (فكرة غير مقبولة على جميع المستويات)

وعموما فان فكرة التعقيم فى الذكر لهـا مؤيدون ومعارضون ، ومعارضوها يستندون الى كونها لا تؤدى فى النهاية الى تخفيض عدد السكان ، حيث أنه من المستحيل عمليا تعقيم الرجال فى مجتمع حديث ـ مثل الذى نعيش فيه الآن حيث يتوافر ويباح فيه الاتصـال الجنسى بكل الطرق ـ سوف يكفى للحفاظ على عدد السكان ، اما المؤيدون فانهم يحبذونه على أساس أنه وسيلةبسيطةومامونةالعواقب جراحيا مما يؤهلها لتكون طريقة فعالة فى منع الحمل .

الاعراض الجانبية لعمليات التعقيم

(لا تؤدى الى أية اعراض في معظم الحالات)

١ ـ ازدياد الطمث (Monorrhagia) قـد تصاحب ربط الابواق وقد استدعىاستئصال الرحم فى ١٠٪ من حالات ربط الابواقلاسباب متفرقة .

٢ ـ بعد ربط الحبل المنوى لوحظ ارتفاع طفيف فى نسبة مضادات الحيوانات المنوية فى الدم ، ولكن افراز الحيوانات المنوية أو الهرمونات الجنسية لم يتاثر بعملية الربط ، وظل على معدله الطبيعى فى الجسم .

٣ ـ المخاطر الجراحية ـ

معدل الوفاة بعد هذه العمليات منخفض جدا حتى يكاد ينعدم فى بعض المراكز ويقل عن ١/١٠٠٠ ، علما بأن الكثير من عمليات ربط الابواق يجرى علـى مريضـات بالقلب او الرئتين ممـا يجعل الحمل ايضـا عبئا وخطرا بالنسبة لهن وهنا تتوازى المخاطرتان ، وسبب الوفاة قد يكون المخدر او الالتهابات.

٤ ـ الاضطرابات النفسية ـ الناتجـة عـن الشعور بالندم او الاحساس بعدم الرضا ، او الاعراض الاكثر شدة كالشعور بالنقص والضعـف العـام والضيـاع والتمـزق ، فهذه الاعراض تكون اوضح بـين المرضـى العصابيين من الاصل قبل اجـراء العملية ولديهم استعداد مرضي لمثلهذهالاضطرابات. كما تكون اوضح اذا اجريت بسبب طبي قاهر كمرض خطـير يجبر المراة على اجراء هـذه العملية وتكون اقل فى الحـالات التـي تطلب المريضة أجراءها من طبيبها بسبب كبر حجم عائلتها .والتعقيم سلاح قوى وخطير فى يد كل من الرجل والمراة اذا قصدا ايذاء نفسيهما او غيرهما .

ويختلف رد الفعل فى المراة عن الرجل ، ففي المراة تزداد رعايتها وتعاطفها مع أولادها وقـد تتخذ موقفا عدائيا مـن العلاقات الزوجيـة (الجنسية) وربما تشعر بالطمث المؤلـم . وبالنسبة للرجال فقد يتولد لديهم الخوف من العنة (Importence) ولكن سرعان ما يتعود الرجل الطبيعي على ذلك ويتكيف مع الوضع الجديد .

ومن اسباب القلق لدى الزوجين بعد عملية التعقيم هو الخوف من فقدان الاطفال بسبب الوفاة او اتجاه احد الشريكين للزواج من جديد لفرض الانجاب . وهذه عوارض مؤقته يطغى عليها الشعور بالراحة والامان والتخلص مـن عقدة الحمل الغير مرغوب مما يزيد فى ترابط الزوجين ويقلل من فرص الخيانة الزوجيـة بسبب الاشباع والارتواء .

٥ ـ الفشل ـ جميـع القنوات فى الجسـم بما فيها قنوات فالوب والحبل المنوى عرضة لان ينفتح مجراها من جديد ، ونسبة الحمل بعد ربط الابواب تتراوح مـن ١/٢ ـ ١١/٢٪ ويعتمد على نوع العملية المختارة وطريقـة ووقت اجرائها .

اعادة الخصوبة بعد عمليات التعقيم

صعبة ونتائجها غير مشجعة وتعتمد على مهارة الجراح وخبرته والطريقة التي يتبعها ، وأولا وقبل كل شيء على نوع العملية التي اجريت اصلا للتعقيم .

٢ ــ دور الاجهاض فى برامج منع الحمل (Abortion)

ان ارتفاع نسبة الاجهاض فى المجتمعات الغربية الان دليل واضح على انه لا توجد طريقة واحدة فعالة بنسبة ١٠٠٪ لمنع الحمل، وقد قدرت تقارير لجنة الخصوبة الاهلية الامريكيةفى الخمس سنوات المنتهية عام ١٩٧٠ بأن حوالي ٢/١ ٢ مليون طفل ولدوا على غير رغبة والديهم وبسبب فشل وسائل منع الحمل .

ومن المعروف ان الجنين عندما يبلغ مرحلة النضج القانونية (٢٨ اسبوعا) فان جميع القوانين تحميه وتضمن له البقاء حتى الولادة.

ولكن الآمر يختلف بالنسبة لجنين فى الأسابيع الأولى ، فبالرغم من أن الاجهاض كان يعتبر أمرا محرما منأيام **ابو قراط** حتىميثاق جنيف ، ويجب قصره فقط على الاسباب الطبيعة البحتة الا ان القوانين التي سنت فى معظم بلدان العالم مؤخرا اصبحت اكثر اتساعا وفضفضة بالنسبة لتنفيذ الاجهاض ، بل قد ابيح كلية في بعض البلاد (كاليابان مثلا) واباحة الاجهاض يعتمد على الحجج الآتية : ــ

١ ــ الغاء الاجهاض الاجرامي .

٢ ــ رفع الاعباء المالية والاقتصادية عن كاهل المرأة غير المتزوجة التى تسببها ولادة طفل غير شرعي لها .

٣ ــ تجنب ولادة اطفال غير مرغوب فيهم مما يؤدى الى اهمال ذويهم لم .

٤ ــ تخفيض عدد الاطفال غير الشرعيين فى المجتمع .

٥ ــ اباحة وسلية اضافة من وسائل منع الحمل والتخطيط الاسرى .

ولكن حتى الان مازال هناك جماعاتمتدينة تعارض الاجهاض وتعتبره وسيلة لا اخلاقية غير مقبولة وما زالت هناك (بحمد الله) الكثير من البلدان التي تمنع الاجهاض بقوة القانون او تبيحه فقط فى حالات الضروره الطبية . وبذلك انقسم العالم الى ثلاثة اجزاء بالنسبة للاجهاض .

أ ــ قسم يحرمه الا فى الحدود الطبية الضيقة .

ب ــ قسم يوسع الاباحة الطبية لتكون اشمل وأعم .

ج ــ قسم يبيح الاجهاض على اسس اجتماعية واقتصادية .

الوسائل المتبعة فى الاجهاض المتعمد (Induced Abortion) ومضاعفاتها :

التحريض الطبي / توسيع عنق الرحم / زرع مواد غريبة فى الرحم / توسيع وكحت الرحم / الشفط والكحت / تفريغ السائل الامينيوس عن طريقة البطن / حقن مواد فعالة فى السائل المينوس / العجائن المجهضة / عقار البروستا جلاندين الحديث / فتح الرحم مهبليا او بطنيا / استئصال الرحم ، نسبة الوفاة ١و٠/٠٠٠١ ــ **المضاعفات** ــ النزيف والصدمة العصبية ــ بقايا حمل يحتاج لاعادة العملية ــ تمزق عنق الرحم ــ خرق وانفجار الرحم ــ الالتهاب ــ انسداد الشرايين ــ اضطرابات عصبيةبعد مدة مناجراء العملية ــ مضاعفات متأخرة كالاضطرابات الحيضية ، والعقم (= ١ ــ ٢٪ من الحالات) ــ الاجهاض

ـ انفجار الرحم ـ الحمل خارج الرحم ـ مضادات عامل روسوس/مضاعفات خاصة بعنق الرحم كالناصور والتشوهات والالتهابات المزمنة .

وسائل الاجهاض الاجرامي ومضاعفاته

(Criminal)

حقن الماء والصابون او الديتول فى الرحم ـ تعاطي اقراص الحديد والكينين والارجوت **المضاعفات :** كالنزيف ـ انسداد الشرايين الهوائي او السائلي ـ سيولة الدم ـ خرق الرحم ـ التلوث الميكروبي والالتهابات وخاصة بالميكروبات اللاهوائية ـ العقم ـ التسمم ـ الوفاة ـ ونسبة الوفاة بسبب الاجهاض الاجرامي هي ضعف نسبتها بسبب الولادة العادية .

والاجهاض عموما يشكل ٢/١٪ من جميع الوفيات في المجتمع .

● ● ●

الجوانب الطبية لوسائل منع الحمل

ان الطبيب الذى يشرف على تنفيذ برامج الحمل ويشترك فيها سوف تقابله بالضرورة كثير من الحالات ذات المجالات المتعددة . فهو سوف يصادف حالات مختلفة من أمراض النساء ، كما سيدلي بدلوه فى حقل الطب الوقائي وقد يجد نفسه مضطرا لحل كثير من مشاكل الزواج والجنس وأحيانا الطب الاجتماعي Social Medicine .

١ ـ امراض النساء

أ ـ المهبل وعنق الرحم ـ يجب البدء فى معالجة اية التهابات فطرية أو ميكروبية قبل استعمال اقراص منع الحمل لانها قد تزيدها سوءا ،وفى بعض انواع الالتهابات كتلك المسببه بواسطة الفطر المسمى Trichomonas Veginalis يجب معالجة الزوج فى نفس الوقت لانتقال المرض بواسطة الجماع ويمكن اعتباره نوعا من الامراض التناسلية .

التقرحات الموجودة فى عنق الرحم Cervical erosions والتهابات عنق الرحم يجب علاجها ، كذلك يستأصل اى ورم عنقودى به Cervical polyp

ب ـ الامراض التناسلية V.D. ـ تعالج كل حالة يثبت او يشتبه فى كونها مرضا تناسليا فى المركز المتخصص لذلك حيث تتوافر الخبرة والمهارة اللازمة للعلاج الكامل الناجع ، لأن العلاج الناقص على يد غير متخصص له نتائج خطيره على المريضة وعلى المجتمع .

ج ـ حالات اخرى ـ قد تكتشف عرضا اثناء فحص المريضة او من خلال تاريخها المرضي ، وفي هذه الحالة تحال المريضة للمكان المتخصص فى علاج تلك الحالات سواء اكانت تشوها خلقيا او حتى ورما سرطانيا . وبعد الولادة تستكشف رغبة المراة فىتحديد النسل، كأهم غرض فى رعاية ما بعد الولادة Post. Natal Care

٢ ـ الطب الوقائي

حسن توقيت الفحص الدورى والمتابعة للحالات التي تتعاطىوسائل منعالحملالمختلفة يشكل جزءا هاما من الطب الوقائي . ولكن لا يجب أن يكون ذلك بطريقة تسبب قلقا او ازعاجا للمراة . وذلك ينطبق على أقراص منع الحمل فطالما قد استقرت المراة وارتاحت مع نوع معين من الاقراص فلا داعي لمتابعتها على فترات متقاربة لمدة طويلة ، فمن المعلوم أن الجلطات الدموية والانسداد الشرياني لا يمكن التنبؤ بها ـ كما ان زيادة وزن الجسم عن

الحد المعقول سوف يدفع بالمرأة لمراجعةطبيبها لاستشارته وتبديل نوع الاقراص . أما مع اللولب الرحمي فالموضوع يختلف فيجب أعادة فحص المرأة دوريا على فترات متباعدة بعد تركيب اللولب للاطمئنان على ثباته في موضعه أو لازالته واستبداله بوسيلة اخرى في حالة المضاعفات التي قد يسببها .

لذا فيكفي ان تراجع المرأة التي تستعمل اقراص منع الحمل مرة كل ٦ شهور، والافضل مرة كل سنة ـ وفي كل مرة تؤخذ عينات من خلايا المهبل وعنق الرحم ويفحص الثدي بدون اثارة شكوك المرأة. ولكن مثل هذه الاحتياطات الوقائية واجبة . فمن المعلوم ان حوالي ثلث حالات الوفاة في النساء ما بين ١٥ ـ ٤٤ سنة من العمر تسببها الاورام المختلفة Neoplasia ولا يجب ان تكون الاعراض الجانبية لوسائل منع الحمل سببا لحذب الانتباه بعيدا عن الاحتياطات السليمة الواجب اتخاذها نحو التشخيص المبكر للاورام السرطانية ، فان اكتشاف ورم صغير في الثدي أو العثور على خلايا مشتبه فيها في عنق الرحم قد يؤدي الى انقاذ حياة مريضة .

ومن المعروف أن معدل الاصابة بسرطان عنق الرحم في مرحلته الاولى insitu يبلغ ذروته بعد ١٠ ـ ١٩ سنة من الجماع الاول ، فنسبة سرطان عنق الرحم المبدئي Pre-Clinical تكون اقل من ٠,٠٥٪ في النساء ما بين ٢٠ ـ ٢٥ سنة من العمر ترتفع هذه النسبة الى ١٪ في النساء ما بين ٤٠ ـ ٤٥ سنة من العمر .

ولهذا ينصح بعمل مسح للنساء ما بين ٣٥ ـ ٦٠ سنة من العمر .

٣ ـ الحمل المبكر وطرق تشخيصه :

اي من اهم اسباب الانقطاع المفاجي للحيض المنتظم عند المرأة الطبيعية (سواء متزوجة أو غير متزوجة) هو الحمل .

يليه في الاهمية الاضطرابات الحيضية المختلفة للمرأة الناتج عن التغييرات البيئية او النفسية او اضطرابات الغدة الدرقية او بعض الالتهابات .

هذه الحالة قد تصادف الطبيب الذي يشرف على وسائل منع الحمل وعليه يقع عبء الوصول للتشخيص الصحيح قبل ان يصف الوسيلة اللازمة لمنع الحمل، وهذا يتم بالفحص الاكلينيكي ابو بواسطة اختبرات الحمل المختلفة او بظهور اعراض الحمل المبكرة . واختبارات الحمل الحديثة تصدق في حوالي ٩٥٪ من الحالات ويجب اجراؤها اذا اشتبه في الحمل ولايجب وصف اى طريقة لمنع الحمل قبل استبعاد الحمل .

٤ ـ مشاكل الجنس والزواج .

قد يجد الطبيب نفسه مضطر اللدخول في مشاكل الجنس والزواج التى تعترض سبيل الزوجين اللذين لجآ اليه لتلقى النصيحة بخصوص منع الحمل طبعا في حدود طاقته العلمية وامكانياته وتداخل هذه المشاكل في هدفه الاساسي في تحديد النسل ووصف الطريقة المناسبة لمنع الحمل ، ويراعى جانب الحذر في تناول هذه المشكلات، وهناك مشكلة غير المتزوجات والتي تبحث وتناقش بحرية اكثر في المجتمعات الغربية المتقدمة بخلاف مجتمعاتنا الشرقية المحافظة المغلقة على هذه المشاكل ، ونادرا ما تصل الى مراكز تحديد النسل التي لا تقدم العون الا للمتزوجات .

٥ ـ مشاكل العقم

قد يجد الزوجان نفسيهما عاجزين عن الانجاب بعد التوقف عن استعمال موانع الحمل المختلفة التي استعملاها بصورة مستديمة في السنوات الاولى للزواج ريثما تستقر بهما الحياة ويتهيآن لانجاب الاطفال ـ مثل هذه المشاكل قد يجابهها الاطباء بين قلة من الازواج،

وهـذا « **العقم الاجبارى** » يختلف عن العقم الاختيارى الذى يتم بوسائل منع الحمل وينتهي بانتهاء استعمال هذه الوسائل .

وقد وجد ان ٥٠٪ من حالات العقم الاجبارى سببها الزوجة .

و ٣٠٪ من الحالات يكون الزوج هو سببها .

و ٢٠٪ الباقية تكون المسئولية مشتركة بين الزوجين وقد يحدث الحمل مع طرف آخر بالنسبة للزوجين .

هذا عرض سريع للجوانب المتعددة التى يجب اخذها فى الاعتبار وحل مشكلاتها علـى قدر الاستطاعة قبل او اثناء او بعد ممارسة منع الحمل .

●●●

النواحى القانونية لمنع الحمل

تأخذ القوانين المتبعة في كثير من بلدان العالم اتجاها من ثلاث : ــ

١ ــ القيم الاجتماعية السائدة فى الاجيال السابقة .

٢ ــ اتجاهات المجموعة الحاكمة فى البلد .

٣ ــ اتجاهات تتماشى مـع الاحتياجات الحقيقية للمجتمع .

وبالنسبة لوسائل منع الحمل فهذه الاتجاهات تنسحب عليها ايضا ، ولذا نجد ان الوسائل المتبعة ونظرة المجتمع تجاهها تختلف من دولة الى اخرى ، فالولايات المتحدة واوروبا الغربية تأخذ الاتجاه الاول ، اما الدول الاشتراكية فى اوروبا وآسيا فتأخذ الاتجاه الثاني ، وبعض الدول النامية (كالهند واليابان) فتأخذ الاتجاه الثالث ، وعلى الطبيب الذى يمارس منـع الحمل فى بلد ما ان يتأكد من القوانين المتبعة فى هذا البلد وان يحتفظ لنفسه بسـجلات واضحة مفصلة وخاصـة لعمليات التعقيـم والاجهاض الطبي التى أجراها .

فى انجلترا

تطورت قوانينها تجاه منع الحمل من قانون عام ١٨٥٧ الذى يمنعها الى قانون سنة ١٩٣٠ الذى يحددها الى قانون سنة ١٩٥٤ الـذى يقيد الاعلان عنها الى قانون سنة ١٩٦٧ الذى أباح جميع وسائل منع الحمل بما فيها الاجهاض على أسس اجتماعية ونفسية لاول مـرة فى بريطانيا .

ولكن قانون المهنة الطبية في انجلترا مازال يشترط ان تكتب المادة الفعالة بشكل واضح على علبة الدواء مـن الاحتياطـات لحمايـة المستهلك .

فى الولايات المتحدة

منذ عام ١٩٣٠ كان السائد فى الولايـات المتحدة هو قانون عام ١٨٧٣ الذى كان يقف موقفا عدائيا من وسائل منع الحمل . ولكن عدلت هذه القوانين تباعا حتى ابيحت هـذه الوسائل . ويتحكم فى توزيعها وبيعها قوانين اتحادية عامة وقوانين خاصة بكل ولاية مـن ولاياتها الخمسـين وتتفاوت هـذه القوانين الخاصة بالولايات المتحدة فى درجة اباحتهـا لممارسة هذه الوسائل ولكن كلها لا تدخل اطلاقا فى حرية المهنة الطبية الكاملة فى ممارسة وسائل منع الحمل .

ولكن هيئة الدواء والاغذية الامريكية تراقب باستمرار كل هذه الوسائل وتشترط فيهـا شـروطا معينـة لضمان سـلامتها وفعاليتها بالنسبة للشعب الامريكي ، كما يكتب التحذير من بعض المضاعفات الجانبية على ظاهر العلبة بوضوح (كتجلط الدم) .

البلاد الاخرى

يباح منع الحمل فى معظم دول العالم الآن ، ولكن تختلف درجة المشاركة الحكومية فيه من دولة لاخرى .

وسائل منع الحمل وقوانين الاحتكار والامتياز .

من المؤسف ان كثيراً من وسائل منع الحمل تقع تحت طائلة الاحتكار التجارى ، فمن المعروف أن تكلفة اللوالب الرحمية تبلغ ١ ـ ٢ ٪ فقط من ثمن بيعها للمستهلك ، لذلك لا يجب احتكار هذه الانواع ويجب ان تتدخل الحكومات لتوفيرها مجانا لكافة افراد الشعب على كل المستويات اذا اريد تحقيق الفائدة المرجوة منها .

التعقيم الاختيارى

باستثناء الهند وبورتريكو حيث يباح ويشجع التعقيم الاختيارى بواسطة الحكومات المعنية فان القانون فى جميع دول العالم يقف منها موقف غير محدد بالنسبة لعمليات التعقيم التى كانت تجرى فى الاصل لاسباب طبية ثم ادخلت بعد ذلك كوسيلة من وسائل منع الحمل .

الاجهاض

ـ ابيح فى انجلترا عام ١٩٦٧ لاسباب غير الحفاظ على حياة المراة .

ـ فى الولايات المتحدة حتى عام ١٩٦٧ لم تكن هناك غير اربع ولايات تبيح الاجهاض لأسباب غير الحفاظ على حياة المراة .

ثم بدات النظرة تتغير ولكن مازالت تبيح الاجهاض فى الحدود التالية : ـ

١ ـ اذا كان استمرار الحمل يضر بصحة او عقل الام .

٢ ـ اذا كان الطفل سيولد بعجز خلقي شديد فى جسمه او عقله .

٣ ـ اذا كان الحمل ناتجا عن الاغتصاب Rape او الخديعة او الحيلة .

ـ أما فى الدول الاخرى فما زال الاجهاض لغير الاسباب الطبية محرما وممنوعا بقوة القانون ـ كما في الدول العربية ـ وبمرور الزمن يزداد عدد الدول التي تبيح الاجهاض قانونيا استجابة للضغط المستمر على الحكومات لتغير هذه القوانين .

ـ البلاد العربية ودولة الكويت ـ

كل البلاد العربية ترفض اباحة الاجهاض قانونا حتى الآن وتعتبره معارضا للشريعة الاسلامية التي تدين بها كل هذه الدول .

ففي الكويت على سبيل المثال تقضي المادة (١٧٤) من قانون الجزاء على توقيع عقوبة الحبس او الغرامة على كل من اجهض حاملا سواء برضاها او بغير رضاها كما تنص المادة (١٧٦) من نفس القانون على عقاب الحامل التي تجهض نفسها او سمحت للغير بأجهاضها . وتعاقب المادة (١٧٧) كل من يتخذ من وسائل الاجهاض سلعة يتجر بها ، وتنص المادة ١٨ من القانون رقم ٣٣ لعام ١٩٦٠ بوجوب امتناع الاطباء عن اى شيىء من شأنه اجهاض امرأة حامل ويمنعهم من اجراء عمليات الاجهاض مهما كانت الظروف . ومع ذلك فقد اباح للطبيب المتخصص فى امراض النساء والولادة ان يقوم بعملية الاجهاض اذا كان يعتقد لاسباب فنية ان هذه العملية ضرورية للحفاظ على حياة الحامل .

●●●

منع الحمل والشريعة الاسلامية

الفقهاء الذين يعارضون الاخذ بوسائل منع الحمل يعتمدون على النصوص والادلة الاتية : ــ

١ ــ النص القرآني الكريم « ولا تقتلوا اولادكم خشية أملاق نحن نرزقكم وأياهم »

٢ ــ النص القرآنيالكريم «رزقكم فى السماء وما توعدون »

٣ ــ النص القرآنى الكريم « وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها » .

٤ ــ الحديث النبوى الشريف « تناسلوا تكاثروا فانى مباه بكم الامم يوم القيامة » .

٥ ــ سئل الرسول (صلعم) عن العزل فقال هو الوأد الخفي .

أما الفقهاء الذين يؤيدون الاخذ بوسائل منع الحمل (تحت ضغط الظروف الاجتماعية والاقتصادية) فهم يعتمدون على الاتي : ــ

١ ــ سئل الرسول (صلعم) عن العزل فلم يأمر به ولم ينه عنه .

٢ ــ وجاء رجل يسأل عن جارية له هل يعزل عنها فأجابه « أعزل عن الجارية وسوف يأتيها امر الله » . ومعنى هذا الحديث الشريف ان قضاء الله واقع سواء أخذ بوسائل منع الحمل ام لم يؤخذ . فهي لا تتعارض مع قضاء الله .

٣ ــ وأثر عن علي بن ابى طالب كرم الله وجهه قوله « لو كان الفقر رجلا لقتلته » .

وكثرة العيال من اهم اسباب الفقر .

٤ ــ اباحت الشريعة الاسلامية للمرأة ان تمتنع عن الحمل اذا كان يضر بجمالها ، وهناك اسانيد من السنة على ذلك ، ومن باب اولى ان تبيح لها ايضا الامتناع عن الحمل اذا كان يضر باقتصاد الاسرة او دخلها المحدود .

هذه الآراء الفقهية المختلفة ان دلت على شيىء فانما تدل على الحاجة الملحة لعقد مؤتمر اسلامي جامع يشمل علماء المسلمين من كافة الاقطار ومن مختلف الفرق والآراء لوضع بيان شامل موحد فى موضوع منع الحمل .

وسائل منع الحمل الحديثة التي تستعمل الآن

١ ــ قيد الاستعمال الآن الاقراص التي تحتوى على هرمون البروجستوجين منفردا بدون الايستروجين لتجنب الاثار الجانبية الضارة التى يسببها الاخير (وأهمها اثره على تجلط الدم والانسدادات الشريانية) Minipill

والهرمون الفعال فى هذه الامراض من مشتقات هرمون البروجستوجين مثل هرمون الميجسترول ½ مجم نورجستريل (٠٫٠٥ مجم) أو نورايثيسترون (٠٫٣٥ ــ ٠٫٥ مجم) وتؤخذ حبه واحدة يوميا باستمرار طيلة الدورة الشهرية وأثرها اساسا على الافراز المخاطي لعنق الرحم فيجعله لزجا لدرجة لا تسمح للحيوانات المنوية باختراقه .

٢ ــ تؤثر كذلك على الغشاء المخاطي الداخلي للرحم فلا يتأثر ولا يستجيب للبويضة الملقحة وليس لها تأثير على عملية التبويض . وقد ينتج عن استعمالها حالات من الحمل خارج الرحم ولكن هذا نادر الحدوث .

كما ان النزيف المهبلي المتقطع اثناء الاستعمال شائع الحدوث (حوالي ٣٠٪ من

الحالات) Break through bleeding
وقد يصاحبه حالات من الطمث الشديد Menorrhagia هذا بالاضافة الى الاعراض الجانبية الخاصة بهرمون البروجستوجين سالفة الذكر . ونسبة الحمل مرتفعة من هذا النوع وتبلغ ٤ ـ ١٢/امراة فى ١٠٠ سنة من الاستعمال وعلى الاقل ٢٪ نسبة فشل فى العام .

٢ ـ الهرمونات ممتدة المفعول HormoneDepots

لكي يتجنب الحاجة لتعاطي قرص كل يوم بدىء فى استعمال أقراص ذات مفعول يمتد على مدى شهر باحتوائها على الهرمونات المتدة المفعول . كهرمون كونيسترول ٢ مجم ، وهرمون كوينجسترول ٥ مجم ولكن اوقف استعمال هذا النوع واستبدلت بأقراص تحتوى على هرمون البروجستوجين ممتد المفعول منفردا وهي تستعمل فى الاماكن المتخلفة فى العالم ويعطى بواسطة الحقن العضلي وتحتوى على جرعات كبيرة ١٥٠ ـ ٢٠٠ مجم من عدة مركبات من هذا الهرمون (طويلة الاثر) . هذه المركبات تسيطر على الحمل ولكن قد تسبب بعض النزيف المهبلي اثناء الاستعمال كما يذهب تماما بالدورة الشهرية وقد تسبب وقفا تاما للعادة الشهرية Amenorrhoea اذا استعملت برغم ظهور هذه الاعراض ، واحسن وقت لاستعمالها هو لحماية المرأة فى الثلاثة أشهر التى تعقب الولادة حيث لا يهم النزيف المهبلي وحتى تتمكن المراة من استعمال وسيلة اخرى كاللولب مثلا ولتخفيف اثر الاقراص العادية على الرضاع .

٣ ـ قرص الصباح التالي Post Coital Pill

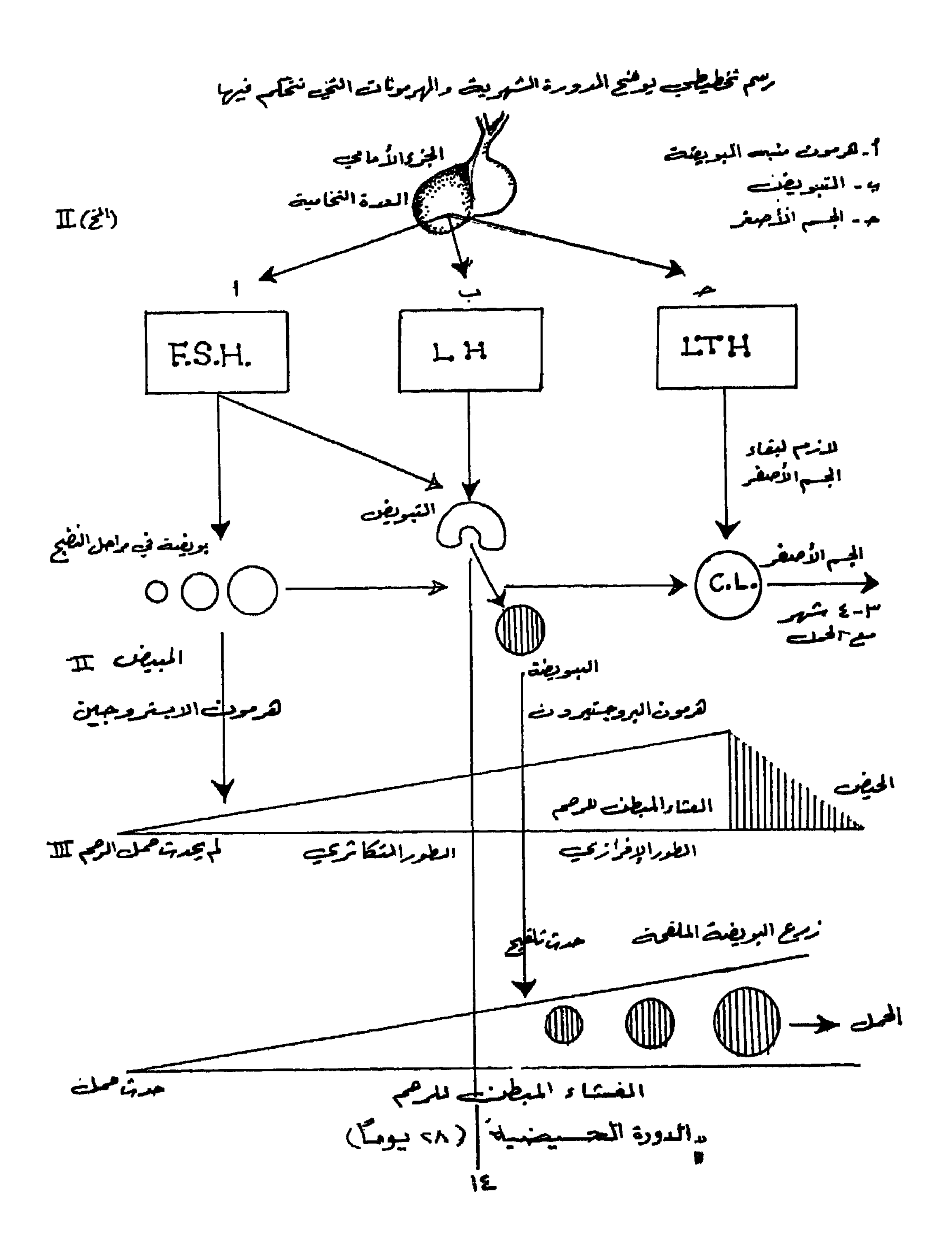
ويعني القرص الذى يؤخذ بعد عملية الجماع لتجنب الحمل . وقد وجهت الابحاث التي كانت وما تزال تجرى ـ وجهتها نحو الحالات التي يراد منها تجنب الحمل بعد حدوث التعرض بايجاد العامل أو العقار الذى يمكنه تدمير البويضة الملقحة او يمنع زراعتها فى الرحم ، وقد اجريت أبحاث على حيوانات التجارب باعطاء جرعات كبيرة من هرمون الايستروجين يوميا لمدة ٤ـ٦ يوم ، ولكن مثل هذه الجرعات الكبيرة تسبب القيء وفاعلية هذه الطريقة مشكوك فى أمرها فلو لم يحدث الحمل ونزل دم الحيض عقب استعمالها فمن المستحيل معرفة السبب هل هو من الاقراص او من الصدفة المحضة ، واذا حدث الحمل قد يتأثر الجنين ويصاب بالضرر من هذه الجرعة الكبيرة من الهرمونات . ولكن مكانها الوحيد هى بعد عملية الاخصاب حيث يعطى على أمل وليس على ثقة من تدمير هذا الحمل .

٤ ـ مضادات الهرمونات Antihormones

الابحاث مستمرة ولم تتوقف منذ سنوات عديدة لاكتشاف عقار ـ غير الهرمونات ـ يمنع عملية التبويض من المبيض ، وقد عثر حتى الان على مضادات هرمونات الغدة النخامية LH - RH ومازالت تجرى التجارب حتى الان على حيوانات المعامل فى هذا الحقل .

٥ ـ المناعة الطبيعية واستغلالها Immunological Methods

أمكن تدمير خلايا الخصية فى الحيوانات بواسطة حقن مركبات خلاصة الخصية وبالتالي تدمير الحيوانات المنوية . وهناك بعض الدلائل ان هذه النتائج يمكن الحصول عليها فى الانسان ولكنها غير عملية حتى الان


رسم تخطيطي يوضح الدورة الشهرية والهرمونات التي تتحكم فيها
الجزء الأمامي
الغدة النخامية
II (المخ)
أ- هرمون منبه البويضة
ب- التبويض
ج- الجسم الأصفر
أ
ب
ج
F.S.H.
L H
LTH
لازم لبقاء الجسم الأصفر
التبويض
بويضة في مراحل النضج
الجسم الأصفر
C.L.
٣-٤ شهور مع الحمل
المبيض II
هرمون الاستروجين
البويضة
هرمون البروجيسترون
الحيض
الغشاء المبطن للرحم
لم يحدث حمل الرحم III
الطور التكاثري
الطور الإفرازي
زرع البويضة الملقحة
حدث تلقيح
الحمل
حدث حمل
الغشاء المبطن للرحم
الدورة الحيضية (٢٨ يوماً)
١٤

وقد تكون ضارة اذا كانت عملية التدمير هذه جزئية ولم تقض على كل الحيوانات المنوية (حيث تبلغ أعدادها بمئات الملايين) كما ان تجارب حقن المرأة بخلاصة المني لتعقيمها باءت كلها بالفشل .

الابحاث الحديثة والحاجة لتطوير وسائل منع الحمل :

ان نسبة الاجهاض المتعمد العالية ، بالاضافة الى الاعداد الكبيرة من الحمل السهو والاطفال غير المرغوب فيهم الذين يقذف بهم الى مجتمع معاد لهم كل عام بالملايين اثبتت أن الحاجة مازالت ملحة الى وسيلة متكاملة حديثة لمنع الحمل بالرغم من وجود الاقراص واللولب والطرق الاخرى ، وهذه الحاجة الى تطوير الابحاث وجهت انظار الباحثين الى فهم أعمق وأكبر للعمليات الحيوية المعقدة المتصلة بوظيفة الانجاب والتكاثر الانساني .

طرق خاصة بالرجال :

١ ــ طريقة الهرمون المزدوج المضادة للحيوانات المنوية ــ (بمنع تكونها) وهى تعطى بالفم او بالحقن او بزرع كبسولات تحت الجلد Implants . وتعتمد هذه الطريقة على زرع هرمون الذكورة Androgen بواسطة كبسولات تحت الجلد يستمر تأثيرها على الجسم لمدة عام او اكثر وهذا يساعد بواسطة حقن هرمون البروجستوجين اسبوعيا فى نفس الوقت .

٢ ــ طريقة الهرمون الذى يحقن ثلاث مرات فى السنة :

وقد جرب فى هذه الطريقة على الاقل ثلاثة انواع من هرمون الذكورة ومشاكل هذه الطريقة التى يجب التغلب عليها هي أنها تسبب ضعف الرغبة الجنسية او فقدها او تضخم الثدى فى الرجل Gynaecomastia عند استعمال هرمون البرجستيرون كذلك الخوف من المخاطر التي قد تعرض الجهاز القلبي الدورى للمضاعفات . وبرغم هذه المشكلات فقد ثبت انه بالامكان منع تكون الحيوانات المنوية مؤقتا Azospermia بواسطة التحكم فى افراز الغدة النخامية (نفس الفكرة المتبعة فى اقراص منع الحمل للنساء) .

٣ ــ طريقة مضاد هرمون الذكورة Antiandrogen بالفم او بزرع كبسولات تحت الجلد (او فى الخصية نفسها):

هذه المركبات تمنع نضج الحيوانات المنوية فى مجمع المني فى الخصية Epididymes فلا تتحرك بطريقة طبيعية وتسبب بذلك العقم المؤقت من غير فقد للقدرة الجنسية . وتجرى الابحاث الآن على متطوعين يتعاطون هذه المواد بالفم يوميا .

٤ ــ ربط الحبل المنوى ربطا مؤقتا بواسطة مشابك قابلة للخلع Removable Clips

وهذه يمكن استخراجها وازالتها بعد انتهاء الحاجة اليها ، ولكن لم تتوصل الابحاث الى النوع المناسب من هذه المشابك .

٥ ــ اغلاق قناة الحبل المنوى بواسطة جسم غريب ــ

وهذه الطريقة اجريت على حوالي ١٠٠٠ متطوع وكان نجاحها جزئيا حتى الآن وقد طورت هذه الطريقة بادخال مواد غريبة نشطة

الى داخل قناة الحبل المنوى تسبب تشوهـا فى الحيوانات المنوية .

طرق خاصة بالنساء

١ ـ حقـن هرمون البروجستين ممتـد المفعول (سبق الاشارة اليه) .

٢ ـ زرع كبسولات هرمون بروجستين تحت الجلد (سبق الاشارة اليه) . من مدة تتراوح بين ٩ أشهر الى سنة .

٣ ـ حلقة مهبليـة تحتـوى على هرمون البروجستين ـ وهذه الطريقة تعتمد علـى امكانية امتصاص هذا الهرمون بواسطة الغشاء المبطن للمهبل .

٤ ـ الاعتمـاد على امكانيـة امتصـاص هرمونات منع الحمل عن طريق الجلد وتوضع هذه الهرمونات فى مركبات تلبس على هيئـة سوار على المعصم ، ومشاكلها هـو تصميم مركب يمتص بطريقة منتظمة عن طريق الجلد .

٥ ـ لوالب رحمية او عنق رحمية حديثة ـ

اجريت الابحاث حتى الآن على سبعة انـواع من اللوالب الرحمية ونوع واحد من اللوالب العنق رحمية Cervical ، ومعظمها يعتمد على ادخال بعض المركبات المضادة للحيوانات المنوية فى تركيب اللولب (كالنحاس ، وهرمون البروجستوجين ، او مركب غـير هرمونـي) واللولب النحاسية ادخلت فعلا الآن ، امـا الاخرىفما زالت قيد التجربةوالبحث وخاصة تلك التي تحتوى على هرمون البروجستيرون الذى يفرزهبانتظام ، وبكميات محسوبة لمدةعام كامل ـ ويبحث الآن فى زرع أجسـام غريبـة تحتوى على مركبات مضادة للحيوانات المنوية وغير هرمونية ـ .

٦ ـ القرص او اللبوس المهبلي الشهرى الذى يسبب نزول الحيض

اختبرت حتى الآن قلة من المركبات التـي تعتبر من مضادات للجسم الاصفر Corpus Luteum الموجود فى المبيـض واللازم لعمليـة غرز البويضة فى الرحم واستمرارها اذا حدث وجرى تلقيحها بعد عملية التبويض ، وهـذه المركبات بعد انتوقف النشاط الهرمونيللجسم الاصفر (الذى يفرز هرمون البروجستيرون) تؤدى الى نزول دم الحيض لفقدان الدعمالذى يقوم به هذا الهرمون للبويضة الملقحة . ومن هذه المركبات مادة البروستاجلاندين Prostaglandin

التي يمكن أن تمتص من خلال جدرانالمهبل او الشرج والذى يمكنه وقف نشاط الجسـم الاصفـر .

كما جرب هرمون البروجستوجين الصناعـي فى منتصف العادةالشهرية او فىالاسبوع الاخير منهـا لـوقف افراز هرمـون البروجستيرون الطبيعى . والابحاث موجهة الان نحو تطويـر هذه الفكرةالجديدة التي تبشر بالنجاح والتـي تحل مشاكل التعرض للمخاطـر باستعمـال هرمونات منع الحمل باستمرار .

٧ ـ الحبـة الشهريـة او الحقنة او اللبوس الشهرى الذى يمنع التبويض Ovulation

سبق الاشارة اليها .

٨ ـ الحبة الشهريـة (او الحقن او اللبـوس المهبلى) الذى ينظم الدورة الشهرية ويحـدد موعد التبويض بالضبط لتحسـين استعمـال اقراص منع الحمـل ، باستعمـال مركبـات الاخصاب ، ونتائجه غير مشجعة ، او استعمال

المواد المنبهة لهرمون الغدة النخامية المعروف باسم LRF والذى يمكن عن طريقه التحكم فى عملية التبويض . كما تجرى الابحاث لاستنباط مركبات مقارنة لها Analogue لها القدرة على اتمام عملية التبويض بدون بويضة Anovulatory كطرق مناسبة لمنع الحمل .

٩ ـ حبة ما بعد الجماع Post coital

سبق الاشارة اليها .

١٠ ـ الحبة الاسبوعية التي توقف نمو الغشاء المبطن للرحم

ولكن وجد ان نسبة الحمل مرتفعة كما يصاحبها اضطرابات نزفية .

١١ ـ المجهضات الكيميائية

باستعمال مركبات البروستاجلاندين او قرائنها المشابهة فى الثلاثة اشهر الاولى من الحمل بغرض الاجهاض ولكن نتائجها مخيبة للآمال وغير مشجعة فى الوقت الحالى . ولكن تستعمل هذه المادة الآن فى المستشفيات كعامل مساعد على الانقباضات الرحمية فى حالات الانهاء المتأخر للحمل . كما استعملت العقارات المضادة للسرطان كقاتلة للجنين والمشيمة فى أشهر الحمل الاولى .

١٢ ـ تختبر الآن طرق لاغلاق فتحات قناة فالوب عن طريق الرحم بواسطة الكي الكهربائى (باستعمال منظار الرحم) او حقن سوائل كيميائية قوية المفعول تغلق هذه الفتحات ، واذا نجحت هذه الطرق فسوف تحل مشكلة شغل الاسرة فى المستشفيات لغرض التعقيم بالطرق التقليدية .

١٣ ـ احداث مناعة فى جسم المراة بتنبية اجسام مضادة Antibodies لهرمون الغشاء الخارجي للمشيمة (Chorionic Gonadorrophia) (RGG) واللازم فى أسابيع الحمل الاولى لبقاء الجنين واستمراره . وبذلك يساعد على نزول دم الحيض فى موعده حتى ولو حدث ولقحت البويضة فى هذه الدورة ، ولكن لهذه الطريقة ايضا مشاكلها ومصاعبها .

من كل هذا نستنتج ان هناك ١٨ طريقة تحت الاختبار لمنع الحمل خمسة منها تختص بالرجال والباقى (١٣) طريقة تختص بالنساء ، وهذه الطرق الثمانى عشرة تمثل الامل فى استنباط وسيلة جديدة لمنع الحمل فى المستقبل القريب تكون أكثر فعالية وأكثر امانا من سابقاتها .

ما هي الطريقة المثلى لمنع الحمل :

ـ اختيار النوع المناسب يعتمد على الزوجين نفسيهما فى المقام الاول .

ـ الغلاف الذكرى + مضاد الحيوانات المنوية يعتبر الوسيلة المناسبة فى اشهر الزواج الاولى لكثير من الازواج .

ـ اذا توفرت القدرة المالية فتكون اقراص منع الحمل المزدوجة هي الوسيلة المناسبة فى حالة موافقتها للصحة العامة للمراة .

ـ فى سن ٣٥ وما فوق يوصى بعمليات التعقيم لتجنيب المراة مخاطر الاستعمال الطويل المستمر للهرمونات وهي فى هذه السن المتأخرة وخاصة اذا كانت قد انجبت ما تشاء من أطفال .

ـ وبالنسبة للزوجات اللاهيات (لا يتحملن المسئولية) والجاهلات واللاتى لا يهمهن أن تكون وسيلة المنع مضمونة مائة فى المائة ، فيمكنهن استعمال اللولب الرحمي كأحد انواع

هرمون البروجستوجين ممتدة المفعول Depot كوسيلة فعالة على المدى القصير .

ـ أما بالنسبة للنساء الذكيات المتعلمات اللائي لا يتحملن اقراص منع الحمل ولا يردن اللولب الرحمي فيمكنهن استعمال الحاجز المهبلي + مضاد الحيوانات المنوية حيث أن فعاليته عالية وليس له اى اعراض جانبية شريطة ان تحسن تركيبه واستعماله .

ـ أما باقي الطرق الاخرى فهي أما غير فعالة الى حد كبير ، او تحدد او تؤثر فى عملية الجماع التي هي أساس السعادة والاستقرار الزوجي .

الحساسية لموانع الحمل الموضعية Allergy

قد تتولد بعض الحساسية ـ فى اى من الشريكين ـ من بعض الوسائل المطاطية او الكيميائية ـ وتشمل فى النساء على التهابات مهبلية كيميائية ، والتهابات قناة مجرى البول، والتهابات المثانة التي قد تكون من الشدة لتسبب البول المدمم Haematuria وارتفاع درجة الحرارة والاعراض الاكلينيكية العامة Systemic وفى حالة حدوث هذه الاعراض فتغير وتبدل الانواع المستعملة حتى يمكن الاهتداء الى نوع معين لا يسبب هذه الحساسية . او تغير الوسيلة كلية الى وسيلة اخرى غير موضعية اذا كان ذلك ممكنا .

* * *

المراجع

(1) ANN B. MSNAUGHT & Robin CaALLANDER, Illustrated Physiology, 3d. Edition 1975.

(2) TNA JEFF COATE, Principles of Gynoecology & Obstetrics, 4th Edition 1975.

(3) Clinucal Obstetrics & Gynoecology, American Medical Magazine (New York No. March 1974).

(4) TEXT Book of Contraceptive Practice By John Peel & Malcolm Potts (1975).

* * *

صورة الاسلام والمسلمين في الأدب الغربي حتى القرن الثامن عشر

محمد عصفور

في الاجتماع السنوى الثانى والعشرين للجمعية الأمريكية الكاثوليكية التاريخية ، الذى عقد عام ١٩٤١ ، القى مارشال و . بولدوين ، بوصفه رئيس الجمعية ، خطابا جاء فيه قوله : ان الغرب ما عاد ينظر الى الاسلام باعتباره خطرا على الحضارة . وهو فى ذلك انما كان يصف وضعا حديثا كانت فيه البلاد الاسلامية كلها تقريبا تحت السيطرة الغربية . لذا فقد كان اختياره لموضوع مثل « الاتجاهات الغربية نحو الاسلام » فى تلك السنة بحاجة الى تبرير ، لأن العالم كان « مشغولا بأمور أشد خطرا من المذهب المحمدى . »[١] وقد ذكّر بولدوين مستمعيه بأن « العالم المسيحى ، أو أجزاء هامة منه

* تمتلىء الكتابات الغربية عن الاسلام والنبى بكثيرمن الافتراءات وسوء الفهم وسوء القصد . ومن‌حق المسلمين ان يعرفوا مايقال عنهم وعن دينهم وعن نبيهم ــ وهوالموضوع الذى يعالجه هذا المقال ــ التحرير .

1. Marshall W. Baldwin, ,,Western Attitudes toward Islam,'' **The Catholic Historical Review**, 28 (1942), 403.

على الأقل ، ظلت تواجه خطر عالم اسلامى معاد لفترة تقرب من الألف سنة تمتد من تاريخ وفاة النبى عام ٦٣٢ حتى تاريخ انهيار آخر هجوم عثمانى أمام فيينا عام ١٦٨٣ . » ثم أضاف « ان الاسلام كان الدين الوحيد الذى جاء عقب المسيحية وغنم منها مناطق شاسعة ، وكبدها هزائم عسكرية كبرى . »(٢)

اذن كانت النظرة التى نظر بها الغرب للشرق الاسلامى منذ البداية وحتى عام ١٦٨٣ ، أو ــ كما يفضل بعض المؤرخين (٣) ــ ١٦٩٩ ، سنة ابرام معاهدة كارلويتز ، نظرة عداء دفاعى فى البداية تحولت الى عداء هجومى فيما بعد. ان العداء يولد التحامل ، والتحامل يولد الجهل . لذا فان تلك الروح الخلاقة التى دفعت ، ابان قوتها وعنفوانها ، بالعرب البدو من صحرائهم ليشيدوا مدنية شاسعة خلال فترة مدهشة القصر ظلت غير مفهومة من قبل الغرب المسيحى . وأسباب عدم الفهم هذا ليست بعيدة المنال . فكما قال مريدث جونز : « استند المفهوم الغربى لمحمد وتعاليمه على المصادر الادبية لا على الملاحظة المباشرة الفعلية المسلمين . . . وقد استمد الكتاب من أمثال ماثيو بارس معلوماتهم من مصادر ثانوية مغمورة ، فكانت النتيجة مزيجا من قدر ضئيل من الحقيقة وقدر كبير من الخيالات ذات الصبغة المتحاملة جدا . » (٤) وقد جاء بهذه المصادر فى أغلبها المسيحيون الشرقيون الذين كانوا يهربون من أمام الجيوش الاسلامية المتقدمة فى كثير من الجبهات ، والذين كانت تمنعهم معتقداتهم الدينية من تصور صورة صحيحة عن الاسلام ، ناهيك عن نقل مثل تلك الصورة لمسيحيى الغرب . ثم انه لم يطل الأمر بالاسلام حتى بدأ يدق أبواب أوروبا نفسها ، ويؤسس موطىء قدم قوى هناك كان من المحتمل دائما أن يستعمله من أجل فتوحات أخرى . وعندما تفتتت قوة المسلمين في اسبانيا ظهر خطر أعظم هو الخطر العثمانى الذى بدأ يهدد الغرب من جهته الشرقية . وفى تلك الأثناء كانت الحملة الصليبية الغربية لاستعادة بعض المناطق التى خسرتها المسيحية للاسلام قد فشلت فى أن تحقق الكثير سواء من الناحية العسكرية أو التبشيرية .

واضح اذن أن تاريخ الصلات بين الشرق المسلم والغرب المسيحى تاريخ ملأته العداوة المستديمة والشك المتبادل فى النوايا . لذا فان من غير المستغرب أن تكون الصورة التى كونها الغرب عن الاسلام والمسلمين صورة مشوهة لم تتضح معالمها الا ببطء شديد خلال القرنين الأخيرين مع تقدم الروح العلمية الحديثة وزوال التطرف الدينى . وأصول هذه الصورة تعود الى العصور الوسطى حين كان الاسلام هدفا للكثير من الكتابات الجدلية ، بينما ملأ المسلمون ــ تحت اسم السراسينيين قصص وملاحم تلك الفترة .

لقد ظلت استراتيجية المجادلين المسيحيين الذين تباينوا أشد التباين فى درجات معرفتهم بالاسلام هي نفسها حتى وقت متأخر نسبيا: كان همهم أن يفندوا الاسلام باستعمال عدد قليل من الانتقادات التقليدية ، دون الخوض بالمسائل الكبرى كمسألة الوحدانية ، وسبب ذلك نابع من طبيعة المشكلة . فكما يلاحظ نورمان دانييل فى دراسته الممتازة عن الموضوع: « ظلت النقاط التى يختلف فيها الاسلام مع

---

2. Ibid. 1

3. Paul Coles, **The Ottoman Impact on Europe** (New York : Harcourt, Brace, and World, 1998), p. 160.

4. C. Meredith Jones, „The Conventional Saracen of the Songs of Geste," **Speculum**, 17 (1942), 202.

المسيحية هى هى ، لذا فقد مال المسيحيون دائما الى أن يثيروا نفس الانتقادات . وحتى حين حاول بعض الكتاب في العصر الحديث نسبيا أن يتحرروا من الاتجاهات المسيحية فانهم — عموما — لم يحققوا من النجاح بقدر ما توهموا . » (٥)

ان بعض النقاط التى أثيرت ضد الاسلام يمكن — جدليا — أن نتوقعها من المسيحيين. فمثلا لا بد أن يؤدى ايمان المسيحى بألوهية يسوع الى انكار أى ادعاء بعكس ذلك . والاسلام لاينكر الوهية يسوع فحسب ، بل انه ينكر أنه صلب أيضا ، مما يجعل الفكرة المسيحية عن المخلص او الفادى موضع شك بحد ذاتها . كذلك فان اعتماد المسيحية على التبشير سبيلا للانتشار يمكن — جدليا — أن تثار ضد الاسلام الذى لم يتنكب عن استعمال القوة لأسباب يحلو للمسيحيين اختزال الجانب الدينى منها . (لكن هنا جعلت المسيحية من نفسها عرضة لنفس الانتقاد حين لجأت الى الحملة الصليبية العسكرية لفترة تناهز القرنين .) كذلك فان الكنيسة التى فرضت العزوبية على رجالها تقليدا للسيد المسيح يمكن — جدليا — أن تعترض على سماح الاسلام لأى مسلم بالزواج من أربع نساء فى وقت واحد وعلى زواج النبى نفسه من أكثر من ذلك العدد .

لكن هذه النقاط وغيرها لم تكن الا جزءا يسيرا من الكتابات الجدلية ضد الاسلام التى بدأت بالظهور منذ العصور الوسطى . أما البقية فهي خليط عجيب من الحقائق والخيال، تفسر فيه الحقائق بشكل مفرض متوقع النتائج ، ويوجه الخيال فيه الى جمهور يبدو لنا اليوم مفرطا فى السذاجة .

واذا ما بدأنا بالجانب الذى يعتمد على بعض الأصول التاريخية وجدنا أن المجادلين من أمثال ماثيو بارس وسان پيدرو باسكوال وكتاب ما يدعى ب « المجموعة الكلونية » (٦) مالوا لأن يأخذوا بعض الأحداث فى حياة محمد من اجل ان يشككوا بأهليته للنبوة . فقد شددوا علىوثنيته قبلادعائه النبوة مستندين — فيما يبدو — على رواية تقول انه فى شبابه قد ضحى بنعجة بيضاء للعزى . (٧) وأكدوا انه كان يعانى من الصرع ، وأنه ادعى أن جبريل يزوره أثناء « النوبات » ليخفىمرضه. ورووا قصص زيجاته المتعددة باسهاب ، واستنتجوا منها انه كان عبدا لحواسه (مما يتناقض مع روحانية المسيح) ، وأنه لذلك لا يصلح للنبوة ، وأنه كان دجالا لأنه لم يقم بعمل معجزات ، ولم يتنبأ بأحداث المستقبل مثلما فعل أنبياء التوراة .

كل هذه النقاط لها أصول تاريخية رغم ان تفسيرها غير صحيح فى كل الحالات — على الاقل من وجهة النظر الاسلامية . لنأخذ مسالة الصرع مثلا . ادعى محمد ، وآمن المسلمون ، أنه خلال تلك « الحالات » التى سموها نوبات صرع كان يتلقى الوحي . والشك فيادعاء محمد وقبول التفسيرالمسيحى يقتضى الايمان بأن شخصا مصابا بالصرع يمكنه أن يؤلف **خلال النوبات** التى استمرت مدة طولها ثلاث وعشرون سنة كتابا كاملا له من الاتساق الفكرى والروعة الأسلوبية مايتصف

---

5. Norman Daniel, Islam and the West (Edinburgh : Edinburgh Univ. Press, 1960), p. 1.

للحصول على معلومات ببليوغرافية وافية انظر :

6. Daniej, pp. 3b5-408.

7. See Alfred Guillaume, Islam (Harmondsworth : Penguin Books, 1956), p. 8.

به القرآن الكريم . (٨) ولقدبين نورمان دانييل ، وليس هو بالمسلم ، كيف أنه في بعض الحالات كانت توضع شروط معينة من قبل أولئك المجادلين (بشكل يعهده قراء الفلسفة المدرسية) يكون بمقتضاها الانسان مؤهلا للنبوة لكنها تناقض جوانب من حياة محمد ، مما يجعله غير أهل لها . (٩) يقول دانييل : « كل ما بدا للمسيحي كريها في الاسلام بدا له أيضا أنه أشد صفاته أهمية ، وقد كان من السهل وضع معايير تقاس بها كل النبوات وتفشل بها نبوة محمد . » (١٠) فقد انكر محمد القدرة على عمل المعجزات والعلم بالغيب ، فأعطى ذلك الفرصة للمجادل المسيحي لأن « يثبت » بطلان نبوة محمد ، وذلك بأن يشترط في النبي القدرة على عمل المعجزات وعلى التنبؤ بأحداث المستقبل ولما لم يقم محمد بأي من هذين الشرطين ، لذا فان نبوته باطلة . « من الواضح » ، كما يقول دانييل ، « أن هذه المعايير فصلت مقدما كي تناسب ظروف محمد . » (١١)

أما في جانب الخيال فقد أكد الكثير من الكتاب أن محمدا كان كردينالا مسيحيا طموحا اخترع الاسلام ، نتيجة عجزه عن الوصول الى كرسي البابوية ، كي ينفس به عن غيظه . وقد قيل عنه انه كان أحد أقانيم الثالوث الذي يضم ما هوند (أي محمد) وتيرماجنت (أو تير فاجنت) وأبوللين ، وهو الثالوث الذي قيل ان المسلمين يعبدونه نتيجة جهلهم . كذلك ادعى بعض الكتاب أن محمدا كان أحد اتباع هرطوق مسيحي يدعى سيرجيوس هرب من البلاد المسيحية الى شبه جزيرة العرب حيث ضلل العرب البدو بمعونة محمد واليهود المحليين . كما أنهم كثيرا ما رووا أن النبي درب حمامة لتأكل الحب من أذنه مقلدة بذلك الروح القدس (١٢) ، أو انه درب ثورا أو عجلا كي يأتيه عندما يأمره حاملا القرآن على قرنيه . (١٣)

يمكننا ان نستنتج اذن ، وبدون أي تجن ، أن مجادلي تلك الفترة لم يرسموا صورة متسقة للاسلام ونبيه ، وأن الصورة التي رسموها فعلا قاربت في الغالب جانب الاسفاف ومن الجدير بالذكر هنا أن القيمة الجدلية لكثير من تلك الكتابات تكاد تكون معدومة لأن أكثرها ، ان لم يكن كلها ، كتب باللاتينية وكان موجها الى جمهور القراء المسيحيين ، وعلى التحديد أولئك القادرين على قراءة اللغة اللاتينية ، وهم الكهنة ، لا الى جمهور المسلمين . لكن المعلومات التي تضمنتها تلك الكتابات ، سواء منها ما استند الى الحقيقة أو كان من نسج الخيال ، انتقلت هي والاتجاهات العدائية التي شجعتها عبر لاتينية الكتاب العالية الى اللغات المحكية المحلية ، وغدت جزءا من

لمن شاء الاستزادة حول هذه النقطة ، هناك كتاب :

8. Tor Andre, **Mohammed : The Man and His Faith,** trans. Theophil Menzel (New York : Harper Torchbooks, 1960), pp. 45-47.

9. Daniel, pp. 97-73.

10. Ibid., p. 68.

11. Ibid., p. 71.

ظلت هذه الفكرة تتردد حتى زمان شيكسبير . انظر :

12. **I Henry VI, I.ii. 140-11.**

بل انها تظهر بعد ذلك التاريخ كما سنرى .

13. See Byron Portes Smith's **Islamin English Literature** (Beirut : The American Press, 1939), pp. 6-7.

الصورة الأوروبية الشائعة عن الاســـلام والمسلمين ، تلك الصورة التى ظلت على ما هي عليه لفترة طويلة لاحقة . وكما قال ميريدث جونز : « كان مفهوم شعراء العصور الوسطى عن الاسلام يستند على المصادر الكنسية التى كان من همها أن تشـــوه معتقــدات الكـــفار وعاداتهم . » (١٤) وقـــد تكررت صـــورة السراسينى الكافر المشـــوهة تكـــررا بلغ من كثرته في الأغانى الشعبية فى العصور الوسطى انه ادى الى تحنط تلك الصورة وتجمدها . لذا فان كتاب الملاحم فى ذلك العصر وجدوا ، عندما أرادوا الكتابة عن السراسينى ، صورة مألوفة يستعملونها وصورة متوقعة يرسمونها لقرائهم . وقد وصف جونز هذه الصـــورة التقليدية للسراسينى كما رسمتها **مجمـــوعات « الشانسون دى جيست »** على النحو التالى:

(السراسينيون) قوم أشرار يقضون أيامهم فى كراهية المسيح والسخرية منـــه وفى تهديم كنائسه . وهم أبناء صانع كل الشرور ، أبناء الشيطان . وهم ، كسلفهم ، يكرهون الله ويضعون انفسهم دائما تحت حماية الشيطان . . وغالبا ما يوصفون بهيئات شائهة التكوين ، فالكثير منهم عمالقة ، وقبائل برمتها لها قرون على رؤوسها ، بينما توجـــد قبائل ســـواها سوداء كالشياطين . وحين يهرعون للمعارك يطلقون صيحات أشبه بنباح الكلاب . وهـــم أناس مشبوبو العاطفة ، سريعو الاستثارة ، سرعان ما تسيل دموعهم أو يتملكهم الغضب. اما من الناحية الاجتماعية فانهم يمثلون ابشع انواع العادات ، وذلك ببساطة لأنهم يفتقدون الشيء الأساسى فى نظر المسيحيين للكمال ـ الايمان بالمسيحية . لذا فانهـــم يســـتعملون العبيد ، ويأكلون أسراهم ، ويشترون نساءهم ويبيعونهن ، ويمارسون تعدد الزوجـــات . . . وقد اخترع الشعراء لهم عددا من الصـــفات التحقيرية والتعابير المهنية هي من عدة الأسلوب الملحمى المعتادة كي يؤكدوا فقدانهم للايمان ، الذى هو سر شرهم برمته . (١٥)

أما الاســـلام فيوصف عـــادة باعتباره من اختراع محمد الذى هو أحد أقانيم الثـــالوث

14. Jones, p. 203.

15. Ibid., pp. 204-5.

اما الكاتب صموئيل سى . تشو فقد استنسخ رسماالبزابيثيا عنوانه « اشكال وحشية توجـــد بين افريقيـــا والهند » . وهى منطقة تشمل معظم العالم الاسلامى ،تظهر فيها خمسة اشكال من الرجال الذين يوجدون فى تلك المنطقة : الاول يدعى Sciapod **وله قدم واحدة يستعملهاكمظلة ، والثانى له عين واحدة فى جبينه ، والثالث قـــزم براسين ، والرابع توجد عيناه وانفه فى صدره ، والخامس له راس كلب فوق كتفيه . والرسم المذكور يظهر فى مقابل الصفحة ١٣ من كتاب :**

Samuel C. Chew, The Crescent and the Rose (New York : Oxford Univ. Press, 1937),

وفكرة الاشكال الوحشية هذه موجودة ـ بشكل مدهش ـ حتى عند درايدن . انظر :

Don Sebastian, II. i. 458 **وفى عام ١٧٢٨ شعر الرحالة الانكليزى توماس شو** Thomas Shaw **ان من الضرورى ان يبدد مخاوف قراءكتابه المعنون**

Travels.........to several Parts of Barbary and the Levant

فيما يتعلق بالفكرة السائدة التى تقول ان افريقيا كانت مليئة بالمتوحشين . انظر ايضا :

Wallace Cable Brown, ,,The Popularity of English Travel Books about he Near East, 1775-1825,'' PQ, 15 (1936), 70-71.

الذى ذكرناه ، وهو يرئس هيئة كبيرة من الآلهة الأقل شأنا مثل جوبيتر ، وجوبين ، وأفلاطون ، وفرعون ، وباراتون ، وكاهو ، ومارغوت ، ومالاكوين ، وسوراب ، وبايلت، ويعلزبوب ، وغيرهم . ويوصف المسلمون بأنهم قوم ذوو كهنوت منظم يرئسه بابا ، وتقام عندهم الصلوات فى محمديات (أى جوامع) أو معابد من قبل رهبان أو كهنة بشكل شبيه بالطقوس المسيحية . (١٦) وباختصار ، فان الاسلام يرى بمنظار مسيحى (ثالوث ، رهبان) بغرض اظهاره وكأنه تشويه للمسيحية .

ان صورة محمد والمسلمين في **الكوميديا الالهية** لدانتى تنسجم مع هذه النظرة . ففى **الجحيم** نجد كلا من محمد وعلى ، ابن عم الرسول ، بين ناثرى بذور الخلاف والفضائح والشقاق (٢٨ : ٣٥) فى موقع عميق فى الدائرة التاسعة من دوائر الجحيم . والعقاب الذى يلقاه محمد على جريمته « ليس فقط أشد فظاعة وتشنيعا من أى عقاب غيره ، بل انه لا مثيل له فى أى مكان آخر من **الجحيم** من حيث التنفير والتشويه الجسمانى وقبح التصوير . » (١٧) وتصوير محمد باعتباره منشقا يستند بوضوح على الادعاء المسيحى بأنه تلقى العلم من هرطوق مسيحى ، أو أن محمدا نفسه كان كردينالا فاشلا كما مر بنا . (١٨) وبهذا الاعتبار تبدو جريمته أعظم من جريمة الوثنى العادى . **فهو ، كمسيحي منشق** ، كان يسبب صدعا فى هيكل الكنيسة المسيحية بهرطقته (وقد اعتبر الاسلام فعلا بدعة نسطورية) . وعلى أى حال فان نظرة دانتى لما حققه محمد وأتباعه هي النظرة نفسها التى يقبلها المؤرخون المسيحيون فى زمانه . فمثلما يتضح من **الفردوس** (٣٢ : ١٣٠ ــ ١٣٥) حيث «يرمز كسر أرضية عربة الكنيسة من قبل الوحش الى الخسارة التى أصابت الكنيسة عن طريق محمد » كما يقول تاتلوك(١٩) يعتقد دانتى أن العالم المسيحى قد خسر خسائر فادحة للاسلام ، وأن العقوبة الفظيعة التى يفرضها على محمد **تعكس فظاعة الجريمة** التى ارتكبها من وجهة النظر المسيحية .

لكن تجدر الاشارة هنا الى أن دانتى قد وضع ثلاثة من المسلمين البارزين هم ابن سينا وابن رشد وصلاح الدين الأيوبى في دائرة الجحيم الأولى مع الوثنيين الفضلاء . وقد كان الأولان فيلسوفين من اتباع المدرسة الأرسطية ، ووضعهما فى الدائرة الأولى يبدو لي اعترافا بقيمة آرسطاليتهما أكثر مما هو تسامح مع دينهما . أما ادراج صلاح الدين

16. Jones, pp. 208-10.

وفكرة الكنيسة والرهبان توجد حتى فى درايدن . انظرمسرحية Don Sebastian حيث يدعى المفتى رجل كنيسة . ان الاسلام ــ طبعا ــ لا يضم اى مؤسسة شبيهةبالكنيسة المسيحية .

17. J.S.P. Tatlock, ,,Mohammed and His Followers in Dante,''MLR, 27(1932), 192.

يخالف تاتلوك هذا الراى . لكن من يشاء الاطلاع علىدراسة ممتعة للعلاقة بين الاسلام والكوميديا الالهية فان عليه قراءة كتاب :

18. Mignel Asian Y Palacios,
Islam and the Divine Comedy, trans. Harold Sunderland (1928 ; pt. London : Frank Case, 1968).

19. Tatlock, p. 186.

مع هذه النخبة فيبدو أعيا على التفسير . فلقد كان صلاح الدين هو البطل الاسلامى الذى دافع عن قضية الاسلام عندما كان الغرب المسيحى يحاول استعادة بعض الأرضية التى خسرها للدين الجديد . لذا كان من المنطقى أن يوضع صلاح الدين عميقا فى جحيم دانتى لا مع الوثنيين الفضلاء . لكن دوروثى ل . سايرز Sayers تفسر ذلك بقولها : « أن ادراج صلاح الدين هنا (فى الدائرة الاولى) مع لوقان وابن رشد وغيرهما من شخصيات الحقبة المسيحية ممن لم يحرموا من فرصة الاختيار لربما أشار ضمنا الي رأى دانتى بشأن كل أولئك الذين كانوا صادقين فى عدم استطاعتهم قبول الوحى المسيحى رغم اتصالهم بالمسيحية ، ورغم ممارستهم لكل الفضائل الأخلاقية . » (٢٠) وسواء قبلنا هذا التفسير أم لم نقبله فان من اللافت للنظر أن شخصية صلاح الدين قد عوملت دائما بقدر من الاحترام فى الأدب الغربى لم تلقه أية شخصية اسلامية أخرى . (٢١)

يشبه المفهوم الذى ساد في الادب الانكليزى حتى اوائل القرن الثامن عشر عن محمد والمسلمين ذلك المفهوم الذى وجدناه في سائر أوروبا. ففي الحكايات الشعرية الانكليزية القديمة المسلسلات المسرحية (Cyclical Plays) يظهر السراسينيون دائما كوثنيين لهم اله اسمه محمد هو واحد من عدد من الآلهة . وهذا أمر متوقع طبعا لان ذلك المفهوم كان جزءا من التراث الاوروبي ، ولان الادب الانكليزى المبكر كان مقلدا الى حد كبير للادب الفرنسي الاكثر ازدهارا . (٢٢)

لكن الغريب ان كلمة سراسين غالبا ما استعملت لتضم عناصر اوروبية كالسكسون ، بل انها عنت أى شعب وثني . وقد كان من السهل بعد ذلك ان يعتقد مؤلفو ذلك الادب وقراؤهم ان محمدا كان معبود جميع الوثنيين بغض النظر على التسلسل التاريخي أو البعد الجغرافي . وهكذا فاننا نجد فرعونا في واحدة من المسرحيات الدينية الانكليزية يحض اتباعه للصلاة لما هوند (محمد) كي يعينهم في محنتهم . ونجد القيصر اغسطس يقسم بنفس الاله ويصلي له ، بينما يدافع هيرود عنه ويهدد كل من لا يؤمن به . (٢٣) والمعنى الحديث للكلمة الانكليزية Maumet ، اى صنم او دمية ، تعود جذوره الى هذه الحقبة التاريخية . والكلمة مستمدة طبعا من اسم النبى محمد ، وفكرة انه كان يعبد ادت الى فكرة انه كان صنما ، ومن هذا المعنى تفرعت المعاني

---

20. Dorothy L. Sayers, trans., **The Comedy of Dante Alighieri : Cantica I: Hell** (Baltimore: Penguin Books, 1919), p. 96.

21. انظر مثلا رواية **The Talisman** للسير ولتر سكوت التى نشرت لاول مرة عام ١٩٢٥ .

22. حول تقليد الادب الايكليزى المبكر للادب الفرنسى انظر: Albert C. Baugh et al., A Literary **History of England**, 2nd ed. (New York : Appleton-Century Crofts, 1967), p. 114.

23. See Chew, pp. 390-91. Chew refers to the **York Plays**, xix; **The Townley Plays**, ix, xiv, xvi ; and the **Chester Plays**, i, viii, x.

الاخرى . وقد اعطت هذه الكلمة للغةالانكليزية الكلمتين mahometry و mawmetry اللتين تعنيان « عبادة الاوثان » او « الدين الباطل ». وقد ظل هذا المعنى مستعملا حتى أواخرالقرن الخامس عشر ، بدليل وروده فى قصيـــدة لكاكستون بعنوان خود فرى (God Frey) (١٨٧ : ٢٧٤) . اما قصيدة جون لدجيــت المسماة « عن محمد النبى المزيف وكيف اكلته الخنازير وهو سكران » فتعطينا اول « ترجمة كاملة » للنبي في الادب الانكليزى . ففي مدى مائة واحد عشر بيتا تمكن لدجيت من حشر معظم الاساطير الخيالية التى كانت سائدة في زمانه (١٣٧٠ ــ ١٤٥١) . اذ تصور القصيدة النبى على انه كان نبيا مزيفا وساحرا وضيع الاصل ، وانه درس الكتاب المقدس في مصر واقنع السيدة كارديجان (خديجة ؟) من بلاد كوروزان (قريضة ؟) كى ترضى به زوجا ، مسعملا اســـاليب الاغـــراء الخبيثة المزيفـــة (الابيات ٦٧ ــ ٦٩) . ونقرأ كيف انه ، ادعى انه هو المسيح (٧٥) وقاد شعبه الى الخطأ العظيم . ونقرأ انه كان مصابا بالصرع ، ذلك الداء الذى فسره بقوله ان « جبريل / قـــد ارسل اليه من علياء السماء / من قبل الروح القدس كي يعلمه / وظهر عليه الملاك بطلعة بلغ من بهائها/انه لم يستطع الوقوف في حضرته» (٨٧ ــ ٩١) . كذلك تجد في هذه القصيدةــ كما هو متوقع ــ اساطير الحمامة التي تأكـل الحب من اذن محمد ، وسيرجيوس ، والثور، لكن الثور هذه المرة لا يحمل القرآن على قرنيه بل يحمل « جرار اللبن والعسل » (١٠٤) . كما نجد ان محمدا كان « زانيا وقحا / فأشاد تمثالا لفينوس » (١٣٢ ــ ١٣٣) . ورغم انه كان سكيرا الا أنه منع قومه من شرب الخمرة. واخيرا

مات كأى انسان نهم

لانه افرط في شرب الخمرة

ووقع في بركة موحلة واكلته الخنازير .

(٢٤)

(١٥٢ ــ ١٥٤)

ولعل هذه في نظر لدجيت وقرائه هي الاسباب التي جعلت الاسلام يحرم الخمــرة ولحم الخنزير !

●●●

اذا ما وصلنا الفترة الاليزابيثة وجدنا الكثير من المسرحيات التي تقوم على مواضيع اسلامية استمدها الكتاب من كتب التاريـخ القديمة والحديثة للشعوب الاسلامية ، فضلا عن الاساطير التي تجمعت فــي اوروبــا عــن الاسلام والمسلمين منذ العصور الوسطي . وقد قام لويس وان باستعراض مفيد للمسرحيات الاليزابيثية المرتكزة كلا او بعضا على مواضيع شرقية . (٢٥) ووجد انه بين عام ١٥٥٨وعام ١٦٤٢ هناك سبع واربعون مسرحية تعتمدعلى مثل تلك المواضيع كتب اكثرها في الفترة ما بين ١٥٨٦ و ١٦١١ . وقد انجـذب اكثـر الكتاب الكبار الى سحر الشرق انجذابا دعا كلا منهم الى كتابه مسرحية واحدة على الاقل عن هذه المنطقة . ومن اللافته للنظر ، كمــا

24. See John Lydgate,s **Fall of Princes**, ed. Henry Bergen (London : EETS, Extra Ser., no, 123, 1924), Pt. III, Bk. IX, pp. 920-23.

25. Lewis Wann, „The Oriental in Elizabethan Drama," **MP**, 12 (1915), 423-47.

يقول وان ، نجد ان « ثلثي هذه المسرحيات الشرقية مأساوية الطابع . » وان « كل المسرحيات التي تعالج موضوعات شرقية خالصة هي ماتراجيديات خالصة او مسرحيات غزاة . » (٢٦) والتفسير الذى يقدمه وان لهذه الظاهرة هو ان الاليزابيثيين — فيما يبدو — قد تصوروا الشرق باعتباره « منطقة تسود فيها عناصر الحرب والغزو وقتل الاخ لاخيه والشهوة والخديعة اكثر من سيادتها في البلاد المجاورة » — وهو تصور يدعي وان « ان الاحداث الواقعية تبرره . » (٢٧)

واضح من ذلك ان كتابات المسرحيين الاليزابيثيين لم يكونوا يهتمون الا بالعناصر المثيرة ، وانهم اغفلوا الجوانب المشرفة ، لانها لم تكن تلائم طبيعة الاسلوب الادبى المستعمل، وهو أسلوب يفضل ، كما يوحى اسمه ، كل ما هو دراماتيكي .

لكن الملاحظ — حتى من دراسة وان نفسها — ان الدراماتيكي قد قبل على أنه كل الحقيقة . وهكذا فان كلمة « تركي » ، وهي الكلمة التي كانت تستعمل في أوروبا اسما لكل مسلم ، ولم تكن تستثير فى ذهن مستعملها او سامعها أكثر من صورة للقسوة والعداء للمسيحية . وكان « الاستتراك » (to turn Turk) يعني العار الاكثر بالنسبة لأي مسيحي ، لأن ذلك كان يعني فقد كل الاخلاق والدين .

لقد كان الأتراك قساة حقا ، وغالبا ما استعملت قسوتهم بينهم هم أنفسهم (كما هي الحال فى المكائد التي كانت تحصل فى قصور السلاطين ، وهي الأمور التي مسرحت كثيراً على المسرح الاليزابيثي) ، الا أن هذه الصفة ، كما يقول لنا المؤرخون المعاصرون ، صفة بولغ فيها جدا ، وشيعتها الروايات الأوروبية من أجل تحريض القوى المسيحية لمقاومة تلك القوة الكاسحة. فكما يقول المؤرخ **بول كولز** : « كلما اتجهنا غربا فى مناطق المجتمع الأوروبي النائية زاد ظهور العثمانيين كمصدر للكراهية والخوف .

لقد كان الناس يعتقدون أن الأتراك ليسوا خارج حدود المسيحية فقط بل خارج حدود المدنية نفسها » . ويضيف كولز : « ان التقليد (القاضي بالتشهير بالاتراك) استمر وامتد الى عامة الناس خلال القرن السادس عشر عن طريق الحرب الدعائية الفجة التي شنها بارثولوميو جيورفتش الكرواتي ، الذى ظهر كتابه ذائع الصيت **آلام ومآسي المسيحيين الذين يعانون من الجزية والعبودية التركيتين** عام ١٥٤٤ وطبع طبعات كثيرة وبلغات متعددة. »(٢٨) وسواء عرف الكتاب المسرحيون أو كان باستطاعتهم أن يعرفوا أن الأتراك كانوا يتسامحون مع المسيحيين واليهود وانهم كانوا، لأسباب اقتصادية على الأقل ، يستقبلون من قبل قطاعات كبيرة من الشعوب البلقانية كمحررين من جور الاقطاعيين المحليين(٢٩) فان ذلك لا يهمنا كثيرا هنا . ان ما يهمنا هو أن الصورة التي رسموها عن الأتراك كانت ، فى

26. Ibid., 428-29.

27. Ibid.

28. Coles, **Ottoman Impact,** pp. 145-47.

29. Ibid., p. 145.

أقل ما يقال عنهـا ، هي الصورة التقليديـة الجامدة التى اخترعها الأوروبيون . وهـذا الوضع يشبه الى حد بعيد صورة السراسيني التي ظهرت فى أقاصيص العصور الوسطى : كان الناس يتوقعون صورة معينة فقدمت لهم تلك الصورة .

عندمـا كتب كرستوفـر مارلو مسرحيـة **تيمورلنك الكبير** (الجزء الاول عام ١٥٨٧/ ١٥٨٨ والجزء الثاني عام ١٥٨٨) كان الخطر الاسلامي ، أى التركي ، قد بلغ ذروته . ولهذا السبب كان من الطبيعي أن يرحب المسيحيون بأي شيء يمكن أن يريهم أن الأتراك لم يكونوا قوة لا تغلب . وهذا يعني أن **مارلو** باختياره قصة تيمورلنك كان يستغل العاطفة الشعبية السائدة . فتيمورلنك لم يخضع الأتراك ويذل سلطانهم بايزيد فقط ، بل انه كان ـ عن غير قصد منـه ـ عونا غير مباشر للمسيحيين المحاصرين في الفلسطنطينية منذ فترة طويلة . وقد اضطر مارلو ، من أجل التركيز على هذه النقطة ، أن يخالف التاريخ الحقيقي ويخلق شخصية يمكن للمسيحيين أن يقبلوها علـى انها سوط الله المسلط على المسلمين . وهكذا تحول تيمورلنك المسـلم ، الـذي يقول لنـا التاريخ انه كان متساهلا مع أعدائه المسلمين وقاسيا أشد القسوة ضد المسيحيين ، تحول (باسـتثناء بعـض التناقضـات فى تصـوير شخصيته) الى بطل شبه وثني ، واسـع الاطلاع علـى الكتابات الكلاسيكية والديانـة اليونانية والرومانية ، والى قاهر لا يرحـم أعداءه المسلمين ، بينما يميل بشكل يصعب تفسـيره للاسـتجابة الـى آمال المسـيحيين وطموحاتهم . ففي الجزء الأول ، مثلا ، يقسم تيمورلنك أن« يخضع الأتراك ويحرر الأسرى المسيحيين » الذين كانوا يستعملون لتسيير سـفن القراصنة المسلمين . (٣٠) وفى الجزء الثاني يطالب مواطنو بابل حاكمهم عندما تهدد قوات تيمورلنك المدينة أن :

يستسلم ويرفع علم الهدنة

كي يشفق علينا تيمورلنك

ويعاملنا معاملة الفاتح الحدوب

ورغم أن هذا اليوم هو آخر أيام حصـاره المخيف ،

وهو يوم توعد بعده ألا يبقي رجلا أو طفلا ،

لكن عندنا بعض المسيحيين من جورجيا وهم سيحصلون على عفوه ان تكرمت بارسالهم لـه

لأنه دائمـا كان يشـفق عليهـم ويعينهم في مصابهم .

(ج ٢ ، ف ٥ ، م ١ ، ٢٦ ـ ٣٣)

وعندما يقارن تيمورلنك محرر المسيحيين مع الحكام المسلمين الذين يحاربونهم (كما يفعل بايزيد) ويستعملونهم عبيدا لتسيير سفنهم (كما يذكرنا مارلو عدة مرات فى سياق جزاي مسرحيته) فان عواطف المشاهدين ستميل

30. 1 **Tamburalaine the Great, III.** iii. 46-47.
All quotations from this play are from U. M. Ellis-Fermor's edition (London : Methuen, (1930) which is part is of the **Works**, ed, R, H. Case See also Pt. 1, III, iii, 248-51,

حتما الى تيمورلنك رغم قسوته التي لاترحم والتي يظل شعور مارلو نحوها شعورا غامضا صعب التحديد . كذلك يجب الا ننسى ان انتصارات تيمورلنك كلها تحققت ضد المسلمين مما يسهل على جمهور النظارة والمسيحيين ان يتقبلوه ويعدوه في صفهم .

غير أن من الغريب أن نجد تيمورلنك بعد ذلك كله يقسم بمحمد في الجزء الثاني من المسرحية . فان كان علينا أن نفترض أنه مسلم منذ البداية (كما كانت مصادر مارلو ستقول له) فان حماسه لقضية المسيحيين يعتبر تناقضا في شخصيته . لكن الأقرب الى الصواب هو أن هناك القليل القليل من الاسلام عند أي من الشخصيات المسلمة في المسرحية باستثناء اشارة عابرة لمحمد هنا وهناك، ضمن قسم في العادة . وجميع هذه الشخصيات الاسلامية تبدي معرفة أوسع **باوفيد** من معرفتها بالقرآن . (٣١) زد على ذلك أن هدف مارلو كان سيتزعزع لو أنه ترك تيمورلنك يحتفظ بدينه ، لان ذلك كان سيناقض مهمته في الوقوف ضد الاسلام ، وهذه نقطة تؤكدها انتصارات تيمورلنك الساحقة ضد الأتراك وحلفائهم ، مثلما يؤكدها تكرر ذلك التعبير كثيرا خلال المسرحية كلها . ولهذا فان مما ينسجم وهدف المسرحية العام أن يندد تيمورلنك بمحمد وأن يحرق «القرآن التركي» الذى تعبر بعض الشخصيات عن ايمان مهزوز به هنا وهناك في المسرحية . ويأتي هذا التنديد في الخطبة الشهيرة في المشهد الأول من الفصل الخامس ، وهي الخطبة التي جلبت على مارلو فيما بعد تهمة الالحاد . وعلى أي حال فان لغة الخطبة العنيفة لا بد أنها راقت للجمهور الذي كان يتمنى سقوط « خطر » الاسلام ممثلا بالامبراطورية التركية في ذلك العهد .

ولئن كانت مسرحية **تيمورلنك** مثلا جيدا على ما يدعوه **لويس وان** بمسرحيات الغزاة ، وهي مسرحية ظهرت فيها أربعة موضوعات على الأقل من الموضوعات التي يعتقد **وان** انها تشكل بمجموعها المفهوم الاليزابيثي عن الشرق (الا وهي موضوعات الحرب ، والغزو ، وقتل الأخ لأخيه ، والخيانة) فان مسرحية فيليب **المرتد** (١٦٢٤) مثل جيد على الموضوعة الخامسة : الا وهي الشهوة . والمسرحية تتضمن مقابلة أساسية بين مايزعمونه عن الطهارة المسيحية والحسية الاسلامية . وتتمثل هذه المقابلة بأجلى صورها في شخصيتي بولينا ودونوسا . أما بولينا فهي أسيرة عصام بك . واستسلامها لرغبات آسرها من شأنه أن يعطيها الحرية والسلطات . الا أنها ترفض الاستسلام لأن « عفافها مرتكز على صخرة دينها . » (٣٢) اما

---

31. ان اعتراض جوزيف اديسون ضد الاشارات الاوفيدية التي يضعها درايدن في افواه شخصياته المسلمة في مسرحية Don Sebastian ، والذى نشره في صحيفة The Guardian ، العدد ١١٠ ، الصادر بتاريخ ١٧ تموز عام ١٧١٣ لهو احرى بان يثار ضد مسرحية Tamburlaine مارلو لان مثل هذه الاشارات ترد فيها اكثر مما ترد في مسرحية درايدن

32. The Dramatic Works of Massinger and Ford, ed. Hartley Coleridge (London : Routledge &Sons, 1875), p. 115.

ستكون الاشارات التالية للصفحات وليس للفصول والمشاهد لان ابيات المسرحية غير مرقمة ، وسترد الاشارات في المتن نفسه بعد كل اقتباس .

دونوسا فهي أميرة مسلمة ، لكن مركزها هذا لا يمنعها من استغلالها أول فرصة تسنح لها مع بائع عادى للاوانى الزجاجية لاشباع رغبتها الجنسية . وتفسير هذا التهور عند الأمير يأتينا من فم الأميرة نفسها : فخلافا لحالة السيدات المسيحيات « اللواتي يتمتعن بقدر أكبر من الحرية ممن يولدن هنا » ، تقول دونوسا :

نحن معشر العثمانيات لا نستمتع

أكثر منكن رغم أن ديننا

يسمح بكل الملذات (ص ١٠١) .

المسلمات ممنوعات من المتع رغم أن الاسلام ـ فيما تقول هذه الاميرة المسلمة ـ يسمح بكل الملذات . ان هذه الفكرة ليست بالجديدة . فلطالما اعتبر مسيحيو الغرب الاسلام دينا اباحيا . وقد اعتبرت هذه الاباحية واحدا من اهم أسباب نجاح الاسلام فى أوائل عهده ، لكن الشيء المدهش فى دونوسا ليس علمها بأمور دينها بقدر ما هو استعدادها للتضحية بمكانتها كأميرة وتصرفها تصرف المومسات ، بالمعنى الحرفى للكلمة . انها ليست قبيحة : فيتللي نفسه يشهد بالعكس . لكنها رغم جمالها تقوم بكل مقدمات الاغراء على المسرح :

سأعلمك بالفريزة (ماذا تقدم)

وبتلك السهولة التي يجعلنى الحب أطلبها منك .

عندما تقوم سيدة باعتصار يدك هكذا ،

أو عندما تضغط على قدمك بلمسة عاشقة ،

وتحدق فى عينيك ، وتداعب خصلات شعرك ،

ألا تفهم ، حتى بدون عون المعلم ،

ماذا تطلب منك ؟

ثم تقبله فيستجيب ، وتعود هى الى القول :

وافرض أنها تشير الى

حجرة خاصة لا تدخلها أشعة الشمس

أبدا ... (ص ١٠٦) .

وتترك المسرح وهى « تدعوه كي يتبع » فيما تقول تعليمات المؤلف (ص ١٠٨) . كذلك فان دونوسا هي التى تطلب « لقاء ثانيا » (ص ١٠٨) في اليوم التالى ، بينما يرفض فيتللي طلبها . ورغم اللغة القاسية التي يستعملها معها الى انها تستمر فى الاستجداء ، بل انها تركع له في النهاية :

هل أنت من حجر ؟

ان كان للمسيحيين أمهات فلا شك أن

فيهن من شراسة النمور نصيب . فلو كان عندك شيء من الشفقة الانسانية لما تحملت

أن تركع أميرة لك ... (ص ١١٣) .

تلك هي شهوة المسلمين !

اما في جانب الذكور من أشخاص المسرحية فان قدرة فيتللي على احتمال الآلام تكسب له اعجاب عصام بك ، بل حتى احترام مصطفى القاسى ، الذى هو غريمه فى الحب . لكن غرام عصام بك المفرط ببولينا هو الذى يؤدى فى النهاية الى هرب المسيحيين من الاسر . فعصام المسكين هذا ـ شأنه شأن غيره من المغرمين المسلمين ـ سرعان ما يخدع بوعد من المعشوقة بولينا بأن « تتحول الى تركية » (أى تسلم) وتعطيه ما يريد شريطة أن يسمح لها بتعذيب دونوسا المجرمة وبمصادرة

مجوهراتها . لكنها ــ بطبيعة الحال ــ تستغل هذه الفرصة كي ترسل وسيلة الهرب لفيتللي ودونوسا بعد ان تكون هذه الاخيرة قد اعتنقت المسيحية .

ان المشهد الذى تتحول فيه دونوسا من الاسلام الى المسيحية يستحق بعض النظر هنا ، لا لما يتمتع به من قيمة فنية (وهو فى الواقع خلو منها) بل لما يلقيه من ضوء على أفكار القرن السابع عشر عن الاسلام ، التي ظلت هي فى الواقع أفكار العصور الوسطى . تحاول دونوسا فى هذا المشهد ، مثلما نذكر ، كي تخلص نفسها من فضيحة الزنا ، أن تكسب فيتللي للاسلام ، الذى يقال لنا ان فيه حكما شرعيا يسمح للمرأة المسلمة بالزنا مع كافر اذا تمكنت بهذه الطريقة من كسبه للاسلام . هذه فرية سخيفة بطبيعة الحال ، لكن طريقة الاقناع أسخف . فدونوسا تحاول اقناع فيتللي بصدق الاسلام عن طريقين الاولى هي أنه بينما تقتضى المسيحية من المسيحى أن يظل « حذرا » ، « فطنا » ازاء أغراءات الدنيا ، فان الاسلام ، على العكس من ذلك ، يوفر الفرصة « للتنويع ، ولاختيار كل الملذات التي يستطيع البشر ممارستها » (وهنا لابد أن نلاحظ كيف أن دونوسا بهذه الفكرة تفتح المجال لاثبات أفضلية المسيحية على الاسلام). والثانية هي أنه مادام الاسلام مزدهرا والمسيحية ضعيفة فانه لابد أن يكون الله فى صف الاسلام ، لذا فلا مفر من أن يعترف فيتللي بأن معبوده « يحتاج الى القوة اللازمة لمساعدة » المسيحيين (ص ١١٧) . أما رد فيتللي « المفحم » فهو هذا :

لن الوث فمي بالكلام عن شعوذات

من غرر بك ، عن مولده الوضيع ، وعن علاقاته المشينة مع النساء ،

وعن زيف دعاوية الغربية ، ولن أقول كيف

أنه علم حمامة كي تأكل من اذنه

وجعل أتباعه السذج يؤمنون

أنها كانت ملاكا يعلمه

أقوال القرآن ...

ان عزمك على كسبي

لدينا مرده

خوفك من الموت . هل هناك قوة في ذلك

الدين الذى يجعلنا نرتعش

من ذلك الذى نسارع كل يوم ، بل كل ساعة ، نحوه ؟

(ص ١١٧ ــ ١١٨)

« هذا رد مفحم » ــ هذا ما تقوله دونوسا ، منقلبة عن دينها بسببه ، باصقة على محمد لاستكمال مراسيم اعتناقها للمسيحية !

واضح تماما أن دونوسا قد تنازلت عن دينها بيسر شديد . لكن هذا التنازل فى مسرحية كتبت لنظارة انكليز في القرن السابع عشر أقنع كاتبه ومشاهديه على السواء . فرد فيتللي يعيد كل النقاط المعروفة عن الاسلام ، ويثبت مدى « زيف » الاسلام لنظارة لا يطالبون بكثير من المنطق في هذا المجال .

•••

تستخدم مسرحية جون درايدن **دون سباستيان** (١٦٩١) ، التي تعتبر عموما واحدة من أفضل مسرحياته ، موضوعات

شــديدة الشبه بتلك التي وجدناها في المرتد لما ســنجر . ففي كل منهما نجد طاغية مسلما (شــخصية معتادة في المسرحيات التي تتناول الشرق) يقع في غرام البطلة المسيحية ، ونجد مرتدا يعود في النهاية الى دينــه الاصــلي ، المسيحية ، وينقذ اخوانه المســيحيين ، ونجد بطلة تنبذ الاســلام وتعتنق المسيحية ، ونجد أحداثا جادة مطعمة بعناصر كوميدية خشــنة يعرض فيها الجانب المضحك من الاسلام مــن وجهة نظر الكاتب ، ونجد قــوة مســيحية صــغيرة تنتصر في النهاية على المسلمين في عقر دارهم ، رغم أن درايدن اختار أن يســلب سباستيان انتصاره باضافته لموضوع السفاح الذى يعتذر عنه في مقدمة المسرحية (٣٣) .

كما هي العادة ، يختلف الجانب المسيحي من شخصيات المسرحية عن الجانب المســلم اختلافا جليا . فالامبراطور المسلم « المــلا مالك » قصد خالقه منه أن يكون « تشــخيصا ساطعا للوحشية » (المقدمة ، ص ٢٨٩) . أنه « بذاخ ، خبيث ، قاس/كريم عندما يروق له ، لكنه عن الشر لا ينثني ابدا » (ف ١ ،م ١ ، ٢٥ ــ ٢٦) . أما سباستيان في المقابل

فقد كان رجلا

اطول من غيره من الرجال ، يكاد يصل مرتبة الالوهية .

شجاع ، ورع ، كريم ، عظيــم ، حــر ،

عادل كميزان السماء الذى يزن الفصول ،

احب قومه فأحبوه حب العبادة ...

(ف ١ ، م ١ ، ١٠١ ــ ١٠٥)

أما بندر كار المسلم فيقابلــه دوراكس المسيحي . الاول هو الاثير عند الامبــراطور الذى يثق به ويستشيره في كل خطوة يخطوها ، حتى في الامور الشخصية . ولكنه (تنفيــذا لمبدأ الخيانة الذى صادفناه سابقا) يخــون سيده ويتآمر على حكمه . وليس هو بالمخلص حتى لشركائه في المؤامرة لان حافزه هو طموحه الشخصى الذى لا تحده حدود . أما دوراكس فيشعر انه كان قد أهين من قبل سباستيان بدون وجه حق . لذا فانه يسترك (أى يسلم) نكاية بسباستيان ويلتحق بجيش الملا مالك . لكن عندما تلوح الفرصــة له يرفض خيــانة الامبراطور المسلم رغم أنه لا يحبه ، ويرفض أن يخون عدوه الملك سباستيان الذى كان قــد اقسم ان ينتقم منه . وفي النهاية يثبت دوراكس انه مثــال الاخلاص والشرف .

اخيرا هناك شخصيتا المفتي والفاريز . هنا أيضا تظهر المقارنة تفوق شخصية المسيحي على نده المسلم . فالمفتى ليس فقط انتهازيا ، شهوانيا ، صاحب أعــداد كبيرة من الزوجات والجوارى والعبيد ، بل هو أيضا حر التصرف بدينه بشكل مدهش ، يفسر شرائع الاسلام حسبما تقتضى الحاجات السياسية الآنيــة . اما الفاريز فعلى العكس من ذلك ، اذ يبلغ من حرصه على الفضيلة انه مســتعد للمخاطرة بحياته كي لا يســمح للملك سباستيان ان يرتكب جريمة السفاح ولو جهلا .

منــذ بداية المسرحية هناك تأكيــد على قسوة المسلمين . فالمسرحية تبدأ بهذه الابيات

---

33 John Dryden, Four Tragedies, el. A. Beaurline and PFredson Bowers (Chicago and London :Univ- of Chicago Press, 1967). p. 288.

ستوضع جميع الاشارات التالية لهذه المسرحية في متن البحث نفسه .

التي يفوه بها الملا زيدان ، أخو الامبراطور (الذى يتآمر على أخيه كما هو متوقع) :

الآن انتهت حروب أفريقيا الطويلة .

وقد استقت ارضنا العطشى من دم المسيحيين ،

وسيكون عند أخى الفاتح كفايته من العبيد

كى يفي بنذره القاسى لقاء النصر .

(ف ١ ، م ١ ، ١ – ٤)

وعندما يظهر الامبراطور نفسه بعد ذلك بفترة وجيزة نسمع المفتي ، الذى هو اعلى سلطة دينية فى البلد ، يطالب بوفاء ذلك النذر :

نبينا الجبار يطالبك ، لقاء يوم النصر هذا ،

بالعرفان بالجميل ، بأن تضحي

بالعبيد المسيحيين الذين يجب أن تقدمهم طائعا عند النصر .

(ف ١ ، م ١ ، ١٦٠ – ١٦٨)

لسنا بحاجة الى القول ان «نبينا الجبار» لا يطالب بأى « تضحية » من هذا النوع ، لكن هذه الفرية تناسب الصورة التقليدية عن الاسلام كدين قاس انتشر عن طريق الغزو واراقة الدماء فقط (٣٤) .

لكن اذا كان المسلمون – فيما تقول المسرحية – شديدى الرغبة فى اراقة الدماء، فما أبعدهم – فى نظرها – عن اتباع بقية تعاليم دينهم . ان الامبراطور يجيب المفتى بهذه الكلمات :

سيرد ثمن الهدية الحمراء مضاعفا ،

وعندما نفي بالنذر سنلغي الصيام ،

اذ ليس يخدم السماء جيدا أولو الوجوه الجائعة .

توقف عن وعظ الناس بالكف عن الشراب انا اقول لك يامفتي

ان احياء الولائم خشوع ، وانت يارأس ديننا

عندك وجه أحمر متدين .

سنتعلم البذخ ، فديننا البخيل

يخزينا أمام المسيحيين الذين يطعمون جيدا .

أما اذا أصلحت ديننا من الصوم للولائم

فيمكنك عندئذ أن تتوقع أفواج المؤمنين .

(ف ١ ، م ١ ، ١٦٩ – ١٧٨)

وسرعان ما يطيع المفتي فيقول :

الصوم هو حرفية الشريعة

التى تصلح للرعاع .

---

34. Mustapha.

قارن هذه الابيات التى يفوه بها وزير تركى فى مسرحية بعنوان للكاتب Roger Boyle :

فليصدأ الملوك المسيحيون فى السلام الخامل

لانهم يظنون انه ليس هناك حرب عادلة الا الحرب الدفاعية .

اما نبينا الشجاع فقد بزغ نجمه بالمذابح

لان الغزو جزء من ديننا .

كذلك الخمرة تعارض الشرع ، لكن هذا
أمر حر في أيضا .

أما ان كانت للملوك وهداتهم فالخمرة
شراب مقدس .

(ف ١ ، م ١ ، ١٧٩ ـ ١٨٣)

هذا اللغو يفضح نفسه بنفسه ولايحتاج الى تعليق . لكن ذروة الشهوانية الاسلامية ـ في رايه ـ ليست هي مجرد تحويل الصيام الى ولائم وتحويل الامتناع عن المسكرات الى الاستمتاع « بالشراع المقدس » ، بل هي ـ كالعادة ـ الجنس. فسهم الحب يخترق قلبه الامبراطور فى نفس اللحظة التي تزيح الميدا ، أسيرته ، الحجاب عن وجهها في السوق ويرى جمالها الساحر . وبما أن الحب هو الجنس في نظره فانه يقول لبندركار :

لابد ان أمتع نفسي بها ،

لابد ، ومالابد لي أن افعله سأفعله .

اذ ماهو الملك ان لم يعن القدرة على
امتاع النفس ؟

(ف ٢ ، م ١ ، ٤٤ ـ ٤٦)

(قارن هذه الجملة الاخيرة مع صورة سباستيان التي وصفت قبلا) .

من بين وسائل اشباع الرغبة الجامحة عند الامبراطور الزواج . لكن الميدا ، التي تحب سباستيان، ترفض الزواج من الامبراطور وسبب رفضها ـ فيما تقول ـ هو أنها قد تحولت الى الدين المسيحي : « وشريعتك لا تسمح لك بالزواج منى » (ف ٢ ، م ١ ، ٤٧٩) . لكن الشريعة الاسلامية ـ كما نعرف ـ لا تمنع المسلم من الزواج من مسيحية . الا ان حبكة المسرحية تتطلب مثل ذلك الحكم الشرعى ، وما أسهل أن يخترع درايدن حكما كذلك للاسلام . أما الامبراطور الذى اغضبه أن يحال بينه وبين شهوته فانه يهدد « بالحصول على سعادته بالقوة » (ف ٢ ، م١ ، ٤٩٠) وحين يسمع ـ فيما بعد ـ أن الميدا قد تزوجت من سباستيان فانه يحاول اجبار المفتى على اختراع نص قرآنى يبطل الزواج « ويجعل من رغبته شرعية » (ف ٣ ، م ١ ، ٨٦) . لكن المفتى يتردد بادىء ذى بدء نظرا لجسامة الطلب ، الا انه يرضخ مرة ثانية عندما يهدده الامبراطور بالقتل اذا لم يجد للمازق حلا . يقول المفتي الجليل :

صحيح أن شرعنا يمنع الزواج من
مسيحية ،

لكنه لا يحرم عليك اغتصابها ،

اذ أن لك حق الفاتح على عبدتك .

ثم انك كلما تماديت فى ايذاء المسيحيين

خدمت النبي أكثر لانه يكره تلك الطائفة .

(ف ٣ ، م ١ ، ٩٤ ـ ٩٨)

●●●

ليس من الضرورى ، فيما أعتقد ، أن نتابع هذا الموضوع أكثر مما تابعناه فى الحبكة الكوميدية الثانوية حيث لا تكاد سلاسة الحديث التى تتصف بها الكوميديات السلوكية التي كانت سائدة فى ذلك العصر أن تنجح فى انقاذ المسرحية،او على الاقل حبكتها الكوميدية الثانوية ، من صفة الابتذال . فالاقتباسات التي اقتبسناها اعلاه تكفي لان توضح أن الموضوعات التي كنا صادفناها سابقا ظلت تتكرر المرة تلو المرة فى الادب الابداعى الذى استعرضناه . لقد ظلت صورة الاسلام المشوهة تتردد ، وظل يتردد معها اتجاه واضح العداء للاسلام وللمسلمين .

غير أن هـذا الاتجـاه لم يكن وقفا على الادب الابداعى فقط . ففى عام ١٦٤٩ قـام **الكساندر روس** ، كما يعتقد أكثر الباحثين ، بعمل أول ترجمة انكليزية للقرآن من خـلال الترجمـة الفرنسـية التى قام بها **اندريـه سـور دوريبه** والتي نشرت فى ذلك العـام . وعنوان ترجمة روس واضح الدلالة : **قرآن محمد ، ترجمة من العربية للفرنسية سـور دوربيه ... وترجع للانكليزية حديثا لارضاء كل من يود النظر فى اباطيل الاتراك** . لكن يبدو ان روس وناشره لم يكونا واثقين ــ كما يشير العنوان ــ من أن تلك الاباطيل واضحة للعيان . كان الامر فى نظرهما يحتاج الى مزيد مـن التفسير ، لذا كتب **روس** « تحذيرا لازما أو نصيحة لاولئك الذين يودون معرفة الفائدة المرجوة من قراءة القرآن ، أو ان كان هناك خطر فى ذلك . » وقد ضمن هذا التحذير فى الترجمة ذاتها . يبدأ التحذير بهذه الكلمات :

أيها القارىء الكريم ، ها قد وصل الدجال العربي

الكبير أخيرا بعد الف سنة عبر فرنسا الى انكلترا ،

وقد تعلم قرآنه ، ذلك الخليط من الاباطيل (ابن

مشوه كابيه ، وفيه من الهرطقات بقدر ما في رأس صاحبه

الشائه من قشرة) أن يتكلم اللغة الانكليزية . (٣٥)

يقول روس انه لا خطر من قراءة القرآن لان المسيحيين عندهم كتب أعظم منه . وهـم يقرأون الكتب الهرطقية أحيانا بدون ان ينخدعوا بها . ثم ان القرآن متوفر لقرائه بالفرنسية والايطالية ، لذا فان اضافة ترجمة انكليزية لا ضرر منها . (٣٦) كذلك يبدو أن روس هو الذى كتب سيرة محمد التى تضمنتهـــا الترجمة . وكما يلاحظ **بايرون سمث** بحـق ان تلك السيرة « مثل صارخ على بقاء الاساطير القديمة حتى تلك الفترة . » (٣٧) فهي لا تزيد عن كونها تجميعا للاساطير التي صادفناها منذ العصور الوسطى : المولد الوضيـــع ، الصرع ، سيرجيوس ، الحمامة ، الثور ... لم يكن وضع البحث العلمى قد تحسن كثيرا **بعد** .

● ● ●

هناك سيرتان اخريان تستحقان الاشارة . (ولنقل هنا بشكل عابر ان هذا التركيز على شخصية الرسول ليس وليد المصادفة . فقد كان من هم الجدل المسيحي أن يفند الاسلام عن طريق تشويه سمعة محمد على الطريقة التي دعوها المناطقة argumentum and hominem والتي كانوا يظنونها أقوى سبل الهجوم .) وأولى هاتين السيرتين تلك التي كتبها لانسيلوت أديسون بعنوان **حالة المذهب المحمدى الاولى ، أو وصف للدعوى الباطلة ولحياة مؤلفهـــا** . وقد نشرت تلك السيرة بدون اسم مؤلفها عام ١٦٧٨ ، ثم تحت اسم المؤلف عـام ١٦٧٩ وبعنوان **حياة محمد وموته** .

---

35. Quoted by Chew, p. 449,
36. See Chew, p. 450.
37. Smith, pp. 29-60,

وكما يقول بايرون سمث : « يحاول أديسون أن يقدم لنا حياة محمد خالية من الاساطير التي تجمعت حول اسمه ، وهو ينجح في ذلك بشكل يدعو الى الاعجاب ، حتى الى حد اطراح قصة سيرجيوس . لكنه احيانا لا يستطيع أن يقاوم اغراء سرد القصة الاسطورية أولا ثم الحقيقة التاريخية. » (٣٨) لكن اطراح العنصر المختلق عن حياة الرسول لا يعني المحاولة المحايدة غير العاطفية لفهم الرجل والدين الذي بشر به . فما يزال محمد في نظر هذا الباحث دجالا ودينه هرطقة (غير مسيحية هذه المرة) انتشرت عن طريق القوة والخديعة .

أما السيرة الثانية فهي أكثر طموحا رغم انها تظهر نفس الروح العدائية المتعصبة . وقد كتبها همفري بريد وبعنوان **الطبيعة الصحيحة للدعوى الباطلة كما تظهر على اوضحها في حياة محمد (١٦٩٧)** . وقد قصد المؤلف من كتابه أن يثبت لتلك الطائفة من المفكرين الذين يؤمنون بالله ولا يؤمنون بالاديان المنزلة (deists) ان المسيحية ليست باطلة عن طريق اظهار الطبيعة الحقيقية للدعوى الباطلة كما تتمثل بالاسلام . ان صفات الدعوى الباطلة في نظر **بريد** وسبع هي كما يلخصها بايرون سمث : « ان الدعوى تشجع الشهوات الجسدية ، ان مؤلفيها لناس اشرار ، ان كلتا الصفتين السابقتين تظهران في تركيبها ذاته ، أنها دائما تضم امثلة واضحة على الزيف ، أنها تنتشر أول ما تنتشر بالخداع ، أن طبيعتها لا يمكن أن تخفى طويلا بعد ان تظهر للكثير من المتآمرين وانها لا يمكن ان تتركز الا بالقوة . » (٣٩)

وكلنا يذكر كيف أن المجادلين المسيحيين في العصور الوسطي كانوا يشترطون بعض الشروط للنبوة يعرفون مقدما أنها شروط تغاير حياة محمد . هنا أيضا نرى أن **بريدو** يجادل بنفس الطريقة ، فهو يفسر الحقائق التاريخية المعروفة عن الاسلام بطريقة تجعل من السهل عليه أن يضع معايير يستطيع عن طريقها ان يظهر ان الاسلام دعوى باطلة . خذ مثلا مسألة الشهوة الجسدية . في التراث المسيحي كان محمد دائما يعتبر رجلا حسيا ، كثيرا ما اخترع الآيات القرآنية كي يبرر شهوته للنساء . وازاء ذلك لم يكن في وسع بريدو أن يقاوم اغراء وضع الشهوة الجسدية كواحدة من أولى صفات الدعوى الباطلة . ولو تمكنا بشكل ما من اثبات ان زيجات محمد لم تكن في الواقع انعكاسا لشهوته فان هذا الجانب على الاقل من جدل بريدو سيسقط سقوطا لا يقوم بعدها . ليس من همنا أن نفند اراء **بريدو** هنا ، لكن النقطة التى تستحق التأكيد هي ان روح التعصب ضد الاسلام حتى بين الباحثين كانت ما تزال قوية جدا حتى في نهاية القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر .

لكن رياح التغيير كانت قد بدأت تهب . فقد بدأت بعض الاختلاقات ، الاشد سخفا عن شخصية الرسول بشكل خاص ، بالاختفاء ، وأدى ضمور الحماس الدينى في القرن الثامن عشر بالمقارنة مع القرون الماضية الى تقبل نظرة اكثر موضوعية عن الاسلام والمسلمين . ويعطينا **جورج سيل** ، أول من ترجم القرآن الى الانجليزية عن العربية مباشرة مثالا جيدا على الاتجاه الآخذ بالتغيير . ولنلاحظ على الفور

38. Ibid., p. 30.
39. Ibid., p. 32.

انه لم يكن لدى سيل اى تعاطف مع الاسلام وأنه كان يعتقد ان القرآن « كتاب مزيف بشكل واضح » (٤٠) ، وانه ، أي سيل ، هو الذى اشاع الفكرة التي طالما ترددت بعده والقائلة بأن القرآن كتاب بليد ، مليء بالتكرار . كذلك فان سيل ترجم القرآن ليقدم للبروتستانيين (الذين كان يعدهم مؤهلين اكثر من الكاثوليك) وسيلة لكسب المسلمين الى دينهم بعد ان يفهموا نقاط الضعف في الاسلام . لكن سيل كان رجل بحث وعلم ، وانعدام التعاطف مع الاسلام يفسره ايمانه بدين آخر ، وانتقاده لاسلوب القرآن مسألة تهم النقد الادبي بالدرجة الاولى وقد وجد سيل البحاثة « أن أولئك الذين يتصورون ان (شريعة محمد) قد انتشرت بالسيف وحده مخطئون اشد الخطأ . » (٤١) ويقول : « عندما تكلمت عن محمد وقرآنه لم اسمح لنفسي أن أستعمل تلك الصفات الكريهة والتعابير البذيئة التي يبدو انها اقوى وسائل التنفيذ لدى الكثيرين ممن كتبوا عنهما . »(٤٢) لا عجب أن هذا الكاتب ، حسبما يقول ر . ت . دافنبورت الذى كتب النبذة القصيرة عن حياة المترجم فى الطبعة التي نستخدمها ، كان قد اتهم بأنه اعتنق الاسلام سرا . (٤٣)

•••

لقد كان سيل واحدا من مجموعة كبيرة من الباحثين الذين كانت تهمهم الحقيقة اكثر مما يهمهم تشويه الاسلام ، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر « ديربيلو » ، الاستاذ فى الكلية الملكية الفرنسية ، والذى الف الكتاب الرائع المكتبة الشرقية (معجم موسوعي يضم معلومات موثوقة عن التراث الاسلامي) ، وتلميذه « جالان » الذى خلفه فى كرسى الاستاذية وترجم الف ليلة وليلة الى الفرنسية و « بوكوك » ، أستاذ الدراسات العربية فى أوكسفورد الذى ترجم حى بن يقظان الى اللاتينية بعنوان معناه معلم نفسه ، « واوكلى » استاذ اللغة العربية فى جامعة كيمبرج الذى كتب تاريخا هاما للعرب .

لقد درس هؤلاء الكتاب النصوص الاصلية فوجدوا فيها صورة مختلفة أشد الاختلاف عن الصورة التي كانت شائعة في التراث الأوروبي . ويلخص بول آزار الافكار الجديدة التي جاء بها هؤلاء بهذه الكلمات :

اشار هؤلاء العلماء الى ان ذلك القسم الكبير من الجنس البشرى ما كان ليتبع خطى محمد لو انه لم يكن اكثر من حالم مصاب بالصرع . وما كان لدين بتلك الدرجة من الفجاجة والسذاجة ، كما كان يشاع عنه ، ان يبدى تلك الدرجة الحيوية ويحرز مثل ذلك التقدم . ولو ان الناس بدلا من ان يشيعوا أكذب القصص وابعدها عن الحقيقة ذهبوا الى العرب انفسهم من

40. George Sale, trans., The Koran : Commonly Called The Alcioran of Mohammad...to Which is Prefixed a Preliminary Discourse, 6th ed. (1734; rpt. Philadelphia : Lippincott & wo., 1876),

41. Ibid.

42. Ibid., p. vi.

43. Ibid., p. xiii.

اجل معرفة الحقيقة لوجدوا ان محمدا واتباعه كانوا يتمتعون بصفات فى القلب والعقل تجعلهم لا يقلون قيد انملة عن اعظم الابطال عند اى من اجناس العالم الاخرى ... والواقع انه كان فى دينهم من التناسق بقدر ما فيه من السمو والجمال . وعندما اجتاحت البربرية وجه البسيطة ، من هو الذى حمل لواء العقل وحضارته ؟ انهم العرب ... (٤٤)

لقد ادى انكماش قوة الامبراطورية العثمانية ، وازدياد السيادة البحرية البريطانية على بحار العالم (مما خفف خطر قراصنة شمال افريقيا على التجارة الدولية) ، وزيادة الاتصالات المباشرة بين الشرق والغرب (مما أدى الى ازدياد عدد كتاب الرحلات الموثوقة التي يعتمد عليها أكثر من سابقاتها فى القرون الماضية) ، وارتقاء البحث العلمي الحديث وروحه الاكثر تجردا (مما ادى الى زيادة عدد الترجمات المباشرة عن اللغات الشرقية عامة والعربية خاصة ، فضلا عن زيادة عدد البحوث المتجردة) ـ كل هذه العوامل وغيرها ادت الى تغير الصورة القديمة وبروز صورة جديدة . الا أن الصورة الجديدة بدورها ليست صورة دقيقة كل الدقة . فلئن كانت الصورة الاولى قد حددتها الرومانسية المتنامية والاستطيقا الجديدة ، ان صح التعبير . فترجمة جالان لالف ليلة وليلة فى أوائل القرن الثامن عشر مثلا شحذت الاهتمام بالشرق بصورة دفعت بالدين الى المؤخرة وغذت بدلا عنه تلك الروح الرومانسية المتنامية التي كانت تغتذى من مصادر أخرى فى نفس الوقت أهمها المصادر الصينية والامريكية والاسكندنافية .(٤٥) وهذه الصورة الرومانسية الجديدة نأمل ان نرسمها فى بحث خاص بها فى المستقبل القريب .

* * *

44. Paul Hazard, **The European Mind** : 1680-1715, trans. J. Lewis May (Harmondaworth Penguin Books, 1964), p. 32,

حول اثر الف ليلة وليلة وغيرها من الاقاصيص الشرقية التى ترجمت الى اللغات الاوروبية بعد النجاح الهائل الذى احرزه الكتاب الاول انظر :

45. Martina P. Conant, **The Oriental Tale in England in the Eighteenth Century** (New York : Columbia Univ. Press, 1968).

اما الصورة المتغيرة للاسلام والمسلمين التى بدأت بالظهور فى القرن الثامن عشر واستمرت بالتطور خلال القرن التالى فتجد تتبعا لها فى الاطروحة غير المنشورة لكاتب هذا البحث بعنوان :

The Crescent and the Cross : Islam and the Muslims in English Literature from Johnson to Byron.

والتى قدمها لنيل درجة الدكتوراه عام ١٩٧٣ فى جامعة انديانا بالولايات المتحدة .

قصة ٢٥٠٠ عام من عمر ايران

ترجمة الدكتور: احمد كمال الدين حلمي

كلما تطرق بنا الحديث الى التاريخ السياسي لايران ، وعرّج بنا على جغرافيتها التاريخية ... وجدنا انفسنا مضطرين الى ادارة دفة الحديث نحو حدودها الحالية .. تلك الحدود التي خلّفتها الحوادث السياسية والعسكرية التي تعرضت لها البلاد فى القرنين الأخيرين .. ووجدنا انفسنا بالتالي مضطرين الى تعميم بحثنا بحيث يشمل البلاد الواسعة التي يطلق عليها « فلاة ايران » .

وفلاة ايران (١) أو بتعبير آخر «نجد ايران» هي احدى فلوات آسيا الواسعة المترامية

الهدف من هذا البحث هو ايراد خلاصة تاريخ الآريين الايرانيين فى بلاد ايرن ... وهو التاريخ الذى ينحصر بين الالف الثاني قبل الميلاد وعصرنا الحالى ، اى أواخر الالف الثانى بعد الميلاد .. وهى فترة تناهز الثلاثة آلاف وخمسمائة عام . (المترجم)

(١) وقع اختيارى على كلمة « بشته » لتكون ترجمة فارسية للكلمة الفرنسية plateau ، تلك الكلمة التى ترجمها البعض الى (فلاة) .. وكانما كانت هناك علاقة مشابهة – فى الصورة لا فى المعنى – بين كلمتى (بلاتو) و (فلاة) . وقد اسعفت هذه الكلمة من يترجمون الى العربية الى حد ما ، وشجعتهم على اختيارها . وان كانت الفلاة تعنى فى العربية الصحراء التي لاعشب فيها ولا ماء ، او الخالية من الماء فقط كما يرد فى كتاب منتهى الارب ، بينما ترد كلمة (بلاتو) فى الفارسية بمعنى الصحراء المرتفعة .

الأطراف . ويحدها من الجنوب بحر فارس وبحر عمان . وبحر فارس اسم آخر من أسماء الخليج (٢) ، وقد أطلق عليه ياقوت هذا الاسم ، وقال ان حمزة اسماه باسمه الفارسي على النحو التالي : (زراه « زره » كامسير) . كما قال ان القوم كانوا يسمون قسما منه ـ وهو القسم الواقع فى مدينة (مهروبان) الى جوار عبادان ـ باسم (زراه «زره» افونج)(٣) .

أما حدود الفلاة من الشمال فهي بحر مازندران وحوض نهر كورا وصحراء خوارزم . وبحر مازندران اسم آخر لبحر آبسكون ، وبحر طبرستان ، وبحر جرجان ، وبحر الخزر ، وبحر خزران . وبناء على قول حمزة بن الحسن فان الفرس كانوا يسمون هذا البحر : زره اكفوده (اكفرده) ، كما كانوا يسمونه : بحر اكفرده (اكفوده) (٤) .

أما (كورا) أو (كر) فهو حوض نهر يجري فى بلاد القوقاز الحالية من الغرب الى الشرق ويصبّ فى بحر مازندران .

وصحراء خوارزم تطلق على الفلاة التي يمر قسمها الشرقي بحدود مرو حتى يصل الى جيحون ، ويمر قسمها الجنوبي بحدود باورد ونسا وفرا ودهستان وبحر خزران حتى يبلغ حدود اتل . وفى غربي هذه الفلاة يجري نهر اتل ، بينما يجرى نهر جيحون وبحر خوارزم فى شمالها ، وتقع حدود الفوز (الغز) الممتدة حتى حدود البلغار .

هذا ويطلق على هذه الصحراء اسم مفازة الغزية أو مفازة خوارزم أو صحراء التركمان ، ويستندون فى التسمية الأخيرة الى ان الغز = التركمان . ويشكل حصى خوارزم أو حصى آمو جزءا من هذه الصحراء التي قد يبلغ اتساعها فى بعض المواضع منزلا واحدا ، وقد يصل فى بعض المواضع الى سبعة منازل . (٥)

ويحد الفلاة من الغرب السفوح الغربية لجبال زاجروس (Zagros) ممتدة من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي ، ومنطقة آروند رود (٦) . بينما يحدها من الشرق جبال وادي السند الغربية وسفوح جبال بامير الغربية ومنطقة نهر آمويه (جيحون) .

هذا وتقدر مساحة هذه الفلاة الواسعة بـ ٢٦٠ الف كيلو متر مربع . ومنذ القدم وهذه

---

(٢) انظر : حدود العالم ، طبع طهران ، ص ٨ .

(٣) انظر : معجم البلدان لياقوت الحموى ، تحت عبارة : بحر فارس .

(٤) انظر : معجم البلدان لياقوت الحموى ، تحت عبارة : بحر الخزر .

(٥) انظر : حدود العالم ، طبع طهران ، ص ٣٥ .

(٦) اروندرود : هو الاسم الذى اطلقه الايرانيون على نهر دجلة . يقول الفردوسى الشاعر اثناء عرضه لقصة ثورة فريدون على الضحاك ..

ـ فاذا كنت لاتعرف اللغة البهلوية ..

فاطلق على (اروند) اسم دجلة كما فى العربية .

فمما ذكره الفردوسي يفهم ان (اروندرود) هو الاسم البهلوى لدجلة .

« واروند » التى يمكن ابدالها فى الفارسية عادة الى « الوند » تعنى المنحدرات الشديدة ، وتطلق على الجبل العالى ذى المنحدر الوعر ، او على مجرى النهر الذى ينحدر ماؤه فى سرعة فائقة .

والاصل فى اللغة الافستية (ارونت) Aurvant بمعنى حاد وسريع

E. Blochet ; Lexique des Fragments de I, Avesta, Paris 1900 p. 5

البلاد تسودها — على سعتها — لغة واحدة ، وتعمها لهجات متشابهة ، وتروج فى جنباتها ثقافة واحدة . هذه اللغة الواحدة هي لغة ايران ، وهذه الثقافة هي ثقافتها .

وكان يسكن وديان هذه البلاد وأراضيها الخصيبة — هجرة الآريين الايرانيين اليها — اناس ينتمون الى العديد من العناصر والاجناس ، ويتشابهون فى نسيج حضاراتهم .. غير اننا لا نملك الكثير من المعلومات عنهم .

وقد تجمعت — عن طريق الحفريات التي اجريت فى فلاة ايران خلال القرن الاخير بعض المعلومات الخاصة بهذا الشأن ، وما زالت فى نمو مطرد ، تنحو نحو التكامل .

والامر المسلّم به ، والذي أمكن استنتاجه من هذه الحفريات هو ان بعض هذه الاقوام كان يسكن المدن والقرى ، ويمارس صناعة الأواني والآلات المعدنية ، ويعرف كيفية دفن اجساد الموتى ، ووسائل تربية الحيوانات .. وغير ذلك من اساليب الحياة الحضارية واحتياجاتها ، كما أمكن استنتاج أن حضارة بعضهم تعود الى ما قبل ميلاد المسيح بأربعة آلاف سنة .

ومن القبائل المعروفة التى سكنت هذه البلاد — قبل هجرة الآريين — قبيلة تنتمي الى العنصر الكاسي (Kassites) . وكانت هذه القبيلة تعيش فى الاماكن الجبلية من زاجروس . وقد أمكنها ان تسيطر على بابل ، وان تقبض على زمام الحكم فيها ابتداء من القرن الثامن عشر قبل الميلاد وحتى عام ١١٧١ ق.م. **وينتمي افرادها الى نفس العنصر** الذي ينتمي اليه الأوراتيون أي شعب اوراتي (ouratiens) الذي كان يتخذ من ارمنستان مسكنا له ، والميتانيون أي الشعب الميتاني الذي كان يسكن شمال العراق ، والعيلاميون الذين يعتبرون ابرز هذه الشعوب . وكانوا يحكمون فى انزان وشوش ، ويمتد نفوذهم فى بعض الاحيان الى حدود بابل .

فهؤلاء القوم اذاً هم من العنصر الذى كان افراده متناثرين على امتداد زاجروس ، والوديان التي فى اطرافه من الشمال الى الجنوب .

اما الشعوب والاجناس الاخرى التى كانت تسكن الانحاء الوسطى والشمالية من ايران .. فان حضارة بعضها — امثال سكان هضبة سيلك كاشان — حضارة تسترعى الالتفات . (٧)

وفي منتصف الالف الثانية قبل ميلاد المسيح سلكت طوائف تنتمى الى عنصر ابيض طريقها الى داخل نجد ايران .. عابرة فى سبيل ذلك جيحون وجبال القوقاز .

وهكذا وفدت على البلاد عدة قبائل تشكل فرعا من فروع العنصر الابيض الهندو اوروبى (٨) ، اتخذت لها مقرا رئيسيا هو المساحة الواقعة بين هندوستان وسواحل

---

(٧) ارجع فى هذا الصدد الى :

ايران از آغازتا اسلام .. تأليف آقاى گيرشمن ، ترجمة آقاى دكتر محمد معين ، ص ٨ — ٥٦ .

(٨) يلق الاسم :Indo-européen(enne) على عدد من الشعوب ذات لغات متقاربة متشابهة تنحدر من أصل واحد .

المحيط الاطلسي فى أوروبا (مضافا اليها جزر بريطانيا العظمى) (٩) .

ويعرف عن هذه القبائل أنها قد انفصلت عن زميلاتها فى العنصر قبل ميلاد المسيح بما يناهز الثلاثة آلاف عام .. اذ يرجع عهد أقدم مؤلف أدبي ما زال فى أيدينا عن هذه الشعبة ــ ونعني به اجزاء الفدا القديمة ــ الى أواسط الالف الثانية قبل ميلاد المسيح .

وقد كان حساب القرون المحصورة بين ظهور أدب الفدا وهجرة الطائفة الهندية المتفرعة من الشعبة المذكورة من آسيا الوسطى الى الهند ... وحساب المدة التي ينبغي ان تعيشها هذه الطائفة مع طائفة أخرى تنتمي الى نفس الشعبة فى آسيا الوسطى .. نقول كان هذا الحساب وذاك هما الدافع الذي دفع المحققين الى قبول التاريخ المذكور .

وقد أطلق على الشعبة التي أشرنا اليها اسم آريا (= آرى = Arya) . وهي تنقسم الى طوائف ثلاث : الهنود والايرانيين والسكا . (١٠)

واخذت هذه القبائل الوافدة المهاجرة تتجول فى الصحراء وترعى الماشية ، وكانت شأنها شأن غيرها من سكان الصحراء .. تبدى تفوقا فى ميدان الفروسية ، ومهارة فى قذف السهام . وانتهى بها الامر الى ان تعيش مع بعضها البعض فى جهة من جهات آسيا الوسطى .. كانت تمتد محتوية سفوح نجد بامير ، ووادى آمويه وسير الخصيبين .

وقد اختلف الباحثون والمحققون فيما يتعلق بالموطن الاول للآريين ــ أي الشعبة الهندو أوروبية التي هاجرت الى آسيا الوسطى ــ فقال البعض انه يقع فى وسط وادي نهرى سيحون وجيحون الخصيبين . وقال البعض بل هو سفوح فلاة بامير ومنابع النهرين الكبيرين المباركة . واعتقد آخرون انه يشغل كل الاجزاء الخصيبة التي تجاور بلاد ما وراء النهر .

واذا اخذنا برأي الاغلبية لحكمنا بأن أول موطن للشعوب الآرية الايرانية ــ بعد انفصالها عن بقية الشعوب الآرية ــ هو آسيا الصغرى.

ويرى المحققون أمثال تيل Tiele يوستي Yusti ، ماركوارت Marquart وآندراس Andreas أن الموطن المذكور يقع الى جانب خوارزم وخيوه الحاليين .. أي

---

(٩) تتعدد البحوث حول اجابة السؤال التالى :

اين كان اول مقر للهندو اوروبيين الاصليين ؟

تتفاوت آراء علماء الاجناس واللغات فى القرنين التاسع عشر والعشرين حول هذا الموضوع ومن جملة الاسماء التي ذكروها فى هذا الشان : اوروبا الشرقية ، اوروبا الشمالية (البلاد الاسكندنافية) ، سواحل البحر الاسود ، وناحية من نواحي آسيا الوسطى .

(١٠) استعمل الكتاب اليونانيون اسم Aryen (enne) ــ منذ اقدم العصور ــ لنفس الغرض ، ارجع الى دائرة المعارف ــ لاروس ، والى تاريخ ايران باستان .. تاليف المرحوم بشير الدولة ، الطبعة الاولى ، ص ١٥٣ وما بعدها ، والى يسناها ــ الاستاذ بور داود ج ١ ص ٣٤ .

يضاف الى ذلك انه يكثر فى الاشارات القديمة التي خلفها الايرانيون اطلاق اسم الآريين على الايرانيين . فنجد ان « داريوش الكبير » ــ على سبيل المثال ــ قد اعتبر نفسه فى نقش رستم (آريا ومن العنصر الآرى) . وبالرجوع الى مهريشت نجد انه قد اشير فيها الى مشاهدة مهر للمواطن الآرية Airyana Shayanem .

فى الناحية التى اطلق عليها فى الأفستا ــ كتاب زرادشت المقدس ــ اسم آئيرين واجه (ايران ويج) Airyana-Vaéjah (١١)

ويمكننا القول بأن هذه الاقوام كانت تنقسم فى جملتها الى مجموعتين اساسيتين ، يطلق على أولاهما ــ وهي التي تتميز بالقوة والعنف ــ اسم (سك) . بينما يطلق على المجموعة الثانية ــ وهي التي تفوق الاولى تمدنا وحضارة ــ اسم (آري) .

ويرد اسم السكا فى المتون الاوروبية قديمها وحديثها على النحو التالي :
Scythe, Sace Saka (وهو نفس الاسم المأخوذ من الاصل اليوناني « شكوث ») .

وبناء على ما ذكره هيرودوت فان هذه الطائفة هي الطائفة نفسها التي كان افرادها يسمون انفسهم Scolotes .

وكان السكا دائمي الترحال لا يقر لهم قرار، كما كانوا فرسانا يتميزون بالشجاعة والاقدام والمهارة فى تفويق السهام . وطبقا لاقوال الجغرافيين والمؤرخين امثال (هيرودوت (Herodote) كتزياس (Ktésias) ، جوستن (Justin) ، وديودور سيسلي Diodore de Sicile
فقد استطاع السكا بفضل هذه الشجاعة وتلك المهارة ان يسيطروا فى سرعة خاطفة على آسيا الوسطى ، وان يخضعوا لسيطرتهم المنطقة المحصورة بين حدود جيحون من جهة القوقاز وسواحل البحر الاسود من جهة اخرى .

وفى القرن السابع قبل الميلاد تمكن هؤلاء القوم من عبور جبال القوقاز ، وتدفقوا فى الاماكن المجاورة لما بين النهرين ، حيث هزموا « كواكسارس » الملك المادي ، قبل ان يسلكوا الطريق الى حدود مصر . وقد نجم عن تقدمهم وغلبتهم خراب كبير ، ولم تتمكن الدولة المادية من الخلاص من براثنهم الا باللجوء للحيلة والخديعة ، وقتل زعمائهم فى وليمة رسمية . (١٢)

ويرى بعض الدارسين ان قبيلتي داه Daha وسئيريم Saïrima ــ اللذين ورد اسمهما فى افستان ــ قبيلتان ايرانيتان ، بينما يرى البعض الآخر انهما تنتميان الى السكا .

وكلمة داه تلفظ فى السنسكريتية (داس)، وهي تعني قبائل العدو الشريرة التي تحمل صفات الشيطان. وبناء على قول آرين Arrien

---

(١١) فيما يتعلق بهذه الكلمة والشروح المستفيضةحولها ، ارجع الى : اليستا ، درج ١ تحت عنوان « ايران ويج » للاستاذ بور داود ، ص ٢٨ وما بعدهامزدابرستى در ايران ، ترجمة الدكتور صفا عن رسالتى كريستنى سن، متن الصفحات ١٣ ، ١٤ ، ١٥ وحواشيها،طبع طهران ١٣٣٦ .

هذا ، وقد لفظ بعض المستشرقين (آندراس وبابعه كريستن سن Arthur Christensen كلمة اليرن واجه على النحو التالى : ارين ، ويوجه Aryana vyôcah ولكن الرواية التقليدية لهذه الكلمة تاخذ الصورة التى كتبناها .

انظر : مزدا برستى در ايران ، للدكتور صفا ،حاشية ص ١٣ .

(١٢) اورد هيرودوت شرحا مسهبا عن السكاالغربيين ومساكنهم ، وذكر عاداتهم وتقاليدهم ، وهو شرح هام يستحق الدراسة والتمحيص .

انظر : تاريخ هيرودوت (كتاب ١٤ ــ ٨٢) .

وفيما يتعلق بالسكا ، ارجع الى : ايران باستان ،للمرحوم مشير الدولة ، ج ١ ط ١ ص ٥٧٧ ــ ٦١٨ ، ج ٣ ط ٢ ، ص ٢٢٥٦ ــ ٢٢٥٧ ، ٢٢٦٢ ــ ٢٢٦٥ .

فان قبيلة داه أو دا أي dâoi أو داه Dahae كانت تسكن شمال جرجان (هيركانيا) ومرو على عهد الاسكندر . وبناء على قول غيره من المؤرخين فانها لم تترك شمالي جرجان قط ، وظلت هناك على نحو جعلهم يطلقون على هذه الناحية اسم (دهستان) . (١٣)

اما الاسم سئيريم Sairima ــ سارمات Sarmate فقد ورد في الفقرة ١٤٣ مــن اليشت ١٣ (فروردين) يشت) . ويــرى دوهار له ان مملكة سئيريم هي سورية وآسيا الغربية ، ويرى ماركوارث ان سئيريم تعنـي شعب سور ماتاى Sauromat (١٤) .

ويقصد بكلمة (سرم) الواردة في أفستــا العصر الاشكاني نفس شعب (سارمات) الذي ذكره الكتاب اليونانيون القدماء . ويحتمــل ايضا ان يكون (سورماتاى) و (سارمات) اسمين لشعبين مختلفين . (١٥)

وقد أخذت قبائل سارمات العديدة ــ التي نشاهد اسمها في المتون اليونانية . كتاريــخ هيرودوت ــ تنتشر ابتداء من القرن الخامس قبل الميلاد تقريبا في الممالك الواسعة الواقعة بين البيلقان والسواحل الغربية لبحرمازندران . وكانت هذه الجهات الواسعة تنقســم الــى قسمين :

سارماتي الغربية (أوروبية) وسارماتي الشرقية (آسيوية) .

وطبقا لما ورد في احــدى القصص القديمة فان قبائل سارمات أو سورومات Sauromate قد نشأت عن اختلاط السكا والعنصر الامازوني Amazone وعلى أي حــال فان قبائل سارمات من نفس جنس قبائل السكا ، وكانت تحارب الى جوارها جنبا الى جنب ضد الشاهنشاه الهخامنشي « داريوش » .

وقد نشأت قصة « سلم » (=سرم) وحربه الى جانب أخيه « تور » ضد « ايرج » .. نتيجة لصراع قبائل سارمات (سورمات) مع الايرانيين ، تلك القبائل التي كان يتكون من مجموعها (شعب سئيريم) الوارد في الافستا .

هذا وترد في النقوش الهخامنشية والكتابات الفارسية واليونانية عدة أسماء لقبائل اخرى غير ما ذكرنا . ومن بين هذه الاسماء : ســك هئوم ورك Saka-Haoma-Varka (١٦) ، سك تيكرخئوده Saka-Tigra-Axodah (١٧) وكل طائفة من هاتين الطائفتين فرع من السكا مجاور لسيحون .

ويقصد ب Sakâtyaya-tara-darayâ البلاد التي استوطنها السكا فيما وراء البحر ونعني بالبحر هنا البحر الاسود . كما يقصد بها مجموعة السكا الاوروبيين .

وفي العصرين المادي والهخامنشي اكثر عدد من هذه القبائل من الاغارة على الآريــــين

---

(١٣) مزدا برستى در ايران قديم ص ٨٥ .

(١٤) (سئوروم ــ ت) Sauruma-ta يتكرر فيهاحرف « U » وتستعمل التاء في حالة الجمع . وقد كان في الاصل طبقا لرسم ايران الشمالية (سئى ريم) بتكرارالحرف (أ) ..

(١٥) انظر : مزدا برستى در ايران قديم ، ترجمةدكتر صفا عن رسالتى كريستن سن ، ص ٨٣ ــ ٨٤ .

(١٦) هئوم = هوم : وهو عشب مقدس لدى الآريين القدماء . ومن المسلم به ان هذا العشب كان مقدسا ايضا لدى ابناء عمومتهم من الســكا .. وكان يســتخدم في الاحتفالات الدينية . ورك يعني برك اى ورقة شجر .

(١٧) الاسم يعني السكا النشيطين .

الايرانيين . وقد تمكن داريوش الكبير ــ لاول مرة ــ من اخضاع معظمها ، وافلح فى ادخالها فى طاعة الدولة الايرانية . (١٨)

وقد ترك طول الصراع والجلاد بين الايرانيين والسكا أعمق الاثر فى قصص ايران الشعبي . ووضح فى الكتب ابتداء من الافستا حتى الشاهنامة . وباتت هذه الصراعات تشكل جانبا من مادة تاريخ ايران البطولي ، وحين حلت القبائل الصفراء الاورال التائية محل عناصر آسيا الوسطى البيضاء ، وشغلت مكانها فى القرون التالية ، نسبت كل هذه الاحداث التاريخية المرتبطة بها الى العناصر الصفراء التورانية . بينما تؤكد التحقيقات ويثبت الحديث من الابحاث انه حتى العنصر التوري (التوراني) ــ وهو العنصر الذي تكرر ذكر اسمه فى الافستا ــ كان هو الآخر ــ بكل أبطاله وملوكه ــ احد عناصر آسيا الوسطى الهندو أوروبية .

ويطلق الاسم : اوران التائى Ouralo-Altaique على مجموعة من الاجناس البشرية ولغاتها ، وهى الاجناس التى كانت تقع مواطنها الاصلية بين سلسلة جبال اورال (الواقعة فى أوروبا الشرقية ، والتى تعد الحد الفاصل بين اوروبا وآسيا) وبين جبال التائى فى منشوريا ، ثم انقسمت بعد ذلك بسبب تفرق ابنائها وتبعثرهم .

ومن الاسماء الاخرى التى تسمى بها الأجناس الأورال التائية :

اورالى Ouralien ، اوكروفنلاى Ougro-Finnois ، اوكرو آلتائى Ougro-Altaique ، فينو اوكرابى Finno-Ougrien ، فينو تاتارى Finno-tatar ، تورانى ، وغيرها .

ويطلق الايرانيون على هذا الجنس فى ادبهم الفارسى اسم الترك والتورانيين . وينسبون اليهم العديد من الاقوام أمثال :

الهون ، القرقيز (الخرخيز) ، القرلق (قارلق ، خرلخ ، خلخ) ، الغز (التركمان ، تغزغز ، تغوزا ، غوز) ، القفجاق ، الكيماك يغما ، توخشى ، القنقلى ، الخزر ، التتار ، المغول ، الخطأ وامثالها) .

قدم الآريون الايرانيون الى ايران ــ كما رأينا ــ من عدة أماكن ، وسلكوا اكثر من طريق ، وتمت هجرتهم تدريجيا . وحين وطئت قدم أول جنس آرى فلوات ايران .. تبعتها أقدام بقية القبائل ، وأخذت فى الانسياح تدريجيا . غير أن دخولها البلاد وانتشار نفوذها لم يكن بالأمر الهين السهل ، فقد اضطرت الى الصدام بمن تقدمها من قبائل . ولم تنج احداها من الوقوع فى قبضة قبائل السكا التى كانت تهاجم حدود سيحون ، ويصل بها الهجوم الى أعماق ما وراء النهر والجهات القريبة من آموية .

وكما نتج عن اصطدام الايرانيين بالسكا قصص بطولية عديدة .. فقد نسجت أذهان الايرانيين الشرقيين اكثر من قصة نتيجة للحروب التى وقعت بين الايرانيين وتلك الشعوب التى ذكرناها . . وهذه القصص تشكل التراث القصصى البطولى الشعبى لايران .

وقد تسببت هجمات الأورال التائيين على قبائل السكا فى اضطرارها الى التقهقر ، واتجاه بعضها شطر حدود ايران الشمالية والشرقية . كما تسببت هذه الهجمات نفسها فى ارتباط طوائف أكبر بينى عمومتها ، وذلك فى الاراضى الواقعة شمالى بحر الخزر وغربه ، أو البحر الاسود ، أو الاراضى الشرقية لشبه

---

(١٨) ارجع الى : تاريخ ايران باستان (تاريخ ايران القديم) للمرحوم مشير الدولة ، ج ١ ص ١٨٢ ــ ١٨٤ ، ص ٦١١ وما بعدها .

جزيرة البلقان .. تاركة منازلها ومساكنها للجنس الاصفر .

وحين اصبح الايرانيون جيرانا للاوراليين والالتائيين ، اخذوا يتذكرون الوقائع التى تمت على يد سكان سيحون وجيحون ، فمحوا من اذهانهم ذكرى السكا ، وانضموا الى الجيران الجدد .

ونجد من المناسب هنا ايضا ان نتحدث عن الاسم تورى Turya فنقول انه فى المقام الاول كلمة من كلمات الافستا نسبة الى تور Tûra وتعنى تورانى .

أما كلمة توران الواردة فى القصص الشعبى وفى التاريخ فهى اسم للبلاد التى كانت تقع فى شمال شرقى ايران . ويرتبط هذا الاسم بأواخر العصر السابق على العصر الوسيط فى تاريخ ايران ، أو ربما يرتبط بأوائل العصر الوسيط .

ويعرف دارسو البهلوية ان الاداة (ان) تستخدم فى تلك اللغة كأداة من ادوات النسبة مع الاشخاص والطوائف ، فيقولون مع الاشخاص مثلا :

وزر كمتر بوختكان ، بهمن سپند داتان ، رام وشتاسپان .

ويقولون مع الطوائف والشعوب :

خوزان ، ديلمان ....

وبناء عليه فان (توران) تعنى ناحية منسوبة الى شعب (تور) .

وقد ورد ذكر اسم قبيلة تور فى الاڤستا عدة مرات (١٩) .. مقترنا بلقب آسو اسب Asu-aspa اى مالك الجواد السريع ، كما ذكرت باعتبارها عدوة للايرانيين وهذه الكلمة تلفظ عند النسبة : توريه Turya (تورى ، تورانى) . وقد ورد اسم البلاد التى عاش فيها شعب تور — أى توران — فى الأڤستا على هذه الصورة : تورين Turyana وكان من بين أبناء هذا الشعب من يعتقدون فى مزديسنا . (٢٠)

ويمكننا الاستفادة من اشارة آبان يشت (٢١) فى تحديد محل سكنى التورانيين ، وتعنى بذلك الاشارة الخاصة بحرب (توس تهم) قائد الجيوش مع شباب أسرة واس (ويسه) الملكية . وقد وقعت تلك الحرب فى ممر (خشتر سوك) على مشارف قلعة كنك . ولو اخذنا بما قاله ماركوارت Marquart فى ابحاثه من أن هذه القلعة كانت فى بخارى .. لترتب على ذلك أن يكون موضع سكنى التورانيين هو هذا الجانب من جيحون المحصور بين بخارى وبحيرة خوارزم . ويتفق بطليموس مع ماركوارت فى اعتبار توران نفس خوارزم .

ويساعدنا تحقيق ماركوارت هذا فى الاتجاه الى التفكير فى أن التورانيين فرع من الجنس الآرى الايرانى (٢٢) . كما يجعلنا نحكم بخطأ كل الاشارات الواردة فى المتون البهلوية

---

(١٩) يشت ١٣ ، البندان ١١٣ ، ١٢٣ ، ويشت١٧ ، البندان ٥٥ ، ٥٦ .

(٢٠) يسناى ١٢ بند ٤٦ ، فروردين يشت بندهاى١١٣ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٤٣ .

(٢١) البنود من ٥٣ — ٥٩

(٢٢) ارجع لمقالة الاستاذ مينورسكى (Minorsky) وعنوانها توران ، وذلك فى دائرة المعارف الاسلامية .

وما تلاهــا من اشارات تتعــلق باعتبــارهم اتراكا (٢٣) . وهكذا نفترض قرابة التورانيين للاريين الايرانيين . ونخلص الى ان الشعب الايرانى الذى هاجر الى بلاد ايران واستقر فى المدينة قد طــرد القبائل الآرية الاخــرى التى كانت مازالت تسكن الخيام ، وتهاجم البلاد العامرة المجاورة طلبا للوقت .. وانه ــ اى الشعب الايرانى ــ قد اعتبر هذه القبائل من طينــة غير طينته .

والواقع ان اســماء المــلوك والابطال التورانيين امثال :

فرنجرسين Frangrasyana) فراسياب ، افراسياب (، اغرارث Aghraeratha(اغريرث كرسوزد Keresavazda(كرسيوز) ، ارجــت آسب Aredjat-aspa (ارجاسب) بمعنى (مالك الجواد والمنزلة) ، وندر منى فيشــن Wandere Mainish (وهـــو فى الشاهنامة انديرمان) واوسك Vaesaka كلها اسماء آرية ايرانية ، ولا يوجــد أدنــى تشابه بين اسم منها واسم من اسماء الاورال التائيين .

ولم تكن هناك علاقــة جوار أصلا بين الآريــين والايرانيين وبين القبائــل الصفراء الاورالية والالتائية فى عصر تدوين الافستا .

وقد حدث هجوم قبائل السكا وضغطهم علــى الحــدود الشاهنشاهية الاشكانيــة فى اواسط القرن الثانى قبــل الميلاد . ويرجع السبب فى ذلــك الى أن عــددا مــن القبائل الاورالتائية قد غيرت طريــق غاراتها ــ بعد ان أمر « سين » امبراطور الصين بانشاء سور الصين العظيم ــ واصبح هجومها موجها الى الغرب . وقد بدات هذه القبائل الاورالتائية بمهاجمة بعض قبائل السكا من سكان آسيا الصغرى . وكانت بداية الهجمات موجهة من قبل قبائل (يوئه جى) التى كانــت بدورها عرضة لهجوم قبائل الهون (خيونان ، طبقا للتسميــة التــى وردت فى الكتاب البهلــوى آياتكار زويران) التى الحقت بها الهزيمة فى حدود عام ٢٠٠ قبل الميلاد .

وقد اغارت قبائل يوئه چى ــ بعــد فقدان منازلها ــ على حدود أراضى ســيحون الشرقية ، وطردت قبائل السكا نحو الجنوب الغربى . وكان فرهاد الثانى (١٣٦ ــ ١٢٧ ق . م) اول من تصدى لهم من بين الملوك الاشكانيين ، وقد قتل خلال حربه معهم .

وفى غمرة هذه الاحداث اغار السكا على الجهات الغربية من دولة اليونان ، ثم استقروا فى افغانستان الحالية ، وطردوا يونانيي الغرب نحو كابل ووادى السند . ولم يمض طويل وقت حتى سقطت بقية دولة اليونان الغربية فى أيديهم فكونوا دولة جديدة هندوسكائية تقع بين حدود رُخَّج ووادى السند . كمــا ادت تلك الغارات أيضا الى سكنى قبائل من السكا ــ قدمت من أطراف سيحون وانحاء جيحون ــ فى مملكة سيستان .

وكان اسم سيستان ــ قبل ســكنى السكا فى شرقى ايران ــ يرد فى الروايات الايرانية على هذه الصورة : زرنك Zaranka

---

(٢٣) ارجع فى هذا الصدد الى :

اولا : مقالة استاذى وصديقى الفاضل « السيدمينورسكى »

ثانيا : دراساتى فى كتاب : « حماسة سرايى در ايران » ، چاب دوم ١٣٣٣ ص ٦١٣ .

وهو نفس الاسم الذى كان اليونانيون يكتبونه درنكيانا Drangiana . وقد حددوها من الشمال بآريانا (خراسان) ، ومن الشرق بآرخوزيا Arachosia (رخج) ومن الجنوب ب كدروزيا Gedrosia ، ومن الغرب بكرمانيا Caramania (كرمان) .

اما بعد سكناهم فى شرقى ايران فقد تحولت زرنك (درنكيانا) الى سكستان . وهى نفسها الكلمة التى تطورت فى العهد الاسلامى الى سجستان وسيستان .

والنسبة الى هذه الولاية فى الفارسية (سكزى) سجزى ، اما اسم الولاية القديمة فقد ظل يطلق على المدينة الرئيسية (سيستان) وحدها ، وهى المدينة التى ظل اسمها لفترة من فترات العهد الاسلامى (زرنج) . (٢٤)

وعلى اثر مجاورة العناصر الصفراء للامبراطورية الايرانية عرف الايرانيون القبائل الاورالية والالتائية على حدود نجد ايران الشرقية ، واطلقوا عليها فى آثارهم الادبية ــ التى يرجع تاريخها الى القرون الميلادية ــ اسم خيون تارة وهفتال تارة أخرى . . واخيرا اطلق عليها اسم الترك . (٢٥)

وفى قصص ايران الشعبية البطولية ــ تلك القصص التى يرجع تاريخ وضعها وتدوينها الى مابعد القرن الثانى الميلادى ــ نسبت كل الاحداث التى جرت بين الشعوب الآرية الايرانية وبين سائر الشعوب الآرية فى جيحون وسواحل سيحون . . الى هذه الاجناس الصفراء بعينها .

ويبدو أن غارات القبائل الصفراء وهجماتها كانت سببا فى الهجرات التى قام بها العديد من طوائف السكا ، وتركها آسيا الوسطى وانضمامها الى زميلاتها فى العنصر ، وسكناها فى سواحل بحر مازندران الشرقية والشمالية واقامتها فى الاراضي الواقعة شمالى البحر الاسود وشماله الغربى .

ذكرنا آنفا ان قبائل آسيا الوسطى الهند أوربية كانت تنقسم الى شعبتين كبيرتين هما السكا والآريين . وتعتبر القبائل الآرية التى نسميها بالهندو ايرانية بمثابة الآباء لشعبى ايران والهند الكبيرين . وكانت تطلق على نفسها لقب (ارى) أى الشجاعة والشريفة . وهذا هو السبب نفسه فى انه حين عبر قسم من هذه القبائل اراضى (الهندوكوش) واستولى افراده على وادى السند وجزء من اراضى الهندوستان ، اطلق عليه اسم (ارى ورت) Aryavarta (٢٦)

كما انه بعد سكنى القسم الاخر ــ أى القوم الذين كانوا يطلقون على انفسهم اسم (ائيرى) فى نجد ايران ــ بات يطلق على هذه البلاد اسم (ائيرن) أى بلاد الآريين (بلاد

---

(٢٤) ارجع الى معجم البلدان لياقوت ، تحت كلمةزرنج .

(٢٥) الترك : نفس الكلمة التي استخدمت فىجميع الكتب الفارسية والعربية فى العصر الاسلامى تسمية لسائر قبائل آسيا الوسطى الصفراء .

ارجع الى : تاريخ ادبيات در ايران ، الدكتورصفا ، ح ٢ طهران ١٣٣٦ ، ص ٧٧ وما بعدها .

(٢٦) اطلقت هذه القبائل على تلك البلاد اسم(بهارت ورش) Bharatavarsha او بهارت بهومى Bhârata dhumi اما الايرانيون فقد اطلقواعليها اسم (الهند) .

ارجع الى : سنا : آقاى بور داود ، ج ١ ص ٣٤

الشعب الآرى) (٢٧) . وظل هذا الاسم يستعمل فى عصور ايران التاريخية بأسرها ومازال . وكان يلفظ فى لهجات ايران الوسيطة على هذا النحو اران وارانشتر ، ويلفظ فى اللهجات الحديثة : ايران وايرانشهر .

وقد توقفت هجرات القبائل الآرية الى ايران فى أواسط الالف الثانية قبل ميلاد المسيح .. وبين أيدينا الكثير من الادلة التى التى تثبت هذا الامر ، من بينها ما يستقى من متون الهيتيين .. سكان آسيا الصغرى .

والشعب الهيتى Hittite او Hétèen او Hétheèn يسمى فى اللغة اليونانية ختايوس Khettaios ، وفى السريانية ختى Khati ويشكل احد شعوب آسيا القديمة التى كانت تسكن المنطقة الواقعة على نهر هاليس Halys واعالى نهر الفرات فى العصور التاريخية الموغلة فى القدم . وكان هذا الشعب يخضع فى بعض العصور للامبراطورية الآشورية ، وفى بعضها لفراعنة مصر . وكان يعبد الاوثان ، ويطلق على رب الارباب لديه اسم خاتى Khâti وكان حكامه يسيرون على طريقة ملوك الطوائف فى حكمهم ، اما الامراء فكانوا يدينون بالطاعة لملك واحد كبير .

ويؤثر عن الهيتيين أن نفوذهم قد سرى لعدة قرون ، سيطروا فيها على ممالك تابعة لآسيا الصغرى وسوريا ووديان الفرات العليا ، وذلك قبل أن تخضعهم آشور فى القرن التاسع قبل الميلاد . ولم يحاول الهيتيون استعادة ما سلب منهم ، ولم ينهضوا طلبا للاستقلال وانهاروا بصفة نهائية . والمتون التى نعنيها والتى تنسب الى هذا الشعب ترجع كتابتها الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد تقريبا . وقد تم العثور عليها أثناء الحفريات التى أجريت بين الميتانيين ــ سكان شمال بين النهرين ــ وبين الدولة الهيتية .

وفى هذه المتون يقسم الامراء الميتانيون بآلة الآريين امثال (ميثر) (٢٩) Mithra (ورون) Varuma ، و (ايسندرا) Indra اله الحرب لدى الهنود والآريين ــ وناس تياس Nasatyas وهذا القسم فى حد ذاته يدل على تغلغل نفوذ الهند وايرانيين فى فلاة ايران قبل التاريخ المذكور .

وقد تصور البعض ــ بسبب ظهور اسماء هذه الآلهة ــ أن عددا من الهنود أو جيرانهم الذين كانوا يعبدون الفدا قد هاجروا الى آسيا الصغرى وحملوا معهم هذه الاسماء

---

(٢٧) Airyana ايران : تعنى بلاد الاريين (ائيريه Airya) . ويجب ان يسمى غير الايرانى : آن ائيري (Anairya) ، وان تسمى ما عدا ايـران آن ائيريـن(Anairyana) .

وكلمة ائيرين فى اللهجة البهلوية : اران êrân وفى الفارسية ايران .

وكلمة آن ائيرين فى البهلوية تلفظ انيران (بالياء المجهولة) واذا استخدمت فى الفارسية فانها تقرأ ــ طبقا للقاعدة ــ (انيران) ، باستعمال الياء المعروفة .

(٢٨) بغازكويى Boghazkoi او بغاز كيوئي Boghaz-Keui اسم قرية فى تركيا تقع فى مدينة انقرة (انكارا) . وتوجد اطلال مدينة بتر Ptérium فى المرتفعات المطلة على هذه القرية .

(٢٩) ميثر Mithra هى فى السنسكريتية متير Mitra ، وفى البهلوية متر Mitre وفى الفارسية مهر .
مثير اسم اله من اهم آلهة الدين الافستى . ومدح هذا الاله قائم على جذور هندية وايرانية .. وقد كان فى حد ذاته علة ظهور دين خاص باسم مهر برستى ، اى عبادة مهر Mitraisme . فيما يتعلق ب (مهر) انظر : اقاى پور داود ، يشتها ، ج ١ ص ٣٩٢ وما بعدها .

بينما تصور غيرهم أن المهاجرين كانوا من الآريين الذين وفدوا من جانب بحر مازندان، واحضروا معهم عقائد أجدادهم الهندوايرانيين والرأى الاكثر قبولا والاقرب الى الصواب هو أن الميتانيين قد أخذوا أسماء هذه الالهة عن جيرانهم الجدد الذين كانوا قد ظهروا فى نجد ايران ، ونعنى بهم الآريين الايرانيين ، وكان هؤلاء بدورهم قد ورثوا الاسماء عن أسلافهم الهندوايرانيين .

ويستنتج من ذلك أن الآريين قد ظهروا فى نجد ايران قبل حلول القرن الرابع عشر قبل الميلاد . (٣٠)

وتوالت الهجرات الى ايران عن طريق الشرق والشمال واستمرت فترة طويلة . واقرب الآراء الى الصحة بالنسبة لما يتعلق بالطريق الذى سلكه الآريون فى هجرتهم الى نجد ايران هو ان مجموعة كبيرة منهم قد وفدت الى ايران عن طريق جيحون . ويجب أن نعتمد فى هذا الصدد على اشارة الافستا الواردة فى (فركود اول ونديداد) * ، حيث يدور الحديث أول مايدور حول خلق (آئيرين واجه) بمشيئة (آهو رمزدا) وقدرته ، ثم ينص على أنه بعد افساد (اهريمن) وتخريبه فى تلك البلاد . استحكم بردشديد ، واصبحت مدة الشتاء ١٠ شهور ، ومدة الصيف شهرين وكان شهرا الصيف بدورهما باردين لهما تأثيرهما القاسى على الماء والارض والعشب . عندئذ خلق اهور مزدا اراضى أخرى مثمرة مثل :

سوغد Sughdha (سغد) ، مورو Mouru (مرو) ، باخذى Bâkhdhi (بلخ) ، نيسايه Nisaya (نسا) بين مرو وبلخ ، هرئو Haraeva (هرات) ، واكرت Vaekereta (كابل) ، أورو Urva وموقعها فى خراسان الحالية ، وخننكت Khnengta فى بلاد وهركن Vehrkana (كر كان = جرجان) .

(و (وهركن) هي نفس الاسم الذي ورد فى نقوش بيستون مضبوطا على النحو التالي : وركن Varkana ، ورد فى المتون اليونانية على النحو التالي : هيركانيا Hyreania والرى (رغ Ragha) . (ويرى البعض نتيجة تأثرها بالتفاسير البهلوية انها نفس المدينة المجاورة لطهران حاليا . بينما يعتقد كيبرت Kiepert ودوهار له De Harlez انها مدينة (راكايا Ragaia) الواقعة فى بلاد (برثو) أي بارث التي اشار اليها بطليموس فى كتابه الخاص بالجغرافيا) .

وعقب هذه الاسماء وردت فى هذا الفركرد أسماء ممالك أخرى تصل الى هتاهندو Haptâhindu . ، اي تشمل قسما من بلاد السند وحدود الهند . وهذه هي النواحي التي هجرها الآريون متنقلين فى انحائها المختلفة هربا من الكوارث التي كانوا يواجهونها حيث ينزلون .

ويوضح خط السير ان حركة الآريين كانت تتجه من جنوب بحيرة خوارزم حتى خراسان وكابل والسند من جهة ، وتتجه غربا حتى تبلغ غربي كومش (قومس) وحدود الرى من جهة أخرى .

---

(٣٠) ارجع فى ذلك الوضوع بصفة خاصة الى :

كريستن سن : ملاحظاتى در بارة قد يمترين عهودآيين زرتشتى (در مجموعة مزدا برستي در ايران قديم ، ترجمة دكتر صفا ، ص ٢٣ ـ ٢٦) .

* الونديداد : اسم النسك العشرين في كتاب الزند .

وبناء على بعض الآراء .. فقد استمرت هذه الحركة من المشرق الى المغرب ، وبلغت الاجزاء الوسطى من آذربيجان .

وفى عام ٨٣٦ قبل الميلاد ــ وقت أن كان شلم نسر الثاني يحارب الآريين فى نجد ايران ــ كانت هناك قبائل اخرى باسم بارسوا آ (بالضبط الآشوري) . وكانت هذه القبائل تعيش فى شمال الممالك التابعة للقبائل المادية قبل ان تتجه جنوبا تاركة وديان مغرب ايران ، وتسكن بلاد فارس .

وهناك راي يؤكد ان طائفتي ماد وبارس قد قدمتا معا الى ايران عن طريق جبال القفقاز ، وبعد أن عاشتا معا فترة من الوقت انفصلتا عن بعضهما البعض .

واستطاعت القبائل الدائبة الحركة أن تطهر الانحاء الشمالية الغربية ، والغربية ، والوسطى ، والشرقية من بلاد ايران ، فتطرد منها سكانها وتحل محلهم .

وكما يبدو من نقش شلم نسر الثاني الملك الآشوري Shalmanassar II فان من سكنوا المناطق المذكورة كانوا ينتمون الى قبيلتي (ماداى) Madai و (بارسو آ) Parsua ، وان هذا يرجع الى القرن التاسع قبل الميلاد طبقا للضبط الآشوري . كما يتضح من النقش ان ملك آشور كان فى عام ٨٣٧ ق.م يخضع تلكما القبيلتين لنفوذه ،ويحصل على خراج منهما .

وتجمع الآراء على ان قبائل (ماداى) هى نفسها قبائل (ماد) ، اما قبائل (بارسوآ) فان البعض يحكم بأنها نفس شعب بارث (أصلها برثو Parthava) ، بينما يحكم آخرون بأنها قبائل (بارس) ، وظاهر الكلمة يؤيد صحة الحكم الثاني (٣١) .

وكانت قبائل بارس ما تزال تسكن فى تلك الآونة شمالي بحيرة (اورمية) .. اي شمالي نفس البحيرة التي ورد اسمها هكذا فى متون الافستا : (جئجست) (٣٢) Tchaêtchasta ، وفى المتون البهلوية : (ججست) Tchêtchast وفى شاهنامة الاستاذ أبى القاسم الفردوسي (جيجست) .

اما الطائفة التي عبرت جيحون ، واختارت انحاء ايران الشرقية والشمالية الشرقية مكانا لسكناها .. فهي نفس الطائفة التي راجت الافستا بين افرادها باللهجة التي كانت متداولة بينهم .

وطبقا للاشارات الواردة فى الكاتات واليشتات القديمة أمثال : مهريشت وآبان يشت ، وبناء على ما ورد فى قطعات اليسنات القديمة التي يعود زمنها برمتها الى ما بين القرنين الخامس والعاشر قبل الميلاد .. (٣٣)

---

(٣١) رسالة كريستن سن بعنوان : ملاحظاتى ،در بارة قديمترين عهودآيين زرتشتى . (ملاحظات حول اقدم عهود الدين الزردشتى) ، وهى الرسالة التىترجمتها ضمن مجموعة « مزدا برستى در ايران قديم » ص ٢٧ ، ٢٨ . (تاريخ ايران باستان) للمرحوم مشيرالدولة بيرينا ، ج ١ ص ١٦٩ . ويثبت هذا المرجع أن حملة شلم نسر قد كانت فى عام ٨٣٨ قبل الميلاد .

(٣٢) اورميه هى الاسم السريانى لـ « جيجيست »اى الرضائية الحالية ، ومعناها المدينة التى على شاطىء النهر ، ويلفظ هذا الاسم فى الاونة الاخيرة خطأ « ارومیه ».

(٣٣) فيما يتعلق بتاريخ اليشتات ، انظر :

رسالة (تحقيقات در باب كيش زرتشتى ايرانباستانى) ، تاليف المرحوم آرثر كيستن سن ، التى قمت بترجمتها ضمن مجموعة « مزدا برستى در ايران قديم »(عبادة مزدا فى ايران القديمة) ، ويمكن الاستفادة بصفة خاصة من الفهرست الذى طبع فى ص ١٢٢ .

كان يحكم هذه الطائفة عــدد مــن الامــراء المحليين ، يلقب كل منهم بلقب (كوى) أو (كى) .

داولى الكلمتين نصادفها فى اكثر من موضع فى الكاثات واليشتات ، وهي نفسها الكلمــة التي تغيرت فى اللغة البهلوية الى كي او كى بالياء المجهولة ké وهي نفسها التي تغيرت ايضا فى اللغة الفارسية الــى كي . واصبحت فى تاريخ ايران بمثابة لقب يطلق على مجموعة خاصة من الملوك بدأ حكمهم بتوليــة قباد .

وكلمة (كوى) ــ فى الافستا ــ الى جانب كونها لقب لمجموعة خاصة من الملوك ، فانها تعني مطلق شاه وأمير . وقــد استخدمهــا الفردوسي الشاعر فى هذين المعنيين . فنجده فى البيتين التاليين مثلا يستخدم (كى) (٣٤) بمعنى شاه ، وذلك عند حديثه عن أفريدون الذي لم يكن ولا شك عضــوا فى سلسلــة الكيانيين :

ندانســت خــود افريــدون كجاست
سراندر كشيــد وهمى رفت راســت

جــو آن بوســت نيــزة بر ديــدكى
بنيكـــى يكـــى اختــر افكند بـــى

ويقال ان هؤلاء الحكام من الامراء المحليين كانوا يبسطون نفوذهم على رقعة واسعة من الارض ، ويمتــد حكمهم فيشمل جرجــان ومازندران مــن جهة ، ووادى السند مــن جهة اخرى .

والواقع ان ليس بين ايدينا دليل تاريخي يمكننا الاعتماد عليه كلية فى هــذا الصدد .

ولو اخذنا بما ورد فى الافستا من اشارات ، وبالمعلومات التي نصادفها فى القصص الشعبي الايراني .. لوجدنا ان نطــاق نفــوذ كاوس (كوى أوسن Kaviusan) أو (كوى اوسون Kavi usdhan) على سبيل المثال كان يمتد الى حدود وادي السند .. لاننا نرى اسمه فى الفدا على النحو التالي :

اوسنس كاوى Usanaskavya (٣٥).

وطبقا لاشارات الافستا والمتون البهلويــة الفارسية فان هذا الملك نفسه قد اغار على بلاد الشيطان المازنــدراني . ونستخلص مــن هذا اللون من الروايات رايا يقول بأن نطــاق هجوم الكيانيين كان محصــورا بــين وادي السند ومازندران . ولا يستبعد ان يكــون تقدمهم صوب مازندران قــد تم عن طريــق شمال خراسان وعن طريق جرجان .

ومهما يكن من امر فان أول ملك ورد ذكره فى الافستا مــن بــين هــؤلاء الحكام هـــو (كوى كوات) (كيقباد) ، واكبــر الملــوك واعظمهم هو (كوى هئو سروه) (كيخسرو)، اما آخرهم فهد (كوى ويشتاسب) (كــي كشتاسب) ظهير الرسول زردشت وحاميه ونصيره . ويشاهد اسم هذا الملك مرارا فى الكاثات .

وهناك تضارب فى الاقــوال فيما يتعلــق بالعصر الذي عاش فيه زرتشت . غــير ان المحققين قديمهم وحديثهم يجمعون على أنــه ينحصر بين القرنين الحادي عشر والسادس قبل الميلاد . ومن بين أقوال قدامى المحققين يبرز قول جدير بالاهتمام نادى به خسانتوس الليدي Xanthos de Iydie

(٣٤) ارجع فيما يتعلق بلفظ (كى) ومعانيها الى :
حماسة سرايى در ايران ، دكتر صفا ، چاپ دوم ، ص ٤٩١– ٤٩٣ .

(٣٥) المرجع السابق ، ص ٥٠٩ .

الذي كان يعيش فى القرن الخامس قبل الميلاد . ومن قوله يفهم ان عهد زرتشت سابق على حملة خشارياشا على اليونان بمدة ٦٠٠ سنة ، أي عام ١٠٨٠ ق.م. (٣٦)

ولو ثبت ان ظهور زرتشت الرسول كان قبل مولد المسيح بعشرة قرون لثبت بالتالي ان تاريخ السلسلة الكيانية سابق على هذا التاريخ .

وان مانشاهده في تاريخ الكيانيين الاسطوري متعلقا بالملوك الذين حكموا بعد « كى كشتاسب » من خلط فى المعلومات لناجم عن تأثر بتاريخ الملوك الهخامنشيين ، كما انه وليد الافكار التي اختزنها الايرانيون فى اذهانهم حول هذه السلسلة عقب حملة الاسكندر. (٣٧)

ونحن لا نملك معلومات كافية عن وضع الآريين في مشرق ايران قبل عهد الهخامنشيين . والمعروف ان هؤلاء الآريين كانوا ينقسمون الى شعاب عديدة ذات خطر . ولن نحصل على ما نشاء من معلومات الا اذا طبقنا اشارات الافستا على بعض الشواهد التاريخية ، واستفدنا منها فى هذا الصدد .

وتكمن اهمية هذه الطائفة فى ان اكبر مصلح ديني آرياني ايراني قد نشأ فى احضانها بالرغم من الروايات التي تنسبه الى (رك = الرى) و « جنجست = اورمية) . (٣٨)

ونعني بهذا المصلح زرتوشتر سبيتمه Zarathushtra Spitama « مالك الجمل الاصفر » كما يفضل البعض ترجمة اسمه . ويلاحظ ان هذا الاسم يضبط فى البهلوية على هذا النحو : Zaratucht ، وفى الفارسية على هذا النحو : زرتشت ـ زردشت ـ زرتهشت ـ زراتشت . هذا بالنسبة للقسم الاول منه ، اما القسم الثاني ونعنى به (سپى تم) فان معناه العنصر الابيض (سبيد تخمه : البيضة البيضاء) . ويلزم بناء على هذا المعنى ان يكون اسما لاسرة زرتشت ، على النحو الذي كان متبعا فى ايران فى عصر الافستا . (٣٩)

وزرتوشتر هو الذي غير عبادة الشياطين الهندوايرانية ـ تلك العبادة التي كانت تمثل أرباب النوع غير المجردة والعوامل الطبيعية المختلفة أو المفاهيم المجسمة المعنوية ـ الى

---

(٣٦) ارجع فى هذا الصدد الى مقالة « زمان زرتشت » ، لاقاى پور داود ، يسنا ، ج ١ ص ٧٥ ـ ١١٠ ، مزدا برستى در ايران ، ترجمة رسالتى كريستن سن للدكتور صفا ، ص ٢٧ ـ ٣٠ .

(٣٧) انظر : كيانيان Kayanides تاليف Arthur Christensen ، ترجمة دكتر صفا ، تهران ١٣٣٦ ص ١ وما بعدها ، حماسه سرايى در ايران از قد يمترين عهد تاريخى تاقرن جهاردهم هجرى ، جاب دوم ص ٤٨٤ ـ ٤٨٧ و ٥٣٧ ـ ٤٥٨ .

(٣٨) فيما يتعلق بمكان زرتشت اى محل ولادته والبيئة التى نشا فيها وبث فيها دعوته وفيما يتعلق بزمان وجوده .. يوجد نقاش وخلاف . ارجع فى ذلك الى :الكاتها ، للاستاذ ابراهيم بور داود ، ص ٢٣ ـ ٢٦

C. de Harlez, Avesta ; deuxième edition, Paris 1881 Introduction, p. XXIII - XXIV

بناء على المعلومات المستقاة من الافستا يجب ان يكون موضع ولادة زردتشت وحياته ومكان ظهوره وبثه رسالته هو النواحى الشرقية او الشمالية الشرقية لايران .

(٣٩) للاطلاع على بعض آراء العلماء حول معانى هذا الاسم المختلفة ، انظر :

C. de Harlez Manuel de la Iangue de L'Avesta, Paris 1882, p. 445

E. Blochet, Lexique des Fragments de L'Avesta, Paris 1900, p. 73

كاتها : ترجمة آقاى ابراهيم پور داود ، ص ٢٢ ، ٢٣ وغيرها .

عبادة المفاهيم المجردة . ويمكن ان يقال بعبارة اخرى انه أحل « مزد يسنا » القريب من التوحيد خلفا « لديويسنا » رفيق الشرك وحليفه .

ولهذه الطائفة اهمية أخرى وهي أنها تضع بين ايدينا المادة الاساسية للتاريخ الاسطوري وللملاحم القومية الايرانية . فقد ورد قسم من تاريخ ايران الاسطوري السابق على العهد الهخامنشي فى واحدة من (نسكلت) الاڤستا المفقودة ، تسمى (جهردات نسك) . كما بقيت اجزاء هامة منه أيضا وذلك فى النسكات المتبقية من الافستا ، خاصة فى اليسنات والبشتات .

هذا وتشكل حروب أمراء وملوك الطوائف البارثيين بدورها قسما آخر من مادة ملاحمنا القومية . والبارثيين هم الذين ذاعت شهرتهم بعد العصر الافستى (العصر الزردشتى) .

وقد ربطت أذهان واضعي القصص الايرانيين بين اخبار معارك أمراء وملوك الطوائف وبين حوادث العهد الافستى واخبار أبطاله ، وأضافت الى ذلك بقايا المعلومات الخاصة بتاريخ الملوك الهخامانشيين وسيرتهم ، وعن هذا الطريق برزت الى الوجود القصص المدونة المعونة :

خد اينامه ها (الالهيات أو كتب الالهة) ، شاهنامه ها (كتب الملوك) (٤٠)

أما بالنسبة لتاريخ ايران المدون غير الاسطوري ـ على النحو الذي كتبه اليونانيون والروم والآراميون والارمن ـ وهو الذي تؤيده النقوش ، وتعززه الاشارات الواردة فى كتب العهد القديم ، وبعض الآثار التي اكتشفت فى ايران وما جاورها من ممالك .. فان هذا التاريخ يبدأ بايرانيتي المغرب والجنوب .. أي الطائفة التي سلكت طريق جبال القوقاز الى مفازة ايران ، ثم انقسمت الى فرق كالارانيين والماديين والبارسيين ، وخضعت للدولة الآشورية فترة من عمرها .

وقد سكنت قبائل ماد ـ وهي احدى القبائل الآريانية الغربية ـ فى الولايات التي كانت تبدأ من (الرى) وتتقدم نحو المغرب شاملة مرتفعات زاجروس ، كما تتقدم نحو الطرف الشمالي والشمالي الغربي بالغة حدود نهوكورا . وهذه المنطقة هي نفسها المملكة التي تعرف باسم ماد الكبرى . واكبر مدنها مدينة (هك متان) ، وهي نفس المدينة التي كان الآشوريون يسمونها (آمادانا) ، ونسميها نحن الآن (همدان) .

وبين أسوار هذه المدينة العتيقة نفسها وضعت نواة دولة تاريخية لايران الغربية والوسطى ، وقد وضع هذه النواة (ديا اكو) عام ٧٠٨ قبل ميلاد المسيح .

وقد تمكنت دولة ماد خلال قرن ونصف من سيطرتها ـ اثر انقراض الدولة الاشورية القوية ـ من تأسيس امبراطورية واسعة مترامية الاطراف ، كانت تمتد من جنوب ايران حتى تشمل قسما من اراضى آسيا الصغرى . وبناء على هذا يمكن القول بأن القبائل المادية لم تلفت نظر القبائل الآرية الايرانية المتناثرة الى الدول المستقلة المستقرة المتمركزة فحسب ، بل انها أول القبائل الايرانية التى بسطت حكمها خارج اراضى الآريين الايرانيين ، وعلمت من يشاركونها العنصر والارومة كيفية تشكيل الامبراطوريات .

---

(٤٠) قمت ببحث مفصل للغاية فى كتاب « حماسه سرايى در ايران » گفتار چهارم ، تحت عنوان « بنياد داستانهاى ملى » الطبعة الثانية ص ٣٩٢ ـ ٦٢٩ ... حول اساس التاريخ والقصص الشعبى البطولى الايراني ، فليرجع اليه الراغبون .

وتصل المدة مابين العام الذى وضع فيه الماديون حجر الاساس فى امبراطورية ايران ـ وسط ايران ومغربها ـ وبين زماننا هذا الى ٢٦٦٨ سنة . كما تبلغ المدة الواقعة بين التاريخ الذى اسقط فيه (هو وخشتر) ملك الماديين الامبراطورية الآشورية فى عام ٦٠٥ قبل الميلاد وبين عصرنا الحالى ٢٥٦٥ عاما . وطبقا لما ذكره هيرودوت فان أسماء ملوك ماد تسير على النحو التالى :

ديوكس ـ فرا ارتس ـ كياكسارس ـ آستياكس .

غير أن الفهرست الذى ورد فى كتابات كتزياس أكثر تفصيلا ، ويشتمل على ١٠ملوك يبلغ مجموع سنوات حكمهم ٣٥٠ سنة . ولو قبلنا هذه الرواية لقبلنا ان يكون تاريخ حكم سلسلة ماد الحقيقى قد بدأ منذ عام ٩٠٠ ق . م .

وقد انهارت الامبراطورية المادية بعد ١٥٨ عاما من تأسيسها . ويرجع السبب الرئيسى فى انهيارها الى انعدام التشكيلات المنظمة والتنسيق بين جهاز الدولة والبلاط ، كما يرجع الى ضعف الجنود وفتورهم أثر ثرائهم ، والى الفرقة والشقاق والخلاف بين قواد الدولة انفسهم .

وازاء هذه الحالة ، هبت طائفة أخرى تابعة لقبائل ايران الغربية مستهدفة حمل راية العنصر ومواصلة المسيرة . وهى نفس الطائفة التى كانت قد حررت قسما من جنوب ايران ـ منذ مدة ـ واستخلصته من أيدى سكانه . اما القبائل التى تتبعها فهى قبائل بارس ذات الاقسام العشرة .

ويبلغ بنا الحديث الاسرة الهخامنشية . وهى أسرة تنحدر من قبيلة فارسية كبيرة . وتنسب الى الجد الاكبر للأسرة ويدعى « هخامنش » الذى انحدرت من صلبه سلسلة ملوك فارس وانزان .

وقد حكم البلاد ـ ابتداء من جا اش پش الثانى حتى هخامنش ـ خمسة ملوك (٤١) . ويرد فى كتب التاريخ أن كوروش ينتمى الى الفرع الانزانى بينما ينتمى داريوش الى الفرع الفارسى .

ويؤكد هيرودوت ان القبيلة الفارسية التى ينحدر منها الهخامنشيون كانت تنقسم الى ست طوائف تقيم فى المدينة ، وعشر طوائف تقيم فى القرى ، واربع طوائف تقيم فى خيام بالصحراء .

وحين سيطر « كوروش الاكبر » بن « كمبوجيه » بن « كوروش » بن « چا اش پش » سليل الأسرة الهخامنشية واحد أبناء قبيلة بارس ـ على (هكمتان) فى عام ٥٥٠ قبل الميلاد ، خضعت امبراطورية ماد القوية ، واخلت مكانها للامبراطورية الهخامنشية ، نبسطت نفوذها على الاراضى الواسعة المحصورة مابين وادى السند والبنجاب وفلاة سفوح بامير الغربية وبين اليونان وقرطاجنة . وظلت تسيطر على دنيا العالم المتحضر تخضعها لنفوذها مدة ٢٢٠سنة تقريبا ، اذ استمر سلطانها نافذا من اواسط القرن السادس حتى اواخر القرن الرابع قبل ميلاد المسيح .

ووفى هذه الفترة التى تدعو الى الفخار . . حكم العالم المتحضر ملوك كبار امثال كوروش الاكبر وداريوش الاكبر وخشايارشا واردشير درازدست (أو دراز أنكل) .

---

(٤١) وذلك بناء على الشجرة التى رتبها نولدكه Noldeke فى التاريخ الفارسى . انظر : مشير الدولة بيرنيا ، چاپ اول ، ١٣٠٦ ، ص ٨٠ .

ويشتهر الاخير بين المؤرخين بأنه تزوج من ابنتيه : (آتس سا) و (آمس تريس) ، ويلقبه اليونانيون منهم : ماكرو خثير Makroxeir والرومانيون منهم : لونكى مانوس Longimanos .

وقد ورد اسمه فى كتب التاريخ الاسلامية على هذا النحو : بهمن الملك الكيانى المدعو أردشير ، والملقب بطويل اليدين او طويل الاصابع . ويقول البيرونى : اردشير بهمن ، واسمه فى كتب أهل المغرب ارطخشست ، ولقبه طويل اليدين . ونجده فى بعض المواضع يسميه (مقدوش) . وهذا الاسم ولا شك صورة محرفة للاسم ماكرو خثير اليونانى . اما ابن النديم فيسميه احيانا : طويل الباع . (٤٢)

وقد وجد شعب ايران الآرى فى ظل نفوذهم فرصة سانحة لنشر ثقافته وحضارته بصورة محسوسة ملموسة . كما وجد الفرصة للقضاء على كثير من العادات الهمجية غير الانسانية التى كانت سائدة فى الدنيا القديمة من قبيل سلب البلاد ، وقتل العامة ، وتخريب المعابد ، وفرض عقائد المنتصرين المذهبية على المهزومين ، وذبح الآدميين وتقديمهم قربانا للاصنام وأرباب النوع .

وهكذا نشأت فى العالم ــ لأول مرة ــ تشكيلات امبراطورية منظمة قائمة على قوانين مقننة مدونة ، تطبق على كافة ممالك الامبراطورية بصورة واحدة . وكان من مميزات الامبراطورية الهخامنشية : اطلاق الحريات ، احترام العقائد والاديان ، والافادة من جهود الشعوب فى البلاد المفتوحة ، وتوجيهها لصالح الامبراطورية فى شتى المرافق . وانتصر الاسكندر المقدونى ، ولقبه الايرانيون ــ قبل الاسلام ــ بـ (المخرب) ، واطلقوا عليه لفظ (كجستك) أى الملعون(٤٣) واذا كان البعض ــ بعد الاسلام ــ قد رفعه الى مرتبة الرسول ، وخلط بين قصته وقصة ذى القرنين ، وأنزل كتبه الفارسية المنظومة والمنثورة واصولها العربية منزلة الحكمة العالية والنبوة السامية (٤٤) . . فان الفردوسى قد اتهمه بالتخريب ، وسوء الذكر ، وتنبأ له بالخلود فى النار شأنه شأن الضحاك وافراسياب . يقول الفردوسى ذاكرا اعمال الضحاك وافراسياب السيئة :

نكه كن كه ضحاك بيدادكر
چه أورد از آن تخت شاهى بسر
هم افراسياب آن بدانديش مرد
كزو بد دل شهرياران بدرد

وبعد أن ينعت أولهما بالظلم وينعت ثانيهما بسوء الظن يقول فى حق الاسكندر :

سكندر كه آمد برين روزكار
بكشت آنكه بد درجهان شهريار

والمعنى ــ الاسكندر الذى قدم فى هذا العهد ، فقتل فى الدنيا كل ماهو عظيم .

ثم يقول فى حق الثلاثة :

برفتند وزايشان بجزنام زشت
نما ند ونيابند خرم بهشت

---

(٤٢) انظر : مجمل التواريخ والقصص ، طبع طهران ص ٣٠ ، رسالة البيرونى فى فهرست كتب محمد بن زكريا ، طبع باريس ١٩٣٧ ، ص ٢٣ ، ١٤٠ ، الفهرست لابن النديم ، طبع مصر ص ٣٤٤ ، الآثار الباقية للبيرونى ص ١١١ ، ١٠٥ .

(٤٣) ارجع الى الفصل ٣٣ من كتاب بند هشن ، والى مقدمة كتاب ارداى ويرافنامك ، والى مجمل التواريخ والقصص ص ٤١٨ .

(٤٤) انظر : حماسة سرايى در ايران ص ٣٤٣ ــ ٣٥٣ ، مقالة داستان اسكندرى لذبيح الله صفا ، بمجلة اموزش وبرورش .

والمعنى — ذهبوا ولم يتركوا وراءهم سوى الذكر السيء ..

وسوف لايكون مآلهم الجنة ، ولن ينعموا

وفى البيت التالى من أبيات الشهنامة :

نخست اندرآيم زسلم بزرك
زاسكندر آن كينه وربير كرك .

يصف الفردوسى الاسكندر بأنه حاقد منتقم وذئب عجوز .

وفى البيت التالى :

هيونى ذكر مان بيامد دمان
بنزريك اسكندر بد كمان

يقول فى حق الاسكندر :

وجاء أحد الرسل مسرعا صوب الاسكندر سيء الظن .

والحق أن انتصار الاسكندر وفتح تخت جمشيد عام ٣٣٠ ق . م . لم يكن هزيمة لكل آريى ايران . فبعد وفاة الاسكندر بسبع وستين عاما ، اى فى عام ٢٥٦ ق . م . رفع (اشك الاول) علم الاستقلال فى پرثو (٤٥) اى فى خراسان ، وتمكن أعقابه من أن يخضعوا بسرعة كل انحاء ايران ، وان يطردوا السلوقيين — الذين بقوا بعد « سلوكوس نيكاتور » — من غربى ايران الى نواحى سوريا وفلسطين .

وسلوكس نيكاتور Sèleucos Nicator هو قائد جيوش الاسكندر الملقب بنيكاتور اى الفاتح . ولد فى عام ٣٥٤ ق . م تقريبا ، وتوفى فى عام ٢٨٠ ق . م .

وقبض على زمام الامور فى بابل وحكمها بعد وفاة الاسكندر بمدة قصيرة (٣٢٠ ق . م) وحين عزله آنتى كون Antigone والى كيليكيه من منصبه هذا فى عام ٣١٥ق.م صحب بطليموس وعددا آخر من قادة الاسكندر وتمكن بمساعدتهم من الانتصار على اعدائه ، وفتح غزة عام ٣١٢ ق . م ، واستعادة حكم بابل الاستقلال بها .

كما تمكن بعد فترة من الاستيلاء على ولاية شوش وعلى مادى وكل الممالك المحصورة بين الفرات والسند . وفى عام ٣٠٧ ق . م . اطلق على نفسه لقب سلطان . ثم فتح بين النهرين وارمنستان فريكيه وسورية .. وهكذا اسس السلسلة السلوكية (السلوقية) Séleucide .

وكانت السلسلة السلوكية (السلوقية) تستقر بادىء الأمر فى بابل ، ثم استقرت فى سلوكية (سلوقية) التى كانت تقع عند بغداد ، وبعدها استقرت فى انطاكية . وكانت تخضع لسلطانها أول الامر قسما من ايران . ومنذ عهد « آنتيوخوس الثانى » — حفيد سلوكوس — نشأت الدولة الاشكانية ، وكان مقرها مملكة خراسان . وارتقى أمرها سريعا وبلغت من القوة حدا أن استطاعت فى عهد مهرداد الاول (أشك السادس) وفرهاد الثانى (اشك السابع) أن تنتزع ايران بأسرها من يد السلوقيين ، وان تكف يدهم عنها ، وتزيل سلطانهم منها نهائيا .

وهكذا انتهى حكم اليونانيين فى ايران ، وكان آخر ملك سلوكى يحكم قسما من ايران الغربية هو « أنتيجوس السادس » الذى طوى بساط حكمه فى عام ١٢٩ قبل الميلاد على يد فرهاد الثانى .

---

(٤٥) پَرثَو (پَرتَف) Parthava هى نفس الكلمة التى اشتقت منها فى اللغات الاوروبية كلمة parthe ، وهى نفسها التى صارت أصل الكلمات پهلو ، پهله ، پهلوان ، پهلوى ، پهلوانى .

وقد حكم ايران مابين آشك واردوان ــ فى الفترة مابين عامى ٢٥٦ ق . م ، ٢٢٤ م وهى فترة تبلغ اربعمائة وثمانين عاما ــ ٢٨ ملكا بارثيا . ومن بين هؤلاء الملوك تبرز أسماء يعد أصحابها مفخـرة للجنس الآرى الايرانى ، امثال :

مهرداد الاول (اشك السادس) (١٧٣ ــ ١٣٧ ق.م) .

فرهاد الثانى (أشك السابع) (١٣٦ ــ ١٢٨ ق . م) .

مهرداد الثانى (١٢٤ ــ ٨٧ ق . م) ، ارد الاول (٥٥ ــ ٣٧ ق . م) .

فرهاد الرابع (٣٧ ــ ١ ق . م) .

وفى عهد الامبراطورية الاشـكانية تحررت الثقافة الايرانية ، وتجاوزت مرحلة الخطـر وبدات فى فرض وجودها بعد أن تضـاءلت امام نفوذ الثقافة اليونانية زمنا ، واصبحت اللغة البهلويةالشمالية او البهلوية الاشكانية ــ بخطها الخاص المقتبس من الاصل الآرامى ــ لغة البلاد الرسمية ، وبها الفت بعض الاثار المنثورة والمنظومة ، مازال بعضها بين أيدينا. فمن الآثار الهامة التى تنسب الى أواخر عهد الاشكانيين كتاب (اياتكار زريران) وكتـاب (درخت آشـوريك) . وقـد ثبت فى الآونة الاخيرة انهما منظومان (٤٦) .

ومن أجلّ الخدمات التى قدمها الاشكانيون للشعب الايرانى ــ بالاضافة الى طرد اليونانيين وتحقيق الاستقلال ــ دفاعهم البطولى عـن الحدود الغـربية والشرقية ضـد الرومـان والمغيرين من الجنس الاصفر . ولو أن هـذه السلسلة لم تأخذ على عاتقها ــ خلال فترة حكمها التى استمرت اربعمائة سنة ــ عبء الدفاع عن ايران فى الشرق والغرب . . لوطئت بلادنا ولاشك اقـدام الجنس الاصفر مـن الاوراليين والالتائيين أو الرومان ، ولوجدت فى هذه البلاد حضارة وثقافة من لون آخر .

وقد حالف التوفيق الأباطرة الاشكانيين فى فتوحاتهم حتى آخر سنوات حكمهم ، فكان النصر دائما نهاية كل لقاء بينهم وبين الروم المهرة المحنكين ، وكانت الغلبة لجيوشهم على جيوش الروم المتمرسة بالقتال . حتى انه يمكن القول بأن الامبراطورية الاشكانية عنـد سقوطها وزوالها لم تكن قد ضعفت بعد من حيث الفتوحات الخارجية ، فقد تم آخـر فتح من فتوحات الاشكانيين وآخر انتصـار لهم على الروم فى عهد أردوان ، وذلك فى حدود عام ٢١٨ م . وكما نعـلم ، فان السلسـلة الاشكانية قد انقرضت بعد هذه الواقعة بست سنوات .

وقد انقرضت الدولة الاشكانية عام ٢٢٤ ميلادية ، على اثر هزيمة « اردوان » على يد « اردشير بن بابك » . ولم يكن انقراضـهـا فى الحقيقة سوى حادثة داخلية وانتقـالة حـكومية مـن طـوائف ايران الشرقية الى البارثيين ، وتغيير حـكومة ملوك الطـوائف اللادينية ، واحلال حكومة دينية مركزية فى مكانها .

وقد سـار الساسـانيون على سياسـة الاشكانيين ، وحذوا حذوهم فى الدفاع عـن الحدود الشرقية والغربية فى بطولة وبسالة، واستطاعوا بما لديهم من تشكيلات منظمـة مدنية وعسكرية ان يجعلوا حـدود البـلاد تضارع الحدود التى بلغتـها الامبراطـورية الهخامنشيـة .

(٤٦) فيما يتعلق بكتاب اياتكار زريران يمكن الرجوع الى : سلسلة المقالات التى نشرها الكاتب فى مجلة سخن ، السنة الاولى ، حماسة سرايى در ايران ، الطبعة الثانية ، ص١٢١ ــ ١٣١ .

ويعد كل ملك من مشاهير ملوك الساسانيين امثال :

أردشير بن بابك (٢٢٤ — ٢٤١ م) ، شابور الاول (٢٤١ — ٢٧١ م)

شابور الثانى (٣١٠ — ٣٧٩ م) ، بهرام الخامس (بهرام كور ٤٢٠ — ٤٣٨ م)

قباد الاول (٤٨٧ — ٥٣١) ، خسرو الاول انوشيروان (٥٣١ — ٥٧٩ م)

خسرو الثانى ابرويز (٥٩٠ — ٦٢٧ م)
... يعد كل واحد من هؤلاء الملوك — لسبب من الاسباب — صاحب سيرة محمودة ومقام رفيع واثر وخطر فى تاريخ البلاد خاصة وفى آسيا عامة . كما تعتبر الخدمات التى قدمها بعضهم للعلم والأدب خدمات جليلة لا تنسى.

ولا بأس هنا من ذكر معلومات حول بعض هذه الاسماء وكيفية نطقها . فالاصل الذى ورد فى الافستا بالنسبة لاسم « قباد » على سبيل المثال هو كوات (كڤات Kavata وهو يلفظ فى البهلوية كوات (كڤات Kavat) لذا يجب أن يضبط ويشكل فى الخط الفارسي الجديد (قباد) بفتح القاف . ونطقــه بضم او له ، او كتابته بالغين (غ) امر بعيد عن الصواب .

أما « انوشروان » فانها التسمية الفارسية لأنوشك روان (روڤان — Anoshak ruvân اى الروح الخالدة .. وهى عبارة تستعمل عادة عندما يذكر احد بالخير ، أو عندما يوجه الدعاء للموتى .

وتتكون (انوشك) من (أ) حرف نفى ، (أوش Osh) بمعنى الموت ، ومن حرف النون الذى كان يأتى عادة من اللهجات الايرانية القديمة بين حرفين مصوتين للربط بينهما ، (مثل : آنيران بمعنى غير ايران ، حيث جاءت بين حرف النفى (أ) وبين كلمة ايران (نون)) . وقد وردت (هوش) فى اللغة الفارسية بمعنى الموت أو الروح أو قوة الادراك والفهم .

ففى المعنى الاول يقول الفردوسى :

ورا هوش در زاولستان بود
بدست بل پور دستان بود

وهو يعنى ان موت اسفنديار قد كان فى (زابلستان) ، وهنا هوش بمعنى الموت .

وفى المعنى الثانى يقول الفردوسى :

مبريش بيل زيان هوش خويش
نهاده برين كونه بردوش هويش

وهو يعنى هنا الا تعرض روحك للهلاك امام فيل مخيف متوحش ، وهنا هوش بمعنى الروح .

وقد تحولت كلمة (انوشك) فى الفارسية الى (آنوشة) .

اما ruvan فأصلها فى الأفستا (أورون Urwan والفارسى منها (روان) . انوشة روان ، انو شروان ، انو شيروان ، نوشيروان ، نوشين روان كلها صور فى اللغة الفارسية مشتقة من الاصل البهلوى أنوشك زوان .

واذا تعرضنا لكلمة أبرويز وجدناها تعنى : غير قابل للهزيمة لايقهر . وكانت هذه الكلمة تستخدم بصفة دائمة كلقب لخسرو الثانى الشاهنشاه الساسانى . ومعرب الاسم ابرويز ، والالف فيه (أ) تفيد النفى ، وقد حذفت فى الفارسية الدرية ، وقيل پرويز .. نتيجة للجهل بأصل الاسم ومعناه ، ونتيجة للاعتقاد بأن الالف فى أول الاسم تشكل جزءا منه (من بنية الكلمة) .. بينما الاسم بهذه الصورة — أى بعد حذف الالف — يعنى تماما عكس معنى (ابرويز) .

ووفى نهاية هذا العهد .. لم يكن للهجتين: البهلوية الشمالية والبهلوية الجنوبية رصيد كبير فى المؤلفات المنظومة والمنثورة دينية وغير دينية فحسب ، بل انهما احرزتا تقدما وانتصارا كبيرين فى ميدان العلوم اثر امتزاج ثقافات الايرانيين وعقائدهم بثقافات وعقائد كل من اليونانيين والاراميين والرومانيين والهنود .

وفى القرون الخامس والسادس والسابع الميلادية ، وحتى انتصار العرب ، كانت هناك فى ايران مراكز زرتشتيه ومانوية ومسيحية ويهودية .. وكان كل مركز من هذه المراكز مشغولا ــ بصورة من الصور ــ بنوع من انواع العلوم كالحكمة الايرانية او الخسروانية ، الفلسفة الافلاطونية ، المنطق ، العلوم الارسطوية ، الطب ، الرياضيات ، النجوم.. وغيرها .

وقد دخلت اكثرية هذه المدارس فى عداد المراكز العلمية الاسلامية .. بعد انتصار الاسلام أو بعد التحول من اللغتين البهلوية والسريانية الى العربية . ونجم عن انتقال اغلب علماء هذه المراكز الى بغداد أول عصر من عصور النهضة العلمية فى هذه المدينة.(٤٧)

ولقد تيسر للعرب الانتصار على الايرانيين فى ضوء نور الاسلام ، ونتج عن هذا ان استمر النزاع والصراع بين الدين الاسلامى وغيره من الديانات الشائعة فى ايران آنذاك، ونعنى بها الزردشتية والمانوية والمزدكية والمسيحية واليهودية والبوذية . (٤٨) وظل النزاع والصراع قائمين طوال قرون اربعة كان فيها النصر حليف الاسلام ، والضعف والوهن من نصيب الاديان المذكورة .

وفى سرعة عجيبة ، تسلل عدد من عظماء ايران وصفوتها المختارة الى الاجهزة الدينية فى حكومات الخلفاء ، وتغلغل افراد الشعب الايرانى فى مختلف اجهزة الدولة . وشغلوا العديد من المناصب ، فكان من بينهم الوزراء، ومستشارو الدولة ، والقواد والكتاب ، والعلماء المشتغلون بشتى الفنون والشعراء ، ومشاهير المؤلفين . وبتعبير آخر فان شعب ايران قد استعاض عن هزيمته السياسية والدينية بالفتح الثقافى والعلمى . حتى ان كثيرا من المذاهب الدينية والفرق الاسلامية كانت وليدة افكار البحاثة الايرانيين واجتهاداتهم ونتاج آرائهم بالنسبة لمعتقدات الدين الاسلامى وفروعه ، او كان للفكر الايرانى فضل المساهمة فى ايجادها . ومن هذه الفرق على سبيل المثال :

الجهمية : نسبة الى جهم بن صفوان من موالى خراسان ، الكعبية : نسبة الى ابن القاسم الكعبى البلخى ، البهشمية : نسبة الى ابى هاشم الجبائى الخوزستانى ، الكرامية : نسبة الى محمد بن كرام السيستانى ، الرزامية ، أبو مسلمية ، الراوندية ، المقنعية (المبيضة ، بيض الثياب ، وهم اتباع عطاء او هاشم أو هشام بن حكيم المعروف بالمقنع) ، القرامطة ، الاسماعيلية ، الدرزية ، وبعضها من فرق الشيعة الغالية والشيعة الامامية . كما ان بعضها يتبع مذهب اهل السنة الفقهية كالحنفية والداودية والطبرية وغيرها وغيرها.

وتشكل جهود الايرانيين فى سبيل تحقيق الاستقلال السياسى واحياء اللغة والادب القومى قصصا شيقة يضيق المقال عن ايرادها وقد ولج ابطال هذه المعركة القومية وفرسان

---

(٤٧) ارجع فى ذلك الى : دانشهاى يونانى در شاهنشاهى ساسانى (العلوم اليونانية فى الامبراطودية الساسانية) للدكتور صفا ، تاريخ علوم عقلى درتمدن اسلامى ، الطبعة الثانية ، تهران ١٣٣٦ ، ص ١٠ ــ ٢٦ ، تاريخ ادبيات در ايران ، للدكتور صفا ، ج ١ ط ٣ تهران ١٣٣٨ ص ٩٤ ــ ١٠٧ .

(٤٨) تاريخ ادبيات در ايران ، ص ٦٣ ، ٢٣٠ ــ ٢٣٣ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

هذه الحركات التحررية ميدان الكفاح بطرق مختلفة وصور متعددة ، فولجه بعضهم عن طريق الترجمة ونشر الكتب التى تخص بالذكر مفاخر ايران ومآثرها . وولجه البعض عن طريق اشعارهم العربية المحركة للقلوب وما تشتمل عليه من مفاخر ومآثر . وكان هؤلاء المؤلفون والمترجمون ينتمون عادة الى فرقة الشعوبية التى تنادى بتفضيل العجم على العرب . وكانت مؤلفاتهم فى اثبات هذا الراى ، وترجماتهم العديدة للكتب التى تدور حول سير الملوك نابعة من تأثرهم بهذه الفكرة كما كان تأليفهم للشاهنامات ونظمهم لهاناجما عن هذه الفكرة ذاتها .

ومن بين الشعراء الذين نشطوا لبيان مفاخر الايرانيين العنصرية .. يمكننا ان نذكر الاسماء التالية :

اسماعيل بن يسار ، بشار بن برد (م١٦٧) ابا نواس حسن بن هانىء (١٤٥ — ١٩٩) ، المتوكلى ابا اسحق ابراهيم بن ممشاذ الاصفهانى ، وأمثالهم .

كما ولج البعض هذا الميدان عن طريق تدبيج المقالات الدينية ، والبعض عن طريق اللجوء الى السيف والثورات العسكرية . (٤٩)

واذا حسبنا المدة التى انقضت بين اليوم الذى انهار فيه الكفاح العسكرى الايرانى المنظم أى فى عام ٢١ هـ ، وبين اليوم الذى دخلت فيه جيوش « ابى مسلم الخراسانى » (٥٠) الفاتحة الكوفة لاجلاس الامام العباسى «عبدالله السفاح » على عرش الخلافة مكان مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين .. لوجدناها ١١١ عاما .

وبعد ست وستين عاما من تاريخ الحدث الاخير ، أى فى عام ١٩٨ هـ ، فتح « طاهر ذى اليمينين » (٥١) بغداد عاصمة العباسيين بعد محاصرتها ، وتمكن من قتل الخليفة العباسى .

وفى المدة المحصورة بين التاريخين الاخيرين قامت عدة ثورات ، من بينها : ثورة القائد فيروز الشهير بسنباد كبر فى الرى (٥٢) عام ١٣٧ هـ ، ثورة استاسيس فى خراسان (٥٣) عام ١٥٠ هـ ، وثورة المقنع هشام ابن حكيم (٥٤) فى ما وراء النهر سنة ١٥٩ هـ

وفى عام ٢٠١ هـ . هب بابك خرم دينى (٥٥) فى بغداد مقاوما جيوش الخليفة ، بينما شغل مازيار بن قارن (٥٦) (م ٢٢٤ هـ) فى مازندران بمقاتلة الموالين للخلافة العباسية

---

(٤٩) فيما يتعلق بكيفية مقاومة الايرانيين ، انظر :دكتر صفا ، نهضت ملى ايرانيان ، مجلة ارتش ، سال ششم .

(٥٠) يمكن معرفة الكثير عن ابى مسلم الخراسانى بالرجوع الى مقالة الكاتب ، وعنوانها:أبو مسلم الخراسانى، وذلك فى مجلة (آرتش) ، سال هفتم (السنة السابعة) .

(٥١) بالنسبة لطاهر ذى اليمينين ، يمكن الرجوع الى مقالة الكاتب ، مجلة ارتش سال نهم (السنة التاسعة)، شمارة ١ ، ٢ (بالعددين الاول والثانى) .

(٥٢) دكتر صفا ، مجلة آرتش — سال هشتم (السنة الثامنة) : سبهبد فيروز .

(٥٣) دكتر صفا ، مجلة آرتش — سال هفتم (السنة السابعة) : استاسيس .

(٥٤) دكتر صفا ، مجلة مهر — سال جهارم (السنة الرابعة) سمارة ١٢ (العدد ١٢) ، شمارة اول سال بنجم : نقابد ارخراسان ، مجلة آرتش ، — سال هشتم (السنة الثامنة) : المقنع .

(٥٥) دكتر صفا ، مجلة آرتش شمارة ٨ ، ٩ ، ١٠ سال هشتم : بابك خرم دين .

(٥٦) دكتر صفا ، مجلة آرتش شمارة ٢ — ٧ سال نهم (السنة التاسعة) : مازيار پسر قارن .

فى بغداد . وكان الخوارج فى سيستان وفى خراسان دائمي الثورة بدورهم ، يقودهم المقاتلون أمثال حمزة بن آذرك شارى (٥٧) .

سارت حكومة الخلفاء فى ايران فى طريق الوهن والضعف .. فى الوقت الذى كانت فيه امارات ايران المحلية تستقيم على طريق الحياة من جديد . فكان أبناء طاهر ذى اليمينين يواصلون استقلالهم الداخلي فى خراسان . اذ اخذ طاهر بن الحسين من المأمون (فى عام ٢٠٥ هـ) تفويضا بحكم كثير من نواحي ايران . وظل أعقابه يشغلون كرسى الحكم بعد موته الى عام ٢٥٩ هـ . اما سيستان فكانت قد انتزعت فعلا من بين الممالك التابعة للخلفاء العباسيين . (٥٨) وكانت نواح واسعة من جرجان ، ومازندران ورويان وبلاد الديلم وكيلان تدار بواسطة الامراء المنحدرين من صلب الاسر القديمة التي بقيت عن العهد الساساني (٥٩) . وقد استمال هؤلاء اليهم ــ فى عام ٢٥٠ هـ ــ واحدا من صلب علي بن أبي طالب ، يدعى حسن بن زيد ، ونصبوه اماما دينيا على الرغم من الخلفاء العباسيين . (٦٠)

ولم تخل آذربيجان واران وشروان والاراضى الجبلية التى تقع جهة الجبال من الفتن والثورات بدورها ، وسقطت ما وراء النهر هى الاخرى فى يد اعقاب « سامان خدا » منذ عام ٢٠٤ هـ تقريبا ، وتحولت بسرعة الى عاصمة ومركز للدولة السامانية الكبيرة . اما خوارزم وغور وغرجستان فكان يقبض على زمام الامور فيها عدد من الامراء المحليين .

من هذا يمكننا ملاحظة ان نفوذ الخلفاء وحكمهم فى ايران خلال القرنين الثانى والثالث الهجريين كانا فى أغلب الاحوال اسميا اكثر منه رسميا . وهذا نفسه احد اسرار بقاء الثقافة الايرانية .

وفى أعقاب الجهود التى بذلت حتى أوائل القرن الثالث فى سبيل استعادة ايران لاستقلالها خرج يعقوب بن الليث السيستانى على الخلافة وولى وجهه ــ بصحبة محاربى سيستان ومقاتليها ــ شطر بغداد فاتحا . (٦١)

ويعقوب بن الليث واحد من اكبر رجال ايران العسكريين والسياسيين الذين ثاروا فى مشرق ايران بعد أبى مسلم الخراساني ، وكان حكمه نقطة تحول بالنسبة لمسار الادب الفارسي ، فقد منح هذا الادب الاستقلال عن طريق تحريم الشعر العربي فى دولته ، وتشجيع الشعراء على نظم اشعارهم بالفارسية . كما ان اللغة الفارسية الدرية قد تحولت فى عهده الى لغة بلاطات المشرق الرسمية ، وباتت الكنز الرئيسي الذي يثري خزانة الادب الفارسي .

وظلت الحكومة التي أقامها يعقوب بن الليث باقية من بعده ، يتولى زمام الامور فيها اخوته

---

(٥٧) دكتر صفا ، مجلة مهر ــ سال نهم ــ شمارة ٨ ، ٩ : يسر آذرك .

(٥٨) دكتر صفا ، تاريخ ادبيات در ايران ، ج ١ ، ط ٣ ، ص ٣٢ ــ ٣٩ .

(٥٩) نفس المصدر والطبعة ص ٢٠٩ وما بعدها .

ابن اسفنديار : تاريخ طبرستان ، چاب مرحوم عباس اقبال ، ج ١ ص ١٢٧ وما بعدها .

(٦٠) تاريخ طبرستان ، ج ١ ، ص ٢٢٤ وما بعدها .

تاريخ ادبيات در ايران ، ج ١ چاب سوم ، ص ٢٠٩ ــ ٢١٠ .

(٦١) دكتر صفا : يعقوب بسر ليث ، مجلة آرتش سال سشم .

وابناء اخوته وابناء عمومته ، الى ان سقطت عام ٣٩٣ هـ على يد محمود الغزنوي . ونتج عن ثورة يعقوب تشكيل عدة سلالات ايرانية مستقلة فى انحاء متفرقة من البلاد . ولم يعد للخلفاء فى ايران ــ بعد هذه الثورة ــ سوى الرياسة المعنوية والدينية .

وقد كانت عهود حكم السامانيين والزياريين والبويهيين وامثالهم باعثة على احياء كثير من السنن والعادات والتقاليد الايرانية القديمة ، ومواصلة الكتابة بالفارسية نظما ونثرا ، وترويج العلوم ، واطلاق الحرية للافكار الدينية والآراء الفلسفية .

وفى هذه العهود ظهر عدد من كبار العظماء الذين يعدون مفخرة للعلم والادب فى ايران ، امثال :

ابو زيد احمد بن سهل البلخي(م ــ٣٢٢هـ)، محمد بن زكريا الرازي (م ــ ٣١٣ هـ) ، علي بن عباس المجوسي الاهوازي (م ــ٣٨٤هـ)، ابو نصر الفارابي (م ــ ٣٣٩ هـ) ، أبو علي مسكويه (م ــ ٤٢١ هـ) ، كوشيا ركيلى ، احمد بن عبد الجليل السجزى (م ــ ٤١٤هـ).

ابو الوفاء البوزجاني (م ــ ٣٨٧ هـ) ، ابو حيان التوحيدي (م ــ ٤٠٠ هـ) ، أبو علي بن سينا (م ــ ٤٢٨ هـ) ، ابو ريحان البيروني (م ــ٤٤٠هـ)، بهمنيار بن مرزبان (م ــ٤٥٨هـ)، الرودكى السمرقندى (م ــ ٣٢٩ هـ) ، الدقيقي (م ــ ٣٦٨ هـ) ، الفردوسي الطوسي (م ــ ٤١١ هـ) ، ابو علي البلعمي ، وغير هؤلاء . (٦٢)

ومنذ أوائل القرن الرابع الهجري وحتى اواسط القرن الخامس ــ وهي الفترة التي كانت فيها ايران خاضعة لسلاطين من اصل ايراني او نشأوا من بيئة ايرانية ــ كانت السلالات : الصفارية (حتى سنة ٣٩٣هـ) ، والسامانية (حتى سنة ٣٨٩ هـ) ، والزيارية (من ٣١٨هـ فما بعد) ، والبويهية (من ٣٢٠ هـ فما بعد) الغزنوية (من ٣٥١ هـ فما بعد) ، وعدة سلالات اخرى صغيرة مثل الخوارزمشاهيين والامراء الجغانيين وامراء الغور ... تقبض بيدها على زمام الحل والعد فى انحاء البلاد المختلفة .

وقد زالت بعض هذه السلالات اثر حملة التركمانيين السلاجقة ، وبقى بعضها حتى اوائل القرن السابع أو الى ما بعد ذلك .(٦٣)

وقد راى كل هؤلاء الامراء ــ صغارهم وكبارهم ــ فى تشجيعهم العلماء والكتاب والشعراء فريضة تنبع من همتهم ، فسعوا

---

(٦٢) دكتر صفا : تاريخ علوم عقلى در تمدن اسلامى ،ج ١ ط ٢ ، ص ١٦٥ ، ١٦٩ ــ ١٩٤ ، ١٩٨ ــ ٢٠٢ ، ٢٠٦ ــ ٢٨٧ ، ٢٨٩ ــ ٢٩٠ .

دكتر صفا : تاريخ ادبيات در ايران ، ج ١ ط ٣ ،ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٣٤٤ ، ٢٤٥ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٢٩٣ ــ ٢٩٩ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٠٠ ــ ٣٠٢ ، ٣٠٣ ــ ٣١٨ ، ٢٣٣٧ ــ ٣٤٢ ، ٤٥٨ ــ ٥٢١ ، ٤٠٨ ــ ٤١٩ ، ٦١٨ ، ٦١٩ .

حواشي جهار مقالة عروضى ، جاب مرحوم قزوينى ،ليدن ص ٢٠٢ ــ ٢٠٣ ، ابن النديم : الفهرست ، طبع مصر ص ٣٩٤ ، جشن نامه ابن سينا تاليف ذبيح الله صفا ج ١ ،معجم الادباء لياقوت ، طبع مصر ج ١٥ ص ٥ ــ ٥٢ .

شرح احوال وآثار رودكى ، اقاى سعيد نفيسي ، فى ثلاث مجلدات ،
Aldo Meili, la Science arabe, Laide, p. 108.

(٦٣) لجمع المعلومات عن هذه السلاسل باسرها ،ارجع الى :

تاريخ ادبيات در ايران ج ١ ط ٣ ص ٢٠٧ وما بعدها ،ج ٢ ط ١ ص ٣٨ ــ ٥٥ .

سعيا كبيرا فى سبيل احياء الرسوم القومية ، والمحافظة على آداب السلف ، وتحقيق رفاهية الشعب .. حتى ليمكن القول بأن عهدهم كان عهد رفعة الحضارة الايرانية وسموها ، ورقي العلوم والآداب الاسلامية ونموها .

غير أن كل ارتفاع يعقبه هبوط ، وقد سرى هذا الهبوط الى ايران سريعا ، وذلك منذ أواسط القرن الخامس اثر استيلاء القبائل البربرية والغلمان التابعين لاجناس آسيا الوسطى الهمجية على البلاد وسيطرتهم عليها. واستمر الهبوط ساريا عدة قرون ، وتمخض عن انحطاط مرعب فى حضارة ايران وثقافتها . وبعد انتصار التركمانيين السلاجقة ــ وهم شعبة من شعب الغز ــ نقطة البداية بالنسبة للهبوط والانحطاط . فمع انتصار هذه الطائفة ، وطئت ايران أقدام العديد من قبائل آسيا الوسطى المنتمين للجنس الاصفر ، وهم يعرفون لدى المؤرخين والكتاب والشعراء من أصحاب اللسانين باسم (الترك) . وهكذا وطئت ايران اقدام القراق والقراغز والقفجق والقراخان والقراخطا ، واجتمع اليهم حشد لا حد له من المهاجرين والغلمان ممن ينتمون الى القبائل الصفراء التي تسكن آسيا الوسطى . (٦٤)

ومع سيطرة هذه القبائل وتسلط هؤلاء الغلمان انهار صرح الحرية ، وكسدت سوق العلم والادب ، وعرف الفساد والعطب طريقهما الى البناء الاخلاقي والاجتماعي .

وزاد الطين بلة أن تفشت فى بلاد ايران العامرة الحافلة بالرونق والبهاء مظاهر الخراب والفقر والتشتت والضياع . (٦٥)

ورغم ان هؤلاء القتلة الذين يماثلون الشيطان طباعا كانوا يملكون فى ايديهم القوة والسيطرة فى بعض الاحيان كما يبدو ظاهريا ، فانهم لم يتمكنوا من التحكم فى قلوب الايرانيين وأفئدتهم . ومصداق قولنا ماورد من أقوال كثيرة على لسان المتحدثين فى القرنين الخامس والسادس الهجريين .. اولئك الذين انبرى كل فرد منهم لانتقاد هؤلاء الشياطين بصورة من الصور ، وسب بعضهم هؤلاء الملاعين السفاكين المخربين سبابا فاحشا ، ونعتهم بما لا يليق (٦٦) .

وفى الفترة المحصورة مابين أواسط القرن الخامس الهجرى وأوائل القرن السابع الهجرى .. سيطرت على ايران سلالات من السلاطين والأمراء كانوا ينتمون الى السلاجقة العظام (٤٣١ ــ ٥٥٢ هـ) ، وسلاجقة العراق (٥١١ ــ ٥٩٠ هـ) ، وسلاجقة كرمان (٤٤٢ ــ ٥٨٢ هـ) ، وأتابكة العراق وآذربيجان (٥٣١ ــ ٦٢٢ هـ) والاتابكة السلفريين «أتابكة فارس » (٥٤٣ ــ ٦٨٦ هـ) ، والخوارزمشاهيين من آل اتسز (٤٩٠ ــ ٦٤٨ هـ) ، وأمراء الغور ، وآل باوند وأمثالها .

---

(٦٤) لمعرفة كيفية نفوذ القبائل الصفراء من الاورال والالتائيين وسيطرتهم ، وهم الذين عرفوا فى تاريخنا بالترك .. ارجع الى :

تاريخ ادبيات در ايران ، ٢ ط ١ ، ص ٥ ــ ٣٧ ،٦٨ ــ ٩٤ .

(٦٥) نفس المرجع ، ج ٢ ط ١ ، ص ٩٤ ــ ١٣٥ .

(٦٦) للحصول على نماذج من هذه الاقوال .. ارجع الى :

نفس المرجع ، ص ١٢٤ ــ ١٣٠ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ــ ١١٧ .

(٦٧) للاطلاع وتحصيل المعلومات عن هذه الاسر ، ارجع الى :

نفس المرجع ، ص ٥٩ ــ ٦٧ .

ومع أن معظم هذه السلالات ليست من أصل إيراني .. الا أنها سرعان ما تأقلمت وخضعت للثقافة والحضارة الايرانية ، نتيجة للتاثر بالوزراء والكتاب وكبار رجال البلاط ممن كانوا يختارون عادة من بين أبناء البيوتات الايرانية المعروفة ، ومن ثم قامت بتعميم هذه الثقافة وترويج تلك الحضارة .

والحق أن بعض الاسر الايرانية الكبيرة التي واكبت ذلك العهد ، امثال : آل برهان ، آل صاعد ، آل عمران ، الاسرة المنيعية ، والأسرة النظامية ونظائرها .. كان لها حكم العصب الذى يربط نظام حضارة ايران وثقافتها ، وقد ساهمت كل منها مساهمة فعالة فى تربية الفضلاء والكتاب والشعراء .

وبعد هزيمة محمد خوارزمشاه المخجلة امام جنكيز ، وعلى اثر غارات المغول والتاتار ، التي بدأت فى عام ٦١٦ هـ - تفشت فى ايران الفوغائية من قتل ونهب وسلب وتخريب . وتعدهذه المصيبة من اكبر المصائب التي يمكننا ان نصادفها في تاريخ الربع المسكون ، خاصة اذا عرفنا انه على اثرها قد شبت ثورات عنيفة متوالية ، ووقعت في البلاد اتفاقيات مخيفة . وقد توجت هذه الاحداث فى النهاية بحملة تيمور شارب الدماء .. تلك الحملة التي قادها ضد البلاد في عام ٧٨٢ هـ .

وبالرغم من أن خلفاء تيمور - الذين حكموا ايران الى عام ٩٠٧ هـ - كانوا عاجزين عن تركيز قواهم فى البلاد وتوطيد الأمن والامان فيها .. الا انهم حققوا نجاحا وتوفيقا كبيرين فى ميدان تربية الشعراء والادباء والفنانين .

وعلى وجه العموم .. فان الحوادث الرهيبة التي كانت تحدث فى ايران فيما بين عامى ٦١٦ هـ ، ٩٠٧ هـ كان لها حكم الضربات المتوالية على جسد ايران الخالي من الحياة ، وبحلول عام ٩٠٧ هـ وجلوس الشاه اسماعيل الصفوى على العرش تغير الوضع وتبدل الحال .

ويمكن القول بأنه نتيجة لتلك الاحداث التى وقعت على مدى ٣ قرون متوالية ضاع تراث ايران القديم ، وذهبت حضارتها العريقة ادراج الرياح ، ولحقها الفناء والعدم ، وبلغ انحطاطها منتهاه .

ولولا ظهور عدد من المفكرين فى هذه الحقبة الزمنية الطويلة ، ممن عاشوا قبل دخول المغول او تربوا على يد من تبقوا عن الازمنة السابقة على عهد هؤلاء الغزاة ، لبدت بلادنا فى صورة سجن أسود يضم بين جدرانه المخيفة هيكل الجهل والانحطاط والفساد .

ولم يكن يتوقع من أى شعب مهما بلغت قوته أن يتحمل تلك النكبات وان يملك القدرة على الصمود فى وجهها .. تلك النكبات التي حلت بالبلاد مع أواخر القرن الخامس الهجرى ، وزايلتها في أول القرن العاشر .

لقد زالت كثير من الشعوب الكبيرة من الوجود نتيجة غارة واحدة من هذا اللون من الغارات الوحشية البربرية ، وبقي شعب ايران صامدا .

وفي العصر الصفوى - ذلك العصر الهام الذى يستغرق الفترة مابين عامى ٩٠٧ هـ ، ١١٤٨ هـ - استعادت الامبراطورية الايرانية عظمتها السابقة . فمنذ زوال الدولة الساسانية والاحداث تتوالي فى ايران ، والشعب الايراني وسلاسل الأمراء والسلاطين الايرانيين لايكف صغيرهم ولا يتوانى كبيرهم عن بذل كل جهد ممكن لاعادة كمال النظم التى كانت سائدة في العصر الساسانى . لقد سعى الجميع جاهدين ولمدة تناهز التسعة قرون ، الى ان ظهر الشاه اسماعيل - احد نوابغ التاريخ الايرانى - فكلل هذه الجهود وتلك المساعى بالنجاح ، ومن

يومها بلغت بلاد ايران المستقلة حدودها الطبيعية .

هذا ، وتتشابه الامبراطورية الصفوية الساسانية فى كثير من النواحى .. خاصة فى فرضها مذهبا خاصا وجعله مذهبا رسميا للدولة ، وفى سيطرة الدولة المركزية على حدود فلاة ايران وثغورها الطبيعية ، وفى ايجاد حكومة مستقلة مركزية وازالة ملوك الطوائف ، وفى تشجيع التجارة والزراعة والصناعة والفن فى البلاد ، وفى الاهتمام بانشاء الابنية والعمارات ونشر العمران ، وفى الصمود فى وجه الطامعين في ايران .. ممن كانوا يغيرون عليها من الشرق والغرب .. وأمثال ذلك .

وهكذا يجب أن يكون مقبولا ــ على ضوء ما ذكرنا ــ ان ايران الصفوية أكثر من غيرها مشابهة لايران السياسية فى كثير من الجوانب .

ومن المسلم به أن التقدم السريع أمر لايمكن تحققه بالصورة التى يتوقعها معاصرونا ، خاصة وأن من يتوقع منهم ذلك كانوا أناسا يرزحون تحت نير انحطاط استمر مئات السنين .

ومن اهم الحوادث السياسية التى تستحق التسجيل والتى وقعت فى ايران بعد زوال الدولة الصفوية .. ظهور « نادر شاه » ، وتشكيل الدولة الافشارية (ابتداء من عام ١١٤٨ هـ) ، وثورة كريمخان زند واقامة الدولة الزندية (من عام ١١٧٢ هـ) ، وتأسيس الدولة القاجارية على يد آقا محمد خان (من عام ١١٩٣ هـ) وتشكيل وزارة ميرزا تقى خان الامير الكبير (من ١٢٦٤ هـ حتى ١٢٦٨ هـ) واعلان الحياة النيابية فى عام ١٣٢٤ هـ . ق ، واقامة أول دورة لمجلس النواب الايرانى فى نفس العام ، والانقلاب الذى قام به رضا شاه الكبير فى عام ١٢٩٠ هـ . ش ، وانقراض السلسلة القاجارية ، وتشكيل السلسلة البهلوية المصلحة الساعية نحو الرقى (في عام ١٣٠٤ هـ . ش) .

* * *

الإنســان والــزمن في الـتراث الشـعبى

د . نبيـلة ابراهـيم *

(١)

من العبث ان نبحث فى معجـم الانســان البدائي والشعبى عن المصطلحـات الفلسفيــة الخاصة بعلاقة الانسان بالزمن مثل الوجود والعدم ، والشيء الحقيقي والوهمي ،والثبات والصيرورة الى غير ذلك،على اننا اذا كنا نفتقد هذه المصطلحات الفلسفية ، فاننا نجد البديل عنها وهو الشيء نفسه او الرمز المجســد فى الاساطير والطقوس .

فمنذ ان وجـد الانسان نفسه على سطـح الارض ، ملك العالم السماوى عليــه حســه وفكره نتيجة شعوره العميق بارتباط حياتــه المادية بهذا العالم . فلما أطلق العنان لخياله فى تصور هذا العالم ، صــوره صورة مطابقة لعالمه الحسي بمــا فيه مــن أنهــار وجبــال وخضرة . ولابد ان تتربع على عرش هذا العالم القوة المحركة لهذا الكون والمتحكمة فى مصيره ، وهي الآلهة . ولكن كيف كانت علاقة الانسان بالعالم السماوى وآلهته ؟ هل كانت تتحكم فى

* الاستاذة الدكتورة نبيلة ابراهيم استـاذة الادبالشعبى بكلية الاداب جامعة القاهرة ، لهـا العـديد من الدراسات فى القصص الشعبى والسير العربية وترجمـاتلبحوث اوروبية .

مصيره بحيث انها اذا قضت عليه بالشر أو المرض والعجز ، ارتضى هذا الحكم واستسلم له ، أم انه كان يتدخل فى هذا الحكم بصورة أو بأخرى بحيث يغيره من مجرى الشر الى مجرى آخر يقنعه بحقيقة وجوده ، وبقيمة الحياة التي يحياها ؟

أول ما يقال بصدد الاجابة عن هذه التساؤلات هو ان حقيقة العالم السماوى كانت تأسر الانسان البدائي ، ومثله الانسان الشعبي ، الى درجة انه يحن دائما الى أن يعيش فيما يشبه هذه الحقيقة او يقلدها . واذا كانت حقيقة العالم السماوى مرتبطة كل الارتباط بقدسيته ، فانه يحاول قدر الامكان ان يخلع على المكان الذى يعيش فيه طابع التقديس ، لان هذه القدسية هي التي تشعره بمغزى وجوده وحقيقته . فهو فضلا عن أنه يشعر بعلاقة روحية بينه وبين الطبيعة التي يعيش وسطها لانها تثير في نفسه قدسية العالم السماوى ، فانه يحرص على أن يشيد وسط المكان الذى يسكنه ما يجسد هذه القدسية ، وليكن ضريحا لولي ، أو كنيسة أو جامعا . وبهذا تكتمل قدسية المكان ويصبح صورة مصغرة للعالم السماوى المقدس . ولعل هذا يفسر لنا بناء الانسان القديم للاماكن المقدسة مثل الكعبة والقدس وبابل ، فهي تمثل مع غيرها من الأماكن المقدسة صورة مكررة للنظام السماوى المقدس . ومن ثم كانت بعض هذه الاماكن ، وما يزال بعضها الآخر ، يمثل وجودا حقيقيا لا تتميز به الاماكن الدنيوية الاخرى . ولعل هذا يفسر لنا كذلك الانسان الشعبي على الا يسكن مكانا جديدا ، او يعمر مكانا غير مأهول ، الا اذا اجرى بعض طقوسه ، ولتكن اشعال البخور وقراءة التعاويذ أو الآيات المقدسة ، ولتكن تقديم ضحية عند عتبة المسكن الجديد ، ولتكن دفن تميمة أو حجاب تحت أساس البيت الجديد . ومن البديهي ان الانسان الشعبي يفعل هذا لكي يكون المكان قابلا للسكنى ، اما قبل ذلك ، فانه يكون منتميا الى عالم الفوضى حيث تجد الاشباح والعفاريت مأوى لها . أى أن الانسان الشعبي يستطيع ان يحول الفوضى الى نظام عن طريق اجراء الطقوس ، وبهذا يصبح المكان مقدسا ، ومن ثم تنشأ العلاقة الروحية بينه وبين هذا المكان.

وليست رحلة البطل من الاساطير والحكايات الخرافية للوصول الى شجرة الحياة او التفاحة الذهبية او الاميرة المسحورة أو نبع الخلود ، سوى تعبير رمزى فني عن فكرة الوصول الى المكان المقدس . والطريق الى هذا المكان شاق ومحفوف بالمخاطر ، ذلك ان الوحش المهول يقف هناك متربصا بالبطل . واذا كان هذا الوحش رمزا للفوضى ، فلا بد للبطل من أن يقتله ، لكي تستعيد الحياة نظامها وقدسيتها .

وكما يخلع الانسان الشعبى طابع القدسية على المكان ، فانه كذلك يخلع طابع القدسية على الزمان . والزمان المقدس يعني الزمن الاسطورى الذى لا ينتهي . أى أن الانسان البدائي ومثله الشعبي يصارع التاريخ ، بمعنى انه أحداث متعاقبة لا يمكن تفاديها أو تفادى نتائجها ، بل انه يحن دائما الى الزمن الاسطورى ، الزمن الاكبر حيث بدء كل شيء. وهنا يختلف الانسان الشعبى أساسا عن الانسان العصرى (modern) . فالثانى يحمل عبء الزمن وثقله ، وهو يفكر دائما فى لا مغزى ولا معنى الحياة . ذلك لأن الحياة تصل بكل شيء الى قمة ازدهاره وحيويته ثم تؤول به بعد ذلك الى الفناء . أما الانسان الشعبي الذى يسعى دائما الى الاحساس بوجوده الحقيقي ، فانه لا يريد أن يفقد صلته بالوجود ، ولا يريد ان يقع فريسة الاحساس باللامعنى . وهو يصل الى قمة هذا الاحساس عندما يجد نفسه يعيد ما فعل من قبل ، اى يمارس الطقوس والاحتفالات التي فعلها اجداده . ففي هذه الاحتفالات التي يمارس الجميع فيها طقوسا واحدة ، يشعر الانسان الشعبي حقا انه نغمة في لحن جماعي ، بل في لحن الكون ، هذا

الكون الذى يتجدد دائما بتجدد ليله ونهاره ، وتجدد فصوله ، وتجدد قمره .

الانسان الشعبي (١) اذن يسعى الى تجديد الحياة ، اى محو الزمن الحسى وهذا مانعنيه بحنينه الى الزمن الاسطورى ، اى الزمن المتجدد كما عبر عنه فى اساطيره وما زال يعبر عنه فى احتفالاته وممارساته . ولا يعنى هذا ان الانسان الشعبي لا يشعر بنهاية الاشياء او نهاية فترة ما ، حقا انه يشعر بهذا ، ولكنه سرعان ما يشعر باستمرار الحياة ، ويحن الى الخلق الجديد كما صوره فى أساطيره ، فيقلده او يعيد ذكراه .

وانطلاقا من هذه الفلسفة نستطيع ان نصل الى ابعاد طقوسه واحتفالاته الدورية ، وان نكشف عن كنه كثير من ممارساته التي قد تبدو غامضة عندما يعجز الباحث عن ان يجد لها تفسيرا مقنعا .

ويمكننا ان نقسم هذه الاحتفالات الى نوعين : نوع يهدف الىتطهير حياته منالاشباح والامراض والذنوب ، والنوع الآخر يهدف الى تجديد دورة الحياة الطبيعية المرتبطة بالخصب والنماء .

أما النوع الاول فتتمثل طقوسه فى مراسيم التطهر ، وفى الصيام الدورى ، وفي طرد الاشباح والعفاريت من حياة الفرد والجماعة ، وفى تقديم الضحية فى مناسبات معينة ، وغير ذلك .

وأما النوع الثاني فتدور حوله كثير من الاساطير والطقوس التي عرفتها شعوب العالم أجمع وما تزال تعيد ذكراها بصورة أو بأخرى.

والواقع ان كلا النوعين من الاحتفالات يهدف الى الاحساس بجدة الحياة واستمرارها ، وخلوها من عوائق الاحداث التى نعبر عنها بالتاريخ .

فقد يمارس الانسان الشعبي الزار فيأوقات دورية اثر احساسه بوجود عائق بداخله يفسره بانه تملك الجن له . وهذا العائق يحول بينه وبين الاحساس بالارتياحفيحياته . وغالبا ما ينتابه هذا العائق فى الحقيقة اثر حادث معين . ولكن لان الانسان الشعبي ينزع دائما الى محو الزمن الحسي والعيش في الزمن الاسطورى ، حيث يتجدد كل شيء ، فانه لا يفكر فى هذا الحادث ، بل انه لا يتذكره . وقد عبر احد أبناء الشعب المصرى عن شعوره اثر اجرائه طقس الزار ، بانه يشعر انه يولد من جديد . فهذا طقس يمارس بقصد طرد الاشباح من عالم الانسان ،ولكن الهدف البعيد منه في الحقيقة ، هو البعث الجديد على نحو ما يحدث في العالم الاسطورى ، عندما تبعث الحياة بعد القضاء على العناصر الشريرة .

ويرتبط بفكرة تعلق الانسان الشعبيبالزمن الاسطورى المتجدد موضوع تقديسه للاموات. فحرص الانسان الشعبي على زيارة الاموات وتقديم القرابين لهم بصفة دورية ، وحديثه عن ان الاموات يزورونه فى الاحلام ، ويبلغونه قولا يتعلق بموضوع يعايشه ، وقد يتنبأون بما يمكن ان يحدث فى المستقبل ، كل هذا يعنى ان الاموات قد انتفت عنهم الصفة التاريخية ، وانهم يعيشون معه على الدوام . ولهذا يتحم تجديد العهد بينه وبينهم في فترات دوريةحتى يعيشوا معا فى تصالح دائم .

وحنين الانسان الشعبي الى الزمن الاسطورى المتدفق جعلهيهتم بالاحتفالبتجديد دورة الحياة ، وذلك عن طريق احتفالاته

---

(١) سوف نلتزم بهذا الاصطلاح الذى نعنى به بشيءمن التجاوز كلا من الانسان البدائى والانسان الشعبى الذى يعيش مرتبطا بالعادات والمعتقدات والتقاليد الجمعيةالمتوارثة .

بالخصب والنماء . وهو في هذه الاحتفالات يشخص ما رواه فى أساطيره عن الحياة المتجددة فى العالم العلوي .

فقد احتفلت جميع شعوب العالم ، ومـا تزال تحتفل بصورة أو بأخرى ، بعودة النضرة للحياة ، اما بعد صيف جاف حار أصـاب المزروعات بجفافه ، أو بعد شتاء قارس قتل المزروعات بصقيعه . ففي كلتا الحالتين كانت الشعوب تحيى ، فى قداسة بالغة ، الاحتفالات الدينية ، وتجرى الطقوس التي تتوسل عن طريقها الى الآلهة لكي تعيد للحياة نضرتها على الدوام . ويعد الرقص عنصرا هاما فى اجراء الطقوس ، لان الغرض منه هو اثارة الطبيعة كي تسقط أمطارها فتمتلىء الانهار بالمياه ، ويرتوى الزرع وتعود للحياة نضرتها .

وقد كان المصريون القدماء يحتفلون بفيضان النيل كل عام ، بان يلقوا فيه بعروس مزدانة لكي يتزوجها النيل ، فيعـود الى حيويتـه ونشاطه . ومعنى هذا ان النيل الذى قد يصل نشاطه الي حد الإنهاك ، لابد ان يعود الـى كامل قواة وحيويته عن طريق الزواج الجديد.

وحـول هـذا المغـزى تـدور أسـطورة أدونيس . فلقدكان أدونيس شابا جميلا اغرمت به الالهة أفروديت . وذات يوم هاجم أدونيس ثور وحشي واصـابه بجرح افضى به الـى الموت . وحزنت افروديت على موت حبيبها كل الحزن ، واخذت تتضرع للاله زيوس ان يعيد الحياة الى أدونيس . فاشفق زيوس عليها ومنح ادونيس منحة العودة الى الحياة ، ولكن فى فترة معينة فقط مـن السنة . وتشـير الطقوس التي كانت تؤدى للتعبير عـن موت ادونيس وعن عودة الحياة اليه ، كما يشير توقيت الاحتفال وطابعه ، الى ان ادونيس لم يكن مجرد اله ، بل كان تجسيدا للزمن المتجدد الذى يؤدى الى سلامة الطبيعة واحيائها على الدوام . فقد كان الاغريق يحتفلون بهذا العيد فى الربيع . وكان يحتفل به في فلسطين فى شهر يونيه عندما يصل ازدهار النبات الى قمته . ويقع موت أدونيس في التقويـم السريانـي المقدوني في الثالث والعشرين من شهر سبتمبر كما يقع بعثه فى اليوم الاول من شهر اكتوبر ، وهو بداية العام الجديد فى هذا التقويم . وكان الاحتفال بموت أدونيس يتميز بعويل النسـاء عليه بصفة خاصة ، وذلك لخوفهن مـن ان يصبن بالعقم ، حيث ان الجدب يشـمل كـل مظاهر الحياة (٢) .

ويذكرنا عويل النساء على أدونيس بما روى من عويل البابليين والكنعانيين بسبب اختفاء الههم تموزعنهم . وقد نجم عن ذلك ان حـل الخراب بالارض ، واصاب العقم الحيـوان والانسان . عند ذاك رفع الناس أصواتهـم بالبكاء والعويل متوسلين الى الاله تموز ان يعود اليهم ، وسمع الاله تموز بكاءهم ، فأشفق عليهم ، وقرر ان يضع حدا لمتاعبهم بأن يعود الى الارض فترة قصيرة في كل عام . وها هي ذى بعض عبارات هذا العويل ..

بكـاؤنا يسمـع فى كـل مكـان فى الارض ، مرتفعاتها ومنخفضاتها لعله يصـل الى بيت الاله .

انه عويل من أجل النبات الذى كف عن النمـو

ومن أجل الشعير الذى ذبـل

ومن اجل الناس والقطيع ، فقد كفوا عن التوالد .

ومن اجل موت الشباب والاطفال

---

(٢) Jessie L. Weston : From Ritual to Romance. P: 47 (New York 1957).

ومن اجل النهر الذى كف عن الفيضان
ومن اجل السمك الذى اختفى

ومن اجل الغابات التي لم يعد ينمو فيها
شجر التمرسك

ومن اجل مخازن البيوت التي لم تعد
تستقبل النبيذ والعسل

ومن اجل البرارى التي لم تعد تنبت فيها
الحشائش

ومن اجل القصر الذى ولت عنه بهجة الايام
الماضية .

واذا كان النص لم يشر الى احتفالات الشعب ببعث الاله تموز ، الا ان تكملة النص تشير الى عودة الخصب الى الحياة مرة أخرى، فقد ورد فيه :

لقد ترعرعت الحشائش حيث كانت قد
اختفت

وتدفقت المياه وعاد الناس يجرعونها
واستعاد الناس بناء الحظائر بعد أن كانت قد
هدمت (٣) .

وقد تعود البابليون احياء ذكرى الصراع بين تيامات ، وحش البحر الذى يمثل الفوضى ، والاله مردوك الذى يرمز الى النظام ، وقد تمكن مردوك من ان يقتل تيامات، ثم شرع بعد ذلك فى خلق الكون والانسان . وقد كانت الطقوس التي تحيى ذكرى هذه الحادثة الاسطورية ، تجرى على النحو التالي :

١ ــ قضاء فترة من التطهر والتكفير عن الذنوب، وتقديم الضحية وهي تمثل الفترة التي كان فيها مردوك أسيرا فى الجبال عاجزا عن التخلص من سيطرة تيامات عليه . وكل هذا يرمز لمرحلة الفوضى التى سبقت خلق الكون وتنظيمه .

٢ ــ يدور الصراع بين فريقين احدهما يمثل مردوك والآخر تيامات ، ويصيح الناس بفريق مردوك ان ينتصر ، بينما يدعون على الفريق الآخر بالفناء .

٣ ــ انتصار فريق مردوك الذى يعني الخلق الجديد للعالم والانسان وما يعقب هذا من احتفالات (٤) .

ويحتفظ اليابانيون فى تراثهم بذكرى « تاما » ، والتاما عنصر روحي يعيش مع الانسان ومع الأموات ومع القديسين . فاذا أوشك الشتاء على الانقضاء مسلما دورة الحياة الى الربيع : تهجيت التاما وحاولت ان تترك جسم الانسان الحي ، كما تحاول تاما الاموات أن تغزو مساكن الاحياء . والغرض من هذا الاحتفال المشبع بالمغزى النفسي الفسيولوجي هو تثبيت تلك المادة الروحية فى الجسم . ذلك ان النفس الانسانية التي يطول كبتها فى موسم الشتاء ، تتهيج عندما تشعر بمقدم الربيع ، موسم الازدهار والاخصاب . ومن ثم يجرى هذا الاحتفال لوضع حد لتهيجها لكي تمارس نشاطها فى نظام مع مطلع الميلاد الجديد .

كل هذه الشعائر والطقوس هي فى تكوينها البنائي نوع من سحر المشاركة كما شرحه **فريزر** فى كتابه « الغصن الذهبي » . وهي تنبع اصلا من حاجة الانسان الشعبي الى تحرير نفسه من اسر الاحساس بالزمن عن طريق استحضار النموذج القديم الذى يجعله يشعر بانه معاصر للخطة الميثولوجية لبداية الحياة .

---

(٣) Op. Cit. P. 39-40.

(٤) Mircea Eliade : Cosmos and History, P. 57, 58 (New York, 1959).

وهــو يشعر بالحاجة الى العــودة الى تلــك اللحظة أكبر وقت ممكن ، لكي يجدد نفســه ويجدد حياتــه . وسواء كانت تلك الطقــوس جمعية أو فرديــة ، وسواء كانت دوريــة او تلقائية ، فانهاتحتوى فى بنائهاعلى معنى الاحياء عن طريق تكرار الفعل القديم ، الــذى غالبــا مايكون فعلا قد شارك فى تكوين الكون لأول مرة . وكل مايهمنا من سرد هذه الامثلة هــو تأكيــد نزوع الانسان الى محو الزمن الحسى .

واكثر ما يؤكد لنا هــذه الفلسفة ، تعلــق الانسان الشعبي منــذ القــدم بالقمر ، بحيث صاغ حوله الاساطير التي سنشير اليها وشيكا .

فاذا كان القمر قد اسعف الانسان بقيــاس الزمن بطريقــة حسية ، وذلــك قبل ادراكــه للحساب الشمسي بزمن طويل ، فان القمــر فى الوقت نفســه رمز للعودة الابدية . انه النمط القــديم للاستمرار الذى يحــن اليه الانســان الشعبي ويصارع الحياة من اجلــه . فكما ان القمر يبزغ ثم يكتمل ثم يتمزق ويختفى ثم يعود للحياة مرة اخرى ، فكذلك يولــد كل شــيء فى الحياة ، وينمو ثم يعود للحياة مرة اخرى .

(٢)

وفى مرحلة تالية لذلك كان ينظر الى الملــك عند شعوب الحضارات القديمــة ، بل وعنــد بعض سكان افريقيا الاصليين فى العصر الحاضر ، كان ينظر اليه بوصفه ممثلا للاله .

فقد كان الملك عند الاغريق يعد ممثلا للالــه زيوس . وقد كانت الواجبات الملقاة على كاهل هذا الملك من المشقة بمكان ، بحيث لا يمكــن ان يقوم بها سوى رجــل خال من اى عيــب جسدى او عقلي ، اى لابد ان تتوفر لهذا الملك الحيوية والشباب طالما كان يحكم شعبه . لقد كان شعبه يطلب منه ان يكون مهابا من الرجال الاقوياء ، وان يستطيع ان يحكم بالعدل بينهم ، وان تنبت الارض طول مدة حكمه الشعير والقمح وتحمل الاشجار الفواكه والثمار الطيبة . ويلد القطيع الصغار ، كما يتوالد السمك فى البحار ، وان يعيش الشعب فى رخاء دائم . والملــك يقدر على تحقيق كل هذا لشعبه اذا كان خاليا من اى عيب جسدى او عقلــي ، اما اذا كــان مريضا على نحو ما ، ابتليت مملكته بالمرض . « ولهذا فقد حذرت النبوءة الاسبرطيين مــن الحكم الاعرج » (٥) .

وقد روى فريزر ما يشبه هذا التصور عند الاغريق ، عن قبيلة الشلوك التي تسكن النيل الابيض فى منطقة تمتد من الشاطىء الغربي عند مدينة كاكا فى الشمال الى بحيرة نو فى الجنوب ، كما تسكن الشاطيء الشرقــي من النهر مــن فاشودة الى التوفيقية . فملكهم الذى كان يقيم فى فاشودة ، ينظر اليه بوصفه تجسيدا للبطل المؤله « نياكنج » الذى كان اول من استوطــن بقبيلته هذا المكان وفقا لاسطورتهــم . وقــد كان هذا البطل يؤله بوصفه مانح المطر . وعلى الرغم من تقديس القبيلة للملك على هذا النحو فانه لم يكن يسمح له بأن يصير هرما ضعيفا ، والا سرت عدوى الضعف الى قبيلته ، فيمرض القطيع وتذبل المحاصيل ويموت الرجال باعداد كبيرة ، واحدى علامات ضعف هذا الملك عجزه عن تحقيق رغبات زوجاته اللاتي يمتلك منهــن العدد الكبير . فاذا حدث هذا رفعت الزوجات شكواهن الى رؤسائهن الذين يشرعون علــى الفور فى تعريض الملك العجوز للقضاء ، واحلال ملك شاب قوى مكانه (٦) .

---

(٥) From Ritual to Romance : P 58.

(٦) Frazer : The Golden Bough, Vol. V. PP. 17 et seq.

وكل هذا يعنى ان الملك لم يكن مجـردرجل يحكم ، بل كان تجسيدا لقوة الهيـة مرتبطة بخصب الارض ورخاء الناس ، وقدرة الانسان والحيوان على الاخصاب. انه نصف اله ونصف انسان ، ومركزه يقع بين الناس والارض مـن ناحية ، والقوة الخفية التي تتحكم فى مصائـر الناس من ناحيـة اخرى . وسواء كان هـذا الملك هو ادونيس او تموز ، أو كان ملكا حقا ، فان نسيج قصته واحد ، وطقوس الاحتفـال بموته وبعثه واحدة . ويتالف نسيج القصـة اساسا من مجموعة من المتناقضات هي الموت والبعـث ، والجـدب والخصـب ، والحزن والبهجة .

وقد ظلل تأثير هـذه الاساطير ممتدا حتى العصـور الوسطى . فقـد شاع فى القصـص الرومـانسي فى هـذه الفتـرة فى أوروبا نمط قصصي هو قصة « الملـك الصيـاد والكاس »
The Fisher King and the Grail
وقد درست جيسي وستون « هذه القصة فى كتابها القيم « مـن عصر الطقوس الى العصر الرومانسي » ، بقصد الكشف عن اصول هذه القصة ، وتفاصيل الطقوس والاساطير القديمة الخاصة بتجدد الحياة ، يؤكد ان قصة الملك الصياد والكأس ليس سوى امتداد للاساطير القديمة . ولا يرجع ظهور هذه القصة فى الادب الـرومانسى فى العصور الوسطى الـى مجرد تقليد هذا الأدب الشعبي القديم واستيحائه لبعض نماذجه ، بل يرجع الى امتداد الاعتقاد القديم فى حد ذاته ان الحياة تتجد كلما آل بها الزمن الى الهرم ، وان هذا التجدد يحتاج الى اجراء طقوس معينة لكي تعود القوة والحيوية الى الشخوص الاسطورية التي يرتبط شبابهـا بشباب الارض ومن عليها .

وتتلخص هذه القصة فى اكمل رواياتها فى ان الملك الصياد كان يعاني من ضعف بسبـب مرض او بسبب الهـرم . ولو كان ضعف هذا الملك يعنيه وحده ، لما اهتم بذلك احد ، ولكن هذا الضعف الجسدى ، وربما العقلي كذلـك الذى انتابه ، هدد بلاده بالخراب. وكان يتطلب الامر ، لكي يستعيد الملك قواه وحيويته ، ان يرحل فارس شاب الى قلعة بعيدة يكتنفهـا الغموض ليحضر منها السيف والكأس . ومـا ان وطئت قدماه هذا المكان حتى بدت له اشياء يقف لها شعر الراس رعبـا . فقد بدا لـه فى السكون والظلمة المخيمة على المكان ، جسـد ميت ، كما امتدت اليه يد مدمية من مكان مجهول ، والى جانب هذا سمع اصواتا مرعبة تحذره من الاقتراب من هدفه ، ولكن الفارس البطـل ، استطاع رغم كل ذلـك ، مستعينا بتعاويـذه السحرية ، ان يصل الى مطلبه . ثم راح بعـد ذلك فى سبات عميق . فلما استيقظ وجد أن القلعة قد اختفت ، وابصر نفسه يسير وسط ربوع خصبة مليئة بالورود . وعندما عاد الى بلده ، حيث ترك الناس يبكون ويولولون بسبب الخراب الذى يتهددهم ، وجد المأتم قد انقلب الى فرح وسعادة ، ووجـد الناس ينتظرون قدومه لكي يستقبلوه استقبال البطل الـذى استطاع أن يعيد للملك شبابـه ولحياتهـم الخصب بعدان تمكن من الحصول على الكاس والسيف .

هذه القصة التى وردت فى ملحمة الملك آرثر وفى قصـة برسيفال ، وربما فى غير ذلك مـن القصص الـذى شاع فى العصـور الوسطى ، تشبه ولا شك الاساطير الطقوسية التي سبق أن أوردناها .

واذا كان الباحثون قد انتهوا الى ان الكأس يرمز للانثى ، وان السيف يرمز للذكر ، فان دواء الملك الذى يسعى الفارس فى الحصـول عليه اذن ، يتمثـل فيما يمكن أن يعيد للملك قواه الجنسية لكي يكون قادرا على الاخصاب فتخصب الارض ، نتيجة لذلك ، بتأثير سحر المشاركة .

ولا ننسى ان نذكر فى هـذا المجال ان لقب « الملك الصياد » هو فى حد ذاته الرمز الـذى تدور حوله الاسطورة باكملها . ذلك ان السمكة تعد رمزا للاخصاب منذ العصور القديمة حتى اليوم ومعنى هـذا ان الملك الـذى يرتبـط شباب الارض بشبابه ، ينبغي ان يكون ممتلكا لمصدر الاخصاب وما يتولد منه ، وهو الماء .

على أن أساطير الخصب القديمـة لم يقف تأثيرها عند هذا الحد، بل مايزال تأثيرها وتأثير المعتقد نفسه جليا فى الحياة الشعبية المعاصرة وفى التفكير الشعبي بصورة او باخرى . فاحتفالات الربيع التي تجرى فى جميع أنحاء العالم ، ومن بينها احتفالنا الشعبي بشـم النسيـم ، ليس سوى تكرير للطقوس القديمة، وان غاب المضمون الديني المقدس عن هذه الاحتفالات . وقد اعتاد الاطفال فى بعض قرى مصر ان يصنعوا عروسة من الخشب او القماش ويلبسوها ، ويطوفوا بها فى الشوارع ليلة الاحتفال بشم النسيم ، ثم كانوا يحرقون العروس فى نهاية الاحتفـال ويلقوا بها فى النيل وهم يغنون :

عروسة شم النسيم

كل سنة وانتم طيبين

عروسة شم النسيم

سنة يبضه علىّ حاضرين

قوم اصحى يا وخم

قوم اترك البلد

فالعروسة هنا رمز للسنة المنصرمة التى اصابها الهرم بحلول فصل الشتاء ، ولابد لهذه السنة أن تتجدد بحلول فصل الربيع . ولهذا فان العروسة يلقى بها فى الماء لانه اصـل كل شيء حي كما سبق أن ذكرنا ، ومن هنا نفهـم الصلة بين الاغنية وحرق العروسة، إذ ان الاغنية تتمنى للناس بعد القضاء على الشيء البالى ، عاما كله خير وبركة ، مليئا بالحيوية والنشاط،

وليس احتفال الشعب بالزواج وفقا لطقوس معينة ، ودعاؤهم للعروس ليلة زفافها بقولهم : « ربنا يجعلك شجرة تطرح وتملا المطرح » ، سوى تعبير عن الاحتـفال باستمرار الحيـاة المتمثلة فى جيل مخصب يعقب جيلا أصـابه الجدب والهرم ، بل أن الربط بين الشـجرة المثمرة والعروس المخصبة لأكبر دليل على حنين الشعب لان يرى الاخصاب المتجدد فى كل مظاهر الحياة .

ويحتفل الشعب بميلاد الطفل بطقوس معينة حيث أن هذا الميلاد رمز لاستمرار الحيـاة . ولهذا فان الشعب يحيط هذا الميلاد الجديد بكل ما يضمن له البقاء والاستمرار ، فهـو يحميه من الارواح الشريرة عن طريق تعاويذه وطقوس سحره ، وهو يجرى له احتفالا خاصا فى اليوم السابع من ميلاده عندما تفارقه الملائكة وفقا لاعتقاده ، بعد أن رعته من الشر الذى يكون معرضا له أكثر ما يكون فى السبعة أيام الاولى من ميلاده . وفى هذا الاحتفال يدق الهاون حتى تهرب الارواح الشريرة التى تفزع من صليل النحاس ، كما أنه يضع بجانبه الماء من القلة أو الابريق ، وكذلك يضع سبع حبات فى الماء كي تنبت . وهذا تعبير رمزى مجسـد مغزاه أن تكون حياة الطفل جارية جريان الماء، ونضرة نضرة الزرع .

وحنين الشعب الى الزمن الاسطورى يدفعه لأن ينتزع الشخصيات الجذابة التى تروقه لسبب أو لآخر من اطارها التاريخى ويضـعها فى قالب أسطورى . ومن هنا ظهرت أساطير هرقل وجلجامش ومارجرجس ، والسـيد البدوى ، وعنترة وغيرهم . وكلها ينزع الى تشكيل الحدث الواقعى فى شكل أسـطورى ، بحيث يصبح هذا الحدث الاسـطورى هـو الأصل، والحدث الواقعى صورة ممسوخة له . ونلاحظ أن كل هذه الشخوص صارعت القوى المهولة سواء كانت تنينا أو غيره ، لأن هـذا الفعـل وحـده يكفى أن يزج بهـا فى الزمن

الاسطورى ويبعدها عن الزمن التاريخى . وكلما ارتبطت الشخصيات بطقوس معينة تمارس دوريا على سبيل الاحتفال بذكرها ، عاشت هذه الشخصيات على الدوام فى ضمير الشعب. ولهذا كانت شخصية القديس مار جرجس والسيد البدوى على سبيل المثال ما تزال وسوف تظل ماثلة فى نفوس الشعب المصرى ، فى حين أن شخصيات السير الشعبية مثل **الظاهر بيبرس وعنترة** قل حجمها بمجرد اختفاء الانماط القصصية التى نسجت حولها، وذلك لعدم ارتباط تلك الشخصيات بطقوس معينة .

واذا قام الانسان الشعبى بعمل تتعلق حياته بنتيجته ، سرعان ما يشعر بسيطرة العالم المقدس عليه ، أو لنقل انه سرعان ما يتجاوز العالم المعلوم الى العالم الغيبى ، حيث يعيش فترة فى الزمن الاسطورى المقدس ، فقد حكى لنا صياد من منطقة رشيد الساحلية فى مصر عن تجربته الشخصية عندما يخرج للصيد من رشيد متوغلا فى أعماق البحار فقال : عندما نقف على الشاطىء ، وقد استعد المركب للاقلاع نوجه بصرنا الى ضريح الشيخ أبى مندورالذى يقع قبالتنا على الساحل الآخر . فاذا بشعلة خافتة من الضوء تخرج من هذا الضريح وتتجه الينا . عند ذاك نتوكل على الله ونبحر والضوء ملازم لنا كأنه النور الهادى لنا فى الطريق . ويظل هذا الضوء يصحبنا حتى نجتاز المنطقة الخطيرة . وعند ذاك ينحسر الضوء ويرتد الى الضريح ، وبعد ذلك نشتم رائحة بخور عطر تنتشر فى الجو .

وقد يبدو هذا السلوك ساذجا لمن هو بعيد عن روح الحياة الشعبية ، ولكننا عندما نتعمق فى طبيعة الانسان الشعبى ، ندرك أن هذا السلوك ينتمى الى فلسفته العامة فى اكساب كل ما هو دنيوى طابعا دينيا مقدسا ، لان الحقيقة الكبرى لا تتمثل الا فى هذا الشىء المقدس . ومن ثم فقد نقل الحدث الحسى الى الزمن اللا حسى الاكبر حيث تقضى القوة الخيرة على القوة الشريرة ، فتعود للحياة صيرورتها الدائمة ونظامها .

(٣)

ويتنوع تجسيد الشعوب لفكرة الزمن اللامتناهى بحيث تأخذ أشكالا عدة تكون منبعا لتراث شعبى خصب . وقد سبق أن رأينا كيف انتشرت فى التراث الغربى حتى العصور الوسطى فكرة الملك المقدس الذى يتحتم عليه أن يظل شابا مليئا بالحيوية والا قضى عليه بالموت . اما فى مجتمعنا العربى ، فقدتجسدت فكرة الزمن اللامتناهى فى شخصية **الخضر** وفيما صيغ حولها من روايات .

فمن هو الخضر ؟ ولماذا سمى بهذا الاسم ؟ يفاجئنا هذا الاسم فى شرح المفسرين للآيات القرآنية التى تحكى عن مقابلة **موسى** عليه السلام للشخصية المجهولة عند مجمع البحرين على نحو ما ورد فى سورة الكهف فى قوله تعالى « **واذ قال موسى لفتاه لا أبرحُ حتى ابلغَ مَجمعَ البحرين أو أمضى حقبًا . فلما بلغا مجمع بينهما ، نسيا حوتهما فاتخذ سبيلَه فى البحر سربًا . فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا . قال أرايت اذ أوينا الى الصخرة فانى نسيتُ الحوت وما أنسانيه الا الشيطان ان أذكرَه واتخذ سبيله فى البحر عجبا . قال ذلك ما كنا نبغِ ، فارتدا على آثارهما قصصا . فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما** » .

وقد أورد الطبرى على عادته روايات عدة تشرح سبب نزول هذه الآيات وتفسرها فى الوقت نفسه . ومن بين هذه الروايات أورد رواية هذا نصها : « **ان موسى** هو نبى بنى اسرائيل سأل ربه فقال : أى رب ان كان فى عبادك أحد هو أعلم منى فادللنى عليه . فقال له : نعم فى عبادى من هو أعلم منك . ثم

نعت له مكانه وأذن له فى لقيه . فخرج موسى ومعه فتاه ومعه حوت مليح وقد قيل له : اذا حيى هذا الحوت فى مكان فصاحبك هنا لك وقد ادركت حاجتك. فخرج موسى ومعه فتاه، ومعهما ذلك الحوت يحملانه. فسار حتى جهده السير وانتهى الى الصخرة **والى ذلك الماء ، ماء الحياة ، من شرب منه خلد ولا يقاربه شىء ميت الا حيى** . فلما نزلا ومس الحوت الماء حيى فاتخذ سبيله فى البحر سربا . فانطلقا . فلما جاوزا منقلبه قال موسى : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا . قال الفتى وذكر : « ارايت اذ اوينا الى الصخرة فانى نسيت الحوت وما انسانيه الا الشيطان ان اذكره ، واتخذ سبيله فى البحر عجبا . » قال ابن عباس : فظهر موسى على الصخرة حتى انتهيا اليها . فاذا برجل متلفف فى كساء له : فسلم موسى فرد عليه السلام ثم قال له ، ماجاء بك ان كان لك فى قومك شغل ؟ قال له موسى: جئتك لتعلمنى مما علمت رشدا . قال : انك لن تستطيع معي صبرا . وكان رجلا يعلم علم الغيب قد علم ذلك . » (٧)

وفى رواية اخرى ان رجلا من بنى اسرائيل سأل موسى : « هل على الارض احد اعلم منك يارسول الله ؟ قال : لا . فبعث الله جبرئيل الى موسى عليهما السلام فقال : ان الله يقول: وما يدريك اين اضع علمى . بل ان على شط البحر رجلا أعلم منك . فقال ابن عباس : هو الخضر . فسأل موسى ربه ان يريه اياه . فاوحى الله اليه ان ائت البحر فانك تجد على شط البحر حوتا . فخذه فادفعه الى فتاك ثم الزم شط البحر . فاذا نسيت الحوت وهلك منك ، فثم تجد العبد الصالح الذى تطلب » . (٨)

وروى ان **ابن عباس** تمارى هو **والحر بن قيس بن حصن الفزارى** فى صاحب موسى : فقال ابن عباس : « هو خضر . فمر بهما **ابى بن كعب** فدعاه ابن عباس فقال : انى تماريت انا وصاحبى هذا فى صاحب موسى الذى سأل السبيل الى لقيه . فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر شانه ؟ قال : انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : بينا موسى فى ملأ من بنى اسرائيل اذ جاءه رجل فقال : تعلم مكان أحد اعلم منك؟ قال موسى : لا . فأوحى الله الى موسى : بل عبدنا خضر . فسأله موسى السبيل الى لقيه . فجعل الله له الحوت آية وقيل له : اذا فقدت الحوت فارجع فانك ستلقاه . فكان موسى يتبع أثر الحوت فى البحر . فقال فتى موسى لموسى : ارايت اذ اوينا الى الصخرة فانى نسيت الحوت . قال موسى : ذلك ما كنا نبغ، فارتدا على آثارهما قصصا ، فوجدا عبدنا خضرا ، وكان من شأنهما ما قص الله فى كتابه . » (٩)

من كل ذلك نستخلص ما يلى :

اولا : ان الآيات القرآنية لم تذكر اسم ذلك العبد الذى لقيه موسى ، بل اقتصرت على الاشارة الى كنهه فى قوله تعالى : **فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما »** . وعندما شرع المفسرون فى شرح الآية ، والحوا على تحديد اسم هذا العبد حتى تتحدد شخصيته ويصبح تجسيدا لطبيعة مميزة بأفعالها وروحانياتها . وهذه الطبيعة لا تنتمى الى الطبيعة البشرية كلية ، بل انها تخرج عن دائرة الانبياء المعروفين لتدخل فى مجال اشد قربا الى الطبيعة الالهية ، واكثر ابتعاداً عن الطبيعة الانسانية . وعندما سميت

---

(٧) الطبرى : جامع البيان عن تأويل آى القرآن : جـ ١٥ ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

(٨) نفسه ص ٢٨١ .

(٩) نفسه ص ٢٨٢

هذه الشخصية باسم أطلق عليها اسم الخضر وليس هناك شك في أن الاسم يعنى الخضرة أى النضرة الدائمة .

ثانيا : ان اكثر ما يميز هذه الشخصية هو وصولها الى العلم الغيبي . وعلى الرغم من ان موسى نبي الا ان الآيات شاءت أن تؤكد ان نبوته لم ترفعه كلية عن مستوى قدرات البشر العاديين . ولهذا فان أول ما يفاجئنا فى الآيات، ادراك هذا العبد بأنه أرفع قدرا من موسى ، ولم ينس لذلك أن يذكر موسى بهذا الامر منذ بداية مقابلته له وطوال رحلته معه : « قال له موسى : **هل اتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا . قال انك لن تستطيع معى صبرا . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا . قال ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا اعصى لك امرا. قال فان اتبعتنى فلا تسالنى عن شيء حتى احدث لك منه ذكرا** » . فلما الح موسى على أن يعرف منه ما عجز علمه عن ادراك مغزاه ، ذكره العبد اكثر من مرة بوعده له بانه لن يتدخل فى شئونه فكان موسى يعتذر له المرة تلو الاخرى . حتى اذا نفد صبر موسى والعبد معا ، شرع العبد فى ازاحة الستر الذى يقف حائلا بين موسى وبين ادراك الحقيقة الغيبية ، ولكنه فارقه واختفى أثر ذلك . « **قال هذا فراق بينى وبينك ، سانبئك بتاويل ما لم تستطع عليه صبرا** » . وكان العبد أو الخضر، فى أثناء تفسيره لمغزى ما أقدم عليه من فعل يبدو فى ظاهره منكرا ، وان كان فى باطنه فعلا طيبا ، ينسب الارادة لنفسه : « **فاردت أن اعيبها** » « **فخشينا ان يرهقهما طغيانا وكفرا** » « **فاردنا ان يبدلهما ربهما خيرا منه زكاةواقرب رحما** » . حتى اذا جاء الى نهاية تفسيره « ذكر ان الارادة الالهية هي التى أودعته سرها » : « **وما فعلته عن امرى** » . ومعنى هذا انه بعد أن منح هذا السر الالهى ،اصبحت له قدرة التصرف وفقا لما ينجلى له باطن الامر.

ثالثا : ان العلامة التى أعطيت لموسى للتعرف على هذا العبد المجهول ، تحددت أولا فى العثور عليه فى مكان ما ، سمى بمجمع البحرين ،واثر حادث غريب هو أن السمكة المملحة التى كان يحملها فتى موسى لابد أن تحيا اثر تسربها فى البحر . ولهذا عندما أعلم الفتى موسى بأن السمكة تسربت فى البحر ، على نحو ما ورد فى الآية الكريمة : « **أرأيت اذ اوينا الى الصخرة فانى نسيت الحوت وما أنسانيه الا الشيطان، أن أذكره ، واتخذ سبيله فى البحر عجبا .** » فرد موسى قائلا على الفور : «**ذلك ما كنا نبغ**» ولعل هذا ما دفع بعض المفسرين لأن يوضح طبيعة الماء الذى تسربت اليه السمكة ، أو بالأحرى الحوت ، بقوله : « فسار (أى موسى) حتى جهده السير وانتهى الى الصخرة والى ذلك الماء ، ماء الحياة ، من شرب منه خلد ولا يقاربه شيء ميت الا حيى . فلما نزلا ومس الحوت الماء حيى « **فاتخذ طريقه فى البحر سربا** » . والواقع ان حتمية وجود العبد الصالح أو الخضر عند هذا الماء بعينه الذى حيي فيه الحوت يدعو الى التساؤل : هل هناك علاقة بين عودة الحياة الى الحوت اثر لمسها لهذا الماء ، وبين وجود الخضر فى هذا المكان ؟ وبمعنى آخر : هل يعد هذا العبد الصالح خالدا لكونه كان يعيش عند نبع الخلود الذى شرب منه بالضرورة ؟ وهل اصطلح ،لهذا السبب بعينه ، على تسميته بالخضر اى الذى يتصف بالنضرة الدائمة ؟ هذا على الاقل ما رسخ فى نفوس الشعوب الاسلامية ، وساعد على أن تعيش هذه الشخصية فى ضمائر الناس بوصفها تجسيدا للزمن اللامتناهى .

ونحاول الآن أن نرى كيف استغلت هذه الشخصية فى الروايات الشعبية .

لعب **الخضر** دورا مهما فى حياة بعض الشخصيات التاريخية البارزة التى نسج حولها القصص الشعبى. ومن تلك الشخصيات شخصية ذى القرنين التى ورد ذكرها فى القرآن

الكريم . ووفقا للرواية الشعبية المدونة التى رواها وهب بن منبه فى كتاب « التيجان فى ملوك حمير » عن ذى القرنين ، ان الصعب ذا القرنين ـ كما يسميه ـ راى فى مطلع حياته ، وقبل ان يقوم بمغامراته العجيبة ، راى رؤى غريبة على مدى أربع ليال على التوالى . فقد راى فى الليلة الأولى « أنه يرقى جبلا عظيما منيعا لا يسلك فيه سائر من هول ماراى ، اذ اشرف على جهنم وهي تحته تزفر وامواجها تلتطم » ورأى فى الليلة الثانية « كأنه نصب له سلم الى السماء ورقى عليه ، فلم يزل يرقى حتى بلغ الى السماء ، فسل سيفه ثم علقه مصلتا الى الثريا ، ثم أخذ بيده اليمنى الشمس واخذ بيده اليسرى القمر ، ثم سار بهما وتبعته الدرارى والنجوم ثم نزل بهما الى الارض ، فلم يزل يمشى بهما وتبعته النجوم فى الارض » وفى الليلة الثالثة راى « كأنه جاع جوعا شديدا وظهر الى الارض فصارت له غذاء ، فاقبل عليها يأكل جبلا جبلا وارضا أرضا حتى أتى عليها كلها ، ثم عطش فاقبل على البحار يشربها بحرا بحرا حتى أتى على السبعة ابحر . ثم أقبل على المحيط يشربه فلما أمعن فيه اذا هو بطين وحمأة سوداء لم تسغ له بما أتاه . فلما نام فى الليلة الرابعة « رأى كأن الانس والجن أتوه من الارض كلها حتى جلسوا بين يديه ، ثم اقبلت البهائم والانعام من الارض كلها حتى جلست بين يديه . ثم اقبلت الوحوش من الارض كلها حتى جلست بين يديه ، ثم أقبلت الطير كلها حتى أظلته ، واقبلت الهوام من جميع الارض كلها حتى حفت به ، ثم اقبلت الرياح حتى استدارت فوقه » (١٠)

وكان من الطبيعي أن يشعر ذو القرنين بقلق بسبب هذه الرؤى ، ولهذا فقد سعى الى من يفسرها له . وأشار عليه احد حكماء قومه بقوله : « ليس على الارض من يفسر تأويل رؤياك الا نبي بيت المقدس من ولد اسحق ابراهيم الخليل . « فاستعد الاسكندر لمقابلته » فلما نزل بيت المقدس سأل عن النبى الذى ذكر له ولم يطلب شيئا غيره حتى ظهر عليه . قال له الصعب : أنبي أنت ؟ قال له موسى الخضر : نعم . عند ذلك قص عليه ذو القرنين ما رآه فى رؤياه . فاعلمه الخضر بأنه مقدم على مغامرات وفتوحات وانه سيصطحبه فيها . وسار ذو القرنين يفتح البلاد البعيدة التى يسكنها أقوام غرباء والخضر بصحبته . وكان كلما عن له أمر من الامور ، سأل الخضر ، وكان الخضر يجيبه فى غير تعنت . حتى اذا اقتربا من صخرة ، حاول ذو القرنين أن يرقاها عدة مرات ، ولكنها كانت فى كل مرة تنتفض وترتعد وتقعقع . فلما دنا منها الخضر سكنت فرقى عليها ، فلم يزل يرقى وذو القرنين ينظر اليه والخضر يطلع الى السماء حتى غاب عنه . فناداه مناد من قبل السماء . امض أمامك فاشرب فانها عين الحياة ، وتطهر فانك تعيش الى يوم النفخ فى الصور ، ويموت أهل السماوات وأهل الارض ، فتذوق الموت حتما مقضيا ... فلما رجع الخضر الى ذى القرنين ، قال له : ياذا القرنين انى شربت من ماء الحياة وتطهرت منه واعطيت الحياة الى يوم النفخ فى الصور وموت أهل السماوات والارضين ثم أموت حتما مقضيا ، ومنعت أنت ذلك ولك مدة تبلغها وتموت ، فارجع فليس بعدها مزيد لانس ولا جن » (١١)

ولم تقف هذه الحقيقة ، رغم هولها ، دون مواصلة ذى القرنين لمغامراته فى العالم المجهول بعد أن فرغ من غزو العالم المعلوم . وذات مرة قاده الطريق الى مكان تشيع فيه الرهبة ويشيع فيه السكون . ولم يكن قد ادرك انه قد تجاوز

---

(١٠) انظر كتاب « التيجان فى ملوك حمير » عن وهب بن منبه رواية ابى محمد عبد الملك . ط . حيدر اباد . من ص ٨٢ الى ٨٤ .

(١١) انظر نفسه من ص ٨٦ الى ٩١ .

حدود الارض الى عالم الملائكة . وفجأة برز له شخص أخذ يزجره على نهمه الذى دفعه لان يتجاوز عالم الانس الى عالم الملائكة . وفى النهاية قدم له هذا الشخص حجرا صغيرا وقال له : « زنه بما ترى عينك فى الدنيا ، فان لك فيه عظة وعبرة » . فأخذ ذو القرنين الحجر « فوزنه بجميع جواهر الارض فرجح عليه ، ولم يزل يرجح كل ما وزنه به ، ولو وزنه بالكثير من جميع ما فى الارض ما وزنه ، والخضر ينظر اليه ساكنا ، قال له ذو القرنين: يا ولي' الله ، هل عندك علم من هذا المثل ؟ قال له : نعم هذا الحجر مثل لعينيك ، لم يملأ عينك جميع ما فى الارض ، مثل هذا الحجر الذى لم يرجح عليه شىء فى الارض ، ولكن هذا يملؤها . ومد يده فأخذ قبضة من تراب فجعلها فى الكفة وجعل الحجر فى الكفة الاخرى فرجح عليها التراب وخف الحجر . قال له الخضر : هذه عينك لا يملؤها الا التراب وهو الغالب عليها . » (١٢)

هذه هى رواية وهب بن منبه لقصة ذى القرنين . وهي تشبه الى حد كبير رواية عبيد بن شريّه ، عن ذى القرنين فى كتابه « أخبار اليمن وأشعارها وانسابها » . ويختتم وهب بن منبه روايته بقوله : « ومات ذو القرنين بعد ذلك بفترة ، ثم غاب الخضر فلم يظهر الى أحد بعده الا لموسى بن عمران صلى الله عليه وسلم ، وعلى جميع النبيين . (١٣)

نستخلص من هذه الرواية مايلى :

١ ــ ان اسم الخضر فى هذه الرواية أصبح موسى الخضر . وهذا اعتراف ضمنى بأنه هو العبد الصالح الذى لقيه موسى عند مجمع البحرين ، وفقا لما اصطلح عليه المفسرون .

٢ ــ حدث خلط تاريخى فى الروايات الشعبية عندما تصور الرواة أن ذا القرنين الذى عرف بانه الاسكندر الاكبر (انظر الطبرى ج١٦ فى تفسير آية « ويسئلونك عن ذى القرنين » من سورة الكهف ، قد عاش قبل زمن موسى ، وبهذا يكون الخضر قد ظهر له قبل أن يظهر لموسى . بل ان أول ظهوره كان لذى القرنين ، ثم ظهر من بعده لموسى ولجميع النبيين كما تقول الرواية .

٣ ــ ان المضمون الاساسى الذى شاء الراوى الشعبى أن يبرزه فى قصة الاسكندر هو خلود الخضر فى مقابل فناء الانسان العادى مهما بلغت سطوته وبعد صيته . والسبب فى خلود الخضر شربه من عين الحياة أو ماء الحياة ، فى حين حرّم هذا على ذى القرنين . ولكن على الرغم من خلود الخضر ، فان خلوده ليس نهائيا ، فهو سوف يذوق الموت قبل البعث مباشرة كما وضح له الصوت الذى سمعه عندما رقى الصخرة فى قوله : « امض أمامك واشرب فانها عين الحياة ، وتطهر ، فانك تعيش الى يوم النفخ فى الصور ويموت أهل السماوات والارض فتذوق الموت حتما مقضيا . »

وقد نتساءل بعد ذلك : لماذا لم يمتد القصاص الشعبى بقصة الخضر مع سيدنا موسى بدلا من ربطه بين الخضر وذى القرنين مرة أخرى ؟ ونحن نرد على ذلك بانه من السمات الاساسية فى القصص الشعبى استغلال الحادثة الجزئية (الموتيف) فى أكثر من قصة ، بل ونقلها كلية فى بعض الاحيان من القصة التى ارتبطت بها أصلا الى غيرها من القصص المؤلف . وربما كانت أهم حادثة جزئية استرعت نظر القصاص الشعبى فى قصة الخضر وموسى ، هى خلود الخضر . فلما شاء أن يقابل بين الخلود الذى يحن اليه ، بل ويشعر

---

(١٢) المرجع السابق ص ١٠٢ .

(١٣) نفسه ص ١٠٩ .

انه جزء من تكوين هذا الكون ، وبين الفناء الذى قدر للانسان مهما بعد صيته ، ربط بين الخضر والاسكندر الذى لم يضارعه انسان فان فى فتوحاته .

هذا شيء ، والشيء الآخر هو أن شخصية الاسكندر الاكبر ، فى الحقيقة، لم تستهو خيال القصاصين العرب وحدهم ، بل استهوت خيال جميع القصاصين فى بلاد العالم على وجه التقريب . وتكاد تتفق الروايات العربية والاجنبية جميعا حول رغبة الاسكندر الملحة فى الحصول على الخلود ، كما انها تتفق جميعا فى انه حرم هذا الخلود، فى حين قدر لشخصية اخرى هي الخضر فى الروايات العربية وطاهى الاسكندر فى الروايات الغربية . فتحكى هذه الروايات الاخيرة ان الاسكندر قام بمغامرة الى بلاد الظلمات بهدف الوصول الى منبع الفرات حيث يوجد نبع الخلود . وطال تجوال الاسكندر فى بلاد الظلمات دون أن يهتدى الى مطلبه . فلما تعب استقر مع طاهيه عند نبع تخيله نبعا عاديا كسائر الانبع التى مر بها . ثم طلب من طاهيه ان يعد له طعاما . فأخذ الطاهى سمكة مملحة ونزل فى النبع لكى يغسلها، ولكنه فوجيء بأن السمكة تحيا وتتسرب فى البحر . وادرك الطاهى توا أنه بازاء نبع الخلود . فأسرع وتجرع جرعات من مياهه ، واخفى خبر هذا الحادث عن الاسكندر . ثم أعد له طعاما آخر ، فأكلا معا ثم استأنفا سيرهما ، حتى بعدا كلية عن هذا النبع ، ولم يكن هناك سبيل للرجوع اليه . وشاء الاسكندر أن يستريح مرة اخرى ، ثم طلب من طاهيه أن يقص عليه حكاية لتسليته . فحكى الطاهى ، مدفوعا بغرابة ما حدث ، حكاية السمكة التى تسربت الى الماء وحييت . فتميز الاسكندر غيظا لخيانة الطاهى من ناحية ، ولاستحالة الوصول الى هذا النبع مرة اخرى » بل التعرف عليه فى تلك الظلمات الحالكة . فقام بدافع الغضب واليأس ، ورمى طاهيه بحجر كبير ليقتله . ولكن الطاهى كان قد اكتسب الخلود ، فلم يمت ، فأخذه ورماه فى الماء كي يغرقه ، ولكن الطاهي لم يغرق . عندئذ امسك به الاسكندر وربطه فى حجر ثقيل ورماه فى قاع الماء لكى يعيش حياته الخالدة مع الاحياء المائية . وهكذا فشل الاسكندر فى الوصول الى الخلود ، وهو الذى شقى فى سبيل ذلك ، فى حين حصل عليه شخص آخر لم يكن يسعى اليه .

وكما استغل القاص الشعبى شخصية الخضر فى حكاياته عن الاسكندر الاكبر ذى القرنين ، استغلها كذلك فى انماط أخرى من قصصه ونخص بالذكر هنا **سيرة الظاهر بيبرس** . واذا كان الخضر لا يظهر الا لأولياء الله الصالحين ، فقد ظهر دوما للظاهر بيبرس لانه كما تصوره السيرة ، كان على درجة كبيرة من الولاية . وتحكى السيرة على سبيل المثال، ان **الملك الصالح نجم الدين أيوب** ، بعث الظاهر بيبرس وبرفقته الوزير **ايبك** والقاضى **جوان** ، على راس جيش الى انطاكية ، لا لحصارها بل لاحضار ملك انطاكية اليه حيا . فلما حاول الجيش أن يعبر البحر ، فوجيء بأن ملك انطاكية قد اغلق البحر بالسلاسل الضخمة ، فوقف حيثما كان . ووجد ايبك وجوان ، اللذان كانا يكنان الحقد والغدر للظاهر بيبرس، وجدا ذلك فرصة لتحريض الجيش على التذمر ، فيضطر الظاهر بيبرس الى العودة دون أن يحقق رغبة الملك ، فيأمر الملك عندئذ بقتله . وتذمر الجيش وازداد تمرده عندما اشتد البرد وتفشى المرض بين الجنود ، ومع ذلك لم يفكر الظاهر بيبرس فى العودة ، بل كان يخرج فى ظلام الليل وحده يبتهل الى الله. وذات مرة ابصر مركبا يتجه نحوه ويرسو ، ثم تقدم اليه المركبى وحياه ، فلما نظر اليه الظاهر بيبرس عرف انه الخضر ، وطلب منه الخضر فى الحال أن يركب معه . فلما استقرا فى المركب هتف الخضر قائلا : باسم الله مجريها ومرساها . وفى لحظة كان المركب قد وصل الى شاطيء أنطاكية . عند ذاك قال الخضر للظاهر بيبرس: اذهب الى باب المدينة وستجد هناك رجلا فى انتظارك وسيقدم اليك صندوقا،

فخذه منه ، ولا تسأله بعد ذلك عن شيء .. ومشى الظاهر بيبرس حتى وصل الى باب المدينة وهناك قابله رجل وسلم اليه صندوقا. وسأله بيبرس عن اسمه فرد قائلا : تابعى الذى وراءك سيخبرك بذلك ، ثم اختفى الرجل فى طرفة عين . ولما عاد بيبرس الى المركب وجد الخضر فى انتظاره . فقال له معاتبا : الم انهك عن ان تسأل ذلك الرجل عن شيء ؟ ثم ركبا المركب وهتف الخضر قائلا مرة أخرى : باسم الله مجريها ومرساها . فوصل المركب فى لحظة الى الشاطيء الذى كان جيش المسلمين يقف عنده فى أشد حالات التململ . فلما استدار الظاهر بيبرس ليصافح الخضر ، كان الخضر قد اختفى . وعندما فتح الصندوق بعد ذلك ، وجد فيه ملك أنطاكية مغشيا عليه. فاغلق الصندوق وعاد بالجيش قافلا يحمل الغنيمة الى الملك الصالح نجم الدين أيوب .

وما تزال شخصية الخضر ماثلة فى نفوس الشعب العربى بصفة عامة والشعب المصرى بصفة خاصة (١٤) تجسيدا للزمن الأبدى الذى تتجدد دوراته ولا ينتهى . فالخضر لم يمت وهو موجود فى مكان ما . فاذا ذكره انسان تقى طيب للاستعانة به فى موقف متأزم ،حضر الخضر ، وان لم يظهر فى صورة مجسدة لكى يسهم مع الناس فى حل أزماتهم . وقد يشارك الخضر فى ذلك أولياء الله الصالحين الذين يعتقد الشعب فى مشاركتهم بأرواحهم الخالدة فى شئون حياته . ولكن الخضر يختلف عن هؤلاء فى أن وجوده لا يرتبط بضريح بعينه لانه لم يمت ، ومن ثم فهو باق بوصفه فكرة مجردة للبقاء الأبدى .

وهكذا نرى الى أى حد يحن الانسان الشعبى الى الزمن الاسطورى حيث يولد كل شيء وحيث لا يفنى شيء ، والى أى حد يدفعه هذا الحنين الى تجسيد فكرة الزمن الابدى ، فى صورة أو بأخرى .حقا ان شخصية الخضر لا تطابق شخصية الملك الصياد تماما، بمعنى أن قصته لم تذكر صراحة أن خصب الحياة مرتبط بشبابه وحيويته ، ولكن الخضر على نحو ما صور بوصفه عقلا وروحا ابديين يشاركان الحياة تجددها المستمر ، ربما كان أبعد رمزا وأكثر اتساقا مع فكرة الزمن الأبدى الذى لا ينتهى .

● ● ●

وعلى الرغم من أن الانسان الشعبى يقاوم الزمن الحسى عن طريق ممارسته للاحتفالات والطقوس التى يشعر من خلالها بأن حياته تسير فى نغمة متناسقة مع لحن الطبيعة المتجدد على الدوام ، وعن طريق تجسيد فكرة الزمن اللانهائى ، على الرغم من ذلك ، فقد حركت حقيقة المصير المقدر له مشاعره بحيث لم يستطع اخفاءها فى تعبيره الادبى . ولقد رأينا كيف استغلت شخصية الخضر فى رواية قصة الاسكندر ذى القرنين ، لا بهدف تأكيد هذا الرمز الأبدى لنضرة الحياة الدائمة فحسب بل اكثر من ذلك لتأكيد هذا التعارض بين حياة نضرة خالدة وحياة مؤقتة فانية من ناحية ، ورغبة الانسان الملحة وسعيه فى الحصول على الخلود من ناحية أخرى .وحول هذا المعنى يدور كثير من أروع نماذج القصص الشعبى ، ونسوق هنا بعضا منها .

قصة لقمان بن عاد صاحب النسور السبعة مشهورة فى التراث العربى . فقد روى (١٥) أن لقمان تمنى على الله أن يعيش أطول عمر ممكن فدعاه قائلا :

اللهم يارب البحار الخضر
والارض ذات النبت بعد القطر
اسألك عمرا فوق كل عمر

---

(١٤) ومن لم تكثر التسمية باسمى « خضر » و« خضرة » (فى الريف المصرى) .

(١٥) اخبار عبيد بن شرية الجرهمى (ط حيدر اباد)من ص ٣٥٦ - ٣٦٧ .

« فنودى ان قداعطيت ماسألت ولا سبيل الى الخلود . فاختر ان شئت بقاء سبع بعرات من ظبيات عفر ، فى جبل وعر ، لا يمسهاقطر، وان شئت بقاء سبعة أنسر سحم ، كلما هلك نسر أعقب نسر . فكان اختياره بقاء النسور. فبينا لقمان يدور ذات يوم فى جبل أبى قبيس بمكة ، سمع مناديا لا يرى شخصه وهو يقول : يالقمان بن عاد المغرور ، اطلع رأس ثبير ، أليس يعدو قدرك المقدور . فطلع رأس ثبير ، فاذا بوكر نسر فيه بيضتان قد تفلقتا عن فرخيهما ، فاختار لقمان أحد الفرخين(١٦) ثم عقد فى رجله سيرا ليعرفه وسماه المصون. ثم قال : المصون الخالص المكنون ، ومحذور السنون ، والباقى بعد الحصون الى آخر الدهن الخؤون » . ولكن الزمن ولى على هذا النسر ، وكبر وضعف ثم خر ميتا . فجزع (لقمان) لذلك جزعا شديدا ، وقال : هذا بلاء ، وانشأ يبكى نفسه ويقول :

موت المصون دل على أنا

نذوق الحمام حقا يقينا

ثم منح بعد ذلك النسر الثانى الذى سماه « عوضا » ، ولكنه لقى مصيره كذلك بعد وقت. وظلت نسوره تتساقط موتى واحدا تلو الآخر حتى لم يبق الا النسر السابع . فقال ابن اخ له : « ياعم ما بقى من عمرك الا عمر هذا . فقال لقمان : هذا لُبَدُ ولُبَد بلسانهم (اى بلسان العرب) الدهر ، وهو اسم نسر من نسور لقمان . فلما انقضى لبد ، رآه لقمان واقفا . فناداه : انهض لبد ! فذهب لينهض فلم يستطع فسقط ومات ، ومات لقمان معه»

وقد اغرم القصاصون العرب بتصوير الانبياء وهم يستقبلون الموت . وربما لم يقاوم نبى الموت ، وفقا لرواية هذا القصص ، كما قاومه موسى عليه السلام . فقد روى أن الله كلمه قائلا : « ياموسى : انى حكمت على جميع خلقى بالموت . فقال موسى : الهى وسيدى ، انى أخاف من الموت ومرارته . فنزل ملك الموت على موسى وهو جالس يتلو التوراة . فقال : السلام عليكم ياموسى . قال : وعليكم السلام ، من انت ؟ فقال : انى ملك الموت جئت لاقبض روحك . قال موسى : من أين تقبضها ؟ قال : من فمك . قال : كلمت به ربى . قال : فمن يديك . قال : قد اخذت بهما الالواح . قال : فمن اذينك . قال : سمعت بهما الخطب من ربى . فقال له : فمن رجليك. قال : قد وقفت بهما على جبل طور سيناء لمناجاة ربى . فقال له ملك الموت : انى أراك تكلمنى كلام من طلب المسكر . فعند ذلك اختلط عقله وقال : ما شربت خمرا قط . فدنا منه ملك الموت ليقبض روحه ، فلطمه موسى على عينه ففقأها . فرجع ملك الموت الى الله عز وجل فقال : يارب ، انك أرسلتنى الى عبد لايريد الموت ففقأ عينى . فرد الله عليه عينه وقال له : ارجع الى عبدى وقل له ، ضع يدك على متن ثور ، فلك بكل شعرة تحصل تحت يدك عمر سنة . فقال موسى : وما بعد ذلك ؟ قال : الموت . فقال : يارب الموت احب الى الآن . فقبض ملك الموت روحه » . (١٧) وقد قيل : « ان ملك الموت كان يجيء عيانا ، حتى جاء الى موسى فلطمه ففقأ عينه ، فاصبح يجيء مستترا » . (١٨)

وتعد ملحمة جلجامش البابلية اروع عمل أدبى قديم عالج موضوع صراع الانسان الفانى مع الموت .

---

(١٦) قال عبيد بن شرية : « انه كان ينظر الى اعظمهارأسا واجلها عظما » (نفسه ٢٥٧) .

(١٧) الكسائى : قصص الانبياء ــ ص ٢٣٩ .

(١٨) الثعلبى : قصص الانبياء المسمى بالعرائس :ص ١٩٣ .

لقد كان جلجامش ملك « ورقا » . وكان ثلثه انسانا وثلثاه الآخران الها . وكانت صورته الجسدية تثير الرهبة والخوف معا . كان جميع اهل ورقا فى خدمته ، الاقوياء والاسياد والحكماء والصغار والكبار ، بل والنساء كذلك فلم يترك فتاة لحبيبها ، ولم يترك زوجة لزوجها البطل ، حتى ارتفعت أصواتهن بالشكوى الى الاله الكبير ، رب السماء ورب « ورقا » : لقد خلقت الوحوش المفترسة والآساد الضارية ، ولكن جلجامش يفوقها قوة ، فمثله لم نر أحدا ، لم يترك الحبيبة لحبيبها ، ولا البطلة لزوجها البطل . واستمع الاله « أنو » لشكواهن ، ودعا الالهة «اورورو» خالقة البشر وقال لها : لقد خلقت الوحوش يوم ان خلقت مردوك ، اله مدينة بابل ، فاصنعى الآن مخلوقا يشبه جلجامش ويكون منافسا له ، حينئذ يعم « ورقا » الهدوء . وخلقت الالهة « انجيدو » انسانا قويا يملأ جسده الشعر ، ولا يعيش الا مع الحيوان البرى . وكان يقف متصدرا الغابة مثيرا الرعب فى قلب كل من يقترب من الغابة . وسمع جلجامش بهذا الانسان الغريب ينافسه فى قوته ، فعزم على أن يحتال عليه لاخراجه من الغابة . وكان قد رأى رؤيا فسرتها له أمه على أن مناوئا سيظهر له فى الميدان ، وسيصبح فيما بعد رفيقا له فى الكفاح . ونجح جلجامش فى اخراج « انجيدو » من مملكة الحيوان الى مملكة الانسان ، بل الى مملكة البطولة التى لا يقف فى سبيلها اى عائق .

وضجت الآلهة بمغامرات جلجامش التى كثيرا ما كانت تتجاوز عالم البشر الى عالم الآلهة ، ولهذا فقد عزمت على أن توجه اليه ضربة قاصمة تصرفه كلية عن تلك المغامرات الجريئة التي يتحدى بها الآلهة .

قال له انجيدو ذات يوم : « اننى رايت حلما اقض مضجعى ، رايت أن السماء تبرق وان الارض تهتز ، ورايتنى اقف وحيدا امام مخلوق وجهه مكتئب اسود كالظلام . لقد كان يبدو امامى شرسا ككلب المفاوز . وفى لحظة قذف بي بعيدا فى حفرة ، ثم حولنى الي شكل آخر ، واستبدل بذراعيّ جناحين وقال : الآن طر بجناحيك بعيدا حتى تصل الى طريق لامخرج للانسان منه ، فسر فيه ، حتى تقابل بيتا لا مخرج له ، فادخل فيه . هناك يعيش الناس فى حلكة دامسة ، فهم عن الضوء فى غنى » .

ولم يفهم جلجامش ان هذه الرؤيا كانت نذيرا بموت صديقه ورفيقه فى الكفاح ، اذ لم يكن قد فكر قط فى الموت من قبل . وفى يوم آخر استيقظ انجيدو من نومه مذعورا ودخل على جلجامش وقال له : « لقد تدبرت الآلهه امرها ياجلجامش وأحسبها انها تدبر هلاكى . ان حلمى الليلة كان مزعجا ، لقد أنبأتني بخطر عاجل . فقد ابصرت نسرا عظيما هوى من السماء ثم حملنى فى الفضاء عليا وظل يصعد بى الى السماء ، ثم قال لى : الق ببصرك الآن الى اسفل ، كيف ترى الارض وكيف ترى البحر ؟ فلما نظرت وجدت البحر كالقصعة والارض كقطعة العجين ، عندئذ تركنى أهوى من بين مخالبه ، فهويت من أعلى محطما . »

ولاول مرة يفكر جلجامش فى سلطان الآلهة ، اذ قال لصديقه : الويل لنا ان كانت الآلهة قد ارادت بنا سوءا . »

ثم تملكت انجيدو الحمى ورقد طريح الفراش ، ولكنه كان مازال يتحدث الى جلجامش ، وكان قلبه مازال يخفق . وفجأة كف انجيدو عن النظر الى صديقه ، وكف قلبه عن الخفقان . وفزع جلجامش وهزه فى عنف وهو يصرخ به : « صديقى انجيدو ، ألم تعد تسمعنى ، ألم تعد ترانى ؟ بل ألم تعد ترى الضوء ؟ » .

وظل جلجامش راقدا بجانب صديقه يبكيه بعويل مزعج طيلة ستة ايام وست ليال ، ثم حفر

له في اليوم السابع ودفنه . وخرج هائما على وجهه في البرارى . فقابله رجل أزعجه منظر الملك فاستوقفه وسأله : « ما الذى جعل وجهك هكذا شاحبا ؟ وما الذى أظلم روحك وأحنى جسدك ؟ ولماذا يمتلىء قلبك بشكوى مريرة تودان تفرغها فى أسى ؟ » وفتح جلجامش فمه فى مشقة وقال : « صديقى انجيدو الذى ارتبط بى كعضو من جسدى . . صديقى الذى تجولت معه ، وصارعت الآلهة معه قد وصل الى المصير الانسانى . . كيف يمكننى ان استقر وبمن يمكننى ان استغيث بعد أن أصبح صديقى ترابا ؟ وهل سألقى يوما مثل هذا المصير ثم أظل راقدا الى الابد ؟ » .

وكان جلجامش يعلم أن « أوتنا بشتيم » الانسان قد حصل على الخلود ، وانه يستقر هناك عند نهاية بحار الظلمات . فقرر أن يرحل اليه لعله يكشف له عن سر خلوده . ان الرحلة محفوفة بالمخاطر ، والاشكال المهولة تسد طرقاتها . ومع ذلك فقد اصر جلجامش العنيد على الرحيل ، اذ كان الامل عنده أقوى من الخوف .

واستطاع جلجامش أن يذلل كل صعوبة فى رحلته ، وكان كلما استوقفه حارس مفزع من حراس العالم الآخر ويتأهب لطرده والحيلولة بينه وبين السير فى الطريق الذى يحرسه ، يعود فيسمح له بالدخول عندما يقرأ في عينيه الاصرار والألم معا .

واخيرا وصل جلجامش الى **أوتنا بشتيم** فى سفينة يقودها نوتى أوتنابشتيم نفسه، على الرغم من أن هذا النوتى قد حذر من أن يأتى بانسان فان الى هذا المكان. فلما لمح أوتنابشتيم جلجامش برفقة النوتى ، صرخ بنوتيه لأنه يجيئه لأول مرة مصطحبا انسانا فانيا . ورد جلجامش على أوتنا بشتيم قائلا : « اننى جلجامش الملك ، وقد أتيتك من مكان بعيد للتحدث معك فيما يزعج خاطرى . لقد عذبنى موت صديقى انجيدو ، ولذلك فقد جئت اليك لعلك تشفى غلالة صدرى ، فترشدنى الى الوسيلة التى حصلت بها على الخلود ، لعلى أستطيع أن أرد الحياة لصديقى وأن احتفظ بها لنفسى . « عند ذاك رد عليه أوتنا بشتيم قائلا : « اترك شكواك وغضبك جانبا ياجلجامش أن الفرق كبير بين الآلهة والانسان . الموت للانسان والدوام للآلهة . واذا كان ثلثاك الها ، فان ثلثك الانسانى يدخلك في زمام البشر . ما ان يستقبل المولود ضوء الحياة ، حتى يجتمع « أنونانكى » الروح الاكبر مع **ماميثوم** الاله الخالق للمصاير ، ثم يديرا معا أمر هذا المولود ، فيقررا معا ولادته ووفاته . أما يوم ولادته فيعلنان عنه ، وأما يوم وفاته فيحتفظان به » .

والح جلجامش على أوتنابشتيم أن يكشف له سر خلوده . وكشف له **أوتنابشتيم** السر . لقد كان صراعا بين الآلهة أدى الى أن يأمر بعضها باغراق الارض ومن عليها . واختلفت الآلهة اثر ذلك ، وعقدت مجمعها وقررت فيه ان تنقذ انسانا واحدا من البشر حتى لاتفنى البشرية عن آخرها ، وكان هذا الانسان هو أوتنا بشتيم . انها حادثة حدثت مرة ، ولكنها لن تحدث مرة اخرى ، كما قال له أوتنابشتيم . وبعد ذلك أمره أوتنا بشتيم أن يصعد المركب ويعود الى « ورقا » . ولكن زوجة اوتنابشتيم التى كانت تستمع الى جلجامش فى ألم ، توسلت الى زوجها أن يكشف له عن سر آخر للخلود . فاشفق أوتنا بشتيم عليها وأفشى لجلجامش عن مكان عشب الخلود فى البحر الذى سوف يبحر فيه . فاذا عثر عليه وأكل منه أصبح خالدا . ودب الامل فى نفس جلجامش مرة أخرى ، وانتعشت روحه . وفى الحال استقل المركب مع النوتى الى المكان الذى حدده جلجامش . وهناك عثر على عشب الخلود ، فامسكه بين يديه والامل يحلق به ، ولكنه لم يشأ أن يأكل منه الا بعد ان يغتسل فى مياه البحر ، وينفض عنه غبار الرحلة ومتاعبها . ولهذا فقد القى العشب على الشاطىء ريثما يستحم ، وما كاد يخرج من

الماء فى اتجاه الشاطىء ، حتى أبصر حية تقضم آخر قضمة فى العشب . فنظر اليها جلجامش فى ذهول ، وهي تخلع عنها جلدها القديم وتكتسى جلدا جديدا . لقد عثر على عشب الخلود ، ولكنه حرم منه واستفاد به حيوان دنىء لم يسع اليه ، ولن يستمتع بمفعوله .

وهكذا باءت رحلة جلجامش بالفشل ، ولم يكن لديه من سبيل سوى أن يرحل الى «ورقا» وينتظر موته . (١٩)

والعلاقة واضحة بين الحكايات الثلاث التى سقناها ، وهي تعد جميعا من تراث الشعوب . فالبطل فيها يتمنى الخلود ويسعى اليه ، ويظل الامر يساوره زمنا فى الحصول على الخلود . ولكنه يقر فى النهاية بانه لن يحصل عليه لانه ينتمى الى الجنس البشرى . وعلى الرغم من أن هناك ما يسمى فى القصص الشعبى بعشب الخلود أو ماء الحياة الذى قد ينجح الانسان فى الوصول اليه على نحو ما فعل الاسكندر وجلجامش ، ولكن الوصول لا يعنى الحصول على الشيء . وكأن الفنان الشعبى شاء ان يؤكد ان الخلود موجود ، وهو قريب من الانسان ، لانه يمثل جوهر الكون الذى يعيش فيه ، وان فنى هو جيلا بعد جيل .

وطبيعى أن يكون الانسان الشعبى العصرى اكثر واقعية ممن سبقه ، ومن ثم فان تعبيره يكون أكثر تشاؤما اذا ما تناول هذه الظاهرة فى قصصه . وتحكى حكاية مصرية معاصرة ، وقد وردت فى أكثر من رواية عربية أخرى ، ان رجلا كان يعيش فى رغد من العيش ، ولكن الاحداث أطاحت بثروته . فخرج من بيته ذات يوم حزينا وجلس عند ضريح السيدة زينب . فمر امامه رجل شيخ اخذ يتحدث معه وعرف منه قصة ضياع ثروته ، فقدم الشيخ له عباءة وطلب منه أن يدخل فيها .

فلما فعل الرجل هذا وجد نفسه فى مكان آخر لم يعرفه من قبل ، كما وجد نفسه يقف امام حانوت . ولما كان جائعا ، فقد طلب من صاحب الحانوت أن يعطيه رغيفا يقتات به . فسأله صاحب الحانوت عما اذا كان غريبا فى هذا البلد ، فأجابه بالايجاب . عند ذاك أخبره بأن الحظ يبدو أنه سيحالفه ، اذ أن الملك قد أعلن انه سيزوج ابنته لاول غريب تطأ قدمه المدينة . ثم اصطحبه الى الملك الذى وافق على زواجه من ابنته بشرط واحد هو الا يتدخل فيما لا يعنيه . ولم يعترض الرجل الغريب على هذا الشرط ، اذ اعتقد أنه من السهل تحقيقه فى يسر . وذات يوم كان يسير فى حديقة القصر ، فأبصر رجلا دائم الصعود والهبوط على شجرة ، وكان يأكل فى أثناء ذلك ثمارها الحلوة والفجة على السواء . فأخذ ينظر اليه فى تعجب ثم سأله : لماذا تصعد الشجرة وتهبط عليها على هذا النحو ؟ ولماذا لا تستقر فى مكان واحد منها وتلتقط ثمارها الحلوة وتأكلها حتى تشبع ؟ عندئذ رد عليه الرجل قائلا : ان هذا أمر لا يعنيك وليس من حقك التدخل فيه . وفى الحال تذكر الرجل الشرط الذى اشترطه عليه الملك ، ولكنه تصور أن أحدا لم يره . وعندما عاد الى زوجته فوجىء بقولها : انك أصبحت محرما عليّ بعد أن نقضت العهد الذى أخذته على نفسك . انك تصورت انني لم أرك ، ولكن الحجاب مكشوف عن بصرى ، ولهذا فقد رأيت كل شيء . فخرج الرجل من عندها خائبا وسار فى طريقه الى دكان الخباز . وتوسط له الخباز عند الملك كي يعفو عنه ويزوجه ابنته الثانية . ووافق الملك على ذلك ولكنه اشترط عليه الشرط نفسه . وأيقن الرجل انه لن يخطىء مرة أخرى . وذات يوم كان يسير على شاطىء نهر فأبصر رجلا يملأ دلوا بالماء حتى يطفحه ثم يسكبه فى أرض عطشى . فوقف متعجبا

---

(١٩) انظر لكاتبة المقال فصل ملحمة جلجامش من كتاب اشكال التعبير فى الأدب الشعبى ـ الطبعة الثانية ـ مكتبة نهضة مصر .

من صنع هذا الرجل وسأله : لماذا لا تهتم بالارض المجدبة فتسكب فيها الماء الكثير على نحو ما تفعل مع الارض المخضرة ، فرد عليه الرجل قائلا : ان هذا أمر لا يعنيك وليس من حقك التدخل فيه . وادرك الرجل انه قد نقض العهد للمرة الثانية ، فلم يعد الى القصر، بل رجع الى صاحب الحانوت ليحكي له في اسف انه قد نقض العهد للمرة الثانية . فتوسط صاحب الحانوت له عند الملك حتى يزوجه ابنته الثالثة بعد أن وعده أن الرجل سيبقى على وعده ولن يتدخل قط بعد ذلك فيما لا يعنيه . ووافق الملك على زواجه من الابنة الثالثة وفقا لهذا الشرط . وقرر الرجل الا يخرج فى مكان تطاه الاقدام حتى لا يبصر ما يمكن ان يدفعه الى السؤال . فخرج ليسير على جبل بعيد لا تطاه قدم ، وما كاد يسير بضع خطوات حتى ابصر جماعة يشدون طوقا فيما بينهم دون انقطاع أو كلل ، بحيث كان يحاول كل منهم أن يشد الطوق نحوه . فوقف الرجل ينظر اليهم فى دهشة ثم سألهم عما هم فاعلون ، فردوا عليه بأن هذا أمر لا يعنيه ومن ثم لا يجوز له السؤال عنه . وعند ذلك ادرك الرجل انه قد تجاوز المحظور للمرة الثالثة ، وكان هذا كافيا لان يفكر فى الا يعود الى القصر أو الى صاحب الحانوت . ثم ارتدى عباءته فاذا به يجد نفسه مرة أخرى عند ضريح السيدة زينب ، والرجل الشيخ يقف امامه مبتسما . فسأله الرجل الشيخ : هل كنت فى علم أم حلم ؟ فقال له الشيخ : بل كنت فى علم وعليك أن تقص عليّ ما رأيت . فقص عليه الرجل ما حدث له مع الرجال الغرباء الذين كانوا يسلكون على نحو غريب دفعه للتدخل فى أمرهم . ثم قال له انه لم يفهم شيئا عن سلوكهم الغريب ، رغم محاولته التدخل فى شئونهم . عند ذلك شرع الشيخ يفسر له ما غمض عليه فقال : ان الرجل الذى رأيته يصعد الشجرة ويهبط عليها دون ملل او كلل ، وكان فى اثناء ذلك يأكل الثمرة الحلوة والفجة معا ، هو عزرائيل قابض الأرواح ، انه دائم التجول بين الناس يخطف أرواح الأخيار والأشرار على السواء . أما الرجل الذى رأيته لا يعدل فى توزيع الماء بين الارض المخضرة والأرض الجدباء ، فهو الملك المكلف بتوزيع الارزاق . انه يوزع الرزق حسبما تراءى له ، فقد يزيد فى رزق الثرى ويقتر فى رزق المعدم . واما الناس الذين يشدون الطوق فيما بينهم ، فهم اناس هذه الحياة . ان كلا منهم يحاول ان يشد الحياة نحوه ويحرم منها غيره ، على الرغم من علمه أن نصيب كل انسان من الرزق مقدر له ، وعلى الرغم من علمه ان الموت هو نهاية سعي الانسان فى الارض .

فهذه الحكاية جمعت بين مشكلتين ، احداهما مشكلة اجتماعية وهي عدم العدالة فى توزيع الارزاق ، والاخرى غيبية وهي مشكلة الموت . وحيث ان المشكلة الاولى لم تحل على مستوى اجتماعى ، وحيث أن الانسان الشعبى عجز عن ان يفسر هذا الظلم الذى يشعر به فى توزيع الارزاق ، فقد ربط بين هذه المشكلة ومشكلة الموت على أساس انهما معا مشكلتان غيبيتان ، ليس من حق الانسان العادى التدخل فيهما والسؤال عنهما . وهذا ما رمت اليه الحكاية بشرط الملك الذى كان على الرجل بمقتضاه الا يتدخل فيما لا يعنيه .

●●●

ـ ٥ ـ

لقد فكر الانسان الشعبى اذن فى الزمن ، رغم سعيه الدائم ، الى تجديد دورة الحياة ، ذلك أن الموت حقيقة واقعة . حقا انه يعتقد فى ان الاموات لا ينفصلون عنه ، بل يشاركونه احداث حياته المعاشة . ولكنه يعلم كذلك انهم يفعلون ذلك بعد ان يصبحوا مجرد ارواح او أشباح ، وبعد ان يغادروا عالمهم الحسي الى عالم آخر غير مرئى ، لايدرى كنهه على وجه التحديد . وكان من الطبيعى بعد ان ادرك الانسان ذلك ، ان يفكر فى سبب ابتلائه

بالموت . فاذا كانت الالهة خالدة ، فلماذا لا تمنح الانسان الخلود على نحو ما تحقق لها ؟ وهل قررت له هذا الحرمان بدافع حقدها عليه ، ام ان غباء الانسان ونوازعه الانسانية كانا السبب فى ابتلاء الانسان بالموت؟

لقد رفض الانسان البدائى الاعتقاد فى ان الموت قدر للجنس البشرى منذ ان وجد على سطح الارض ، ولكنه عندما راى من ناحية اخرى ان الموت حقيقة واقعة ، حاول تفسير حدوثه من خلال تصورات فلسفية انعكست فى حكاياته . وجوهر هذه الحكايات جميعا يتلخص فى ان الانسان كان قد منح الخلود فى باديء الامر ، ولكنه فقد هذه المنحة اما بسبب غبائه ، او بسبب خداع الحيوانات الدنيا له كما يتضح ذلك من الامثلة الآتية ..

لقد استرعى نظر الانسان البدائى عملية نمو القمر حتى يصبح بدرا ، ثم تضاؤله واختفائه بعد ذلك. ومن ثم فقد تصور ان القمر يخوض كل شهر تجربة الحياة والموت ثم البعث . ومعنى هذا ان القمر عندما يختفى ثلاثة ايام، وهى المدة التى تفصل بين اختفائه وظهوره من جديد ، يموت موتا مؤقتا ثم يعود للحياة مرة اخرى ، فيبدأها من بدايتها ، كمايبدأها الطفل ، صغيرا ثم يكبر . ومن ثم كان القمر، كما سبق ان ذكرنا فى بداية بحثنا ، اوضح نموذج او مثال لتجدد الحياة على الدوام ، ذلك التجدد الذى يحن اليه ، ويمارس طقوسه بشكل أو بآخر .

ويعنينا من كل ذلك ان الانسان نظر الى القمر بوصفه الها . واذا كان هذا الاله قد منح منحة الخلود على نحو مايراه حسيا ، فان هذا الاله لم يبخل بهذه النعمة على البشر ولهذا فقد قرر ، بعد تدبر ، ان يرسل رسولا للانسان يخبره بان لا يحزن اذا ما فارقت الروح جسده ، لان هذا الفراق لن يكون ابديا ، بل سوف تعود الروح اليه ويعود للحياة مرة اخرى ، تماما كما يحدث معه . وكلف القمر الأرنب ان يحمل رسالته الى البشر ويقول لهم : كما انى أموت ثم أحيا بعد ذلك ، فكذلك انتم سوف تموتون ثم تحيون مرة أخرى . ولكن الأرنب ابلغت الرسالة خاطئه الى الناس اما عمدا او سهوا . فلقد قالت لهم : ان القمر يموت ثم يحيا بعدذلك، اما انتم فقد شاءلكم الاله القمر ان تموتوا الى الابد . وعندما عادت الارنب الى القمر واعادت عليه الرسالة كما ابلغتها، غضب القمر وضربها على وجهها ففلق شفتها العليا . وقد ردت عليه الارنب فلطمته على وجهه فخدشته ، ثم ولت مسرعة ، وما تزال الارنب تعدو حتى اليوم .

ويقال ان رسول القمر ابلغ الرسالة صحيحة الى البشر فقبلوها .. ثم حدث بعد ذلك ان ماتت أم رجل . وظل الابن ينتظر عودة الروح اليها اياما طويلة ، ولكن الأم ظلت راقدة امامه بلا حراك ، فبدأ الرجل يشك فى رسالة القمر، وحاول القمر اقناعه بأن امه لم تمت ، وانما هى نائمة الى حين ، فعارضه الرجل وصرخ فيه قائلا : لا بل انها قد ماتت ولن تعود الى الحياة مرة اخرى . فاغتاظ القمر وصفعه على وجهه ففلق شفته ثم مسخه ارنبا لانه ، كما قال القمر ، قد عارضنى ورفض ان يقتنع برسالتى . ثم قرر القمر بعد ذلك ان يكون مصير الانسان الموت الابدى . ولعل هذا هو السبب فى ان بعض القبائل ترفض اكل لحم الارنب ، لانها وفقا للروايتين ، هى التى تسببت فى محنة البشرية .

وتروى بعض الشعوب البدائية كذلك ان الاله كان فى الزمن القديم يعيش بين الناس ويتحدث معهم وجها لوجه . ولكن تلك الايام السعيدة لم تدم . فذات يوم كانت بعض النسوة يسحقن الشعير ونظرن ، فاذا بالاله يقف بجوارهن يستمع الى حديثهن ويشاهد ما يفعلنه ، فتضايقت النساء وطلبن منه ان يبرح هذا المكان . فلما أصر الاله على الوقوف،

أمسكن بحفنة من الشعير ورمينه بها . فغضب الاله وصعد الى السماء ولم يعد الى الارض مرة اخرى . ومع ذلك فان الاله الرحيم ارسل رسالة الى الناس يقول لهم فيها : ان هناك شيئا يسمى الموت وسوف يصيبكم جميعا . ولكنه لن يقضي عليكم الى الابد ، اذ سوف تصعدون اليّ بعد ذلك وتعيشون معي في السماء . واختار الاله الجدي رسولا ليبلغ الناس الرسالة . ولكن الجدي تلكأ في الطريق ، ورآه الاله وهو رابض مستريح يقضم الاعشاب ، فأسرع الاله وارسل الشاة في اثره لتبلغ الرسالة ولكن الشاة ابلغت الرسالة خاطئة ، اذ قالت للناس : ان هناك شيئا اسمه الموت ، وسوف يقضي عليكم لا محالة ، فلما وصل الجدي بعد ذلك وابلغهم الرسالة الصحيحة، لم يصدقها الناس وقالوا له : ان ما ذكرته الشاة هو الرسالة الصحيحة لانها وصلت قبلك . وأما ما قلته انت فهو كذب ملفق (٢٠) ومعنى هذا ان الناس قد قبلوا الموت بسبب غبائهم ، اذ انهم لم يستطيعوا آنذاك أن يتصوروا ماهية الموت .

وهكذا نرى ان السبب في ابتلاء الانسان بالموت يرجع في بعض الحكايات الى خديعة الحيوان ، وفي بعضها الآخر الى غباء الانسان وسذاجته . اذ لماذا لم يصدق الرجل الذي ماتت امه ، وظل يصرخ في وجه القمر بانه غير صادق وان امه ماتت الى الابد ، حتى اغضب القمر فحكم على الجنس البشري كله بالفناء؟ ولماذا رفض الناس رسالة الجدي الصحيحة واصروا على ان الرسالة التي أبلغتها الشاة والتي بمقتضاها يفنى الانسان الى الابد ،هي الرسالة الاصلية ؟

ويتمثل غباء الانسان في رفضه العودة الى الحياة في حكاية طريفة أخرى تروى على النحو التالي : اجتمعت الالهة ذات يوم لتقرر مصير الانسان ، فاقترح احد الالهة ان يغير الانسان جلده كلما بلى ، وبذلك يتجدد شبابه .وعلى الانسان الهرم في هذه الحالة ان يذهب الى شاطىء البحر وينزع جلده القديم ،ويصطاد جلدا جديدا من البحر ويرتديه .

وذات يوم شعرت امرأة بانها قد هرمت ، فذهبت الى شاطىء النهر لتخلع جلدها القديم وترتدي جلدا جديدا ، ثم عادت الى بيتها بعد ان ارتد اليها شبابها . فلما أبصرها حفيدها الذي كان يعيش معها أنكرها ، وعبثا حاولت ان تقنعه بانها جدته التي يحبها ، فقد استمر حفيدها في عزوفه عنها ، لانه لا يود ان تكون جدته على هذا النحو من الشباب . وعندذاك عادت الجدة آسفة الى شاطىء البحر مرة اخرى حيث اصطادت جلدها القديم وارتدته . وفرح حفيدها بلقائها عند ماعادت اليه مرة اخرى في صورتها القديمة المألوفة لديه . أما الجدة فقد امتلأت حزنا على فقدانها نعمة تجدد شبابها ، بل تجدد شباب الجنس البشري بأكمله ، ذلك أن الجنس البشري قد حرم نعمة تغيير جلده اثر هذا الحادث . وقد كان في وسع الجده ان تصر على ارتداء جلدها الجديد حتى يتعود حفيدها منظرها على هذا النحو . ولكن الانسان البدائي شاء ان يعبر عن فلسفة أخرى تبعث من احساسه بسيطرة الزمن على الانسان ، وهي أن لكل عمر سحره، وان شخصية الانسان وسلوكه يتحددان بعمره . والطفل في هذه الحكاية لم يكن يهمه أن تعود الجدة الى شبابها بقدر ماكان يهمه ان يحتفظ بحبه لشخصها ، الذي تكيف على هذا النحو بتقادم السنين عليه . أما اذا ارتدت الجدة الى شبابها ، فلابد أن يتغير سلوكها وفقا لذلك وهذا ما يرفضه الحفيد . ولهذا فقد صرخ الطفل عند رؤية الجدة الشابة ، وهدأ روعه عند رؤية الجدة الهرمة ، وهي مفارقة قد تبدو غريبة ، ولكنها تحمل جانبا من جوانب فلسفة الزمن .

---

(٢٠) انظر فريزر : الفولكلور في العهد القديم ـ الترجمة ـ الجزء الاول باب سقوط آدم .

واخيرا هناك حكاية اخرى تحكى أن الالهة فزعت لتكاثر الناس فى الارض ، وخشيت ان تضيق بهم الارض فى يوم ما ، ولهذا فقد عقدت مجلسها وقررت أن يكون مصير الانسان كمصير شجرة الموز ، فشجرة الموز تكبر ثم تموت تاركة وراءها ذريتها ، وهكذا ينبغى أن يفعل الانسان حتى تجد الاجيال الجديدة مكانا لها على وجه الارض ، وقد ارتضى الناس هـذا الحكم ونفذوه ، ومازالوا ينفذونه حتى اليوم.

ومع أن الناس ابتلوا اثر هذه الاحـداث بالموت ، فان هذا لم يحز فى نفوسهم كثيرا ، ذلك أن الموتى كانوا يختلطون بهم يوما فى كل عام ، وكانوا يحتفلون بهذا العيد الموسمى لهذا الفرض . ثم حدث أن توفيت امراة تاركة وراءها ابنة حبلى ، ولما ولدت الام الطفل ، لم يكن لديها الغذاء الكافى لاطعامـه ، فانتهزت فرصة وفاة رجل وارسلت معه رسالة لامها ترجوها فيها أن تحضر لابنها غذاء من عـالم الموتى ، فحملت الجدة سلة مملوءة بالنبات ، ورحلت الى أرض الاحياء . وعندما وصـلت الى بيت ابنتها ، اخذت تفلح الحديقة لتزرع النبات الذى أحضرته . وبينما كانت ابنتهـا تطل من النافذة ، ابصرتها وانكرتها ، اذ كانت تبدو غريبة تماما عن الأحياء . ولم تستطع الابنة مقابلتها وهي على هذا النحو، بل صرخت فى وجهها من بعد وطلبت منها أن تعود عـلى الفور الى ارض الأموات ، فغضبت الأم وقالت لابنتها : « لماذا تطردينى على هذا النحـو ؟ الم أزرع النبات لحفيدى ليتغذى من ثمـره ؟ انني ذاهبة » . ثم أخذت ثمرة من ثمار جوز الهند وشقتها الى نصفين ، واعطت لابنتهـا النصف الذى لا يبصر الانسان مـن خـلاله شيئا ، واحتفظت لنفسها بالشق الذى يتمكن الانسان الرؤية من خلاله ، ثم قالت لابنتها ، من الآن فصاعدا لم يعد الأحياء يرون الأمهات رأى العين . اما نحن فسوف نراكم من خلال شق ثمرة جوز الهند الذى احتفظنا به لأنفسنا ، ورحلت . (٢١)

ومعنى هذا ان الانسان قد سلم فى نهـاية الأمر بأن الموت قد قدر له ، وان الأمـوات يعيشون فى عالم منعزل عن عالم الاحياء ، بحيث لايتمكن الأحياء من رؤيتهم ، وان تمكنوا هم من التحليق فى عالم الاحياء والاطـلاع على ما يجرى بينهم . ومهما تكن الاسباب التى ادت الى ابتلاء الانسان بالموت ، فان السـبب لا يرجع قط الى حقد الآلهة على الانسان ، بحيث شاءت ان تحرمه من نعمة احتفظت بها لانفسها ، والأحرى أن وسيلة الاتصال المباشر بين الناس والآلهة لم تكن ميسرة بحيث حدث تحريف فى تبليغ رسالة الآلهة الى الانسان ، أو رسالة الانسان الى الآلهة .

هذا التفاؤل الذى يعد من ابرز خصـائص الانسان الشعبى منذ القدم ، مازال يتصف به الانسان الشعبى المعاصر . فهو يتفاءل بدعـاء شخص له بطول العمر اذا ما عمل له عملا خيرا . وعلى الرغم من اقتناع الرجل الشعبى بأن الاجل محتوم ، وان موت الانسان مقـدر بزمان ومكان محددين ، الا انه يسعد بهـذا الدعاء لاعتقاده بفاعليته .

تحكي حكاية معاصرة ان فلاحا كان يعمـل فى حقله الذى يقع بالقرب من المقابر ، وذات يوم بينما كان يعمل فى الحقل ، سمع صـوتا يقول له : ان فلانا سوف يحمل الى ذلك المكان وبالمثل فلانة . اما فلان فقد كان جاره ، واما فلانة فكانت زوجته . وعاد الرجل الى بيته حزينا ولكنه لم يخبر زوجته بأى شيء . وفى الصباح سمع صراخا وعويلا مصدره بيت جاره ، فايقن ان جاره قد فارق الحياة كما أخبره الصوت . واذن فسوف تموت زوجته حتما . ولكنه نظر الى زوجته فوجدها تمتلىء بالنشاط والحيوية ، ولهذا فقد سلم امره الى الله

---

(٢١) Malinowski (B). : Magic, Science and Religion pp. 104-110 (Boston 1948)

ورحل الى حقله . فلما عاد الى بيته فى المساء فوجىء بأن امرأته ماتزال فى نشاطها وحيويتها . فسألها عما فعلته طوال النهار ، فحكت له انها فرغت من أعمال المنزل ثم أعدت له الطعام وأخذت تنتظره . فلما تأخر عن موعده ، وكانت تشعر بالجوع ، أعدت لنفسها طعاما سريعا . وما كادت تجلس لتأكله حتى طرق بابها طارق جائع وطلب منها أن تمنحه رغيفا من الخبز يسد به رمقه . فرفعت الأكل كله الذى كان أمامها وأعطته للشحاذ الذى دعا لها بطول العمر . وسكت الرجل وظل يتوقع فى كل لحظة أن تسقط زوجته ميتة . فلما استيقظ فى الصباح كانت زوجته ما تزال نشطة قوية ، فودعها وانصرف الى حقله . وهناك تحدث الى الصوت الذى سمعه وقال له : « انك قلت ان فلانا سوف يحضر الى هذا المكان فى الغد وكذلك فلانة ، وقد حضر فلان حقا ، ولكن فلانة ماتزال على قيد الحياة قوية ومليئة بالحيوية . فطلب منه الصوت أن يرفع بصره الى السماء . فلما فعل الرجل ، أبصر حجرا كبيرا كاد يهوى على رأس زوجته ولكن طبقا به طعام ، ورغيف حال بينه وبين السقوط . عندئذ تذكر الرجل قصة الشحاذ الجائع الذى أطعمته زوجته بطعامها ، فدعا لها الشحاذ بطول العمر .

وعند ذاك قال الفلاح لنفسه : « حقا ، ان اللقم تمنع النقم » .

نستطيع أن نستخلص من كل ما أوردناه ما يلى :

أولا ـ ان ارتباط الانسان الشعبى نفسيا بالزمن الاسطورى حيث يولد كل شىء من جديد ، كان سببا وراء نزوعه الدائم الى تجديد حياته . وهو يفعل هذا من خلال ممارساته واحتفالاته وتصوراته .

ثانيا ـ وهذا لايعنى أن فكرة الموت لم تزعج الانسان الشعبى ، وانه لم يتساءل عن سبب ابتلائه بالموت ، ولكنه عندما فعل ذلك ، كانت اجابته نابعة من طبيعته المتفائلة بصفة عامة ، وهي تلك الطبيعة التى تتجنب التفلسف الذى قد يفقده الاحساس بقيمة الحياة وجوهرها الحقيقى . ومن ثم فقد رأى انه قد ابتلى بالموت بسبب سلوك غبى من الانسان ، أو بسبب خداع الحيوان له . اما الآلهة فهى بريئة من أن تتهم بابتلائها الانسان بالموت .

فاذا كاد تعبير الانسان الشعبى يقترب من الحس المأساوى كما هو الحال فى قصة الاسكندر الاكبر ، غلبته طبيعته المتفائلة وجعلته يذكر شخصية الخضر ويؤكد تجسيدها لفكرة شباب الحياة الدائم .

ثالثا ـ فى ضوء هذه الفلسفة العامة التى نستخلصها من التراث الشعبى ومن سلوك الانسان الشعبى ، نستطيع أن نقرر أن ماورد فى التراث الشعبى ، وهو فى الحقيقة قلة ، معبرا فى حزن عن مأساة الانسان الذى تنتهى حياته بعد كفاح طويل بالفناء ، ليس سوى تعبير عن احساس مؤقت باليأس ، ولكن ما يلبث هذا الاحساس ان يغلبه الشعور العام بتلك القوة الدافعة المتدفقة القادرة على تجديد الحياة وبعثها من جديد .

●●●

ـ ٦ ـ

وعلى الرغم من أن الهرم سبيل الى الجدب ، والجدب سبيل الى الفناء ، فان تلك النظرة السلبية الى الشيخوخة يعوضها ما اكتسبه الانسان الهرم من تجارب وخبرة وحكمة . ومعنى هذا أنه اذا كان الانسان الهرم يرمز الى اضمحلال الحياة وتدهورها ، فانه فى الوقت نفسه يمثل قمة الحكمة والتجربة . ومن هنا استغلت شخصية الرجل العجوز استغلالا رائعا فى القصص الشعبى والأمثال الشعبية .

فقد الفنا ظهور شخصية الرجل العجوز فجأة للبطل فى القصص الخرافى ، وذلك عندما يصبح البطل فى حيرة من أمره ، وتعز عليه النصيحة . ويحدث هذا عندما يعتزم البطل القيام بمغامرة من أجل الحصول على شيء محدد من العالم المجهول . عندئذ يخرج من بيته وحيدا ، ويسير فى طريق يبدو له أول الأمر معلوما ، ولكنه ما يلبث ان يصادف مفترقا من الطرق ، فيقف فجأة ولا يدرى اى طريق يسلك . فى تلك اللحظة يظهر له شيخ عجوز يسأله من تلقاء نفسه عن هدفه ، وعندما يجيبه بانه يعتزم الوصول الى الاميرة المسحورة او الليمونات الثلاث ، او الى أى شيء من تلك الاشياء الغريبة التي تعد رموزا فى القصص الشعبي ، أشفق عليه الرجل العجوز من مخاطر الطريق الوعر ، الذي ينبغي عليه ان يسير فيه لكي يصل الى مأربه، ونصه بدافع هذا الاشفاق ،ان يعود مدرجه. ولكنه عندما يرى ان الشاب مصر على الوصول الى هدفه ، وان خاض فى سبيل ذلك الاهوال ، كشف له الرجل العجوز عن الطريق الصحيح الذي يوصله مباشرة الى غرضه ، وحذره من انه سوف يقابل قوى شريرة فى شكل مارد أو وحش مفترس او تنين يقف متربصا به ويود ان يبتلعه . ثم يقدم له الشيخ فى النهاية ، بدافع الحرص الشديد على نجاح مهمته ، اداة سحرية . كأن تكون حصانا ، او عصا ، او أى شيء آخر . فاذا استخدم البطل هذه الاداة السحرية فى اللحظة المناسبة ، جنب نفسه المخاطر ، ووصل الى مأربه .

وقد أفاض العالم النفسي **يونج** ومن ورائه مدرسته فى تفسير رموز القصص الخرافي ، الذي يتشابه كثيرا فى جميع انحاء العالم ، على أساس ان هذه الرموز تكشف عن تكوين اللاشعور الجمعي الذي اهتمت هذه المدرسة بصفة خاصة بالكشف عنه ، وذلك فى مقابل اهتمام **فرويد** بالتحليل النفسي ، واهتمام **آدلر** بعلم النفس الفردي .

وقد نظر يونج الى النفس الانسانية بوصفها وحدة متكاملة من الشعور واللاشعور. وهذا اللاشعور لا يحتوي على صنوف من الكبت النفسي فحسب ، بل انه يحتوي على ما هو اهم من ذلك بكثير ، وهو القوة الدافعة الى تكييف الانسان لحياته بصفة عامة . وهذه القوة الدافعة هي التي تثير القدرة على التخيل ، وهي التي تنظمها على نحو ما يظهر فى أشكال التعبير الشعبي والادبي بصفة عامة . فاللاشعور عند يونج يتكون من عنصرين : **عنصر فردي وعنصر جمعي** . أما العنصر الفردي فهو ما تحدث عنه فرويد واهتم به ، وهو ملك للانسان الفرد . واما العنصر الجمعي فهو ملك للناس جميعا ، لانه يحتوي على القوى الدافعة التي تعد عنصرا قائما فى تكويننا النفسي ، وجزءا حيا وضروريا فى حصيلتنا النفسية ، وهي ما أصطلح يونج على تسميتها بالانماط الاصلية Archetypes وعندما تتحرك تلك الدوافع أو الانماط الاصلية بداخلنا يكون لتأثيرها سلوك ذو طابع سحري وروحي . فكم منا يشعر بشعور مخيف ازاء القوى المهددة التي ترقد مكبلة بداخلنا ، ولا ينطق فى هذه الحالة سوى بكلمة السحر التي تخلصه منها ؟ أن كلمة السحر فى هذه الحالة ليست سوى تعبير عن الدور الفعال للنمط الاصلي الذي يتحرك بداخلنا . ويعد النمط الاصلي احد أقطاب لا شعورنا ، اما القطب الآخر فهو القطب السلبي ، وهو ما يمكن ان نسميه بالغرائز . وعلى الرغم من أن الانماط الاصلية والغرائز متعارضة للغاية ، الا انها مرتبطة بنظام معين ، ذلك ان القوى الخلاقة فى الانسان انما تنجم عن هذا التعارض البالغ بين القوى الايجابية والقوى السلبية (٢٢)

(٢٢) Hano E. Giehr : Volksmarchen und Tiefen Psychologie Mûnchen, 1970, S. 19

وعلى ذلك يمكننا ان نلخص فكرة يونج فى الانماط الاصلية فى انها الطبيعة الصافية غير الفاسدة فى الانسان . ولا يجوز لنا ان نخلط ، كما يقول ، بين الانماط الاصلية والتصورات والخيالات النابعة عنها ، ذلك ان الانماط الاصلية ليست سوى دوافع ، وهذه الدوافع تتحرك فى نشاط داخل الانسان ، وتدفعه الى تحقيق الشيء الكامل والى الشعور بالانسجام التام مع الوجود كله . وينتج عن هذا التحرك انماط من السلوك ، كأن ينطق الانسان بكلمات أو يقوم بافعال لا يدرك مغزاها . وقد يستدعي هذا التحرك أشكالا من الخيالات تظهر فى الاحلام او فى التعبير الادبي أو فى حالة الامراض النفسية .

ولا يهمنا بطبيعة الحال فى هذا المجال ان نفسر كل صور القصص الشعبي بناء على نظرية يونج ، ولكن يهمنا ان نشير الى ما يخص موضوعنا ، وهو ظهور شخصية الرجل العجوز او المراة العجوز كثيرا فى الادب الشعبي .

وقد سبق ان اشرنا الى ان الرجل العجوز المجهول كثيرا ما يظن فى غير توقع لبطل الحكاية الخرافية ، وذلك عندما يتأزم موقف البطل فى رحلته المجهولة ، فيشفق عليه ويمنحه النصيحة ويقدم له الاداة السحرية . وشبيه بهذا حكاية تحكي أن طفلا عهد اليه ان يرعى بقرة ، ولكن البقرة ولت منه هاربة . وظل الطفل يبحث عنها وهو خائف من العقاب الذي سيوقع عليه ، ولكن دون جدوى . فلما تعب من البحث نام فى ظل شجرة ، واستيقظ فجاة وهو يحس بأن سائلا كطعم اللبن يتسرب الى فمه . فلما فتح عينيه أبصر رجلا عجوزا يصب اللبن فى فمه . فسعد به الطفل وتوسل اليه ان يزيده من جرعات اللبن ، ولكن الرجل العجوز قال له : كفاك اليوم يا بني هذا المقدار ، لقد كنت على وشك الموت حينما قابلتك ، ثم طلب من الصبي ان يحكي له قصته . فحكى له الصبي قصته مع البقرة الضالة ، وكيف انه يخشى العقاب ، عندئذ قال له الرجل العجوز : انك يا بني لن تستطيع ان ترجع الى الوراء بعد اليوم ، ولا مفر لك من التقدم حيث الجبل الشاهق الذي يقع شرقا ، ثم منحه العجوز النصيحة والتميمة لكي يكونا عونا له فى رحلته التي سيخوضها وحيدا .

فالطفل هنا ، وهو خيال نجم عن قوة الانماط الاصلية ، يرمز الى الشيء الذى يولد ثم ينمو ويترعرع . ومن ثم فقد تحتم على الطفل الا يعود الى وراء ، بل يتحرك الى أمام حيث الجبل الشاهق الذى يشبه ما تصبو اليه نفسه رفعة ، وحيث ان الطفل لم يستطع ان يحقق لنفسه ــ لاسباب داخلية وخارجية ــ المعرفة اللازمة التي يحتاج اليها، فان هذا الاحتياج النفسي يتجسد فى شكل رجل عجوز حكيم يقدم له الغذاء الضرورى ، كما يقدم له الوسائل السحرية التي تعينه على تحقيق هدفه .

وهكذا نرى كيف ان شخصية الرجل العجوز التى استقرت فى نفوس الناس بوصفها تجسيدا للخبرة والحكمة والطيبة ، اصبحت فى القصص الشعبي انعكاسا للتأثير الايجابي للقوى الداخلية التي تدفع الانسان الى تحقيق الشيء الكبير . وحيث ان الانسان فى مراحل حياته يجتاز العقبة تلو العقبة . كما لو كان ذلك يتم بطريقة سحرية ، حتى يصل الى الشخصية المتكاملة ، فكذلك يصل البطل فى القصص الخرافي الى ما تصبو اليه نفسه عن طريق الاداة السحرية ، فكأن نوعا من السحر قد أوصله حقا الى مأربه .

وفى مقابل شخصية الرجل العجوز الحكيم الذى ،كثيرا ما نصادفها فى القصص الشعبي، نجد شخصية المراة العجوز . ولكن اذا كان الرجل العجوز قد اصبح رمزا للحكمة واتساع الخبرة ، ومن ثم فهو يظهر للبطل عندما يحتاج نفسيا الى قوة البصيرة التي تهديه سواء الطريق ، فان المراة العجوز ، على

العكس ، هي رمز للخداع والمكر . وقد تصل الى قمة الشر لتصبح أمنا الغولة . وكلنا يذكر ان زوجة الاب او الحماة فى القصص الشعبي، اذا أرادت بابنة زوجها أو زوجة ابنها شرا ، استعانت بعجوز شمطاء لكي تدبر لها مكيدة ضد البنت الطيبة البريئة . وهناك حكاية عربية تحت عنوان « كيد النساء يغلب كيد ابليس » تصور هذه النظرة الشائعة الى المراة العجوز . فقد تراهن ابليس مع امراة عجوز على ان يترك لها البلد ان هـي استطاعت ان تقوم بعمل لا يقدر هو على فعله . فذهبت العجوز الى حانوت رجل يبيع القماش واخذت تبكي لصاحبه وتتوسل اليه ان يمنحها قطعة من القماش ، لان ابنها يعشق امراة ، والزمها ان تشتري له قطعة مـن القماش يهديهـا لعشيقته ، وهي فقيرة لا تقدر على شرائها . فاشفق عليها صاحب الحانوت وقدم اليهـا قطعة من القماش . فشكرته المراة ورحلت بقطعة القماش الى بيت صاحب الحانوت ، وعندما اقتربت من البيت ، ابصرت الزوجة تطل من الشباك ، فاصطنعت انها قد تعثرت ووقعت ولم تستطع القيام لعجزها وضعفها. فلما رأتها الزوجة على هذا النحـو . خفت اليها وأعانتها على القيام وأدخلتها بيتها وطلبت منها أن تستريح . ثم تركتها لكي تصنع لها قدحا من الشاي. فى أثناء ذلك اخفت المراة العجوز قطعة القماش تحت وسـادة الاريكة التى اعتـاد الزوج ان يستريح عليهـا بعـد تناول الغداء . ثم شربت بعد ذلـك الشاي وشكرت للزوجة فضلها وعطفهـا ورحلت . فلما رجع الزوج الى بيته،تناول الغداء وذهب ليستريح كالعادة على الاريكة . وبينمـا كان يقلب الوسادة ، وقعت عينه على قطعة القماش التي كان قد أهداها للمراة العجوز ليقدمهـا ابنها الى عشيقته . ولم يساوره شك فى تلك اللحظة فى أن زوجته هي بعينها عشيقة هذا الابن ، ومن ثم فقد اتهمها بالخيانة ، وسرحها الى بيت أبيها . ولما تأكدت العجوز ان خدعتها قد تمت بنجاح ، رحلت الى ابليس لتحكي له فى زهو عن فعلتها التي يعجز هو عن اتمامها ، ولكنه سخر منها وقال لها انه يفعل مثل هذا الفعل مئات المرات كل يوم ، وان عليهـا ان تفتق ذهنها عن عمل يعجز هو حقا عن فعله . فعادت المراة الى حانوت الرجـل واعترفت للزوج بفعلتها القبيحة ، واعلنت لـه براءة زوجته . فرحل الزوج على الفور الى زوجته واعتذر لها واعادها اليه .

ولما علم ابليس بذلك قال للعجوز : هـذا حقا مالا أقدر على فعله ، ثم ترك لها البلد .

فاذا ظهرت فى القصص الشعبي شخصية أمنا الغولـة بشـعرها المنفوش ، وأسنانهـا البارزة ، وملامحها الهرمة الكريهة ، فانهـا تكون مساوية تماما لسائر الشخوص الشريرة التي تظهر لبطل الحكاية الخرافية مثل المارد والتنين ،وتكون مهمتها عندئذ اختطاف البطل والحيلولة بينه وبين العودة الى بيته . فاذا لم يتمكن البطل من ان ينفلت من قبضتهـا التهمته . وليست هذه الصورة ، وفقا **ليونج** كذلك ، سوى تجسيد للقوى المعوقة داخل الانسان ،وهي تلك القوى التي تصدر له الامر مفزعا حتى لا يقدم عليه ويحقق تقدما ما فى حياته . فاذا لم يكن الانسان واعيـا بتلـك المعوقات ، ابتلعه اللاشعور ، تماما كما تبتلع أمنا الغولة البطل .

وقد نتسال بعد ذلك : لماذا خص الادب الشعبي المراة العجوز بتلك الصورة الكريهة ، فى حين جعل الرجل العجوز تجسيداً للحكمة وطيبة القلب . قد يرجع هذا الى ما عرف عن النساء العجائز من ممارستهـن السـحر ، والسحر الاسود بصفة خاصة . (انظر فصل ساحرة عين دور فى كتاب الفولكلور فى العهد القديم ــ الجزء الثاني ــ الترجمة) وربمـا يرجع هذا الى ما عرف عن النساء من ان لهن باع طويل فى الحيل والمكر ، وربما يرجع كذلك الى ما ترسب فى نفوس البشرية من تأثير الام، وهو ما اصطلح على تسميته بتأثير النمـط النموذجي للام . فالام هي مصدر الخصب ،

وهي التي تمد الابناء بالطعام والدفء ، وقد يكون تأثيرها ايجابيا الى أبعد من ذلك عندما تتيح للابناء فرصة الانطلاق مع ارتباطهم بجذورهم ، وهي في هذه الحالة تعينهم على الوصول الى الحكمة والابداع . وقد يكون تأثيرها عكس ذلك تماما عندما تكون عائقا نفسيا عن الانطلاق الروحي ، ونمو الشخصية وتكاملها . وهذا السلوك الاخير للام هو ما جسدته الاساطير فى الآلهة حارسة العالم السفلي ، وفى الساحرة اليونانية كيرك ، كما جسدته الحكايات الخرافية فى صورة أمنا الغولة .

وعندما أصبح الانسان الشعبي أكثر واقعية فى عصرنا الحاضر ، لم يعد يتطلب من بطل الحكاية ان يخوض مغامرة مجهولة من أجل الوصول الى الاميرة المسحورة فيخلصها من قبضة المارد ، او من أجل الوصول الى التفاحة السحرية التي تتدلى من فرع شجرة تنمو فى غابات مظلمة بعيدة لا يمكن ان يصل اليها الانسان المعادي . كما انه لم يعد يفترض ان البطل لا يمكنه الوصول الى غرضه ، وان خاض فى سبيل ذلك الاهوال ، الا عن طريق الاداة السحرية التي يستخدمها فى الوقت المناسب . بل أصبح يتطلب من البطل ان يعبر عن مشكلاته الواقعية التي يعاني منها ، سواء كانت تلك المشكلات تنتمي الى عالمه المرئي ، او الى عالمه غير المرئي . وطبيعي ان الانسان الشعبي يدرك تماما عجزه عن حل هذه المشكلات ، لانها مشكلات نجمت اما عن عيب فى بناء مجتمعه مثل مشكلة الظلم ومشكلة الفوارق الاجتماعية ، أو أنها نجمت عن ارادة القوى الغيبية ، وهي ارادة ليس للانسان ان يتدخل فيها . ومع ذلك ، فان الانسان الشعبي ، اذ يعبر عن هذه المشكلات الواقعية التي أصبح يحسها ويعاني منها كل المعاناة ، لا يكتفي بتصويرها فى قصصه ، بل انه يجتهد فى تفسيرها او ايجاد حل لها . ومن ثم فقد خلق فى قصصه الذي يحكيه اليوم ، شخصية تشبه الى حد كبير شخصية الرجل الكهل الحكيم التي تظهر فى القصص الخرافي ، وان اختلفت عنها تماما فى وظيفتها . ذلك ان هذه الشخصية لم تعد تمنح البطل الاداة السحرية ، بل اصبح يمنحه الحكمة ويبصره بواقع الامور التي يعجز عن ادراك كنهها .

فقد كان هناك ملك له ابنة واحدة يحبها ويعزها ، وذات يوم استدعى المنجمين لكي يقرأوا له طالع ابنته ويخبروه بأى رجل سوف تتزوج ، فلما نظر المنجمون فى حساباتهم الفلكية ، سكتوا واطرقوا رؤوسهم . فادرك الملك ان فى الامر شيئا ، فصرخ فى وجوههم ليخبروه بما رأوا. فقالوا له ان طالع ابنته يخبر بانها لن تتزوج الا بعبده مرجان . وعلى الرغم من ان الملك كان يحب هذا العبد ، فان أول خاطر خطر له فى تلك اللحظة هو ان يتخلص منه ، ومن ثم فقد كلفه بحمل رسالة الى ملك الشمس وان يأتيه بردها . ولم يكن ملك الشمس هذا فى الحقيقة سوى شخصية وهمية ، وقد وصف له الطريق المؤدي لها وكان طريقا محفوفا بالمخاطر . ولهذا فلم يساور الملك شك فى أن العبد مرجان سيهلك فى هذا الطريق. وحمل العبد مرجان الرسالة وسار فى طريقه ممتطيا صهوة جواده . وفى منتصف الطريق برز له شيخ عجوز جالسا فى الخلاء ، فلما اقترب منه مرجان سأله الشيخ عن مقصده ، فأخبره مرجان بان الملك كلفه بحمل رسالة الى ملك الشمس لكي يأتيه بردها . عند ذاك اخبره الشيخ بأنه هو بعينه ملك الشمس وطلب منه الرسالة ، فلما فضها الشيخ ، كتب فى أسفلها عبارة « اللي فى علمه يتمه » ، ثم أعاد الرسالة الى العبد الذي شكره وسار فى طريقه قافلا الى سيده الملك . فلما جن عليه الليل استراح عند جذع شجرة بعد ان ربط حصانه وراح فى نوم عميق . ولكنه استيقظ على صوت صهيل حصانه وهو يركل الارض برجله بشدة . فلما نظر العبد مرجان الى المكان الذي يضرب فيه الحصان برجله بشدة ، ابصر فجوة وبداخلها كنز . فاخذ يستخرج من الكنز حتى تجمع

لديه مال وفير ، وتكر اثر ذلك انـه لا داعي للعودة لسيده وان يشرع فى بناء قصر ليعيش فيه حياة رفاهية ورخاء،وابتنى العبد مرجان قصرا شامخا تحيط به البساتين وتتدفـق فيه النافورات . وذات يـوم كان يستحم فى النافورة ، فلما خرج منها ونظر الى نفسـه فى المرآة ، رأى ان لونه قد تحول من السواد الى البياض فيما عدا بقعة سـوداء ظلت علـى جبينه .

وذات يوم خرج الملك مع وزيره ليتريضا . وقادهم الطريق الى القصر الشـامخ ، قصر العبد مرجان ، الذي يقف فى بهـاء وروعـة وسط الرياض والبساتين ، وتعجب الملك من ان يكون فى مملكته مثل هذا القصر الرائـع ، ولهذا فقد طرق بابـه ليتعرف على صاحب هذا القصر ، ورحب بهما العبد مرجان وهو يعرفهما تماما ، وبالغ فى ترحابهما ، وبعد ان مكث الملك والوزير عنده أياما فىحفاوة بالغة ، عرض عليه الملك ان يزوجـه ابنته . ورحب مرجان بذلك ، وما هي الا أيام حتـى كانت ابنة الملك تحمل الى العبد مرجان فى صحبة أبيها وأمها والخدم والحشم .

ومكث الجميع فى ضيافـة العبد مرجان طيلة شهر دون أن يتوقف الملك على حقيقـة هذا الرجل الثري المضياف الذي بالـغ فى تقدير ابنته . وذات يوم فاجاه الملك بالسؤال عمن هو ، والى اى أصل ينتسب . وكان رد مرجان على ذلك بأنه بعينه العبد مرجان الذي كلفه ذات يوم بحمل رسالة الى ملك الشمس، كما اخبره بانه مازال يحتفظ بالرسالـة التي تتضمن رد ملك الشمس عليها . فلما فض الملك الرسالة وجد مكتـوبا فى أسفلهـا تلك العبارة : « اللي فى علمه يتمه » .

فشخصية الرجل العجوز المجهول فى هذه الحكاية ، لم تظهر فيها الا لكـي تبصر الملك الذي يعد رمزا للسلطة والتسلط الدنيويين ، بحقيقة ميتافيزيقية ليس من شأن الانسـان ان يخوض فيها ، بل له ان يصارعها ، وهي ان هناك أمورا مقدرة للانسان لا يمكنـه ان يتجنبها مهما كانت سطوته وقوته البشرية . ونلاحظ أن الرجل العجوز فى هذا المثال لم يمنح البطل الاداة السحرية لكي يحارب بها التنين والمارد وينتصر عليهما ، بل منحـه الحكمـة التي اصبح يحتاج اليها الانسـان المعاصر لكي تعينه على مشقات الحياة .

واذا كان القصاص الشعبي قد عبر فى هذه الحكاية عن مشكلة غيبية تشغل الانسان ، فهو لم يعبر عنها بقصدتشكيك سامعيه فيها، بل انه يسعى على العكس من ذلـك الى بث الطمأنينة فى نفسه من حيث انه لا ينبغي عليه ان يفكر فى أمور المستقبل التي ليس مـن شأنه التدخل فيها ، اذ لا يكيف تلك الامور سوى الارادة العليا التي تتصف بالقـدرة والرحمـة فى الوقت نفسه . ذلك ان ابنـة الملك لم يقدر لها ان تتزوج بالعبد الا بعـد ان تغيرت صورته كلية ، حتى لون جلده .

فاذاذ تناول القصاص الشعبي مشـكلة اجتماعية تحير ابناء الشعب ، فانه يستعين كذلك بشخصية الرجل العجوز الحكيم لعله يجيب عن تساؤلاته المحيرة . وفى هذه الحالة قد لايجد هذا الحكيم جوابا شافيا عن هذه التساؤلات ، ذلك ان المشكلة من وجهـة نظر الشعب ، قد أصبحت من التعقيـد بحيث يحتار فيها الحكماء انفسهم .

فقد اجتمعت الكـلاب البلديـة ذات يوم وتساءلت : لماذا تعيش الكلاب الرومية (وهو اصطلاح شعبي للكلاب التي يقتنيها أصحاب البيوت ويعتنون بها ويدللونها) مرفهة ، فلا تتناول سوى اللحم والخبز الشهي ، فى حين انها قد قدر لها ان تظل تعدو فى الشوارع ليل نهار على غير هدى ، ولا تتناول من الطعـام سوى ما تعثر عليه فى القاذورات. ولما لم تجد الكلاب البلدية جوابا شافيا عن هذا التساؤل، قررت ان ترسل خطابا فى مؤخرة كلب الـى

الملك سليمان ، ذلك الشيخ القديم الذي يفهم لغة الحيوان ، لتسأله فيها عن هـذا الامر . ولكن الكلب لم يعد حتى اليوم برد الرسالة ، ذلك ان النبي سليمان نفسه لم يجد بعد الرد المقنع عن هذه المسألة المحيرة . ولكن الكلاب ما تزال تنتظر الجواب حتى اليوم . ولهـذا فانها ، عندما ترى كلبا مقبلا نحوها ، تجتمع حوله وتشمه من مؤخرته ، لعله قد أتى برد الرسالة .

واذا كان الشيوخ يمتلكون الحكمة والعلم الى هذا الحد ، فان أصحاب السلطة يخشون نقدهم الذى يمكن أن يهيج الراى العام ضدهم ولهذا فقد أصدر ملك من الملوك مرسومايقضى بأن يقتل كل شاب أباه الكهل حتى تخلو له البلاد من هؤلاء الحكماء الذين ينتقدون سلوكه على الدوام . واذعن كل شاب لامر الملك فقتل أباه ، فيما عدا شابا واحدا أبى أن يفعل هذا مع أبيه ، واكتفى بتخبئته فى البيت . ولما اطمأن الملك الى أن شيوخ بلدته قد قتلوا عن آخرهم ، كان كل يوم يجمع شباب البـلد عند الجبل ويرهقهم بشق الارض الصـلبة دون أن يهدف من وراء ذلك تمهيدا للزرع .

وذات يوم سأل الاب الشيخ الذى ظل على قيد الحياة ، سأل ابنه عما يفعله مع سـائر الشباب ، فاجابه الابن بأن الملك يجمعهم كل يوم عند جبل ويطلب منهم أن يشقوا الارض الصخرية دون أن يدركوا هدفا لهذا العمـل المضنى . فلما سمع الاب ذلك قال لابنـه : اذا جاءك الملك ليمر عليكم فاصطنع أنك ترفع يدك الى أعلى فمك ، وانك تضع شيئا فيه . فاذا سألك عما تفعل ، قل له ، ان ما نزرعه نأكله . فلما فعل الابن ذلك وسمع الملك منه تلك العبارة الحكيمة ، قال له على الفور : ان هذا القول ليس قولك ، بل هو قول رجـل شيخ . اذهب واحضر اباك الذى لم تنفـذ فيه أمرى . فذهب الابن وأحضر أباه الذى مثل امام الملك . فسأله الملك : اين كنت وقت أن أصدرت المرسوم ؟ فرد الاب قائلا لقـد كنت مسافرا وشغلت عن عودتى بأمر عسير ، فلما عدت كان المرسوم قد نفذ وانتهى الامر . فسأله الملك مرة أخرى : وما هو ذلك الامـر العسير الذى أخر عودتك ؟ فاجاب الرجـل : لقد كنت ياجلالة الملك احضر حفل زواج ابنة البومة من الغراب . وقد دب الخـلاف بين الطرفين فى اللحظة الاخيرة . وكان يحتم علينا، نحن المدعوين ، أن نفض النزاع . ذلك ان البومة اشترطت أن يكون مهر ابنتها خمسـين بلدا خربا . وقد اقنعنا الغراب بقبول ذلك ، فقبل وانتهي الامر . عند ذاك قال له الملك : وهل من المعقول أيها الرجل المغفل أن هنـاك خمسين بلدا خربا على وجه الارض ؟ فردعليه الرجل الشيخ قائلا : نعم ياجلالة الملك ، ان كل بلد يحكمه رجل أخرق ، فهو خرب .

واسقط فى يد الملك ، واقر بخطئه وقال : حقا « اللي ما لوش شيخ ، شيخه الشيطان » وقد أصبح هذا القول مثلا .

والشيخ فى القصص الشعبى لا ينطق بالقول الحكيم فحسب ، بل هو قادر كذلك على فهم الاسئلة الملغزة ، وهو وحده القادر على فك رموزها .

فقد خرج الملك والوزير يتفقدان احـوال الرعية . فوصلا الى شاطىء البحر وأبصرا صيادا كهلا يجر سمكة كبيرة من البحر . وفى أثناء ذلك جرحته السمكة بزعانفها القـوية فادمت يديه ، ولكنه لم يأبه بذلك واستمر يجرها . فوقف الملك والوزير عنده وسـأله الملك : كيف حال البعيد ؟ فأجاب الصيـاد : لقد أصبح البعيد قريبا . ثم سأله المـلك : وكيف حال الجماعة ؟ فأجاب الصياد : لقـد تفرقت الجماعة ولم يعد من الممكن لم أشتاتها فسأله الملك : وكيف حال الاثنين ؟ فأجـاب الصياد : لقد أصبح الاثنان ثلاثة . عند ذاك قال له الملك : اياك أن تبيع رخيصا ! فأجاب الرجل : انك لن توصى حريصا . وبهذا انتهى حديث الملك مع الصياد الشيخ . وفى أثنـاء

عودة الملك والوزير سأل الملك الوزير عما اذا كان قد فهم شيئا من حديثه مع الصياد ، فأجاب الوزير بالنفى . عند ذاك طلب منه الملك ان يفسر له مادار بينه وبين الصياد والا قطع راسه ، ثم اعطاه مهلة أسبوع .

واخذ الوزير يدير فى راسه العبارات التى سمعها من كل من الملك والصياد عله يصل الى مغزى هذا الكلام ولكن دون جدوى . واخيرا استقر رايه على ان يذهب ليقابل الصياد وينفحه بعض المال لكي يفسر له الكلام الذى دار بينه وبين الملك . ولكن الصياد ابى أن يفسر له شيئا الا اذا تنازل له عن الوزارة ولم يجد الوزير مجالا للخيار فوافق على ذلك. عند ذاك اصطحبه الصياد الى الملك لكي يتنازل أمامه رسميا عن الوزارة فى مقابل أن يفسر له الحديث . فلما ابصرهما الملك بادر الصياد بالسؤال وقال له : هل بعت رخيصا ؟ فأجاب الصياد : لقد اخبرتك ياجلالة الملك انك لن توصى حريصا ، لقد بعت الاجابة عن الاسئلة فى مقابل الوزارة . ثم شرع يشرح للوزير مادار بينه وبين الملك ، فقال : لقد سألنى الملك عن حال البعيد ، وهو يعنى بذلك بصرى الذى كنت أرى به بعيدا وأنا شاب ، فأجبته بأن بصرى قد ضعف مع هرمى ، وبذلك صرت لا ابصر الا الشيء القريب ، ثم سألنى عن الجماعة وهي اسنانى فاجبته بأنها قدتفرقت مع كبر سنى . ثم سألنى بعد ذلك عن الاثنين وهو يعنى به قدمي ، فاجبته بأنهما أصبحتا ثلاثة ، اذ لم أعد أسير الا بمساعدة عكازى .

وبهذا تنحى الوزير عن الوزارة وتقلدها الصياد . وبينما كان الوزير الصياد عائدا ذات يوم الى بيته ، صادف رجلا يبيع خيارا ، فوقف ليشترى منه . ولما كان الخيار طازجا للغاية فقد آلمه شوكه الرفيع ، ولهذا فقد رمى الخيار للبائع ، ورحل ومكث فى بيته بعد ذلك أياما لم يذهب فيها الى الوزارة ليباشر عمله . وقلق الملك عليه وذهب ليسأل عنه . فاخبره الصياد الوزير انه وقف ليشترى خيارا ولكن شوك الخيار الرفيع آلمه وتسبب فى مرضه . وتعجب الملك لذلك وذكره باليوم الذى رآه فيه على شاطيء البحر يجر السمكة الكبيرة وقد جرحته زعانفها الصلبة فسال دمه . ولكنه لم يكن مكترثا بذلك واستمر يجر السمكة . وظل الصياد ينصت للملك ولما فرغ من كلامه ، رد عليه قائلا : ان هذا صحيح يا جلالة الملك ، ولكنه من الغباء التام أن يجد الانسان فرصة للنعيم والرفاهية ولا يغتنم هذه الفرصة .

وتهدف هذه الحكاية ، كما يتضح تماما من مضمونها العام ، الى ابراز عيب خلقى ، ولا نبعد اذا قلنا انه عيب سياسى ، وهو أن من يتولى منصبا قياديا من ابناء الشعب ، سرعان ما تلهيه حياة الرفاهية عن التفكير فى أحوال الشعب الذى كان ينتمى اليه ذات يوم ،ويعانى مما يعانيه . ولكن الملك لم يخطيء عندما أسند الوزارة الى ذلك الشيخ ، وان كان صيادا بدلا من الوزير ، لأن الأول حنكته الايام ، وعمقت ادراكه بحقائق الامور . فى حين قصر عقل الثانى عن ادراك ابعاد مشكلات الحياة ، وهو مارمز اليه الحكاية عنا بفشله فى حل الاسئلة الملغزة .

●●●

– ٧ –

ومن الطبيعى أن تكون هناك بعض الامثلة الشعبية التى تلخص فلسفة الشعب فى الشيخوخة والهرم . والمثل الذى سبق أن ذكرناه وهو : « اللى ما لوش شيخ ، شيخه الشيطان » يصور تقدير الناس لمسنيهم ومدى احساسهم بقيمة وجودهم بينهم . ومن ثم فقد سمى رجال الدين بالشيوخ ، بصرف النظر عن مقدار أعمارهم ، لان الشيخ مجمع للمعرفة والحكمة والقدرة على تبصير الناس بجوهر الحياة .

وكل هذا يشير الى مدى احترام الناس

لتقادم الايام على الانسان ، وهم لذلك يحثون على احترام الصغير للكبير ، لأن اضافة يوم فى عمر الانسان معناه زيادة فى علمه وخبرته . وهم يقولون فى ذلك : « أكبر منك بيوم يعرف عنك بسنة »

ومع هذا لا تخلو الامثلة الشعبية من نظرة الشعب السلبيةالى الشيخوخة . فالشيخوخة هي نهاية المطاف فى حياة الانسان ، ولن يعود الشيخ بعدها شابا بحال من الاحوال . وفى ذلك يقول المثل الشعبى فى صيغة سؤال استنكارى : « هو الرائب يبقى حليب » ؟! فاللبن الحليب هو الاصل . وهو يتحول بعد عملية بيولوجية الى لبن رائب . ولا سبيل الى أن يصبح اللبن الرائب حليبا مرة أخرى . حقا أن اللبن الرائب له فوائده التى ربمافاقت فوائد اللبن الحليب ، ولكن هذا لا ينفى الحقيقة وهوان اللبن الحليب هو الاصل الطازج للبن الرائب . وربما ذكرنا هذا المثل بقول الشاعر القديم :

اترجو ان تكون وأنت شيخ
كما قد كنت أيام الشباب

لقد كذبتك نفسك ليس ثوب
دريس كالجديد من الثياب

واذا كان الامر كذلك ، فواجب على الشيخ أن يحتفظ بوقاره بما يتلاءم مع سنه وعقله . فاذا حاول الشيخ أن يتصابى ، قال فيه المثل : « الشايب لما يدلع يبقى زى الباب المخلع » . أو يقول : عجوز ومتصابى ! فاذا لم يكن الرجل الكبير متسما بالحكمة والعقل اللذين يزينانه بعد بلوغه سن الشيخوخة ، قال فيه المثل : « شابت لحاهم والعقل لسه ما جاهم » .

● ● ●

هذه جولة مع الانسان الشعبى وصراعه مع الزمن . وقد حرصنا فى الجزء الأول من البحث أن نبرز صور هذا الصراع من خلال اشكال تعبيره من ناحية ، كما حاولنا ان نستخلص منها فلسفته فى فكرة الزمن بوجه عام من ناحية اخرى . وصراع الانسان مع الزمن يعنى رفضه للزمن الحسى ، وهذا الرفض يتمثل فى أمرين : **الامر الاول** ، رفض التاريخ ، بمعنى انه أحداث يسلم بعضها الى بعض بحيث لايمكن تجنبها أو تجنب نتائجها. فالانسان الشعبى فى هذه الحالة لا ينظر الى هذا الحدث ، مهما كانت نتائجة ، على انه نهاية حتمية لا مفر له من أن يخضع لها ويستسلم فى يأس ، بل أن علاقته الروحية القوية بالقوى العليا سرعان ما تزيل مخاوفه ، وتقوى امله فى تغير الحياة وتجددها ، كما هو شأنها منذ الازل ، أما **الامر الثانى** فهو رفض الاستسلام للحظة تبدو فيها الحياة ، سواء كانت الحياة الطبيعية أو حياة الانسان ـ انها قد أجدبت أو فنيت . ذلك أن الجدب والفناء يأتى بعدهما الخصب والبعث لا محالة ، وهذا يعنى أن الخصب دائم والزمن دائم ، وان تخلل ذلك فترات من الضعف والجدب والموت المؤقت .

اما الجزء الثانى من البحث فقد انتقلت فيه من فكرة الزمن المجرد الى فكرة الزمن المجسد فى العجز والهرم والشيخوخة ، كما تتمثل فى القصص الشعبى والامثال الشعبية.

وبهذا يكون الانسان الشعبى قد عبر عن فكرة صراعه مع الزمن على تحد يتسم بالشمولية والتنوع والتفاؤل الذى يَجُبّ التشاؤم . وربما كان أروع من هذا كله انه لم يتقوقع داخل ذاته ليعبر عن مأساته ، بل عبر عن نفسه بوصفها نفسا تخفق بين انفاس الكون النابضة ، وبوصفها ايقاعا من ايقاع الحياة الذى يتردد صداه فى جميع الاجواء ، فى الفضاء وفى الانهار وفى الجبال وفى البحار ، ومع حفيف الاشجار ، وانغام الطيور ، وربما مع الاصوات الهامسة الصادرة من العالم غير المرئى .

الحياة في عالم مزدحم بالسكان

أحمد أبوزيد

حين صدر كتاب مالثوس عن السكان عام ١٧٩٨ تحت عنوان :
An Essay on the Principle of Population as it affects the Future Improvement of Society.
اعتبر أول دراسة تقوم على أسس دقيقة من جمع المعلومات بقصد الاجابة عن الأسباب المؤدية الى شقاء الجنس البشرى وبؤسه وتعاسته ، بل أن البعض ذهب الى حد اعتباره بداية للدراسة الاجتماعية الحديثة بوجه عام (١) . ولقد حاول مالثوس فى ذلك الكتاب أن يركز على مسالتين على جانب كبير من الأهمية ، وهما البحث عن الأسباب التى تقف دون تحقيق سعادة الانسان ، ثم البحث عن مدى امكانية القضاء على تلك الاسباب ، أو على الأقل التخفيف من وقعها ونتائجها على مايذكر هو نفسه صراحة في الصفحة الأولى من الكتاب . وفى سبيل ذلك وجد مالثوس أنه يتعين عليه أن يعالج بعض القضايا الهامة مثل العلاقة بين السكان والطعام ، على اعتبار أن وفرة الطعام عامل أساسى فى تحديد عدد السكان فى المجتمع ، وأن زيادة الطعام فى مجتمع ما كفيلة بأن تؤدى الى زيادة السكان، ما لم يكن هناك ما يمنع من ذلك ، وذلك كله لكي يصل فى آخر الأمر الى قضية من أهم

(١) Bogardus, E.S. ; The Development of Social Thoughts, Mckay N. Y. 1960, p. 222.

القضايا التى كان يؤمن بها ، وهى أن التعفف الأخلاقى ، وكبح الفريزة الجنسية هما خير وسيلة لتحقيق الملاءمة المنشودة بين السكان والطعام ، على أساس أنها تؤدى الى قلة النسل ، وبالتالى الى التحكم في سكان المجتمع. وهذا معناه أن الانسان الفرد هو الذى يستطيع فى آخر الأمر أن يجنب نفسه والمجتمع الانسانى عموما كثيرا من النتائج الضارة التى تنجم عن التزايد السكانى ، وذلك عن طريق الامتناع ووضع القيود والضوابط على نشاطه الجنسى الخاص . ولن يتيسر للفرد ذلك الا عن طريق التربية والتعليم ، وبالذات تعليم الفقراء وتدريبهم على تأجيل زواجهم الى سن متأخرة ، وعلى العمل على خفض معدلات المواليد بينهم ، ثم الاقتصاد فى الانفاق ، وتشجيعهم على التوفير ، واستثمار مدخراتهم .

ولقد وجدت آراء مالثوس غير قليل من المعارضة. وليس هنا مجال التعرض للانتقادات الكثيرة التى وجهت اليه من بعض رجال الدين ، ورجال المال ، ورجال الحرب ، ورجال الفكر على السواء . ولكننا نكتفى هنا باعتراض واحد وجهه اليه بعض المفكرين والفلاسفة الاجتماعيين وهو اعتراض لايزال يجد له صدى عند كثير من الكتاب المحدثين ، ويتردد كثيرا فى كتاباتهم من أن للانسان القدرة على اعادة التوازن بين السكان والغذاء عن طريق البحث عن المصادر التى لم تكتشف بعد ، وبخاصة فى المناطق البكر الشاسعة فى افريقيا وأمريكا الجنوبية ، وأنه بناء على ذلك ليس ثمة مايدعو الى تلك النظرة المتشائمة التى تميز كتاب مالثوس وتصبغ تفكيره بلون أسود قاتم . بل انه ليس مايدعو الانسان الى أن يفرض على نفسه وعلى حياته الجنسية تلك القيود التى يوصى بها مالثوس باسم التعفف ، مثل تأخير الزواج على ما فعل هو نفسه . فلقد تغيرت الأمور والأوضاع الاجتماعية كثيرا منذ عهده ، وأمكن للمرأة بوجه خاص أن تتحكم فى النسل برغبتها وارادتها الحرة ، بعد أن كانت مجرد أداة للحمل والولادة ، وذلك نتيجة لتحرر المرأة ، وبخاصة فى المجتمع الغربى ، من سيطرة الرجل وشعورها بالمساواة معه فى الحقوق والواجبات ، ومن هذه الحقوق حقها فى أن تحدد بنفسها عدد الاطفال الذين تحب هي أن تنجبهم . وذلك كله بالاضافة بطبيعة الحال الى ازدياد شعور الناس وادراكهم لضرورة العمل على توفير مستوى اقتصادى واجتماعى معين يعيشون فيه ويوفرونه لأنفسهم وأولادهم . فهذه كلها أمور من شأنها أن تؤدى فى آخر الأمر الى التحكم فى عدد السكان ، بحيث لايتعرض العالم لكارثة كتلك التى يتنبأ بها المتشائمون من الكتاب .

بيد أن الوضع السائد الآن في العالم يبين أن هذا التفاؤل فيه هو ذاته كثير من الغلو والمبالغة ، وأن كل ما يقال عن حكمة الانسان وتعلقه ووعيه وقدرته على التحكم فى نسله لم يمنع من ازدياد السكان فى العالم ككل زيادة رهيبة وبسرعة فائقة ، مما يثير القلق ويدعو الى ضرورة الاسراع بوضع سياسة حكيمة يمكن بمقتضاها اعادة التوازن بين السكان وموارد الطعام ، أو بقول أعم بين الموارد البشرية والموارد الطبيعية وبخاصة الطعام . ويعتبر ذلك من أهم الاسباب التى تكمن وراء الاهتمام المتزايد فى الوقت الحالى بمشكلات التخطيط من أجل التنمية الاقتصادية والاجتماعية فى المجتمع المتخلف على الخصوص ، نظرا لأن هذه المجتمعات هي التى تعانى اكثر من غيرها من فقدان ذلك التوازن نتيجة للزيادة السكانية السريعة فيها . ولكن هذا لا يعنى أن المجتمعات المتخلفة هى وحدها التى تعانى من هذه المشكلة ، فالشعور بالزيادة السكانية وتكدس السكان مع عدم التنسيق مع موارد الطعام المتاحة أصبح شعورا عاما ، وبدأ كثير من الكتاب يكتبون عن ظاهرة ازدحام العالم بسكانه باعتبارها من أخطر الظواهر التى تواجه المجتمع الحديث بوجه عام ، ويحاولون التعرف على أسباب وخصائص ونتائج ذلك الازدحام ، والمشكلات المترتبة عليه ، وكيف يمكن حل تلك المشكلات ، ومتطلبات الحياة

فى ذلك العالم المزدحم بالسكان ، ونوع التنظيم الذى يجب أن يسود فى المجتمعات الحديثة المزدحمة ، وغير ذلك من المسائل التى تمتلىء بها الآن الكتابات السوسيولوجية والانثربولوجية التى تعنى بمشكلات السكان والتنمية فضلا عن كتابات عدد كبير من الديموجرافيين (علماء السكان) .

والمعروف أنه حتى عهد غير بعيد كانت المعدلات المرتفعة للوفيات نتيجة لانتشار الأمراض وتفشى الأوبئة وكثرة تعرض المجتمعات الانسانية للمجاعات والحروب تعتبر عاملا محددا للخصوبة العالية بين جميع الشعوب بغير استثناء . ولكن التقدم الذى أحرزه الانسان فى الفترة الأخيرة ساعده على التغلب على اثنتين من تلك المحددات الطبيعية للزيادة السكانية ، ونعنى بهما **المرض والمجاعات** . وكما يقول فيليب هاوزر (٢) ، قد يكون من الصعب علينا أن نتصور الآن كيف كانت المجاعات تلعب دورا هاما فى تحديد الزيادة السكانية . فقد بَعُدَ العهد بهذه المجاعات فى كثير من المجتمعات بعد أن كانت تفتك بأعداد كبيرة من البشر . فآخر مجاعة كبرى حدثت فى أوروبا مثلا كانت فى ايرلنده عام ١٨٤٦ ، وذلك حين تعرضت لنقص شديد فى المواد الغذائية ، واستمر ذلك ست سنوات . وفى روسيا أدت الحروب والامراض بين عامى ١٩١٤ و١٩٢٦ الى ارتفاع حالات الوفاة لحوالى ٢٥ الى ٣٠ مليون حالة أكثر من العدد الذى كان يتوقع حدوثه فى الظروف العادية . ومع ذلك فهناك مجاعات أخرى حدثت فى تواريخ أقرب من هذه ، مثل المجاعة التى حدثت فى الهند عام ١٩٤٣ ثم فى عام ١٩٥١ ، وكذلك المجاعة التى تعرضت لها البرازيل عام ١٩٦١ وفتكت بمئات الآلاف من البشر . وليس ببعيد تلك المجاعة التى حدثت منذ سنوات قليلة فى أنحاء واسعة من افريقيا نتيجة (للعطش) أو عدم سقوط الامطار وجفاف الارض وموت الحيوان ، ولا تزال واضحة حتى الآن حيث لازالت تفتك ، رغم كل الجهود المبذولة ، بآلاف الارواح التي يصعب تحديد عددها بالضبط نظرا للظروف غير المواتية التى تعيش فيها افريقيا ، والتى تمنع من الحصول على أرقام دقيقة عن كثير من جوانب الحياة . ومع ذلك فانه يمكن القول بوجه عام ان اثر المجاعات فى تحديد الزيادة السكانية فى الوقت الراهن ضئيل ، ولا يكاد يقارن بما كان يحدث فى الماضى .

وما يقال عن المجاعات يمكن ان يقال عن الامراض والاوبئة .. وتاريخ الشعوب ملىء بأحداث الامراض التي كانت تفتك بأعداد كبيرة من سكان العالم . فهناك مثلا وباء الموت الاسود الذي أودى بحياة أكثر من ربع سكان أوروبا فى القرن الرابع عشر ، وهناك الطاعون الذي فتك بحياة سكان لندن فى عامي ١٦٦٤ و ١٦٦٥ ، وهناك الكوليرا التي انتشرت في نيويورك فى أعوام ١٨٣٢ ، ١٨٤٩ ، ١٨٥٤ ، وأدت الى ارتفاع معدلات الوفيات الى أكثر من ٤٥ فى الالف ، ولم يهبط المعدل الاجتماعي للوفيات هناك الى أقل من ٣٠ فى الالف الا بعد عام ١٨٧٠ (٣) .

والمهم هنا اذن هو ان التغلب على المجاعات والامراض والاوبئة ، وبالتالي القدرة على التحكم فى معدلات الوفيات ترتب عليها زيادة هائلة فى السكان في العالم أجمع ، بما فى ذلك

---

(٢) فيليب هاوزر : الازمة السكانية ، ترجمة حنا رزق وراشد البراوى ، المكتب المصرى الحديث الاسكندرية ١٩٧٠ صفحات ١٤ ـ ١٥ والاصل الانجليزى للكتاب هو :

Philip Hauser ; The Population Dilemma, Prentice - Hall, N.J. 1963

(٣) المرجع السابق ذكره .

المجتمعات المتخلفة التي عرفت الخدمات الصحية طريقها اليها أخيرا . وكل هذا كان خليقا بأن يدفع الى التفكير فى مدى ما يمكن للمجتمع الانساني ككل ، وكل مجتمع على حدة ، أن يتحمله من حيث الزيادة السكانية.

(١)

وتاريخ الزيادة السكانية المطردة فى العالم موضوع طريف الى أبعد حدود الطرافة ، وان كان يثير الكثير من القلق حول مستقبل الجنس البشري . والمعروف ان علماء الانثربولوجيا يختلفون فيما بينهم اختلافا شديدا فيما يتعلق بتحديد بدء ظهور الحياة البشرية على وجه الارض ، بل وأيضا حول المقصود بكلمة « البشر » ، ومن هنا تتفاوت تقديراتهم بين ٥٠٠,٠٠٠ سنة و ٢٠٠,٠٠٠ سنة ، ولو أن الكثيرين منهم يميلون الآن الى القول بأنها بدأت قبل هذا بكثير جدا ، معتمدين فى ذلك على نتائج الاكتشافات التي يقعون عليها من حين لآخر فى مجال البقايا الحفرية . وليس هذا موضوع حديثنا على أي حال ، انما الذي يهمنا هنا فيما يتعلق بالزيادة السكانية هو أن ثمة ادلة كثيرة تشير الى أن الامر احتاج الى عدة آلاف من السنين قبل أن يصل عدد سكان العالم الى ربع بليون نسمة ، وكان ذلك في الاغلب منذ حوالي ٢٠٠٠ سنة ، ثم استغرق الانسان ستة عشر قرنا لكي يضيف ربع بليون نسمة أخرى الى ذلك العدد بحيث يرتفع تعداد سكان العالم الى نصف بليون نسمة . وهذا معناه أن الجنس البشري احتاج لعدة مئات من القرون لكي يصل الى ذلك الرقم (نصف بليون) وهي فترة طويلة جدا حين نقارنها بالوقت الذي استغرقه الانسان لكي يضيف الى ذلك نصف بليون نسمة أخرى جديدة ، اذ لم يتطلب الامر فى الحقيقة أكثر من قرنين فقط ، وهذا يشير الى مدى التسارع الرهيب فى الزيادة السكانية خلال فترات أقصر فأقصر من الزمن . والواقع أن كل اضافة جديدة لنصف بليون جديد من البشر بعد ذلك كانت تستغرق فترات أقصر بشكل واضح . فنصف البليون **السادس** مثلا الذى استكمل به الانسان تعداده الى ثلاثة بلايين لم يتطلب أكثر من عشر سنوات. ولو استمرت معدلات النمو السكاني على هذه السرعة نفسها فسوف يستغرق نصف البليون **الثامن** والذي سيرفع سكان العالم الى أربعة بلايين ، ست أو سبع سنوات على أكثر تقدير (٤) . وهذا هو ما يثير الهلع فى نفوس الكثيرين من المفكرين ، وان كان هناك كما ذكرنا من يحاول التهوين من شأن هذا الخطر ويستخف بذلك الهلع على أساس ان مستوى المعيشة والصحة العامة بين شعوب العالم فى تحسن مستمر رغم الزيادة العددية ، وانه ليس من المعقول أن يعجز التقدم العلمي والتكنولوجي عن سد حاجات الاعداد الجديدة من البشر الذين يضافون كل يوم الى سكان العالم ان لم يرفع من مستوى معيشتهم عن المستوى الحالي . ولكن الرأي السائد على العموم هو ان مستقبل الانسان محفوف بكثير من المخاطر ان لم يتدارك الانسان نفسه الامر ، ويتحكم فى الزيادة السكانية التي يضيفها هو ذاته الى تعداد العالم . وقد يكفي لتبيين نوع المخاطر

---

(٤) المرجع السابق ذكره ، صفحة ١٩ ، ٢٠ ـ انظرايضا الاعداد الخاصة من مجلةاليونسكو عن مشكلات السكان. والفقرة التالية من العدد ١٥٦ الصادر فى يونيو ١٩٧٤ تلقىمزيدا من الضوء على هذه الحقائق : « استغرق الانسان علي الاقل مليون سنة لكى يصل عدده الى رقم المليون .ولعلمجموع سكان العالم بلغ ٥ الى ١٠ ملايين قبل ان تظهر الزراعة المستقرة بها قبل ٨٠٠٠ عام . وبمجيء التنظيمالاجتماعى الاكثر تعقيدا امكن اعالة اعداد اكبر من السكان وقبل ٢٠٠٠ سنة تقريبا بلغ سكان العالم ما بين ٢٠٠ و ٤٠٠مليون نسمة . وقد وصل البشر الى رقم البليون حوالى سنة ١٨٠٠ ، وجاء البليون الثانى بعد ١٣٠ سنة تقريبا ، أماالبليون الثالث فلم يستغرق مجيئه سوى ٣٠ سنة ، ولن يستغرق مجيء الرابع أكثر من ١٥ سنة » ومجلة اليونسكوعدد ١٥٦ بعنوان (وغدا كم يصبح عددنا) صفحة ٦

التي تهدد الانسان في المستقبل ان نقتبس هذه العبارة من فيليب هاوزر الذي يعتبر من أكبر المشتغلين في الوقت الحالي بمشكلات السكان ومستقبل الانسان حيث يقول : ـ « اذا استمرت الزيادة السكانية على هذا النحو لمدة عشرة أو عشرين عقدا من السنين لوصلت هذه الزيادة الى ما يجعل الكرة الارضية أشبه ما تكون بجبل من النمل .. فالاربعة البلايين من الاشخاص المتوقع وجودهم في عام ١٩٧٥ سوف يصبحون ٣٢ بليونا بعد قرن واحد ، ويصبحون بعد قرن وربع قرن أي عام ٢٢٠٠ نحو ٥٠٠ بليون نسمة . واذا وزع هذا العدد توزيعا متساويا على سطح البسيطة ـ بما فيها من صحراوات وجبال وغابات والمناطق القطبية المتجمدة ـ فان كثافة السكان تكون أقل قليلا من الكثافة في واشنطن عاصمة الولايات المتحدة في سنة ١٩٦٠ (٥) .

ولقد شغف العلماء وبخاصة في السنوات الاخيرة بمحاولة وضع تقديرات للحد الاقصى للسكان الذين يمكن للعالم ان يستوعبهم بحيث يستطيعون الحصول على حاجياتهم بغير مشقة تذكر . وبعض تلك التقديرات متواضع الى حد كبير ، بينما يصل البعض الاخر الى درجة عالية جدا من المبالغة والمغالاة . ففي عام ١٩٤٥ مثلا كان هناك من العلماء من يعتقدون ان العالم لا يستطيع ان يستوعب أكثر من ٢ر٨ بليون نسمة . ولكن من الواضح ان سكان العالم في الوقت الحالي ـ أي بعد ثلاثين سنة من ذلك التقدير ـ تجاوزوا ذلك الرقم بالفعل . ومن ناحية اخرى نجد عالما مثل هاريسون براون Harrison Brown يذهب في تفاؤله الى القول بأن العالم يمكنه ان يستوعب خمسين بليون نسمة يعيشون بغير ضيق ، ويحققون كل ما يحتاجون اليه من تقدم ، ويوفرون لانفسهم ما يكفي لاشباع حاجياتهم ومطالبهم المختلفة . ومع ان التقدير الاول يغلب عليه طابع التشاؤم ويغفل امكانيات التقدم العلمي والفني واستخدامها في توفير الطعام فان ذلك لا يعني ان العالم يستطيع ان يستوعب اضافات سكانية جديدة بغير حدود أو قيود . وعلى العموم فان معظم التقديرات في الوقت الحالي تذهب الى ان العالم يمكنه استيعاب ما بين خمسة بلايين وسبعة بلايين نسمة ، وان كان يبدو ان هذا الرقم ذاته سوف يتحطم مع نهاية هذا القرن .

وعلى اية حال فلا بد في أي محاولة لتقدير مدى ما يمكن للعالم ان يستوعبه من سكان ، أو على الاصح تقدير الحد الاقصى للسكان في العالم ، من ان تأخذ في الاعتبار التفاوت بين امكانيات المناطق المختلفة . فالتوزع السكاني لا يمكن ان يكون متساويا في كل انحاء العالم نظرا للاختلافات الهائلة بين الموارد الطبيعية من ناحية واختلاف درجة التقدم العلمي والتكنولوجي من ناحية اخرى . ومن الصعب ان تزول هذه الفوارق والاختلافات تماما نظرا للاعتبارات السياسية بالذات التي تباعد بين مختلف الشعوب . ومن هنا فان الزيادة السكانية قد تصل الى نقطة الانفجار والخطر في مجتمع معين أو في دولة معينة قبل ان يتأثر العالم ككل بتلك الزيادة أو حتى يشعر بوطأتها ويدرك مغزاها وخطورتها بالنسبة اليه . وعلى الرغم من كل ما يقال عن الخطر الذي يتهدد العالم نتيجة لاختلال التوازن بين

---

(٥) فيليب هاوزر ، المرجع السابق ذكره ، صفحة ٢٣

السكان والموارد الطبيعية وبخاصة الطعام فان التعرض لذلك الخطر يتفاوت من دولة لاخرى ومن شعب لآخر ، كما أن الدول المتخلفة أو النامية تتعرض له بشكل أوضح من المجتمعات الراقية المتقدمة .

والى ان يأتي اليوم الذي تتحقق فيه الملاءمة بين السكان والموارد الطبيعية فى العالم اما عن طريق تحكم الانسان فى نسله بحيث تضيق الفجوة الواسعة بين معدلات المواليد والوفيات ،أو عن طريق استغلال كل الامكانيات الطبيعية وبخاصة مصادر الطعام بالذات بحيث توفر للسكان كل احتياجاتهم ، فان كل الحلول الاخرى لا بد ان تكون حلولا جزئية ومؤقتة ، بمعنى انها قد تحل المشكلة في مجتمع محلي معين او فى منطقة معينة اوفى دولة معينة أو حتى فى قطاع معين من السكان فحسب . ولا بد للانسان أثناء ذلك كله من ان يقبل الحقيقة الواقعة ، وهي أن عليه ان يعيش فى مجتمع مزدحم بسكانه بوجه عام ، رغم ما قد يكون هناك من اختلاف فى درجة الكثافة السكانية بين مختلف المناطق والمجتمعات بحيث تضيق بعض تلك المجتمعات بسكانها ، بينما تشعر مجتمعات أخرى بانها فى حاجة الى مزيد من السكان حتى يمكن الاستفادة من الموارد الطبيعية المتاحة بشكل أفضل . ومن هنا كانت المناطق الاقل ازدحاما والاكثر غنى في مواردها الطبيعية وامكانياتها الاقتصادية تجذب اليها السكان الذين يزيدون عن حاجة وامكانيات المناطق الاكثر فقرا وتخلفا . وقد نجم عن هذه التحركات السكانية ظاهرتان متكاملتان لهما خطرهما فى المجتمع الحديث ، ونعني بهما الهجرات الداخلية والخارجية من ناحية ، وظهور التجمعات السكانية الهائلة التي تتمثل فى المدن الكبرى أو المدن العملاقة والامصار من ناحية أخرى ، وما يترتب على هاتين الظاهرتين المتكاملتين من آثار اجتماعية واقتصادية وظهور تنظيمات جديدة تتلاءم مع هذه الاوضاع الناشئة .

(٢)

منذ حوالي ربع قرن تقريبا قام عالم البيولوجيا الامريكي جون أملين John Emlen بتجربة على عدد من الفئران لمعرفة معدلات توالدها ، فوضع خمسة ازواج منها فى مخزن بقبو مستشفى Wisconsin ، وكان يترك لها ٢٥٠ جراما من الطعام فى كل يوم من الايام التي استغرقتها التجربة . وتوالدت الفئران فى المخزن ، وارتفع عددها بسرعة حتى جاء الوقت الذي اصبحت كمية الطعام المحددة تكفي بالكاد لاطعامها ، وحينئذ بدات بعض الفئران تترك المخزن وتنتشر في المبنى كله ، وكانت هذه الهجرة ـ على ما يقول ديفيد هاي David Hay هي الاستجابة من الفئران لعدم كفاية الطعام المتاحة لها لاطعامها جميعا (٦) .

وهذا الموقف هو الذي نجده بحذافيره فى المجتمعات الانسانية بل وفى كل المجتمعات الحيوانية ، وهو موقف يعبر عن وجود علاقة قوية بين عدد السكان وكمية الطعام المتوفرة لهم . ولقد ترجم مالثوس هذا الموقف بطريقته الخاصة فى قانونه المشهور عن التزايد السكاني وزيادة انتاج الطعام ، كما ان هذا الموقف هو أحد الاسباب الرئيسية وراء الهجرات والتحركات السكانية فى كثير من مناطق

---

(٦) Hay, G.; Human Populations, Penguin, London 1972, 0p.37

العالم ، وذلك حين يزداد حجم الجماعة زيادة هائلة بحيث لا تكفيها كميات الطعام ، فيضطر بعض أفرادها الى النزوح الى مناطق اخرى جديدة . ولقد أجريت دراسات عديدة على هجرة بعض أنواع الحيوانات ، وانتهت كلها الى أن تلك التحركات تنجم فى الاغلب عن زيادة أفراد القطيع لدرجة لا تتناسب مع مساحة المكان الذي تعيش فيه أو قلة كفاية الطعام . وصحيح أن نسبة معينة من الحيوانات المهاجرة تموت أثناء هذه التحركات ولكن يتبقى بعد ذلك العدد الملائم في الاغلب ، وبذلك تعتبر هجرات هذه الحيوانات أو الانواع والفصائل الحيوانية بمثابة وسيلة لتخفيض حجمها ــ اي تقليل الكثافة السكانية ــ الى الحد الذي يتناسب مع مقدار الطعام أو سعة المكان . وكما هو الحال بالنسبة للهجرات البشرية ، فان (رواد) هذه التحركات والهجرات (هم) فى العادة الافراد الاصغر فى السن والاقدر على الحركة والمغامرة وحب الارتياد ، ويكونون بذلك أهم العوامل التي تؤدي الى انتشار افراد النوع خارج الوطن الاصلي .

والسائد لدى عدد كبير من علماء الانثربولوجيا ان الجنس البشري نفسه كان قد نشأ فى موطن واحد محدد هو فى الاغلب افريقيا ، وان كانت هناك نظريات كثيرة متعددة لا داعي للدخول فى تفاصيلها ، ثم انتشر الجنس البشري من هذا الموطن الاول الى بقية انحاء العالم خلال التاريخ البشري الطويل . وكانت بعض هذه الهجرات ميسرة أو ميسورة نتيجة لعدم وجود عوائق طبيعية، ولامتداد الارض الى مسافات واسعة متصلة كما كان الحال في امتداد واتصال افريقيا وآسيا واوروبا التي تكون كتلة من اليابسة متصلة ومتماسكة الى حد كبير ، مما سهل عملية الانتقال ، بينما كانت هناك صعوبات فى الانتشار الى القارات الاخرى التي يعتقد أنها لم تسكن الا فى فترات حديثة نسبيا من التاريخ البشري ، وان كانت هذه القارات ذاتها قد أصبحت مأهولة بالسكان فى عصر البلايستوسين Pleistocene منذ ما يقرب من ثلاثين الف سنة تقريبا ، كما هو الحال بالنسبة لاستراليا ، وذلك نظرا لصعوبة عبور المسطحات المائية الواسعة التي تفصل هذه القارة عن آسيا ، وان كانت مناطق العبور هي بالضرورة تلك التي تقترب فيها القارات بعضها من بعض بحيث تضيق الفواصل المائية الى أقل حد ممكن (٧) .

والمهم هنا هو أن هذه الحركات الهجرية التى ساعدت على انتشار الجنس البشرى واستيطان الارض كانت دوافعها بيولوجية الى حد كبير ، تتمثل فى عدم التلاؤم بين عدد السكان وكمية الطعام المتوفر ، وان كان هذا لاينفى بطبيعة الحال العوامل الاخرى السيكولوجية والاجتماعية مثل حب الكشف والارتياد والمخاطرة. الا انه يصعب رد التحركات السكانية الهائلة الى مثل هذه العوامل وحدها . والواقع انه على الرغم من أهمية

---

(٧) ويبدو ان وصول الانسان الى امريكا كان فى عصر البلايستوسين أيضا وحوالى هذا التاريخ ذاته وان كان البعض يرون انه لا يرجع الى ابعد من عشرين الف سنة .والمعروف ان للهنود الحمر ملامح منغولية . والسائد أن الانسان عبر آسيا الى أمريكا عن طريق ما يعرف الان باسم مضيق بيرنج Behring Strait من سيبريا الى آلاسكا حيث كانت مياه المحيط متجمدة ، وبذلك امكن له العبور والانتقال ثم استيطان امريكا والانتشار فيها ــ انظر المرجع نفسه ، صفحة ٣٨ .

هذه العوامل البيولوجية فانهــا لم تعــد هي العوامل المتحكمة الوحيدة فى هجرات السكان في العصر الحديث ، على الاقل بشكل مباشر . ذلك أن التقدم التكنولوجى فى الوقت الحاضر يعفى الناس من كثير من المتطلبات أو الضغوط البيولوجية ، بحيث تكاد الهجرات البشرية الآن تكون نتيجة لاسـباب اجتــماعية أو اقتصادية أو سياسية أو ثقافية أكثر مما يمكن ردها للاسباب البيولوجية التقليدية ، وان كان هذا لا يمنع من وجود قيود بيولوجية عـلى البيئة البشرية ، فرغم التقدم التكنـولوجى لا يمكن للانســان مثـلا أن يعيش باســتمرار وبطريقة مريحة فى أجواء شديدة الحرارة أو قارسة البرد أو فقيرة فى تربتها بحيث لا تنتج الطعام الكافي وما الى ذلك .

ولقد شهد العصر الحديث كثيرا من الهجرات السكانية ، الا أن أكبر هجرة من هذا النـوع هي فى الأغلب هجرة الأعداد الكبيرة من الاوروبيين فى القرن التاسع عشر الى امريكا . وهى تعتبر اكبر هجرة في التاريخ البشرى بأسره ، اذ يقدر عدد من شملتهم هذه الهجرة الواسـعة بحوالى سبعين مليون نسمة استقروا فى الاغلب فى امريكا واستراليا وجنوب افريقيا . وقبل ذلك التاريخ كان معظم الذين يهـاجرون هم من الرواد والمغامرين ، فضـلا عن اللاجئـين السياسيين أو الهاربين من الاضطهاد الدينى أو حتى من المجرمين المطرودين أو المنفيـين من بلادهم . وثمة أسباب كثيرة لتلك الهجرات السكانية الجماعية الهائلة التى شهدتها أوروبا فى القرن الماضى ، وهى أسباب معظمها اقتصادى يتمثل فى قلة مساحة الارض بالنسبة للنمو السكانى ، ثم ما نجم عن التطور الصناعى من هبوط وانخفاض فى الأجور بعد اعتماد الصناعة على الآلات ، وزيادة البطالة الى جانب تحسن المواصلات . ومن هنا لم يكن امام تلك الجموع الا أن تهاجر الى أرض جديدة ، حيث كانت تتوقع أن تجد مصادر جديدة للعمل والرزق والكسب والدخل الوفير .

فكأن حجم الهجـرات السـكانية يرتبط ارتباطا وثيقا بالظروف والأوضاع الاقتصادية وهذا يصدق على الهجرات الخارجية الى حد كبـير . فالهجرات الى أمريكا مثـلا تزداد في أوقات الانتعاش الاقتصادى هناك ، كما أن الهجرات من العالم العربى وبخاصة من بلـد مثل مصر فى السنوات الاخيرة ارتبط ارتباطا قويا بالأحوال الاقتصادية السيئة هنـاك مع الانتعاش الاقتصادى فى بعض البـلاد العـربية نتيجة للكشف عن البترول وما ارتبط بذلك من تقدم عمرانى كبير فى تلك البلاد .

وعلى الرغم مـن اهميـة هذه **الهجـرات الخارجية** فهى ليست الشكل الوحيد للتحركات السكانية ، اذ هناك **الهجرات الداخلية** التى قد لا تكون على مثل هذه الدرجة من الوضوح ولكنها تلعب مع ذلك دورا هاما فى حيــاة المجتمعات . وتتميز هذه الهجرات الداخلية ــ أو تحركات السكان من مكان لآخر داخل الوطن الواحد ــ بقصر المسافات التى يقطعها المهاجرون ، كما أنها تتجه فى معظم المجتمعات الى مناطق ووجهات معينة بالذات ، فهى تتجه في بريطانيا مثلا فى الاغلب نحو الطرف الجنوبى الشرقى ، وفى مصر من الجنوب الى الشمال ، وفى المانيا من الشرق الى الغرب ، وفى ايطاليا من الجنوب الى الشمال أيضا ، وهكذا . وعلى العموم فان هذه التحـركات السكانية الداخلية تخرج من المناطق الاكثر فقرا وتخلفا الى المناطق الأكثر غنى وتقدما والتى توفـر مجالات أوسع للعمل والكسب . ومن هنــا كانت معظم الهجرات الداخلية من المنــاطق

الريفية المتخلفة الى المراكز الحضرية والصناعية، الى حيث تتوفر مشروعات التنمية الزراعية التى تجذب اليها بعض الايدى العاملة فى الزراعة . والنمط السائد على أى حال هو اتجاه الأيدى العاملة الى مناطق الصناعة المتقدمة المعقدة مما يترتب عليه اتساع المدن الصناعية ونموها وامتدادها ، وزيادة تعقد الحياة الاجتماعية والاقتصادية فيها بشكل غير مألوف ، وهذا يؤدى بدوره الى ظهور ما يعرف باسم المدن العملاقة . (٨)

●●●

وليس ثمة شك فى ان لهذه الهجرات الواسعة أثرا كبيرا واضحا على التركيب السكانى فى البلد الطارد للسكان ، أى الذى تخرج منه هذه الهجرات ، وكذلك الذى يستقبل هذه الجماعات الوافدة، أى المنطقة الجاذبة للسكان وهذه تأثيرات معروفة ، وقد كتب عنها الكثير فى كتب الاجتماع والانثربولوجيا والاقتصاد، ولذا فليس ثمة ما يدعو الى التعرض لها هنا بالتفصيل ، وان كان يمكن مع ذلك الاشارة بسرعة وبوجه عام الى هذه التأثيرات وبخاصة على النمط السكانى التقليدى فى المجتمعات الجاذبة للسكان ، لانها هي في الاغلب المناطق التى تتعرض للتغير بدرجة أكبر من المجتمعات الطاردة للسكان والتى يتميز نمط الحياة فيها بالركود الى حد كبير نتيجة لظروفها وأوضاعها الاجتماعية والاقتصادية .

وربما كان أهم هذه التغيرات فى نمط التركيب السكانى هو زيادة نسبة الذكور عن الأناث فى المجتمعات التى تستقبل المهاجرين، وذلك نظرا لأن المهاجرين عموما ، سواء في الهجرة الداخلية أو الهجرة الخارجية ، هم فى الأغلب من الرجال الذين يسبقون عائلاتهم الى مقر الاقامة الجديد للكشف عن الأوضاع الجديدة حتى يوفروا لمن يعولونهم سبل العيش . ويتمثل هذا بوضوح في المجتمعات النامية التى لم تحتل فيها المراة بعد نفس المركز الذى يحتله الرجل ، أو على الأقل حيث لا تمارس المراة كل الاعمال وأوجه النشاط التى يمارسها الرجل . كذلك يتمثل هذا التغير فى نمط التركيب السكانى التقليدى ثانيا فى ازدياد العزاب عن المتزوجين زيادة كبيرة فى المجتمعات الجاذبة ، نظرا لأن الرجل غير المتزوج يكون في العادة أقدر على الحركة والهجرة والانتقال من الرجل الذى يرتبط بعائلة ويكون مسئولا عنها . وأخيرا تتمثل هذه التغيرات فى ازدياد عدد الشبان وبالتالي اختلال الهرم السكانى ، الطبيعى أو المألوف الذى نجده فى المجتمعات

---

(٨) ولكن على الرغم من كل ما يقال عن التحركات السكانية وسهولتها وكثرتها نتيجة لسهولة الحركة والانتقال وتقدم وسائل المواصلات ، فلا يزال الجانب الاكبر من الارض غير ماهول او مسكون ، كما لا تزال هناك مساحات كبيرة يسكنها اعداد قليلة من السكان الذين يتناثرون فيها فى شكل تجمعات متفرقة صغيرة ، ولا تزال المناطق الكثيفة السكان او المزدحمة بالسكان مناطق قليلة معدودة نسبيا . ويميز علماء الديموجرافيا والانثربولوجيا بين أربع مناطق رئيسية للكثافة السكانية العالية فى العالم هى الشرق الاقصى والهند واوروبا وشمال شرق امريكا ، وذلك فضلا عن عدد من المراكز السكانية الاصغر فى المساحة مثل حوض النيل والساحل الباسفيكى لامريكا الشمالية . كذلك رغم كل ما يقال عن تحركات السكان من المناطق الاكثر كثافة الى المناطق الاقل كثافة فان ذلك لا يصدق فى كل الاحوال .

فلقد كان وادى النيل دائما كثيف السكان ومع ذلك فان التحركات السكانية منه الى المناطق المجاورة الاقل كثافة كانت قليلة دائما او حتى معدومة . ومن ها فان العلماء يفضلون الآن الكلام عن التحركات السكانية من المناطق التى لا تهيىء الا فرصا وامكانيات اكبر واشمل واكثر تنوعا ...كانت مصر مثلا فى وقت من الاوقات تستقبل مهاجرين من الدول العربية فاذا بالعكس هو الذى يحدث الان ، وتقوم مصر بتصدير عدد كبير من السكان الفائضين عن حاجتها الى البلاد التى كانت فقيرة او معدمة قبل ان تزدهر اقتصادياتها بظهور النفط وتنمو وتصبح مناطق جذب سكانى . ولكن هذا ايضا يدخل فيه كثير من الاعتبارات البيولوجية والجغرافية كالمناخ ونوع الارض والتربة . انظر نفس المرجع السابق ، صفحات ٤٣ وما بعدها .

السوية أو التى لا تتعرض لمثل هذه الموجات السكانية الصادرة منها أو الوافدة اليها .

وليست المسألة مجرد مسألة تغيرات فى نمط التركيب السكانى من حيث النوع أو العدد فحسب ، بل المهم هنا هو التغيرات التى تطرأ على نمط الحياة الاجتماعية المألوفة ، وبخاصة على العادات والتقاليد المتوارثة وظهور ظواهر اجتماعية جديدة قد تعتبر شاذة أو غير سوية سواء فى الجانب الاجتماعى أو الاقتصادى . اذ ليس من شك فى أن ازدياد حركات الوافدين الى منطقة من المناطق سوف يؤدى في آخر الأمر ، ان لم توضع قيود على هذه الحركات ، الى زيادة الايدى العاملة فى المجتمع الجديد عن حاجة العمل ، مما يترتب عليه انخفاض الأجور أو حتى ظهور البطالة ، على الأقل بين فئات معينة من الوافدين ، وبخاصة غير المهرة . فان المسألة هنا هى مسألة التناسب بين وفرة الايدى العاملة وفرص العمل المتوفرة ، بحيث نجد انه فى بعض الاحيان حين تختل هذه النسبة تبدأ بعض الحركات الهجرية تخرج من هذا البلد الجاذب للسكان الى مناطق أخرى جديدة وهكذا . **وقد يصل الامر الى الحد الذى يعتبر فيه هذا البلد الجاذب للسكان مكتظا هو ايضا ، اى انه اخذ يعانى من مشكلة الاكتظاظ السكانى او الازدحام الذى كانت تعانى منه المجتمعات الطاردة ، وبخاصة اذا استقبل هذا البلد اعدادا كبيرة من الوافدين فى فترة قصيرة لا تسمح له باستيعابهم وتقبلهم وتمثلهم فى حياته ، وما ينجم عن هذا كله من مشكلات** فى المواصلات والاسكان وغير ذلك ، وما يرتبط بهذا من مشكلات اجتماعية أخرى تتمثل فى سرعة انتشار الامراض وتفشى الجرائم وانتشار العلاقات الجنسية والدعارة والامراض التناسلية ، بل وتعاطى المخدرات والادمان على الخمور وهى كلها مشكلات اجتماعية تعانى منها المجتمعات الجاذبة للسكان بغير تفرقة مع بعض الاختلافات فى الدرجة . وهذه كلها أمور معروفة ، **ولكن قد يحسن ان نضرب هنا مثالا من احد المجتمعات النامية الذى تعرض اخيرا لبعض حركات الانعاش الاقتصادى الذى تمثل فى محاولة التصنيع ، وما ارتبط بهذا من تحركات سكانية وهجرات ادت الى ظهور كل هذه المشكلات الاجتماعية .**

● ● ●

والمثال الذى نضربه مستمد من افريقيا ومن يوغندا بالذات ، ونقصد بذلك ظهور مدينة چنچا كمركز للتصنيع والجذب السكانى

ويرجع اكتشاف چنچا كقرية زراعية صغيرة جدا الى عام ١٨٦٢ على يدى الرحالة البريطانى الشهير سبيك Speke الذى يعتبر من أوائل مكتشفى منابع النيل . ولم تكن چنچا تلعب اى دور واضح فى اقتصاديات يوغندا فى ذلك الحين ، ولكنها لم تلبث أن تحولت فى بداية هذا القرن (١٩٠٠ ــ ١٩٠١) الى مركز ادارى صغير لاحدى المقاطعات ، وذلك نظراً لموقعها الاستراتيجى الممتاز ، وظلت كذلك حتى الاربعينات من هذا القرن حين فكرت حكومة يوغندا بالاتفاق مع الحكومة المصرية في تنفيذ بعض مشروعات الرى فى تلك المنطقة . وقد قام مهندسو الرى المصرى بوضع الخطة لذلك المشروع الذى بدأ تنفيذه عام ١٩٤٨ . ولم يلبث المشروع أن تطور من مجرد مشروع للرى الى مشروع لاستغلال مساقط المياه المعروفة باسم مساقط أوين Owen Falls فى توليد الكهرباء ، وبالتالى استخدام الكهرباء فى تشغيل المصانع وادخال بعض الصناعات ، وبذلك تحولت چنچا من قرية صغيرة أو مركز ادارى مغمور الى مدينة صناعية من أهم المدن الصناعية فى شرق افريقيا ، بحيث اصبحت من حيث النمو الاقتصادى أكبر مدينة بعد كمبالا Kampala العاصمة . وقد انتهى المشروع عام ١٩٥٤ حين انطلقت أول شرارة كهربائية مؤذنة بالتغير الاقتصادى الهام وبكل

ما ترتب عليه من تغيرات اجتماعية .. ففي ذلك العام (١٩٥٤) تم توليد حوالى ١٢٠ الف كيلووات / ساعة من الكهرباء يمكن زيادتها الى ١٥٠ الف كيلو وات / ساعة ، وهومقدار من الكهرباء يكفى ليس فقط لتشغيل مصانع جنجا أو حتى انارة يوغندا كلها فحسب بل وأيضا تزويد كينيا بمقادير كبيرة جدا من الكهرباء . وقد تم الاتفاق حينذاك بالفعل على أن يتم تزويد كينيا بهذا القدر من الكهرباء لمدة خمسين عاما تبدأ من عام ١٩٥٥ ، وذلك فضلا عن اقامة عدد كبير من المصانع في جنجا ذاتها وفى المناطق المحيطة بها . وانشئت عدة مصانع للمنسوجات القطنية والاسمنت ومصانع قطع الخشب وتكرير السكر والسجاير والبيرة وكلها تستخدم الكهرباء في ادارة الآلات ، الى جانب انشاء عدد كبير جدا من المصانع المحلية الصغيرة أو الورش . ومن هذه الناحية التكنولوجية البحتة يمكن اعتبار جنجا نموذجا لمجتمع أوروبى صناعى فى وسط تقليدى متخلف .

والذى يهمنا هنا هو أن هذا التحول الى الصناعة جعل من جنجا مركز جذب للسكان ، ومجتمعا معقدا الى أبعد حدود التعقيد ، بحيث نجد أن السكان فيها فى الوقت الحالى يتألفون من بعض العناصر الوطنية مع عناصر أخرى وافدة ، بعضها آسيوى وبالذات من الهند وباكستان ، وبعض العمال العرب من حضرموت وعدن ، بالاضافة الى بعض العناصر الاوروبية التي تعمل كموظفين واداريين ومهندسين . وأهم هذه العناصر الاوروبية هم الانجليز والايطاليون والدينماركيون على التوالى .. والاكثر من ذلك ان العنصر الوطنى فى جنجا يضم ممثلين من كل قبائل يوغندا الثمانين فضلا عن عدد من الأفراد من كثير من القبائل الاخرى من شرق افريقيا . وهذا كله يوضح لنا كيف ان مناطق الجذب السكانى تتميز فى الأغلب بالتعقد العرقى أو الاثنى ethnic الذى تفتقر اليه المناطق المتخلفة الراكدة التقليدية . ولعل هذا يمثل أهم تغير فى التركيب السكانى نتيجة لتلك الهجرات الداخلية والخارجية التى تنشأ عن النمو الاقتصادى ، وتلازم ظهور فرص جديدة للعمل والكسب ومصادر جديدة للثروة .

ولقد كان من الطبيعى ومن المنطقى أن يلازم هذه الهجرات عدد من المشكلات الهامة في كل مجالات الحياة ... فهناك **أولا** المشكلات العنصرية والسلالية الناجمة عن تعدد الانتماءات العرقية والسلالية والقبلية وما يرتبط بذلك من تدرج اجتماعى فى هذا المجتمع الصغير . ويتمثل هذا فى شعور السلالات الأوروبية البيضاء بامتيازها واستعلائها على السلالات الآسيوية التى تشعر بضعفها وتخلفها أمام تلك العناصر البيضاء من ناحية ، وتميزها واستعلائها من الناحية الأخرى على الافريقيين والزنوج . ومن الطريف أن نجد مثل هذا التدرج الطبيعى والاجتماعى بين الافراد الذين ينتمون الى القبائل الافريقية المختلفة ذاتها ، وان كان الافريقيون جميعا ينظرون الى غير الافريقيين من العناصر الأوروبية والآسيوية الأخرى على انهم دخلاء عليهم وعلى المجتمع الافريقى ، وانهم يغتصبون حقوق ابناء البلد الاصليين فى العمل . وهناك **ثانيا** المشكلات اللغوية الناجمة ليس فقط عن اختلاف اللغات الأوروبية والافريقية والآسيوية بل وايضا عن تعدد اللغات الافريقية ذاتها . فالمعروف أن لكل مجموعة من القبائل الافريقية لغتها الخاصة التى لاتكاد تفهم خارج افراد المجموعة ... ثم هناك **ثالثا** المشكلات الادارية التى تتمثل فى التنافس بين الأوروبيين بعضهم وبعض على المراكز الادارية الكبرى ، خاصة وأن هذه المنطقة كانت من الناحية التقليدية التاريخية منطقة نفوذ بريطانى ، ولكن حركات التحرر والاستقلال جعلت اليوغنديين يشجعون هجرة العناصر الأوروبية الاخرى ، مما نجم عنه نشوب حزازات شديدة بين الانجليز من ناحية وبقية الجنسيات الأوروبية من ناحية اخرى .

انما الذى يهمنا حقا هنا فهو التغيرات التي طرات على **النمط السكانى** فى چنچا نتيجة لذلك، وربمايمكن الاستدلال على هذه التغيرات من بعض الأرقام المتاحة ، رغم انها ارقام قديمة بعض الشيء (٩) .

وتتمثل هذه التغيرات في النمط السكانى من ناحية فى انه ما بين عام ١٩٣٤ وعام ١٩٥٤ الذى تم فيه المشروع ،أى فى مدى عشرين سنة، ارتفع عدد السكان من ٥٠٠٠ نسمة الى حوالى ٨٥٠٠ نسمة ، ولم يلبث ذلك العدد أن ارتفع عام ١٩٦٢ ، أى خلال ثمانية أعوام فقط الى ثلاثين الف نسمة ، أى أن عدد السكان تضاعف حوالى أربع مرات خلال ثمانى سنوات . وليس من شك فى أن هذه الزيادة لايمكن أن تكون نتيجة للزيادة الطبيعية الناجمة عن التناسل والولادة ، وانما هى زيادة فى السكان نتيجة للهجرة .

كذلك حدثت تغيرات هائلة فى البناء العمرى والجنسى للسكان ، ويمكن أن نجمل هذه التغيرات فيما يلى :

(ا) أن ٧ من كل ١٠ من السكان كانوا من الذكور (أى أن ٧٠ ٪ من السكان كانوا ذكورا وهذا يبين مدى الاختلال بين الجنسين عن النسب المألوفة في المجتمعات فى حالتها السوية) .

(ب) ان ٦ من كل ١٠ من السكان كان عمرهم يتراوح بين ٢٠ ، ٤٥ سنة ، وهذه هي سن القدرة على العمل . ومعنى ذلك أن هذا المجتمع يتغير من المجتمعات الشابة التى تضم نسبة عالية جدا (٦٠ ٪ من السكان) من الأيدى العاملة التى تقوم فعلا بالانتاج .(١٠)

(ج) أن ٥٠ ٪ من السكان من الذكور غير المتزوجين .

(د) ان ٥٠ ٪ من المتزوجين النازحين لم يأتوا بزوجاتهم معهم .

(هـ) ان نسبة كبيرة جدا من النساء المقيمات داخل المدينة ذاتها، وبخاصة المتزوجات يمارسن بعض الأعمال فى المصانع والورش ، وفى ذلك خروج على النمط التقليدى السائد فى المجتمعات الافريقية . اذ المعروف أن عمل المراة الرئيسى فى هذه المنطقة هو الزراعة بينما يقوم الرجل بالرعي فضلا عن جميع الاعمال غير المتعاقة بالزراعة والتى تعتبر **محرمة** تماما على المراة . ولكن فى چنچا نجد أن الصناعة ، وبخاصة التى لا تحتاج الى مهارات خاصة او كفاءات معينة ، تقوم بها المرا؟ ، وبذلك فان المراة تسهم اسهاما فعالا في النشاط الاقتصادى وقد ترتب على ذلك دخولها الى المجال السياسى حيث نجدها أصبحت عضوا فى الأحزاب السياسية الوطنية هناك ، وان لم يكن لها فى ذلك الحين حق الانتخاب والتصويت .

ويكفى هذا القدر من المعلومات عن چنچا ، وهو قدر يكفى لالقاء الضوء على المشكلة السكانية والاجتماعية التى تنجم عن الهجرات السكانية من المناطق الفقيرة الى المناطق الاكثر غنى والتى توفر للسكان امكانيات كثيرة ومتنوعة

---

(٩) نعتمد هنا فى المحل الاول على الدراسة الحقلية التى قمنا بها عام ١٩٦٢ والتى جمعنا خلالها بعض المعلومات الاثنوجرافية ، وذلك فضلا عن بعض المقالات والكتابات المتوفرة لدينا .

(١٠) الواقع ان كل الارقام تشير الى ان كل الذكور البالغين كانوا يشتغلون بالفعل فى بعض الاعمال ، سواء فى مجال الصناعة او الزراعة وان كانت غالبيتهم تشتغل فى الصناعة . (المصانع او الورش) ، كما ان النساء الموجودات فى المنطقة كان لهن اقارب (ازواج او اباء او ابناء) وان كان هذا لا يمنع من وجود نسبة معينة من نساء المنطقة وليس من المدينة ذاتها وافدات بدون عائل ، ولذا كن يمارسن بعض الاعمال والمهن ، ويقيم هؤلاء النساء فى العادة على اطراف المدينة وليس داخليا نظرا لشدة ازدحام المدينة بالسكان .

العمل ... وواضح من ذلك أن هذا الحراك السكانى تترتب عليه كثير من المشكلات الناجمة عن تعدد الانتماءات والثقافات والمستويات الاجتماعية ، وهى كلها من المعايير التي ترتبط بالمجتمع المعقد أو الاكثر تعقيدا وتركيبا، بينما تختفى من المجتمعات التقليدية المتجانسة الصغيرة المساحة والقليلة العدد .

- ٣ -

وواضح من هذا الى أى حد يؤدى التحرك السكانى الى ظهور المراكز الحضرية وبخاصة حين يكون هذا الحراك الافقى مرتبطا بظهور مشروعات للتنمية الصناعية ، ونشأة مراكز صناعة أو مراكز للتعدين تجذب اليها الايدى العاملة من المناطق الفقيرة . والواقع أنه حتى للهجرات الداخلية من المناطق الريفية الى المناطق الحضرية وشبه الحضرية أثرا كبيرا جدا في اتساع مدى التحضر ، وظهور ليس فقط مدن جديدة بل وأيضا تضخم حجم المدن الموجودة بالفعل وتعقد الحياة فيها . والسائد فى الكتابات الانثربولوجية والسوسيولوجية أن القرن العشرين ، وبالذات النصف الثاني منه ، يعتبر عصر ثورة حضرية جديدة ، ليس فقط بالنسبة للمجتمعات النامية بل وأيضا بالنسبة للمجتمعات المتقدمة ذاتها لدرجة أن هناك من العلماء من يصفون القرن الحادى والعشرين بأنه سوف يصبح بحق عصر المدن الكبرى ، بعكس الحال بالنسبة للقرون الماضية التي تعتبر عصر المجتمعات الريفية أو عصر المدن الصغيرة التى يتعدى تعدادها مئات الآلاف ، أو على اقصى تقدير بضعة ملايين قليلة من السكان . وهذا معناه ببساطة أن « ظاهرة المدن » هى ظاهرة سكانية الى حد كبير من حيث ارتباط التحضر ، على الاقل في المجتمعات المتقدمة ، بكبر حجم السكان وتعقد الحياة الاجتماعية والاقتصادية وكذلك الى الحد الذى تدين فيه هذه المدن بوجودها الى الهجرة من الريف الى المناطق التي تتوفر فيها فرص العمل .

ولقد حاول علماء الاجتماع والانثربولوجيا تحديد المحكات التى يقيسون بها الحياة الحضرية واختلفوا فيما بينهم في ذلك اختلافا كبيرا ، ولكنهم يكادون يتفقون مع ذلك - مع **لويس ويرث** Louis Wirth في الأخذ **بثلاثة محكات رئيسية هى حجم السكان ، وكثافة السكان ، والتغاير او اللاتجانس فى التركيب السكانى** ... وقد كان معظم الاختلاف يبدو بالذات حول حجم السكان أو على الاصح العدد الذى حين يتوفر فى أى مجتمع محلى يكون ذلك المجتمع قد تخطى الشكل القروى أو الريفى الى الشكل الحضرى .

وبينما نجد بعض علماء الاجتماع مثلا يعتبرون عشرين ألفا هى الحد الفاصل بين نوعى المجتمع يرتفع البعض الآخر فى تقديراتهم الى خمسين ألف نسمة أو حتى التى اكثر من ذلك . والواقع أن هذا التقدير لايصدق على كل التجمعات البشرية فى المجتمعات المتخلفة او النامية حيث قد يصل بعض هذه التجمعات الى عدة ملايين دون أن تنطبق كلمة (مدينة) بالمعنى الحقيقي الدقيق عليها . **ولايزال عدد كبير من علماء الاجتماع الحضرى فى الغرب مثلا يتشككون فيما اذا كانت (مدن) مثل بغداد أو دمشق تؤلف مدنا بالمعنى الدقيق للكلمة . بل ان هناك من هؤلاء العلماء من يرون أن كلمة (مدينة) لا تصدق الا على القاهرة وحدها دون غيرها من (مدن) العالم العربي أو حتى (مدن) الشرق الاوسط .**

فمسألة حجم السكان اذن مسألة نسبية الى حد كبير . وهذه النسبية ذاتها تنطبق على المحك الثاني وهو **كثافة السكان** . فحجم السكان أى عدد السكان في المجتمع — لايصلح مهما كبر أن يكون وحده أساسا لتكوين مجتمع حضرى اذا كانت كثافة السكان (أى عدد الافراد فى الكيلو متر المربع مثلا) ضئيلة ، كما

هو الحال حين ينتشر السكان في مساحات شاسعة جدا من الارض . ومن هنا كان **المحك الثالث** ، وهو عنصر التغاير أو اللاتجانس ، يعتبر في نظر غالبية هؤلاء العلماء أهم هذه المحكات في قياس درجة التحضر . والمقصود بالتغاير هنا أو عدم التجانس هو الاختلاف أو التباين الشديد في المستويات الاجتماعية والاقتصادية وفي التخصص وفي الانتماءات السياسية والحزبية واعتناق الايديولوجيات المختلفة . (١١)

ومهما يكن من شيء فان العلماء الذين يهتمون بمشكلات السكان وتزايدهم وظهور المدن وكبر حجمها ونموها وبخاصة في العالم الثالث يهتمون في دراساتهم بثلاثة موضوعات أساسية تنعكس كلها بالضرورة في المدن الناشئة التي ظهرت نتيجة لمشروعات التنمية، وهذه الموضوعات هي :

أ ـ الناحية الايكولوجية Ecological :
والمقصود بها اختيار الموقع الذى تنشأ فيه المدن وأنواع النشاط الاقتصادى والاجتماعى الذى يرتبط بكل مدينة منها ، بحيث يعتمد هذا النشاط على الموارد الطبيعية المتوفرة في ذلك الموقع المحدد .

وقد كان الدافع الرئيسي للاهتمام بايكولوجيا المدن هو مانجم من تخريب في المدن الأوروبية بعد الحرب العالمية الثانية ، والرغبة في انشاء مدن اخرى في المناطق التى دمرت ، واستدعى ذلك التساؤل عن جدوى اقامة مدن جديدة مكان تلك التى تم تدميرها ، واهم الشروط البيئية التي يجب ان تتوفر في اقامة هذه المدن الجديدة .

كذلك دفع الى ذلك الاهتمام بالايكولوجيا محاولة ادخال مشروعات التصنيع في المجتمعات المتخلفة والنامية وبخاصة في افريقيا حيث كان يتعين على اصحاب رؤوس الاموال ان يختاروا انسب المواقع لاقامة مراكز الصناعة التي تتوفر فيها شروط النجاح المؤكد .

ب ـ الناحية التنظيمية Organizational
وليس المقصود بذلك التنظيم المادى المتعلق بتخطيط المدينة أو انواع المساكن والمباني أو المرافق والخدمات ، وانما المقصود هو الحياة الاجتماعية في تشابكها وتعقدها والعلاقات الانسانية التى توجد في المدينة سواء اكانت هذه المدينة هي المدينة الناشئة نتيجة لتنفيذ مشروعات التصنيع او التهجير أو **المدينة العملاقة** Megalopolis ، وما يترتب على ذلك كله من ظهور مشكلات خاصة بالصراع والتنافس او التعاون بين الجماعات المختلفة التى تقيم فيها .

ج ـ الناحية السيكولوجية الاجتماعية Psycho-social : التى تسود في المدن الحديثه الناشئة ، وبالتالي اهم ملامح شخصية سكان المدينة وما يتعرض له المهاجر الجديد من شعور بالضياع والوحدة والعزلة

---

(١١) راجع مقال : ـ Wirth, L., ,,Urbanization as a Way of Life''

وهو يعتبر المقال الرئيسى الذى اطلق كثيرا من النظريات والآراء حول ظاهرة التحضر .

راجع ايضا المقال الذى كتبه الاستاذ بارك Park بعنوان « المدينة كمعمل اجتماعى
"The City as Social Laboratory''

حيث يبين لنا فيه كيف أن الباحث الاجتماعى يستطيع ان ينظر الى المدينة بنفس النظرة التى ينظر بها عالم الفيزياء الى المعمل الذى يعمل فيه بحيث يلاحظ اختلافات العناصر البشرية والتفاعل بين هذه العناصر المختلفة وما ينتج عن هذا التفاعل من ظهورهم نظم اجتماعية مختلفة ومتباينة .

حين يأتى لأول مرة الى المدينة . ويظهر هـذا بنوع خاص فى انفصال العمال الوافدين من المناطق الداخليه والقبلية الى المدن الحديثة وانفصالهم عن مجتمعاتهم الاصلية . كما تتمثل في شعور الرجل الامريكي بالضياع فى المدن الامريكيـة الكبرى وهو الموضوع الذى عالجه بدقـة ويزمـان فى كتابه The Lonely Crowd

وتعتبر مشكلة نمو المدن الآن من اهم المشاكل التى تقابل علماء التخطيط فى البلاد النامية والمتقدمة على السواء ، بمعنى ان كل المجتمعات تعانى الآن معاناة شديدة من المشكلات الناجمة عن الاتجاه نحو زيادة معدلات التحضر . ولكن طبيعة هذه المشكلات تختلف في المجتمعات المتقدمة عنها في المجتمعات النامية او المختلفة . والملاحظ على العموم انه قد بدا فى العالم المتقدم بالذات اتجاه نحو خلق وايجاد طراز جديد من المدن يسود الاعتقاد انه سوف يكون النموذج لما يجب ان تكون عليه مدينه المستقبل،وان ذلك النموذج سوف يعم جميع انحاء العالم نتيجة للتقدم العلمى والتكنولوجي ، وهو ما يطلق عليه الآن اسم ((**المدينة العملاقة**)) Megalopolis التـى تتميـز تميـزا كبيـرا عما يعرف **بالمدينة الام** او **المدينة الكبرى** او **العاصمة** Metropolis مثل نيويورك ولندن والقاهرة وغيرها من المدن التى يقرب تعداد سكانها من عشرة ملايين نسمة .

والتفكير فى انشاء هذه المدن العملاقة تفكير قديم يرجع الى العصور اليونانيـة ، حيث تجد اول محاولة لاقامة مثـل هـذه المدن ، وان كان لا يمكن ان نقيس بطبيعة الحال ضخامة تلك المدينة بما هو قائم الآن ، وبخاصة على طول الساحل الشرقي لامريكا الشمالية . وتتميز هذه المدينة العملاقة بعدة ميزات تعتبر بمثابة الخصائص التي يجب توفرها فى مدينة المستقبل ، والتى يمكن تلخيصها فيما يلى : ـ

أولا : ان المدينة العملاقة ليست ((مدينة)) بالمعنى الدقيق للكلمة ، وانما هى عبارة عن اقليم متسع يضم عددا من المدن الصغيرة الموجودة الآن بالفعل والتى تعتبر كل منها بمثابة مركز حضرى يدور حوله عدد من التجمعات الريفية او شبه الحضرية التى تمده باحتياجاته من الطعام بل والسلع المصنعة ، مقابل ما يقدمه هو اليها من مختلف الخدمات . وهذا الوضع السائد الآن في المدينة العملاقة الامريكية يعتبر نقطة الانطلاق نحو تخطيط المدينة العملاقة فى المستقبل . والمعروف ان المدينـة التقليـدية كانت تتجه فى نموها من المركـز نحـو الأطراف في كل الاتجاهات بحيث يظل لتلك المدينـة مركز واحد ثابت مهما اتسع نطاقها ، أما المدينة العملاقة فانها تنمو ـ ان صحت هذه التسمية ـ وتمتد في اتجـاه واحـد فقط بحيث تظهـر مراكـز حضرية عـديدة يقوم كل منها بخدمة المناطق التى تقوم حولها ، وبحيث تبدو المناطق الريفية وشبه الحضرية كما لو كانت ضواحى تفصل بين المراكز الحضرية والصناعية المتتالية .

ثانيا : الخاصية الثانية خاصية سكانية تتمثل فى تزايد عدد السكان في تلك المدينة العملاقة زيادة تفوق كل ما عرف حتى الآن في المدن الكبرى ، مما يترتب عليه ظهور كثير من ملامح التغاير السكانى سواء فى الثقافات او السلالات او الاصول الاولى على ماهو حادث الآن فى المدينة العملاقة الامريكية . فالمدينة العملاقة تجذب اليها فى العادة عدة ملايين من البشر وليس مجرد بضعه الاف من الناس ، كما هو الحال الآن فى المراكز الصناعية الجديدة . ومع ان علماء السكان والاجتماع والانثربولوجيا والتخطيط ينظرون الى ذلك بكثير من الخوف والارتياع ، الا ان هذه الزيادة السكانيـة الهائلة فى المدينة

العملاقة سوف تعتبر عاملا ودليلا وحافزا على مزيد من التقدم وليس العكس ، وذلك نظرا لعدة عوامل لاتتوفر في الوقت الحالي للمدن الكبرى القائمة الآن . وتنشأ هذه العوامل في الاصل عن التقدم الهائل في التطبيق التكنولوجي في كل المجالات ، وهذا سيؤدى بدوره الى مزيد من العمل والانتاج سواء في المجال الصناعي أو المجال الزراعي .. ففي منطقة الساحل الشرقي لامريكا مثلا ، الذي ينظر اليه كمثال للمدينة العملاقة التي سوف تسود في المستقبل ، تصل الكثافة السكانية الى اكثر من ٧٠٠ شخص للميل المربع الواحد ، بينما هي لاتزيد في أمريكا ككل عن خمسين شخصا فقط . ومع ذلك فان هذه المنطقة تمتاز بالتقدم الهائل في الصناعة ومعدلات الانتاج الزراعي على السواء ، بل انها تكاد تصبح الآن المركز الثقافي للعالم بأسره على اعتبار ان فيها اكبر الجامعات من ناحية ، واكبر الشركات الصناعية واهم الصناعات الثقيلة من ناحية ثانية ، كما انها تجلب اليها اعدادا كبيرة جدا من العلماء والمفكرين والفنانين من كل انحاء العالم . وقد بلغت بعض هذه الجامعات حجما كبيرا بالنسبة لاعداد الطلاب الذين تضمهم ، واصبح يطلق عليها اسم الجامعة العملاقة او جامعة الاعداد الكبيرة Megaversity وبلغت التخصصات فيها درجة عالية جدا من الدقة والتفرغ .

وعلى الرغم من ان الغالبية العظمى من سكان المدينة العملاقة سوف يعملون في المراكز الحضرية ، فان مواطن السكن والاقامة ستكون في المناطق الريفية او شبه الحضرية ، كما ان معظم السكان (الريفيين) سوف يجمعون بين خصائص الحياة الريفية والحياة الحضرية من حيث الثقافة واستخدام الآلات المعقدة في العمل الزراعي الذي يمارسونه ، مما سوف يترتب عليه قلة الايدى العاملة في مجال الزراعة الى حد غير مألوف في الوقت الحاضر . والمعروف انه على الرغم من الطابع الصناعي الذي يطبع المجتمع الامريكي بوجه عام ، فان نسبة كبيرة من السكان لا تزال تعمل بالزراعة ، كما ان قدرا كبيرا من العمل الزراعي نفسه لا يزال يدويا اكثر منه آليا ، الا في تلك المنطقة الممتدة بطول الساحل الشرقي حيث نجد لاول مرة ان المشتغلين بالاعمال الزراعية يؤلفون نسبة ضئيلة جدا من مجموع الايدى العاملة في المنطقة ، مع ان نسبة الانتاج الزراعي هناك اعلى بكثير جدا منها في اى منطقة اخرى في امريكا ذاتها .

ثالثا : وتتعلق الخاصية الثالثة بالحياة الاقتصادية وبخاصة في مجال العمل ، ذلك أن المشتغلين بالتخطيط يرون أن العالم مقبل على ما يسمى باسم الثورة في المجال المهني أو Job revolution نتيجة للتغيرات التي تحدث الآن في المدن الكبرى من ناحية ، والتحام تلك المدن بعضها ببعض لتكوين مدن عملاقة تتضاءل أمامها هذه المدن الكبرى ، بحيث تصبح مجرد مراكز حضرية تدخل في تكوينها وتؤدى وظائف وأدوار محددة في بنائها وحياتها من الناحية الأخرى ، وهي وظائف وأدوار تتلاءم والتقدم التكنولوجي الهائل الذى يتمثل على اقل تقدير في ازدياد الاعتماد على الآلات في الانتاج الزراعي وتطبيق الأوتوميشن في المجال الصناعي ، وبالتالي الاستغناء عن نسبة كبيرة جدا من الايدى العاملة في هذين المجالين اللذين يشار اليهما باسم أعمال **الفئة الاولى** primary (الزراعة) **واعمال الفئة الثانية** Secondary (الصناعة) ، وما يترتب على ذلك كله من تحول هذا الفائض من الايدى العاملة الى **الفئة الثالثة** Tertiary وهي الاعمال الخاصة بالخدمات . والواقع ان هؤلاء المشتغلين بالتخطيط في الوقت الحالي يحاولون ان يتعرفوا على مجالات التخصص المختلفة التي سوف تقتضيها ظروف الحياة في مدينة المستقبل ، وهي تخصصات سوف تبلغ من الدقه ومن التفرغ حدا يتمثل فيما اعلنت عنه

اخيرا **مؤسسة القرن العشرين** عن حاجتها الى مهندسين ينتمون الى ما لا يقل عن ٣٩ تخصصا دقيقا فى مجال الهندسة الانسانية وحدها ، حتى يمكن لها تنفيذ أول مشروع من مشروعات المدن العملاقة فى شرق افريقيا .

وكل هذا سوف يقتضى بالضرورة ادخال تغييرات جذرية فى نظرة السكان فى تلك المناطق الى العمل ومعناه، والى ضرورة توفير مجالات جديدة لتمضية اوقات الفراغ ، بمعنى أن المشكلة التى يأخذها علماء التخطيط في اعتبارهم لن تكون هي مشكلة ازدحام المناطق السكنية بالسكان وما يترتب على ذلك من تفشى الامراض وانتشار الجريمة والبطالة كما هو الحال فى الوضع الراهن في المدن الكبرى ، ولن تكون هي انخفاض مستوى الحياة وانخفاض الدخل نتيجة لزيادة العمالة عن فرص العمل المتوفرة ، وانما ستكون بالأحرى هى مشكلة ارتفاع الأجور الى حد غير مألوف حتى الآن وما قد ينجم عن ذلك من مشاكل التضخم النقدى وما اليها ، كما أن انخفاض ساعات العمل الى عشر ساعات أو خمس عشرة ساعة اسبوعيا على الأكثر سوف تدفع الى التفكير فى ايجاد اساليب ووسائل جديدة وغير معهوده لتمضية أوقات الفراغ .

بل سوف يظهر فى المستقبل القريب أن التخصصات القائمة الآن والتي تعتبر تخصصات دقيقة لن تكون كافية ، وأن الامر سوف يتطلب قيام تخصصات أخرى جديدة فى مجال الخدمات، وبخاصة في مجالات البحث العلمي الدقيق واتخاذ القرارات السياسية والادارية ومشاكل الادارة العليا بالذات والاعتماد على السيرتاطيقا فى أداء هذه الاعمال المتخصصة بل واستخدام الاجهزة الحاسبة الاليكترونية فى كثير من الميادين غير الميدان الاقتصادى البحت ، كأن يستعان بها فى اجراء العمليات الجراحية الدقيقة مثل الانفصال الشبكى في العين وما الى ذلك . والواقع أن هناك من الآن ميلا واضحا الى خلق وظائف أخرى جديدة تدخل ضمن ما يعرف باسم وظائف أو **اعمال الفئة الرابعة**، ولكنها كلها لا تزال في بداياتها الأولى .

• • •

كل هذه الامور كفيلة بأن تثير عدة تساؤلات حول شكل الحياة ونوع العلاقات الانسانية فى تلك المدن العملاقة الجديدة ، والى اى حد تتفق هذه الانماط من الحياة مع ما هو سائد فى الوقت الحالى ؟ وهل يمكن تنفيذ واقامة هذه المدن العملاقة فى كل المناطق وكل المجتمعات سواء في ذلك المجتمعات المتقدمة أو المتخلفة ؟ أو أن هناك انماطا أخرى من الحياة الحضرية يمكن الوصول اليها بحيث تتلاءم مع التقدم العلمى والتكنولوجي فى الوقت الحالى ، وبحيث تهيىء فى الوقت ذاته فرصا أحسن وأكثر تنوعا من العمل الذى يحتاج الى التخصص الدقيق ؟

— ٤ —

الواقع أن الاتجاه نحو انشاء هذه المدن العملاقة كحل لمشكلة زيادة السكان والهجرات السكانية وكأسلوب للحياة فى هذا العالم المزدحم بسكانه يلقى كثيرا من النقد والاعتراض من جانب عدد كبير من العلماء والمفكرين الذين يعتقدون أن قيام هذه المدن سوف يؤدى الى ظهور كثير من المشكلات الجانبية الخطيرة التى سوف تواجه السكان مثل ارتفاع تكاليف

الحياة والعيش فيها (١٢) ، وما تتعرض له اجواؤها ومياها وتربتها من عوامل التلوث . والمعروف أن **مشكلة التلوث البيئى** تعتبر من اخطر المشكلات التى تواجه العالم الحديث بأسره وبخاصة المجتمعات الصناعية المتقدمة، وهى مشكلة تخصص لها الحكومات الآن والهيئات والاجهزة الدولية المتخصصة كثيرا من العناية والجهد والاموال لبحثها ومحاولة التغلب عليها ، كما يعقد لها الكثير من المؤتمرات الدولية . يضاف الى ذلك أن امتداد هذه المدن العملاقة الى مسافات شاسعة يؤدى الى التباعد بين مقر الاقامة ومكان العمل ، وهذه سمة أساسية تميز المدن الكبرى فى الغرب وسوف تكون أوضح بغير شك في المدن العملاقة ، بل انها بدأت تمتد الى المدن الكبيرة في المجتمعات النامية ذاتها وتسبب كثيرا من الصعوبات والمتاعب لسكانها . وسوف يلقى السكان فى المدن العملاقة كثيرا من العناء والعنت فى الانتقال نتيجة للتزاحم على سبل المواصلات وكثرة حوادث المرور وارتفاع تكاليف السفر ، وانه فى كثير من الاحيان قد تفصل مئات من الكيلومترات بين مقر الاقامة ومكان العمل . كذلك سوف يؤدى هذا البعد بالضرورة الى ضياع كثير من الوقت والمجهود ، مما سيترتب عليه انخفاض انتاجية العمال والموظفين أثناء فترة العمل المحددة ، وان كان يمكن التغلب على ذلك بطبيعة الحال باستخدام التكنولوجيا الحديثة المعقدة .. وصحيح ان هناك بعض وسائل التيسير على العاملين في الدول المتقدمة فى هذا المجال وبخاصة فى أمريكا مثل استخدام الهليكوبتر والطائرات العمودية بحيث أصبح الانتقال بالطائرات بين المدن فى أمريكا أمرا من أمور الحياة اليومية وبحيث تستخدم الطائرات بنفس السهولة واليسر الذى تستخدم به الحافلات والسيارات العامة فى الدول والمجتمعات الاخرى ، كما أن هناك بعض المشروعات التى قد تبدو خيالية وصعبة التنفيذ مثل مشروعات الشوارع المتحركة التى كانت تفكر فيها نيويورك ، أو الارصفة المتحركة بما عليها وبمن عليها كما تفكر لندن، لكى تسهل من مشاق الانتقال مع اختصار الوقت . ولكن مثل هذه المشروعات يصعب تنفيذها نظرا لما تتكلفه من نفقات باهظة رهيبة ، كما انها لن تحل سوى مشاكل الدول الاكثر تقدما والاكثر غنى ، وهى الدول التى تعانى أقل من غيرها من المشكلة السكانية.

ولكن الاهم من هذا كله من الناحية الاجتماعية البحتة هو شعور الفرد بالضياع في تلك المدن العملاقة ، وبخاصة الفرد الذى يفد من المناطق الريفية ، وهذا الشعور بالضياع كثيرا ما يؤدى الى الانحراف والجريمة وانتشار الرذيلة بكل الوانها بين هؤلاء الوافدين ، والى ازدياد اتساع الهوة بين السلالات المختلفة التى تؤلف تلك المجتمعات الحضرية المركبة . ولقد كانت أمريكا دائما أكبر مثال لذلك الصراع بين السلالات ، ولكن يبدو أن هذا الموقف انتقل اخيرا الى بعض المجتمعات التى كانت مشهورة بالاعتدال أو

---

(١٢) فالحياة اليومية فى المدن العملاقة سوف تعتمد اعتمادا كبيرا كما ذكرنا على نتائج التقدم التكنولوجى . وهذه التكنولوجيا المتقدمة غالية التكاليف فى الاغلب بحيث لن يقدر عليها غالبية افراد المجتمع ، مما سيؤدى بالضرورة الى ظهور هوة اجتماعية واسعة وسحيقة بين الفئات القادرة على الاستفادة من التطبيقات التكنولوجية للعلم الحديث ، وتلك التى تعجز عن امتلاكها والافادة منها .

التسامح مثل بريطانيا حيث أصبحت التفرقة العنصرية الآن في المدن الكبرى واضحة ولاتقل فى آثارها المدمرة عما هو موجود فى أمريكا ، وذلك نتيجة لازدياد حركات الهجرة السكانية من الخارج ، وازدياد التباعد الاجتماعى بين مختلف السلالات التى تعيش فى المدينة الواحدة واختلاف الثقافات والقيم وانماط السلوك . وليس من شك في ان هذه الهوة سوف تزداد اتساعا وعمقا نتيجة لازدياد تدهور المناطق الفقيرة فى تلك المدن العملاقة بحيث تصبح هذه المناطق بمثابة (جيوب) للتخلف، بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ومأتؤدى اليه من نتائج وآثار .

ومهما يكن من شىء ، فان الاتجاه الذى ساد لفترة من الزمن بين عدد من المشتغلين بتنمية المجتمعات المتخلفة من امكان اقامة مثل هذه المدن العملاقة فى تلك المجتمعات أو فى بعضها على الأقل مثل بعض مجتمعات شرق افريقيا – كوسيلة لحل المشكلات الاقتصادية والسكانية التى تعانى منها هذه المجتمعات والارتفاع بها الى مستوى الدول الصناعية الحديثة . قد بدأ ينحسر ، واخذ أصحاب هذا الاتجاه يراجعون مواقفهم وحساباتهم فى ضوء الصعوبات والمشاكل التي تلازم قيام هذه المدن ، خاصة وان المدن العملاقة نشأت – كما هو الحال في أمريكا الشمالية نشأة تدريجية نتيجة لعوامل النمو الطبيعى Natural growth وأن اقامتها في المجتمعات النامية كجزء من خطة التنمية معناه الخلط بين عملية النمو الطبيعى التلقائي التدريجى وعملية التنمية المقصودة التى يخطط لها عمدا والتى يتم تنفيذها خلال فترة زمنية قصيرة ومحدودة بحيث ينتقل سكان المنطقة من حياتهم التقليدية المتخلفة الى اقصى درجات التحضر واكثرها تعقدا خلال هذه الفترة القصيرة ، مما لا يتيح لهم الفرصة الكافية لامتصاص كل الوسائل والاساليب التكنولوجية الحديثة وما يرتبط بها بالضرورة من أنماط الحياة والسلوك . وسوف يؤدى ذلك بغير شك الى تفكك المجتمع التقليدى وتدهوره وضياع القيم الاجتماعية التقليدية مع عدم وجود بديل يمكن ان يحل محلها .

والغريب فى الامر هو أن المناطق النامية التى يراد انشاء بعض المدن العملاقة فيها كلها بلاد لا تعانى ، حتى الآن على الاقل ، من زيادة سكانية خطيرة . فالمعروف أن دول شرق أفريقيا مثلا التى تعتبر فى نظر بعض المخططين الامريكيين المكان المثالي لتنفيذ مثل هذه المدن تعانى من قلة السكان على العموم ، كما أن الكثافة السكانية فيها بوجه عام لا تزيد على شخصين اثنين فى الميل المربع ، وانه يكفى اقامة مدينة او مدينتين كبريين لاستيعاب غالبية السكان في أى بلد فى تلك المنطقة وتوفير الحياة الحضرية لهم . يضاف الى ذلك أن هذه المجتمعات النامية لا تملك فى حقيقة الامر رؤس الاموال اللازمة رغم كل ما يقال عن امكانياتها الاقتصادية الكامنة ، كما أنه سوف يكون من العسير عليها امتلاك كل الاساليب التكنولوجية الحديثة وتمثلها واستيعابها بكفاءة فى وقت قصير، فضلا عن قلة المتخصصين الاكفاء ذوى المهارات الحديثة العالية والمتنوعة التى تلزم لقيام الحياة فى تلك المدن العملاقة. وهذا كله سوف يعنى في نهاية الامر أن تقام المدن العملاقة – لو أريد تنفيذها بالفعل – بأموال اجنبية ، كما أن ادارتها وأداء الاعمال الخاصة بالخدمات فيها والاضطلاع بأعباء الادارة العليا واتخاذ القرارات التى تعتبر في قمة التخصص المهنى ستكون ايضا فى ايد أجنبية ، وهذا ما يلقى كثيرا من المعارضة من القوى الوطنية المتحررة فى تلك المجتمعات .

ولكن اذا كان الامر كذلك ، فكيف يمكن التغلب على الصعوبات الناجمة عن هجرة الايدى العاملة من الريف الى المدن والى المناطق الاكثر تقدما ـ ولو نسبيا ـ مع تحقيق الميل المتزايد الى التحضر الذى يعتبر احدى السمات الرئيسية التى تميز العنصر الحديث ؟

• • •

يبدو ان هناك اتجاها مضادا تماما لاتجاه انشاء المدن العملاقة قد بدأ يشيع وينتشر بين الكثيرين من المهتمين بشئون التخطيط والتنمية وعلماء الاجتماع الحضرية والانثربولوجيا السكانية بالذات ، ويهدف الى تشجيع اقامة ما يعرف الآن « **المدن الصغيرة الجديدة** New Towns كافضل واسرع وسيلة لحل المشكلات الناجمة عن التزايد السكانى وهجرة السكان من المناطق الريفية المتخلفة وما يترتب على هذه الهجرة من تدهور الحياة الاجتماعية فى كل من الريف والحضر على السواء . وقد عقد لهذه المشكلة مؤتمر دولى كبير فى موسكو فى الستينات الى جانب عدد كبير من المؤتمرات الاقليمية والقومية . والواقع أن هذا الاتجاه ليس جديدا تماما ، اذ ظهر منذ أواخر القرن الماضى فى بريطانيا وبالذات فى عام ١٨٩٨ على أيدى احد علماء الاجتماع المهتمين بدراسة المشكلات الصناعية والعمال فى المراكز الصناعية البريطانية وكذلك مشكلات الاقامة فى مدينة لندن نفسها ونعنى به الدكتور هاوارد Howard الذى أصدر فى ذلك كتابا عن « **المدن ومشكلاتها فى المستقبل القريب** » .

ولقد بين هاوارد فى كتابه كيف أن المدن الصناعية الكبرى تستقبل كل عام أعدادا كبيرة من المهاجرين الذين يأتون أصلا من المناطق الريفية بقصد العمل وبقصد التمتع بحياة المدينة والمعيشة فى مستويات أكثر ارتفاعا من تلك التى تسود فى المجتمعات الريفية . وقد ادى هذا الى اكتظاظ لندن والمدن الصناعية الاخرى ، وخلق مشكلة ضخمة للاسكان وانتشار الجرائم الناجمة عن تزاحم السكان فى منطقة صغيرة فقيرة متخلفة ، كما ادى من الناحية الاخرى الى هجرة المزارع واهمالها اهمالا يكاد يكون تاما . ومن هنا كان هاوارد يرى أن الحل الطبيعى هو العمل على تخفيض سكان تلك المناطق الحضرية الصناعية المزدحمة ، ليس عن طريق ترحيل العمال الى مناطقهم الأصلية التى وفدوا منها وردهم الى العمل الزراعى ، وانما عن طريق انشاء مدن صغيرة تجمع بين العمل الزراعى والعمل الصناعى . أى أن هذه المدن تقوم فى مناطق ريفية أساسا ولكن تنشأ فيها بعض الصناعات المتقدمة ، وتخطط على منوال المدن الحديثة بحيث تتوفر كل أساليب الحياة الحضرية من تعليم وتسلية ومواصلات وتجارة وما الى ذلك ، بحيث يشعر ساكنها بنفس التعقد فى أساليب الحياة التى يتمتع بها ساكن المدينة نفسها ، وفى الوقت ذاته يمارس جانب من سكان هذه المدن العمل الزراعى فى الحقول مع اقامة بعض المصانع التى تستخدم الحاصلات الزراعية مثل مصانع التعبئة والتعليب وحفظ الخضروات والفواكه وتجفيفها وما الى ذلك .. فكأن الفكرة الاصلية نشأت كنوع من الاستجابة أو رد الفعل للاوضاع السائدة فى لندن حينذاك ، ومحاولة حل تلك المشكلات التى كانت تقابلها تلك المدينة وغيرها من المدن الكبرى .

والظاهر أن هذا الاتجاه القديم الذى ظهر منذ حوالى ثمانين عاما قد وجد له صدى

لدى بعض المنظمات الدولية بعد الحرب العالمية الثانية ، وهى المنظمات التي تهتم بمشكلات الاسكان والتنمية وتزايد النمو السكانى ، بحيث اتخذت هذه المنظمات في كثير من الاحيان هذه الفكرة أساسا لسياستها فى التنمية فى المجتمعات المتخلفة حتى يمكن المزاوجة ، كلما أمكن ذلك ، بين النشاط الاقتصادى التقليدى القائم على الزراعة أو حتى تربية الحيوان ، والنشاط الاقتصادى الحديث الذى يعتمد على الصناعة ، أى أن هذه السياسة ترتكز على فلسفة ادخال الحياة الحضرية الحديثة التى تتوفر في المدن ــ والمدن الصناعية بوجه خاص ــ الى تلك المناطق المتخلفة ، بدلا من نقل السكان الى المراكز الحضرية المتقدمة . وهذا يؤدى فى آخر الامر الى ملء الفجوة أو الهوة التى تفصل بين المجتمع الريفى التقليدى والمجتمع الحضرى الصناعى ، مما يترتب عليه استقرار السكان فى مناطقهم الاصلية وممارسة تلك الاعمال التى قد ينصرفون عنها فى بحثهم عن حياة اكثر تقدما وثراء .

● ● ●

ومع الاعتراف والتسليم بأهمية هذه (الحلول) التى يقترحها المشتغلون بالتخطيط والتنمية وبعض علماء السكان للتغلب على مشكلة الازدحام التى تعانى منها بعض المناطق ، مع توفير مستوى لائق من الناحية الاجتماعية والاقتصادية ، الا أن كل هذه الحلول تعتبر حلولا جزئية لمشكلة محدودة ، ولا تمس المشكلة الرئيسية بشكل مباشر ، ونعنى بها مشكلة الزيادة السكانية التى لا تكاد تخضع لاية قيود أو ضوابط أو منطق معقول ، بحيث أصبح النمو السكاني المطرد يمثل خطرا على المجتمع الانسانى بأسره لا يقل عن الاخطار التي تهدد البشرية من جراء قيام حروب نووية مثلا . بل أن هناك من الكتاب والمفكرين من يعتقدون أن هذا النمو السكانى الرهيب أشد خطرا أو فتكا بمستقبل البشرية من احتمال قيام حروب نووية ، لان قيام مثل هذه الحروب يتوقف ــ على الاقل ــ على ارادة عدد محدود من الدول التى لا يعوزها حسن الادراك وتقدير الامور بدقة ، بينما النمو السكانى موكول الى رغبة وادراك مئات الملايين من الافراد المتزوجين أو القادرين على الانجاب . ومن الصعب ان يتفق كل هذا العدد الهائل من الناس على اتخاذ القرار الصحيح السليم ... وسواء استقر رأى علماء التخطيط والتنمية والسكان أو لم يستقر على اقامة مدن عملاقة أو مدن صغيرة ، أو وضع قيود على تحركات السكان من الريف الى الحضر ، ومن بلد لآخر او اطلاق حرية الناس فى تلك التحركات ، فان المشكلة التى يجب أن تكرس لها الجهود هى كيف يمكن التحكم في هذا النمو السكاني المطرد . وربما كانت الدول الاكثر تقدما قد استطاعت الوصول الى بعض الحلول فى ذلك بحيث تتحكم في عدد سكانها ، ولكن الدول الاكثر فقرا وتخلفا لا تزال تفتقر الى مثل هذه الحلول التى تفترض وضع قيود وضوابط على السلوك الجنسى للافراد . وقد تتعارض هذه الضوابط والقيود على الاوضاع السائدة فى الثقافات التقليدية .

وليس ببعيد ما حدث فى الهند نتيجة لتدخل الحكومة ومحاولتها فرض بعض اجراءات معينة على الرجال بقصد تنظيم الزيادة السكانية هناك ، وذلك على الرغم من ادراك الجميع لابعاد المشكلة وما يتهدد

الهنـد من اخطار . فلقد بلغ سكان الهنـد حوالى ٦٤٠ مليون نسمة كما أنهم يتزايدون بمعدل مليون نسمة كل شهر .

ومع ذلـك فلم يفقـد علماء السـكان والانثربولوجيا السكانية والاجتماع والمهتمون بالمشكلة السكانية الامل تماما ، ولا تزال هناك كثير من الاجراءات التى يمكن اتخاذها ،وكلها تدور حول تنظيم هذا النشاط الجنسى بطرق لا تتعارض مع القيم السائدة في المجتمـع ، وبحيث يمكن الوصول فى آخر الامر الى الوضع المثالى الذى يتزايد فيه السكان بمعـدلات منخفضة ، كما تنخفض فيه معدلات الوفيات مما قد يؤدى الى استقرار حجم السكان فى العالم ككل وفى كل مجتمع على حدة . ولكن ذلك نفسه يحتاج لبذل كثير من الجهـد من التوجيه والتوعية . وسوف يتطلب ذلك وقتا طويلا ، ولكنه جهد خليق بأن يبذل .

* * *

١٠٦٣

ماذا يحدث في العلوم البيولوجية

عبد المحسن صالح

من الاسطورة الى الحقيقة

وردت فى اساطير القدماء مخلوقات خرافية ما انزل الله بها من سلطان ، اذ تخيلوا وجود كائنات تجمع فى تكوينها اجزاء مختلفة من حيوانات متباينة ، فلا يزال تمثال ابى الهول، الرابض بجوار أهرامات الجيزة ، تجسيدا لمثل هذه التصورات ، فتراه تارة يحمل راس انسان وجسد اسد فى التصور المصرى القديم ، وتارة أخرى له أجنحة نسر ثم رأس امراة وثدياها في التصور الاغريقى ، واحيانا ما ياتى هذا المخلوق بنصفه العلوى على هيئة انسان ، ونصفه السفلى على هيئة ثور ، او يظهر على هيئة حورية من حوريات البحر لها راس امراة وثدياها وشعرها وجسدها ، ثم ينتهى ذلك بذيل سمكة وزعانفها ، أو قد يتصورون هذا المخلوق على هيئة كائن اسطورى له راس اسد وجسم شاة وذنب حية ، .. الى آخر هذه المخلوقات الخرافية النابعة عن تصورات قديمة ورديئة !

لكن .. ما دخل مثل هذه الكائنات الخرافية فى دراسة تتحدث عن انجازات العلماء فى العلوم البيولوجية ؟

ان هذا التصور الردىء القديم قد بدات رائحته تفوح الآن فى معامل نخبة ممتازة من علماء الحياة ، ولقد بداوا بالفعل في تخليق كائنات خطيرة لا تخرج فى فكرتها عن الفكرة التى راودت أجدادنا القدماء ، مع فرق

جوهري واحد ، ذلك أن المخلوقات الاسطورية التى ذكرناها والتى لم نذكرها لم يكن لها وجود الا فى الخيال ، لكن مخلوقاتنا الاسطورية «الحديثة» قد ظهرت جذورها بالفعل فى معامل العلماء ، ومن أجل هذا ـ ولاول مرة فى التاريخ بدأ العلماء فى التراشق فيما بينهم بالاتهامات والاخطار والمصائب التى يمكن أن تحيق بهذا الكوكب ، فلا تبقى مخلوقاته ولا تذر ، ولأول مرة ايضا يضع بعض العلماء أمام المتحمسين لهذه التجارب المثيرة العراقيل والحدود ، وكأنما بهذا نعود الى أفكار كأفكار العصور الوسطى ، وهى التى حرمت فيها الكنيسة على العلماء ان يبحثوا فى اسرار الطبيعة ، والا ينشروا أية آراء تخالف آراء الكنيسة !

هل يعنى هذا أن العلماء فى طريقهم الى تخليق كائن يشبه « كنج كونج » العجيب ؟.. وهل من الممكن اعادة اسطورة فرانكشتين لتصبح حقيقة واقعة ؟ .. أو هل يستطيع العلم حقا ان يقوم بتخليق كائن يجمع فى جسده رأس انسان ، وجسم فيل ، وأرجل حصان ، وذيل حية .. الى آخر هذه التصورات الساذجة ؟

ليس ذلك تماما ، وان كانت الفكرة لاتخرج فى اساسها العميق عن مثل هذا التصور الغريب ، وهى بلا شك ستؤدي الى نتائج لا يمكن لانسان أن يتصور مداها ، ذلك أن البحوث التى تجريها الآن بعض معامل قليلة خاصة بمثابة سيف ذى حدين : فى حد منه قد تكمن شرور لا يمكن التنبؤ بها ، وفى الحد الآخر تبرق آمال بغير حدود .

اذن .. ما هى قصة هذه البحوث التى يتكتمها العلماء، وتقيدها الحكومات بتشريعات معوقة ؟ .. وما هو اثرها فى مجال العلوم البيولوجية ؟ .. وهل سيفيد منها الانسان ؟ أو هل سترجع عليه بالبلاء والاخطار التى لا يمكن تجنبها ؟...

الواقع أن لكل شيء جذورا قديمة ، لهذا .. فمن الأوفق أن نبدأ القصة من أولها .

● ● ●

من زراعة الاعضاء الى زراعة مقومات الخلايا

من الانجازات العظيمة التى حققها العلماء والاطباء في مجال العلوم البيولوجية والطبيعية تبرز انتصارات لا نكاد نحصيها عدا ، لكن الأمر الاعظم الذى استولى على اهتمام الناس، وأثار فى نفوسهم كثيرا من الاعجاب والجدل والحيرة يتركز فى امكان نقل عضو من انسان وزراعته فى انسان آخر يحتاج اليه ، فاذا بالذى يكاد يموت ، يعيش بكلية غيره ، أو قلبه ، أو بأى عضو آخر يصلح للنقل والزراعة .. صحيح ان هذه المحاولات البارعة قد حققت نجاحا محدودا فى الوقت الحاضر ، وصحيح أنها تصطدم بصعوبات بيولوجية ؛ اهمها على الاطلاق ان الجسم الحى يرفض دائما الاستجابة لوجود أى عضو غريب فيه، وصحيح أن العلماء قد تغلبوا فى بعض الحالات على هذا «العناد» الذى يبديه الكائن الحى ، والذى نطلق عليه اسم **المناعة الحيوية** ، وصحيح أن المحاولات لازالت مستمرة للتغلب على هذه الصعوبات ، وهى بالتأكيد تحتاج الى فهم ودراسة وصقل وتطوير .. كل هذا وغيره صحيح ومعروف وشائعة أموره بين العامة والخاصة ، وكتبت عنه اجهزة الاعلام وأطنبت فيه ، وراحت تدعو ((**لبنوك**)) من نوع جديد يطلق عليها ((**بنوك**)) **الاعضاء البشرية** ، أو قطع الغيار البيولوجية أو الجسدية التى تحتاجها الأجسام المعطوبة ، اسوة بما يحدث فى قطع الغيار الآلية ، مع الفرق طبعا بين التكنيك هنا وهناك .

ولقد حاول بعض المتزمتين محاربة زراعة الاعضاء البشرية مرتكزين فى هذا الى آراء عقائدية أو اخلاقية أو انسانية ، لكن محاولاتهم لم تجد لها صدى بين الناس والعلماء ، نقول هذا لأن هناك ثورة بيولوجية اخرى لا تختلف

كثيرا من الثورة التى اثيرت حول زراعة الاعضاء البشرية ، أو استبدال عضو بعضو آخر ، لكن الذى يقود هذه الثورة الآن علماء متخصصون ضد علماء آخرين من المهنة ذاتها، والمتزمتون من العلماء هنا يبذلون قصارى جهدهم لمنع زملائهم من التمادى فى هذه الزراعات الجديدة التى قد تؤدى الى عواقب وخيمة .

وليس المقصود بهذه الزراعات ــ التى لم يسمع بها الناس ــ أن ينقل راس انسان ليزرع على رأس أسد ، أو ان يحدث خلط بين اعضاء من حيوانات مختلفة لنحصل فى النهاية على مخلوق خرافى من ذلك النوع الذى ورد في أساطير الأقدمين .. الخ ، ليس هذا هو المقصود طبعا ، ولو سعى العلماء الى ذلك لكانوا من الهازلين ، لكن سعيهم يتناول الخلط بين الكائنات من الاساس ، والأساس دائما خلية ، أو بتحديد أدق مكونات هذه الخلية ، أو بتحديد ادق وادق جزيئات محددة فى تلك الخلية !

وقد يبدو ــ من اول وهلة ــ أن مثل هذه البحوث على مستوى الخلية لا تستحق كل هذا الاهتمام ، أو لا تتطلب مجابهات وتحديات بين العلماء ، لكن الأمر أخطر مما يتصور البشر ، اذ لم يحدث فى تاريخ العلم كله أن يحد العلماء من نشاط علماء آخرين ، حتى فيما يختص بتصنيع القنابل الذرية ، ذلك أن عملية الخلط بين خلايا الانواع المختلفة يبشر بأخطار قد تفوق أخطار القنابل النووية .

والواقع ان الذعر الذى يسيطر على بعض العلماء من جراء خلط مكونات خلايا بخلايا اخرى قد لا يختلف فى درجته عن درجة الذعر التى قد تصيب رجل الدين الاصيل عندما يفاجا بان كتاب الله قد حدث فيه خلط بما ليس فيه او منه ، فهو يعلم أنه فى ((لوح محفوظ)) ، ((وانه لكتاب عزيز لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد))(سورة فصلت..آية ٤١-٤٢).

وبمثل هذا المفهوم أيضا ، او بشىء قريب منه يصرخ **ألفريد فيلوشى** عمدة مدينة كمبريدج الامريكية فى احدى الاجتماعات العلمية محذرا ومنددا باللعبة الخطرة التى يقوم بها العلماء فى جامعة هارفارد الشهيرة والتى تقع فى حدود اختصاصه ، وهى واحدة من الجامعات القليلة الشهيرة بالسبق فى بحوث عمليات الخلط بين مكونات الخلايا من الانواع المختلفة للكائنات ، وكأنما فيلوشى يخشى على مدينته من وباء مدمر قد يخرج من معامل العلماء يوما ، ولهذا يلوح مهددا ((ان الله وحده يعرف ماذا يمكن ان يزحف علينا من هذه المعامل القريبة منا ، اذ ربما يخرج منها وباء مدمر لا يستطيع احد أن يجد له علاجا ، او ربما ينطلق منها ((غول)) ((رهيب)) ! .. ثم يتساءل فيلوشى ((هل يسعى العلماء حقا الى تحقيق حلم فرانكشتين وجعله حقيقة واقعة من خلال هذه البحوث المدمرة !)) .

لكن مما مما شك فيه ان **فيلوشى** كان يتدخل فيما لا يعنيه فهو اولا واخيرا لا يدرك المغزى العميق من هذه البحوث التى قد تحدث تطورا هائلا فى فهمنا للاسس البيولوجية التى تقوم عليها الكائنات ، ثم هى قد تقودنا الى انجازات ربما لا يستطيع العقل البشرى ان يسبر أغوارها ، فالامر لايهم فيلوشى بقدر ما يهم العلماء ، ولا شك أنهم ــ اى العلماء ــ يستاءون اشد الاستياء عندما يتدخل فى أمورهم من لا يفقه شيئا فى مغزى بحوثهم ، لكن الامور قد تطورت فى الوقت الحاضر تطورا خطيرا ، وتدخلت فيها الهيئات والحكومات ، وعقدت لها المؤتمرات والندوات ، وجرت حولها مناقشات لم تنته حتى يومنا هذا ، وقد تستمر لسنوات طويلة ، ولقد وضعت لهذه البحوث مواصفات ، وسنت لها شرائع

وأحكام ، وهذا ما أثار ثائرة العلماء المهتمين بمثل تلك البحوث التى سوف نعرضها علك ، لتعلم الى أى عصر من عصور العلوم البيولوجية نحن مقبلون .

• • •

تخطى حدود الخالق فيما خلق !

لكى نتصور ابعاد المرحلة الحالية والمقبلة التى يتناولها العلماء فى بحوثهم البيولوجية ، كان علينا ان نتصور اننا قد زاوجنا بين انسان ذكر وقردة انثى ، او العكس ، أو اننا قد فعلنا الشيء نفسه بين حمار ولبؤة ، او بين بطة وديك ، أو بين قط وفأرة ، حتى بين نبات وحيوان .. أو اى نوع من انواع الكائنات نشاء .

وهذا بلا شك نوع من أنواع الافكار الرديئة ، اذ لم يحدث هذا لا فى الواقع ولا فى الخيال ، ولو حدث بطريق الخطأ أو عن طريق وسيلة من وسائل العلم التجريبى ، لما ادى ذلك الى نتيجة تذكر ، ذلك أن الخالق قد وضع لكل نوع من الكائنات حدوده ، وقدر له سلوكه ، وارسى فيه الاحكام المعوقة لمثل هذا الخلط العشوائى بين الانواع ، اذ لو حدث مثل ذلك ، لكانت الفوضى ، والحياة لا يمكن أن تقوم على فوضى !

لكن العلماء قد تخطوا حدود الله فى خلقه ، وفعلوا بالكائنات ما يجعلنا نحسب للمستقبل الف حساب وحساب ، ثم ان تخطى مثل هذه الحدود قد يصيب اصحاب العقائد بالفزع والقنوط ، فليس من حق الانسان ان يتدخل فيما خلق الله بالتغيير والتحوير والتبديل ، ولكن العلماء لهم وجهة نظر اخرى ، ذلك انهم يفعلون ما يفعلون من اجل رفاهية هذا الكوكب ، بما فى ذلك السيطرة على معظم الامراض الخطيرة التى تصيب الانسان والحيوان والنبات ، ثم ان تخليق انواع من الكائنات الجديدة قد يؤدى الى الحصول على خيرات كثيرة لا هى مقطوعة ولا ممنوعة !

ونقول هنا ان العلماء يسعون الى تخليق انواع جديدة لاخلقها ، ذلك أن التخليق غير الخلق ، فالخلق ابتكار ، اما التخليق فتقليد ، وشتان ما بين هذا وذاك ، فالخلق لله ، والتخليق او التقليد للانسان !

لكن .. كيف توصل العلماء الى انتاج مخلوقات جديدة عن طريق التزاوج بين أنواع من الكائنات لا تنتمى لبعضها فى قليل او كثير ؟

الواقع ان ذلك قد تم على مستوى الخلايا ، وليس على مستوى الكائنات الكبيرة ككل .. صحيح ان الاساس فى التزاوج بين الكائنات من النوع الواحد هو خلط المكونات الوراثية للذكر بالمكونات الوراثية للانثى ، ومن هذا الخلط يأتي مولود جديد يختلف عن والديه فى بعض التفاصيل ، لكنه لا يزال يحتفظ بصفات النوع الاساسية ، فالانسان لا يلد الا انسانا ، ولا تنجب القرود الا قرودا ، وعلى هذه الوتيرة تكون ملايين الانواع من المخلوقات .. بداية من الميكروب والدودة والحشرة والنبات ، حتى الحصان والقرد والانسان !

ثم ان عملية التزاوج او الخلط بين مكونات الذكر والانثى تتم اساسا عن طريق الخلايا الجنسية ، فالذى يمثل الذكر خلية جنسية ذكرية (حيوان منوى) ، والذى يمثل الانثى خلية جنسية انثوية (بويضة) ، ومن اندماج هاتين الخليتين فى خلية واحدة ، تتحدد صفات المخلوق من البداية .. اذن فالبداية دائما خلية ، وعلى هذه البداية بدأت بحوث العلماء فى عصرنا الحاضر تتخذ نغمة اخرى لم تعرفها الحياة على هذا الكوكب منذ ان نشأت بكائنات جد بسيطة من حوالى ثلاثة آلاف مليون عام .

اذن .. فلنبدأ من البداية .

• • •

الاساس دائما خطط وراثية فى خليـة

كل المخلوقات ـ صغيرها وكبيرها ـ تتكون مـن خلايا ، فالانسان البالـغ مثلا يضـم فى جسده اكثر مـن ٦٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ خلية (اى ٦٠ مليـون مليون) ، ولا شك أن هذا العدد الهائل قد نشأ من خلية أولى ملقحة ثم اذ بهـا تنقسم وتمـر بمراحل محـددة ، فتتطور الخلايا ـ التى كانت تبدو متشابهة ـ الى أنسجة وأعضاء مختلفة ، رغم أن الاصل واحد ، ولقد دأب علماء الخلية والوراثة على دراسة سر هذا التطور أو التحول منذ عشرات السنين ، وجمعوا فيه حقائق كثيرة لا تكفيها دراسات طويلة ، ولهذا فلن نتعرض لها هنا ، حتى لا نخرج عن موضوعنا الاساسى ، لكـن يكفى أن نذكر ان سر هذا الاختلاف بين خلايا المخ والامعاء والعضـلات والعـين والجلـد والغدد ... الخ ... الخ ، يكمن فى الخلية ذاتها ، فهى تمتلك المفاتيح او الخطط الوراثية التى تحولها الى خلية فى لسان أو رئة أو قلب أو طحال أو كبد ... الخ ، ثم ان الخلايا ـ فى مراحل محددة من تطور الجنين ـ « تتفاهم » مع بعضها بلغات كيميائية على درجة هائلة من الدقة والتعقيد ، ومن خلال هذه اللغة الرائعة تؤثر في بعضها ، فتتحرك وتهاجر وتتماسك وتتحد وتتميز فى أنسجة وأعضاء شتى ، وقد أجرى العلماء ـ فى هذا المجال ـ تجارب كثيرة هادفة قادتنا الى أسرار ضخمة وعظيمة عـن ابداع الله فى خلقـه ، وليتبين لنا بحـق أنه « خلق كل شىء فقدره تقديرا » .. ولا يزال العلماء يبحثون فى هـذه الامور للكشف عـن المزيد من أسرارها الرائعة .

على ان السر الاعظم يكمن في الخلية ذاتها ، فهى ـ والحـق يقال ـ مخـزن أو مستودع بديع لاسرار هائلة ، ولا يزال العلماء فى العالم يحصلون من الخلية علـى مئات وربما آلاف الاسـرار سنويا ، حتـى ان عـدد البحـوث البيولوجية المختلفة ـ التى نشرت فى المجلات العلمية المتخصصة ـ تربو على عشرات الالوف ، ان لم يكن مئات الالوف ، ورغم ذلك فلا تزال الخلية تحتفظ فى جعبتها بأسرار اكثر وادق وأعمق ، حتى ليبدو لنا أن أسرارها لن تنتهى بدا .

ورغم أن عطاء الخلية كثير وغزير ، الا ان أعظمه على الاطلاق يكمن فى جـزىء واحد له بناء عجيب .. هذا الجزىء يعرف علميا باسم حـامض « دى اوكسى ريبـونيوكليـك Deoxyribonucleic acid » أو « ح د ن » من باب الاختصار ليس الا ، أو اذا أردنا اسما شائعا فلنسمه الحامض النووى ، لانه يوجد ـ فى اغلب الاحيان ـ في نواة الخلية .

واذا كنا قـد سمعنا عـن عصـر البخـار والكهرباء والآلـة والذرة والصاروخ ، فـان عصرنا هذا سيشهد ثورة هائلة فى عالم الحياة والاحياء ، وسـوف يطلق عليه ـ ان آجلا او عاجلا ـ عصر الجـزىء ، او بالتحديد عصـر الجـزىء الوراثى « ح د ن » الذى سبق أن أشرنا اليه !

فاذا كان الناس يعتبرون ان آدم ابو البشر ، فان هذا الجزىء « ح د ن » ـ بلا شك ـ هو « آدم » كل الجزيئات العضوية ، وهو « ادم » الخلايا ، وهو أيضا « آدم » كل المخلوقات .. بداية من الفيروسات والميكروبات حتى تنتهى بالانسان سيد المخلوقات .

وعلى آدم الجزيئات هـذا تركزت البحوث وتعمقت منذ حوالى ربع قرن من الزمان ، فهو بمثابة « الكتاب المكتوب » أو « اللوح المحفوظ » لكل نوع من ملايين الانواع من المخلوقات التى ظهـرت على الارض منـذ آلاف الملايـين من السـنين .

وفى هذا اللوح او السجـل الوراثى العظيم بدأت خطـة التغيـير والحـذف والتبديـل والتزييف ، وكأنما العلماء هنا « يلعبون لعبة

الله فى مخلوقاته » على حد تعبير الباحثين فى هذا المجال .

ولكي تستوعب معنا خطورة هذه اللعبة المثيرة ومغزاها في حياتنا الحاضرة ، أو فى حياة الاجيال القادمة ، كان لا بد ان نطلعك على بعض اسرار هذا الجزىء العظيم باختصار شديد .

• • •

من الجزىء الباعث الى الرسول !

ان أعظم ما فى بحوث الحياة الآن هى تلك البحوث التى تتعامل مع ما يسمى **بعلوم الحياة الجزيئية** Molecular Biology ، ذلك ان حياة كل مخلوق وفد ويفد الى هذا الكوكب انما تعتمد اساسا على خطة محددة ، وتنفيذ متقن ، وتفاعل مقدر ، وتجاوب مقنن ، وهدف عظيم لا خلل فيه ولا فوضى ، حتى لكانما لهذه الجزيئات فى عالمها أقدار ومخططات ورسالات لا تختلف كثير عما نعرفه فى حياتنا اليومية .

فهناك الجزىء الباعث ، وهو الحامل للخطة الوراثية ، وهو المعبر عن كل صفة من الصفات التى تتميز بها الكائنات الحية ، ولهذا كانت له السيادة على كل الجزيئات الاخرى التى تزخر بها الخلية الحية ، ومن هنا فقد وضعته الحياة فى مكان امين حتى لا يختلط بالجزيئات الاقل شأنا .. وجزيئات الباعث أو « السيد » هو « ح د ن » ، ومكانه أو « لوحه المحفوظ » هى نواة الخلية .

وهناك ايضا **الجزىء الرسول** Messenger ويعرف علميا باسم حامض ريبو نيوكيك او « ح ر ن » من باب الاختصار (Ribouucleic acid or R N A) وهو قريب الشبه من باعثه « ح د ن » ، لكنه لا يرقى اليه ، فقد حذف منه الباعث شيئا ، واضاف اليه شيئا (بالطبع حذف واضاف اشقاق كيميائية) ، ومن هذه « السياسة » الكيميائية الجزيئية الحكيمة لايستطيع « الرسول » الجزيئى ان يتصرف في مقدرات الخلية الوراثية بحال من الاحوال ، فكل مهمته ان يخرج من ساحة باعثه بالخطة الوراثية المسجلة فى كيانه بجزيئات كيميائية خاصة ، وهو لا يستطيع ان يبدل او يغير فيما خرج به ، حتى ولو كان فى ذلك خطأ يحتمل او لا يحتمل (ومن هذه الاخطاء تظهر كثير من الامراض الوراثية نتيجة لخطأ حل بالخطة التى يحملها الباعث حدن) .

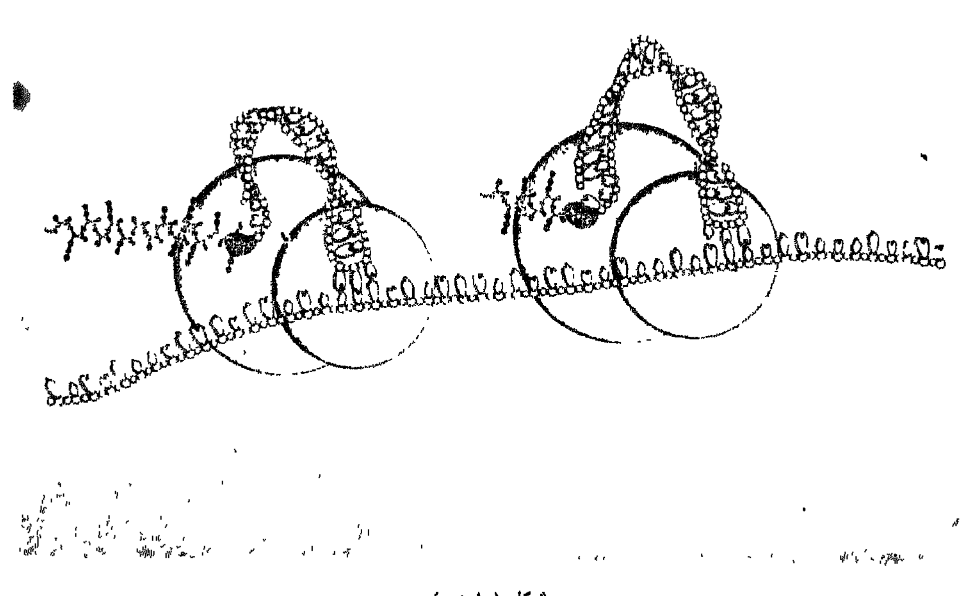
وفى ساحة الخلية توجد ملايين فوق ملايين من مصانع او مطابع دقيقة تسمى ريبوسومات Ribosomes (شكل ١ أ ، ب) ، وفى هذه المطابع تنفذ الخطة التى يحملها الرسول ، وعلى اساسها تخرج البروتينات والخمائر (الانزيمات) ، هذا ويقدر العلماء ان كل خلية من خلايا الانسان تحتوى على أكثر من مائة الف خطة ، لصناعة مائة الف نوع من البروتينات والانزيمات ، وأى خطأ فى الخطة ، ينعكس على خطأ فى البروتين او الخميرة ؛ فيؤدى هذا الى عملية كيميائية خاطئة ، أو الخمائر هى بمثابة الهيئة التنظيمية او الادارية فى ساحة الخلية ، وهى التى تشرف على كل خطة كيميائية ، وتنفذ كل عملية حيوية ، وهى التى تهدم وتبنى ، وهى التى ترمم وتعالج ، ومنها ما يحارب ويذيب كل جزىء غريب دخل الى الساحة . . . بالاختصار فهى التى تقوم عليها اعمدة حياة الخلية ، ولكن على اساس خطة محددة تهيمن عليها جزيئات « حدن » الكامنة هناك فى النواة .

لهذا ، فان التلاعب او التغيير فى جزيئات الخلية الاساسية او الوراثية أى (دحن) ، انما هو تلاعب بصفات المخلوقات التى اوجدها الله ، وسوف يؤدى ذلك الى بعث خطة دخيلة تؤدى ايضا الى عملية كيميائية لم تعرفها قبل ذلك على الاطلاق .



شكل (١ أ)

صورة بالميكروسكوب توضح تراص الموريات أو الجبنات وفيها تظهر آلات تصنيع البروتينات على هيئة نقط صغيرة متراصة على جدار خلوية داخلية خاصة ، الا أن هذه الآلات الجزيئية (أو النقط) لا تكاد تبين لقصور كبير فى قوى الميكروسكوبات الالكترونية ، وتقد استعان العلماء على توضيح بعض تفاصيلها بطرق فيزيائية وكيميائية يطول شرحها (انظر شكل ١ ب) .



شكل (١ ب)

نموذج يوضح تفاصيل أكثر لوحدات تصنيع البروتينات (أى الريبوسومات) وفيها يمر الشريط الرسول أو المبعوث ، ((فيفهم)) الشفرة المسجلة عليه ، وتبدأ فى عملية تجميع الأحماض الأمينية (وهى الوحدات الصغيرة التى تكون ألف باء البروتينات) فى جزيئات بروتينية كبيرة ، مثلها فى ذلك كمثل تجميع الحروف فى المطابع لتكوين جمل وفقرات .

على ان اعظم التنظيمات او المخططات الدقيقة التي اكتشفها العلماء في نواة الخلية قد أوحت للعلماء بمزيد من التلاعب ، ذلك ان كل صفة وراثية ، أو عملية حيوية ، تتحدد عن طريق معلومة معينة تعرف باسم **المورثة أو الجينة** Gene ، وقد نرى هذه المورثات أو او الجينات احيانا وهي تتراص على هيئة عقد او حبات (شكل ٢) ، فاذا ارادت الواحدة منها أن تنفذ امرا لصالح الخلية ، كان لا بد ان تخرج من انطوائها ، وتظهر لنا على هيئة شريط دقيق غاية الدقة ، ولقد امكن تصوير هذا الشريط بالميكروسكوبات الاليكترونية (شكل ٣) ، وقد لا يثير هذا الشريط في نفسك عجبا ، لكنك او اطلعت على باطنه لرايت ثم رأيت نظاما عجيبا، وبناء فريدا، ثم انك لو استطعت أن تقرأ لغة الحياة على هذا الشريط كما يقرؤها العلماء ، لعرفت أبدع سر طوته الحياة عن العيون وعن العقول ، ولعلمت انها تتخذ لنفسها « شفرة » Code من مركبات كيميائية أربعة لاغير (هي آدينين وثايمين وجوانين وسيتوزين Adenine, Thymine, Guanine, Cytosine .. وكل مركب من هذه المركبات يتالف بدوره مع جزيء خاص من السكر (اسمه ريبوز Ribose) وجزيء آخر اسمه فوسفات ، وكل وحدة متآلفة من هذه الوحدات تسمى نيوكليتدة Nucloeotide وهي رمز الشفرة .. فكأنما كل شفرة من هذه الشفرات الاربع تقابل حرفا من حروف لغتنا ، وهذا يعني ان ملايين الانواع من المخلوقات ـ مما نرى ومما لا نرى ـ قد قامت وسارت وتحددت كل صفاتها من خلال هذه الشفرة الكيميائية الرباعية المتراصة على هيئة سطر او شريط كيميائي له في عالمه الدقيق شأن عظيم ، وملك قويم (شكل ٤).

لكن شريطنا الوراثي لايوجد آحادا ، بل يتجمع ازواجا ازواجا ، بمعنى ان الشريط يتزاوج او يرتبط بالشريط الآخر وجها لوجه، ولهذا الارتباط قوانين كيميائية لا تحيد عنها الجزيئات ولا تميل ، ومن هنا نرى الآدينين يرتبط دائما بالثايمين ،والجوانين بالسيتوزين (أ مع ث ، ج مع س ـ شكل ٥) .. اضف الى ذلك ان نمو الخلايا والكائنات يرجع اساسا الى هذا الشريط المزدوج ، اذ انه يستطيع ان يصنع نسخة طبق الاصل من ذاته (شكل ٦)، ومن هنا تتضاعف اعداد الخلايا ، وتنمو الكائنات ، وتحتفظ كل الانواع بصفاتها التى جاءت عليها ، ما لم يحدث خطأ او تلاعب أو تبديل في النظام .. وهذا ما سعى اليه الانسان في عصرنا الحالي ، بعد ان عرف بعض اسرار الحياة المطوية .

اذن .. كيف حدثت اللعبة فيما خلق الله فقدر ؟ .

● ● ●

الخلية تمتلك ادواتها « الجراحية » !

الواقع ان اللعبة قد نشأت من الخلية ذاتها ، فعندما اكتشف العلماء سرها ،وعرفوا سلاحها ، نفذوا مخططاتهم بنفس السلاح المكتشف .

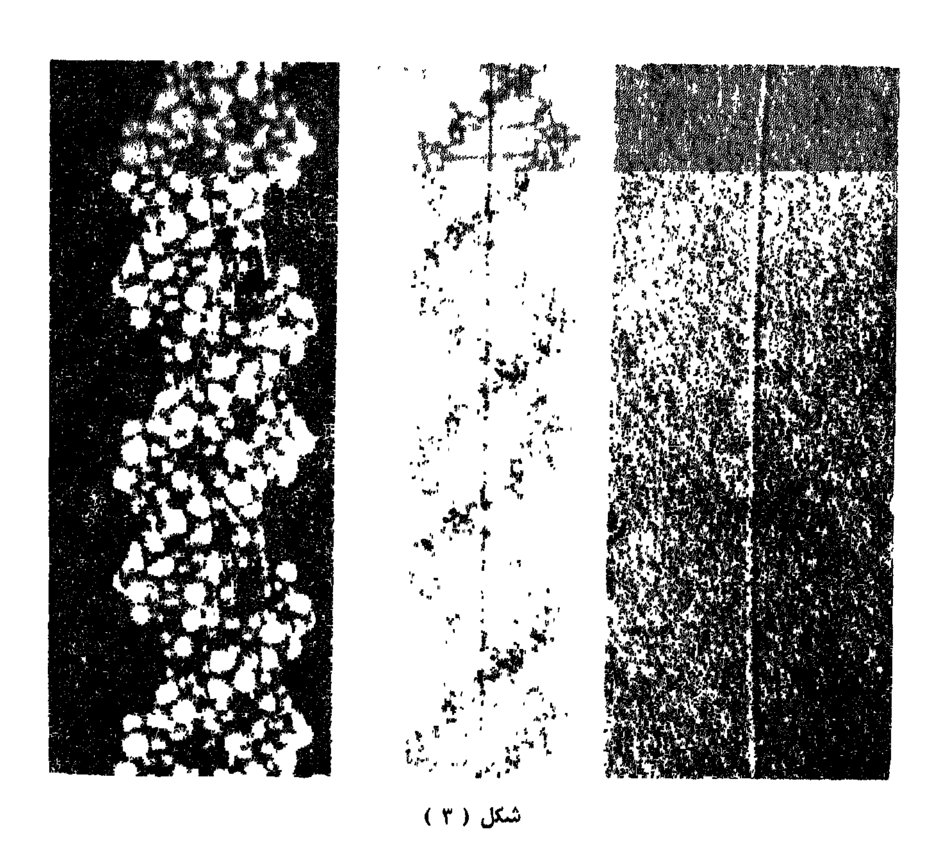
ففي عام ١٩٦٧ وما بعدها ، اكتشف العلماء عددا من الانزيمات او الخمائر المثيرة في بعض الخلايا الميكروبية ، وتبين ـ فيما بعد ـ ان الخلايا تستخدم هذه الانزيمات كما نستخدم نحن المقصات والمباضع والابر وخيوط الانسجة في العمليات الجراحية التى نجريها في مستشفياتنا .

بمعنى آخر نستطيع ان نقول ان الخلية تمتلك الأداة او الادوات الكيميائية التى تستطيع ان تصلح بها شأنها ، وترمم ما تهتك من مرافقها ، وتوصل ما تقطع من كيانها ، ثم هي قد ملكت أيضا الانزيمات التى تمكنها من



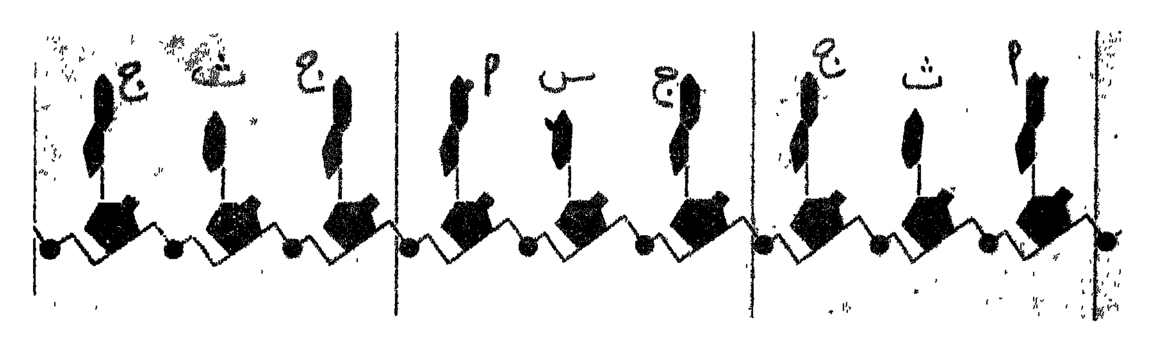
شكل (٢)

صورة بالميكروسكوب توضح براص المرثات أو الجيناب على هيئه حبات أو عقد على واحد من الكروموسومات ، وفى داخل كل جينة يوجد شريط وراثى مطوى ، ويحمل خطة وراثية محددة ، مسئولة عن عملية حيوية واحدة مقدرة (طبيعى ان الشريط لا يمكن ان يرى هنا لضعف التكبير) .



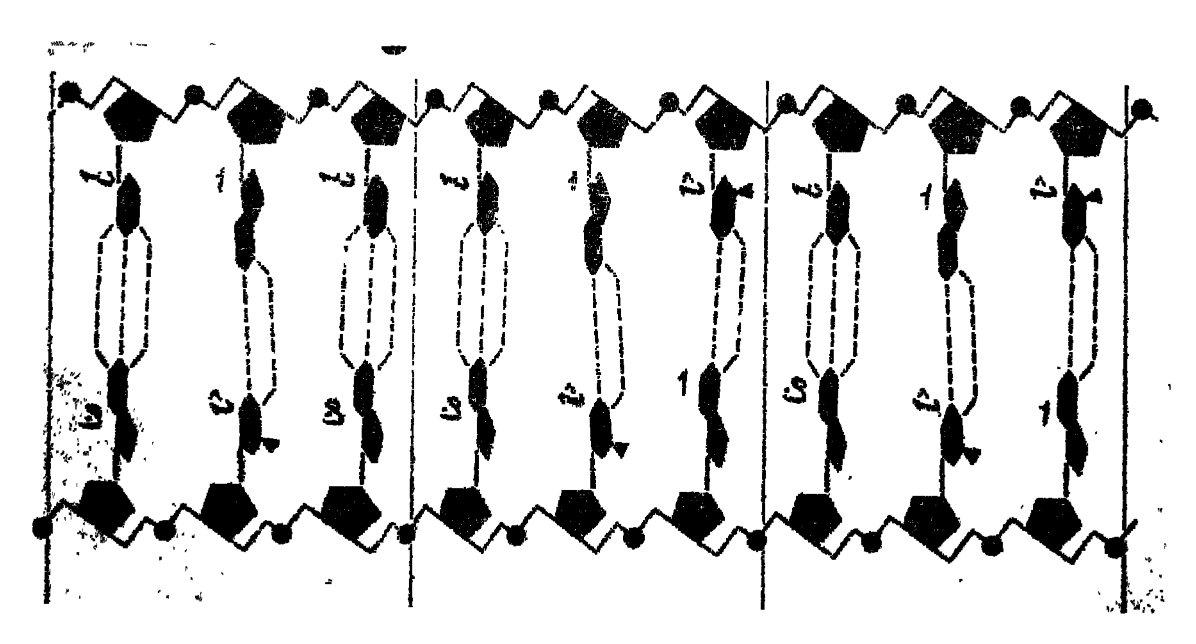
شكل (٣)

الشريط الوراثى ح د ن كما يظهر تحت الميكروسكوب الالكترونى مكبرا عشرات الالوف من المرات (الى اقصى اليمين) . وفى الوسط تتضح بعض تفاصيله الخارجية (أو حدوده) كما اظهرتها التحاليل الكيماوية والخواص الفيزيائية ... والى اليسار نموذج للمكون الذرى المعقد للشريط نفسه .



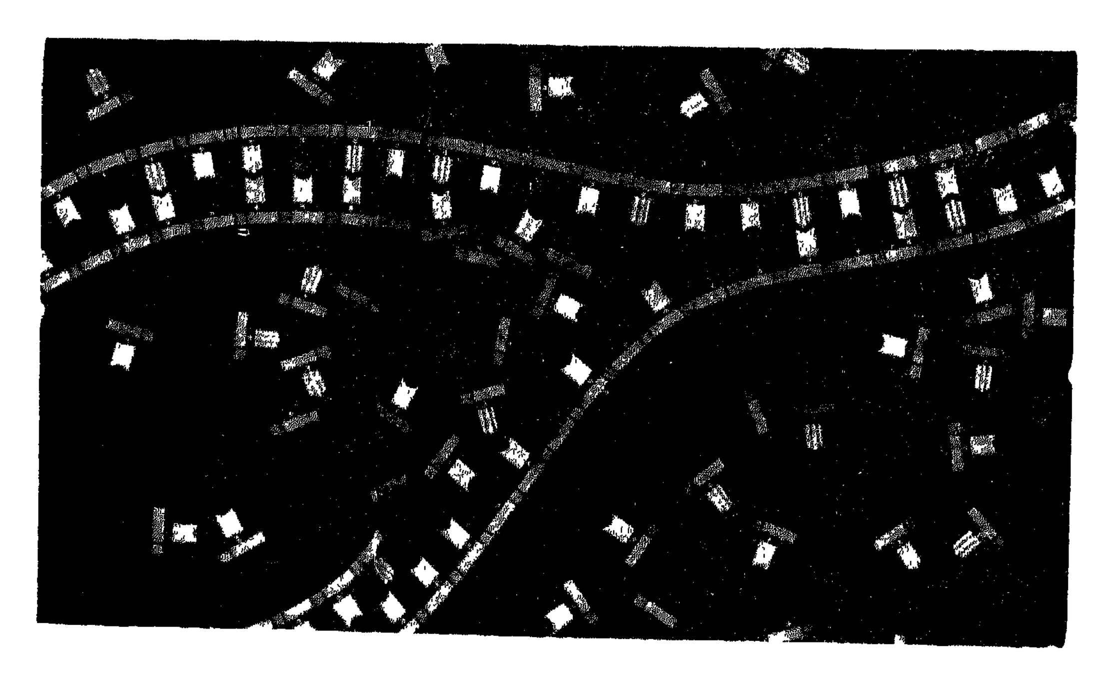
شكل (٤)

نموذج يوضح شفره الحياة الثلاثيه على أحد أنصاف جزىء الشريط الوراثى .. فالشفرة الثلاثية أ ث ج تعنى أمرا محددا فى حياه الخليه ، وهى تختلف عن مضمون الشفره المجاورة ج س ا ، والشفرة ج ث ج (هذه الحروف ليست الا اختصارا لاسماء قواعد كيميائية فى جزيئات ح د ن الوراثية)



شكل (٥)

تتآلف شعره الحياه فى شرائطها دائما أزواجا ... وكل زوج يعرف زوجه ويربط به دون سواه ، فالأدنين (أ) لا يتآلف الا مع الثايمين (ب) وكذلك لا يرتبط الجوانين (ج) الا بالسيتوزين (س) .



شكل (٦)

تتكاثر جميع الكائنات عن طريق تكاثر الشريط الوراثى ،ويظهر هنا وهو يضاعف ذاته ، أو كأنما هو يكون نسخه أخرى طبق الأصل من النسخة القديمة ، فيصبح الشريط شريطين ، أو الخلية خليتين .

تقطيــع او وصــل شريطها الوراثى فى أماكن محددة ، او لتدمير أشرطة وراثية غريبة قد « تدنس » ساحتها .

وبدون الدخول فى التفاصيل أو المعمعــة العلمية نقول ان العلماء قد أخذوا هذا السر من الخلية الحية ، وتساءلوا : ما دامت الحياة تمتلك هذه الادوات الدقيقة التي تستطيع ان تقص الأشرطة الوراثية وان توصلها ، فلمــاذا لا نقوم نحن بعزلها ودراستها ومعرفةاسرارها، ثم بعد ذلك نستخدمها فى عملية « زرع » أو « تطعيم » أو « تهجين » وراثى بين شرائط خلايا الكائنات المختلفة ؟

ومن خلال هذه الفكرة العظيمة بدأ العلماء بالفعل فى اجراء ادق عمليات « جراحيــة » غير منظورة ، ونقول غير منظورة لان الادوات المستخدمة فيها لا ترى على حقيقتها وهي تقوم باجراء ما وقر في عقول العلماء من افكار، ذلك أن هذه الادوات تقع ــ لدقتها المتناهية ــ فيما وراء حدود عيوننا و « عيون » مجاهرنا الضوئية وربما الاليكترونية ايضا ، لكن نتيجة هذه العملية الدقيقة جدا سوف تتضح مــن خلال تغير صفات الخلية او الكائن ، فاذا اكتسب صفة وراثية جديدة ومحددة ، دل ذلك على نجاح العملية ، واذا كان غير ذلك ، دل على الفشل ، ولابد ــ والحال كذلك ــ من تطوير وتجويد وصقل العملية حتى يمكن أن تعطى ثمارها المرجوة .

اي كأننا نعود بذلك الى ما وقر فى خيــال القدماء من وصل اجزاء من كائنات مختــلفة لتعطى مخلوقا اسطوريا ، ولكن ذلك ــ كما ذكرنا ــ خيال سقيم ، أو كأننا نعود ايضا الى فكرة تطعيم نبات على نبات من نفس السلالة او النوع ، كأن نطعم مثلا البرتقال على النارنج والخوخ على البــرقوق ، والكمثــرى على السفرجل .. الخ ، فيكون النبات من نباتين: المجموع الجذرى لنبات ، والمجموع الخضرى للنبات الاخر ، أو قد نرى ثمار هذا وذاك على اصل واحد .. وهكذا ، وطريقة وصل نبات بنبات قريب الصفات منه جدا معروفة من زمن طويل ، ولقد افادت الانسان فى الاحتفــاظ بجودة الصنف فى الثمار ، ومقاومة الامراض ، وسرعة الاثمار ، واستكثار نباتات فى تربة لا تلائم نمو جذورها ... الخ .

ثم انتقلت فكرة التطعيم من عالم النبات الى عالم الحيوان ، واراد العلماء تطبيقها فى الانسان والحيوان ، وهذا ما عرفناه حــديثا بزراعة الاعضاء ، ونقلها من انسان لانسان ، او من حيوان لآخر .. صحيح ان الهــدف من التطعيم وزراعة الاعضاء مختلف ، لكــن الفكرة واحدة ، والاساس واحد ، وهى تقبل انسجة لكائن في كائن آخر من نفس ســلالته ونوعه .

• • •

بعث بيولوجى للجسد :

على ان فكرة الخلط او الالتئام بين انسجة النوع الواحد قد انتقلت من حيزها الواسع المنظور ، الى حيز دقيق غير منظور ، ونعنى بذلك ان نقل الانسجة والاعضاء من كائن لآخر قد حل محله نقل اجزاء من خلية الى خليــة اخرى ، ويعرف ذلك باسم **عمليات الجراحة الدقيقة للخلايا** Cellular Micro-surgery .

لكن قبل ان نتعــرض لبعــض تفاصيل موضوعنا الاساسي ، وهــو خلط الصــفات الوراثية بين الانواع المختلفة عن طريق الاشرطة الوراثية التى اشرنا اليها قبل ذلك ، كان لابد ان نشير الى بعض الانجازات الهامة التى تمت فى العلوم البيولوجية ، والتى لها صلة وثيقة بموضوعنا هنا ، ومنها سنرى كيف ان البحوث تتطور ، والافكار تتبلور ، والتجارب تتعمق وتصقل ، لتصــل الى اعمــق اسرار الحياة، والزمن وجهود العلماء كفيلان بالاتيان بكل ما هو مثير وعجيب .

فى الكائنات الراقية يتم التزاوج بين الذكور والاناث ، وفى التزاوج يحدث التلقيح بين خلية جنسية ذكرية ، واخرى انثوية ، فتندمج هذه مع تلك ، فيؤدى ذلك الى سبيكة وراثية جديدة لايمكن ان تتكرر أبدا بين ضفدع وضفدع ، وحمار وحمار ، وانسان وانسان ، يستثنى من ذلك فقط حالة التوائم المتماثلة أو المتطابقة Identical twins ، لأنها تنتج من السبيكة الوراثية ذاتها ، وذلك بعد أن تنفصل هذه السبيكة الموحدة الى جزئين أو نصفين متشابهين ومتماثلين تماما (من حيث الصفات الوراثية بطبيعة الحال) ، وعندما ينمو كل نصف ليعطى جنينا مستقلا ، فان الجنينين يكونان متشابهين ومتطابقين فى كل صفاتهما الوراثية .

لكن بعض التجارب التى يجريها علماء النبات على النبات ، وعلماء الحيوان على الحيوان ، قد الغت هذه الطريقة ــ طريقة التزاوج بين الذكر والانثى ، وامكن الاستعاضة عنها بالحصول على نباتات جديدة من النبات نفسه ، أو حيوانات من الحيوان نفسه ــ ليس ذلك عن طريق خلايا جنسية فى أنابيب الاختبار او غير ذلك مما يجول فى العقول من أفكار ، بل جاء عن طريق خلايا جسدية ، وهذا هو الامر المثير والغريب .

يعنى هذا ــ ببساطة شديدة ــ اننا نستطيع ان ناخذ خلية جسدية من امعاء ضفدع ليخرج منها ضفدع طبق الاصل من الضفدع الاول ، او قد نحصل على خلية من ذنب ذئب ، لتعطى ذئبا ، او من عين عصفور ، لتكون عصفورا ، وما قد يجرى على الضفادع والعصافير والذئاب قد ــ يجرى ــ من حيث المبدأ ــ على الاسماك والقرود والحمير والبشر ــ فالاساس واحد ، وان اختلفت الصور !

هذه اللعبة الخطرة قد نجحت بالفعل مع بعض النباتات والحيوانات ، وقد تنجح مع سائر أنواع الحيوان ، بما فى ذلك الانسان ،

الا ان نجاح ذلك يحتاج الى تفهم أعمق ، والى « تكنيك » اقوم ، وبحوث أعظم ، وامكانيات اضخم ، اذ ليست أسرار الحياة بالامر الهين .

لكن تدخل الانسان فى شئون الخلق ، واحلاله التكاثر عن طريق اندماج الخلايا الجنسية بعملية التزاوج الطبيعية المعروفة ، محل التكاثر عن طريق الخلايا الجسدية قد يؤدى الى تصورات رديئة وعويصة ، وان ذلك يستلزم تغيير الشرائع والسنن والقوانين ، ويتطلب نظاما اجتماعيا لم تعرفه الارض قبل ذلك أبدا .

فمعنى تحويل خلية جسدية من اى عضو فى اعضاء الجسد الى خلية شابة تستطيع أن تنقسم وتتكاثر وتتطور كما يتطور الجنين فى الرحم .. معنى ذلك انك سوف تحصل على نسخة جديدة من ذاتك ، نسخة طبق الاصل منك ، اى كانما انت تعود فى الزمن الى الوراء ، او كانما طفولتك قد بعثت من جديد ، ثم تمر بنفس مراحل النمو التى مررت بها قبل ذلك ، وكانما ذاتك الطفلة او الشابة تقف أمام ذاتك الهرمة او الكهلة .. الى آخر هذه التصورات الرديئة التى قد يحققها العلم يوما .

لكن ذلك كلام لا شك غامض وغريب ، ويحتاج الى شرح وتفسير .

● ● ●

التكاثر بخلية بدلا من البذور !

لكى نستوعب شيئا مما يطوف باذهان العلماء ، ومما يجرى فى معاملهم ، كان علينا ان نقدم اولا مثلين من الامثلة التى نجحت فيها هذه التجارب ، ولنبدا بنباتين معروفين: نبات التبغ ، ونبات الجزر ، فكلاهما يتكاثر عن طريق البذور ، والبذرة جنين نائم فى مهد من غذاء مختزن ، وهو نتيجة حتمية لاندماج حبة لقاح (خلية جنسية ذكرية) مع بويضة

فى مبيض زهرة (خلية جنسية انثوية) ، وهذا هو الأمر الطبيعي في حياة هذين النباتين او فى حياة كل النباتات الاخري التى تتكاثر بالبذور ، لكن بعض العلماء قد ضربوا بهذا المبدأ عرض الحائط ، واستطاعوا انتاج نباتات طبق الأصل من النبات الاصلى عن طريق خلايا جسدية ... لا جنسية !

فى جامعة كورنيل الامريكية كانت تجارب الجزر ، وهناك نجح عالم النبات ف . س . ستيوارد فى انتاج الجزر عن طريق آخر غير طريق البذور ، فعندما احضر جزرة ، وجهز منها عديدا من الشرائح الرقيقة ، اخذ منها نسيجا خاصا يعرف باللحاء Phloem ، وهى خلايا حية مسئولة عن نقل العصارة الغذائية من الاوراق الى جميع اجزاء النبات ، ثم وضع انسجة اللحاء على جهاز ميكانيكى رجراج فى دورق به غذاء خاص معقم ، وعندما رجت الانسجة رجا شديدا على هذا الجهاز ، أدى ذلك الى انفصال بعض الخلايا اللحائية .. اما فرادى أو فى مجموعات ، وأخذت الخلايا ووضعت في دوارق وأطباق شاكلة على غذاء ذات مكونات وعناصر متناسبة ، ومرت الايام وتكاثرت الخلايا، ثم بمعاملات كيميائية خاصة تحولت الى انسجة ، ومن الانسجة برزت جذور ، وعندما نقلت هذه الى أطباق بها غذاء هلامى متصلب كالجيلاتين ، تفرعت الجذور هنا وهناك، وبدات تمتص عناصر الغذاء من الطبق ، وتبعث بها الى الانسجة المتكورة ، وحدث امر اشبه بالمعجزة اذ انبثق من النسيج ساق واوراق ، ونقلت النباتات الى ارض زراعية ، فنمت وتضخمت جذورها، واستطالت اوراقها ، واصبحت نباتات كاملة تسر الناظرين ، واهم من ذلك كله انها كانت من الوجهة البيولوجية والوراثية نسخا طبق الأصل من النبات التى حولناها الى شرائح ، فانسجة ، فخلايا جسدية ، لتصبح كل واحدة منها كفيلة باعطاء نبات يافع بطريق غير طبيعى، ولاول مرة فى تاريخ الحياة على الارض !

وبعد ذلك ، قام كل من ف . فاسيل ، أ.س. هيلبرانت بتحقيق نتائج ستيوارد ، لكنهما استخدما نبات التبغ فى تجاربهما ، وحصلامنه على شرائح من نسيج يعرف باسم اللب او النخاع Pith ولا يهم ان كان هذا النسيج من ورقة او جذر أو فرع أو ساق ، المهم انهما فصصا هذا النسيج الى خلايا ، وزرعت الخلايا مباشرة على جيلاتين به غذاء خاص ، وتكاثرت الخلايا ، وأعطت كل خلية نسيجها ، **ثم تحولت الانسجة ــ بمرور الايام** وبالرعاية والعناية ــ الى **جذور وسوق وأوارق وأزهار ، ولاول مرة ايضا فى تاريخ الحياة على الارض يتم انتاج ذرية لنبات الدخان من خلايا جسدية ــ لا جنسية .**

هذا ــ باختصار شديد ــ بعض ما جرى فى عالم النبات .. فماذا تم فى عالم الحيوان ؟

اليوم ضفدع .. وغدا انسان !

شىء آخر مختلف .. وذلك ان الامور فى عالم الحيوان اكثر تعقيدا ، وابعد منالا ، ثم ان الوصول الى النتائج يحتاج الى صبر جميل ، واساس فى العلم عميق ، وحساسية فى الاداء لا يقدر عليها الا كل باحث دؤوب ، ثم ان النتائج غير مضمونة ، ونسبة النجاح فيها ضنينة ، ولكن المتفائلين من العلماء يقولون : ليست كل بداية دائماموفقة ، كما أن كل شىء يبدأ صغيرا ومتواضعا ، وبعدها يصقل ويتطور الى الاحسن دائما .

صحيح ان العلماء يستطيعون الحصول على اى نسيج يشاءون ، من اى مخلوق يرغبون ، وبوسائل خاصة يفككون الانسجة الى خلايا ، ومن المكن ان نمد تلك الخلايا **الهائمة بمحاليل غذائية ومعقمة ، فاذا بها تنقسم وتتكاثر وتنمو (شكل ٧) ، لكنها مع ذلك لن تتشكل وتتحول الى مخلوقات تسعى، ولو حدث هذا كما يحدث في التجارب التي اجريت فى عالم النبات ، لاستطعنا ان نقدم**



شكل (٧)

تستطيع العلماء الآن عزل الخلايا من أجسام الانسان والحيوان ، ثم تربيتها فى المعامل على محاليل خاصه معقمة . تتغذى وتتنفس وتتحرك وتفرز وتتكاثر ، والصورة توضح بعض هذه الخلايا الهائمة فى محاليلها ، وعليها تجرى العلماء تجاربهم لفهم أكثر وأعمق لسر الحياة الغامض (الصورة الى اليسار لخلايا صغيرة والى اليمين خلايا فى تمام نموها) .

لك من ذاتك نسخا عديدة لا يمكن لاحد ان يميز بين صفاتها الظاهرة والباطنة ، ولا أن يميز بينك وبينها ... فالامر لا يحتاج الا لشريحة جد دقيقة من البشرة أو الاصبع أو الساق أو الكبد أو الى أى جزء تريد من اى عضو تشاء ، ومن مئات الخلايا الجسدية المفككة أو ربما الآلاف (فذلك يتوقف على حجم الشريحة المعزولة) ، يمكن تحويلها الى مئات الاجنة . . هذا لو امكن ان يمول الانسان مئات النساء اللاتي يقبلن ان يصبحن حاضنات لتلك الخلايا لتتشكل فى الارحام ، وعندئذ تظهر الخلايا الجسدية على هيئة أجنة تنمو وتتطور وتولد وتحبو وتمشى وتكبر لتكرر تجسيدك البيولوجي في غير الزمان والمكان .. زمانك انت ، ومكانك انت !

مثل هذه الامور لا يمكن ان تحدث بسهولة في عالم الحيوان الذى يتكون من انسجة معقدة ، واعضاء متباينة ، ومرافق حيوية تخدم بعضها بعضا ، لكنها قد تحدث مع الحيوانات الدنيا التي ليس لها مثل مالنا ، والتجارب الكثيرة التي اجراها العلماء ويجرونها الآن توضح هذه الحقيقة تماما ، لكننا لن نتعرض لهذا الموضوع المثير هنا لضيق المجال ، اذ يكفي ان نذكر ان هناك كثيرا من التجارب والانتصارات البيولوجية التي توضح لنا الكثير مما خفى علينا من اسرار الخلق ، ثم ان هذه الاسرار قد تفتح لنا الابواب الى اسرار اعمق واعمق ، فلربما تنفعنا مستقبلا فى تفهم بيولوجية الانسان التي بدانا نغزوها بصعوبة !

لا علينا من كل هذا الآن ، ولنتعرض هنا لتجارب مثيرة كان ميدانها معهد بحوث السرطان فى فيلادلفيا بالولايات المتحدة الامريكية اذ جرت فى هذا المعهد امور غريبة غيرت ما وقر فى النفس ، وصدقه العقل .. نقول قولنا هذا بعد أن تمكن كل من العالمين توماس كنج وروبرت بريجز من انتاج اجنة ضفادع بغير طريق الخلايا الجنسية أو التزاوج ، ويجيء بعدهما عالم الحيوان ج. جوردون من جامعة اكسفورد بانجلترا ليعلن ــ لاول مرة فى التاريخ ــ انه تمكن من انتاج ضفادع كاملة التكوين بطريقة تختلف تماما عما يحدث فى الطبيعة .. اى دون أن يكون هناك تزاوج أو تلقيح بين خلايا جنسية .

والواقع أن هذا الانجاز العلمى العظيم يقوم على أساس عمليات جراحية دقيقة ، وهى عمليات لاتستخدم فيها الادوات الجراحية التقليدية ، لأننا نتعامل مع خلايا لا ترى الا بالميكروسكوبات الضوئية ، ومن أجل هذا استنبط العلماء ادوات جد دقيقة لتناسب هذا العالم الدقيق ، وبها يستطيعون زراعة نواة خلية فى خلية اخرى بعد تفريغها من نواتها ، ولا شك ان هذه العمليات تتم تحت مجاهر خاصة ، وهى تستلزم مهارة العالم وحساسيته واتزانه ومثابرته التى لا تعرف الكلل والملل .

ولكى يتم انتاج نسخ ضفدعية عن طريق الخلايا الجسدية لا الجنسية ، يقوم العلماء بسحب نواة من خلية في امعاء ضفدع ، أو من اى نسيج آخر مناسب ، ثم يحضرون بويضة انثى لم تخصب بعد ، وتفرغ البويضة من نواتها ، وبعد التفريغ تزرع فيها نواة الخلية الجسدية لضفدع من النوع ذاته ، وتحاط البويضة الجديدة بالرعاية فى حوض به ماء ، ليرى العلماء ان كانت العملية قد نجحت أو فشلت ، تماما كما يضع الجراحون مرضاهم الذين نقلت اليهم قلوب او كليات غيرهم تحت المراقبة الطبية الصارمة ، ليروا ان كان الجسد قد تقبل العضو المزروع أو لم يتقبل!

واحيانا ما تدوس النواة الجسدية على «رداء» السيتوبلازم الخاص بالخلية الجنسية (اى البويضة) ، او قد يحدث العكس ، فلا احد يدرى ، فتنطلق فيها قذيفة الانقسام ، فتتكاثر وتتكاثر ، وتتطور وتنمو ، وتتحول فى النهاية تحت سمع العلماء وبصرهم الى ابى

ذنبية (وهو طور من أطوار نمو الضفادع) الذى يسبح أمامهم فى الماء ، ثم اذ بأبى ذنبية يتحول بدوره الى ضفدع يافع .. ضفدع طبق الاصل من ذلك الضفدع الذى سحبنا نواته وزرعناها في تلك البويضة .

لكن .. ماذا تعنى هذه التجربة حقا ؟

انها تعنى أمرا بالغ الخطورة والتعقيد ، اذ لو امكن ــ فى المستقبل القريب أو البعيد ــ تطبيقها على الانسان ، لأحدث ذلك مصاعب ومواقف لا يمكن أن تكون فى الحسبان .. ولكى نوضح ذلك ، دعنا نتعرض باختصار للاساس .

• • •

طبعات مكررة من ذات المخلوق !

ان أية نواة فى اية خلية جسدية مشتقة أساسا من النواة الاولى فى البويضة الملقحة ، حيوان منوي مع بويضة فى رحم انثى ، أو بالتحديد من نواة تحمل كل صفات الذكر ، واخرى تحمل كل صفات الانثى ، ومن أجل هذا يأتى الجنين ثم الوليد حاملا لصفات ابويه (شكل ٨) .

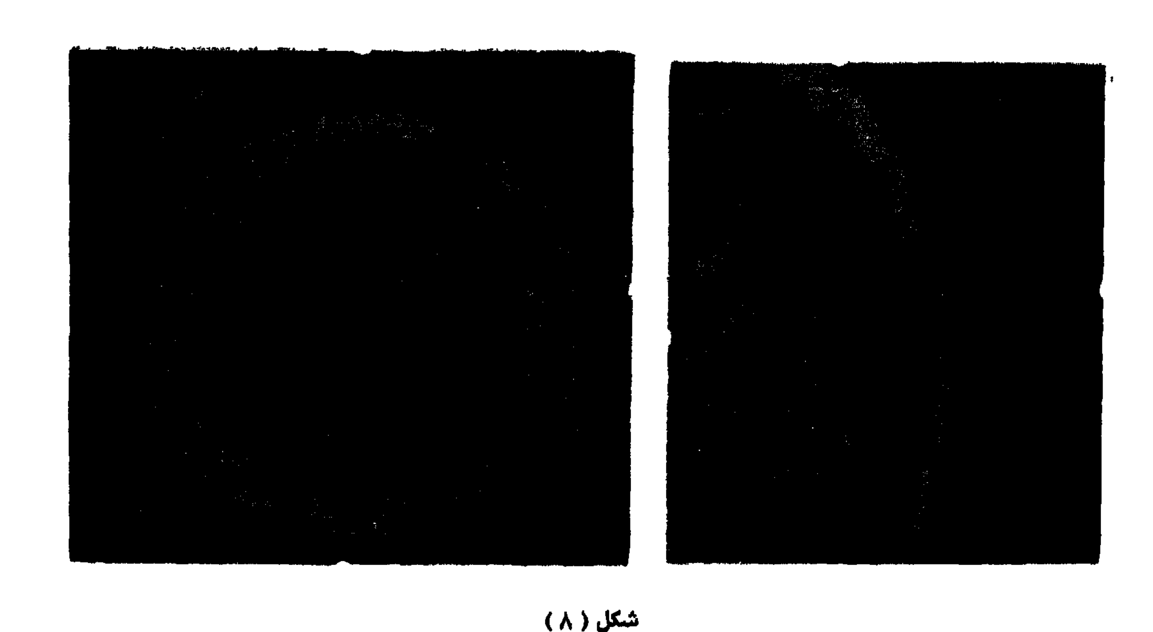
اى كأنما النواة فى البويضة الملحقة بمثابة سجل وراثى متكامل ، او طبعة جديدة لمخلوق قادم ، وان كل ملايين الملايين من الخلايا الجسدية المختلفة مشتقة حتما من الخلية الاولى الملقحةمن خلال عملية التكاثر والانقسام، وفى هذه العملية « تطبع » المادة الوراثية ــ أو بالتحديد الجزيئات الوراثية (ح د ن) التى سبق أن أشرنا اليها ــ ملايين وبلايين النسخ من ذاتها ، وتحفظ في أنبوبة تتوزع فى كل الخلايا الجسدية لتدير بها شئونها .

ولكى نوضح ذلك نقول:عليك مثلا أن تتأمل هذه النسخة من المجلة التى بين يديك .. انها واحدة من آلاف ، والآلاف نشأت من أصول كتبها كتابها ، وجمعت فى مطابعها ، وانتظمت فى ابوابها ، ودارت آلات الطبع بهذه الاصول ، لتنتج آلاف النسخ التى لا يمكن ان تختلف في مادتها ، ومن الممكن أن تطبع عشرات الالوف أو الملايين ، وكل النسخ ــ بطبيعة الحال ــ متشابهة ، حتى أخطاؤها متشابهة أيضا ، وكذلك تكون كل الخلايا الجسدية التى اشتقت من الخلية الاولى (وهى هنا بمثابة النسخة الاصلية التى جمعت فى المطبعة) ، فمادتها الوراثية نسخة طبق الاصل من المادة التى نشأت بها البويضة الملقحة من زمن .

والى هنا قد يبرز سؤال هام : صحيح ان كل نسخ الطبعة الواحدة فى الكتب والمجلات متشابهة تماما ، ولكن كيف نفسر اختلاف الخلايا الجسدية وتنوعها فى المخلوق الواحد ؟

الاجابة على هذا السؤال تحتاج الى صفحات وصفحات ، لكن يكفى أن نقول ان الذى يؤثر على تشكل خلايا المخ والعين والجلد والامعاء والدم والعضلات وما شابه ذلك هى المادة الوراثية فى نواة الخلية ذاتها ، ففي كل مرحلة من مراحل نمو الجنين ، تؤثر الخلايا فى بعضها البعض عن طريق رسالات كيميائية خاصة ، فتتحول هذه الرسالات الى ما يشبه المفاتيح والاقفال ، فتنفتح فى المخطط الوراثي لكل خلية « ملفات » ، وتغلق اخرى ، أو كأنما هي تظهر فقرات من كتاب ، وتطمس اخرى ، فأما المطموس او المغلق فيبقى ساكنا ، وأما الذى انفتحت فقراته ، فعليه ان ينفذ ما جاء فى هذه الفقرات من اوامر ، وتحمل الاوامر رسل ، وبها تتوجه الى ساحة الخلية ، فتحولها الى بروتينات وانزيمات ، هي التى تسيطر على تشكيل الخلية ، وتحور في عملها ، حتى يتناسب ذلك مع وظيفتها .

فمن المؤكد مثلا ان خلايا الكبد لا تشبه خلايا المخ ، ولا خلايا المخ تشبه خلايا اللسان ولا العضلات ولا البشرة ولا الرئة ... الخ ...



شكل (٨)

· البويضة الى اليسار لا تستطيع آن تنتج ذرية الا اذاتقابلت مع حيوان منوى (الصورة الى اليمين) ، وعندئذ يلج اليها ، وتختلط اشرطته الوراثية بأشرطتها ، ومن هذهاللحظة تبدأ حياة الكائن الحقيقية .

الخ ، هذا رغم ان كل هذه الخلايا قد اشتقت من خلية اولى ، وهذه بدورها انقسمت الى خلايا متشابهة لا يمكن تمييزها (شكل ٩) ، انما يأتي التمييز فى مراحل زمنية محددة، وكأنما هذه الخلايا تحمل معها زمنها (١) ، فتخرج الاوامر الكيميائية لتغلق كل الخطوط الوراثية فى خلايا الكبد مثلا ، وتترك ما بين ١ ـ ٥٪ فقط فى حالة عمل ، وهذه النسبة البسيطة هي التي « تفتح » ملفاتها الوراثية لتشرف على تحويل خلايا محددة في الجنين الى خلايا كبد ، هذا رغم ان نوى خلايا الكبد تحمل كل المخططات الوراثية الصالحة لتحويلها الى خلايا عصبية او دمعية او طحالية أو كلوية ... الخ ، ولكنها مغلقة جميعا ، الا ما صلح فقط مع رسالة خلايا الكبد ... وعلى مثل هذه الوتيرة تكون كل المخططات فى الخلايا الاخرى.

آن الآن أن نسأل ـ بناء على ما قدمنا ـ سؤالا : ماذا لو حصلنا على نواة من خلية فى كبد او امعاء او طحال .. الخ ، واستطعنا ان نفتح فى كل منها جميع مخططاتها الوراثية المغلقة ؟

فى هذه الحالة سوف تعيد النواة ـ المتحررة من اغلالها ـ قصة حياة الكائنالذى عزلت منه اول مرة .. بداية من حالته الجنينية الى طفولته وصباه وشبابه ورجولته .. تعيده صورة طبق الاصل ، أو كنسخة بالكربون فىبصماته وبروتيناته وصوتهومزاجه ولونه وكل صغيرة وكبيرة فيه ، وبحيث لو نقلت نسيجا او عضوا من « النسخة »المبعوثة للحياة الى النسخة الآفلة عن الحياة ، أو العكس ، فان احد الجسدين لن يرفض ما ينقل اليه ، ولن يتعرف على ان ما نقل اليه

(١) انظر فى هذا الصدد دراستنا عن « الزمنالبيولوجى » في العدد الثانى من المجلد الثامن من هذه المجلة

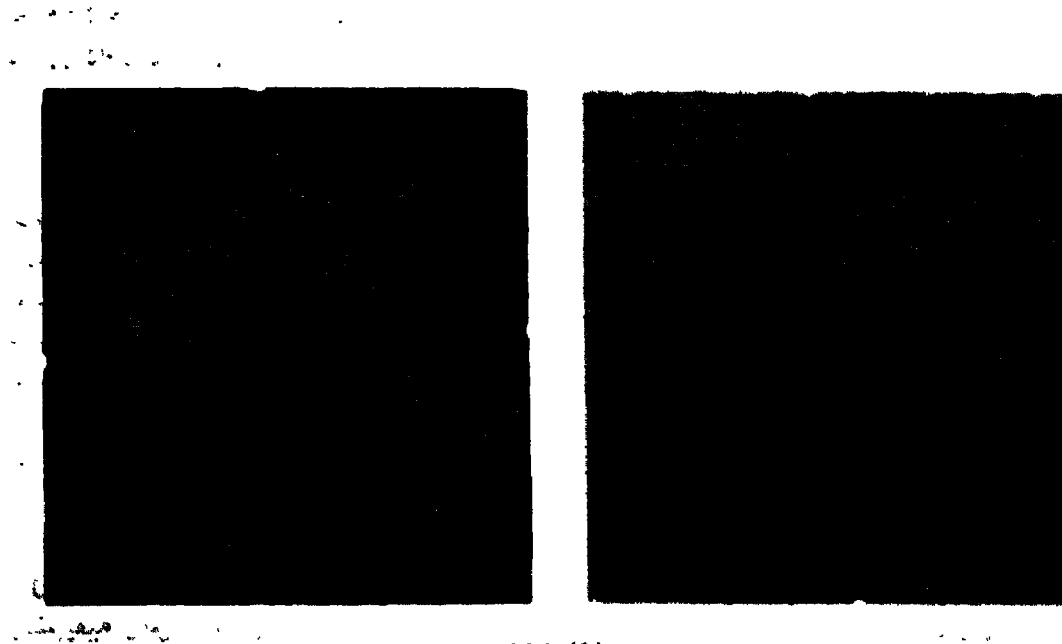
هو جزء من الذات الاخرى ،حتى ولو اختلفت مراحل النمو فى الاجساد ، ذلك ان الخطط الوراثية التى اشرفت على تكوينه في المرة الاولى عن طريق التزاوج ، هى التى ستنفذ « الطبعة » الثانية ، وربما الثالثة والرابعة.. الخ عن طريق تحرير نواة خلية جسدية من كل اغلالها .

وهذا ما حدث بالضبط فى حالة الضفدع.. فعندما انتقلت نواة خلية جسدية من امعاء هذا الكائن ، الى بويضة انثى افرغت من نواتها ، اثر السيتوبلازم على النواة ، وحررها من اغلالها ، وافتح كل ملفاتها ، وعادت الى حالتها الجنينية مرة اخرى ، وبهذا اعطت ضفدعا طبق الاصل من الضفدع الذى نشأ اول مرة ، او كأنما هى طبعت منه طبعة ثانية لا تغيير فيها ولا تبديل !

هذه اذن واحدة من الانجازات البيولوجية المثيرة والغريبة ، وحمدا لله انها قد حدثت مع ضفدع ، ولم تحدث مع انسان .. صحيح ان اليوم ضفدع ، ولكن غدا قد تكون الجولة مع فأر أو حصان أو انسان .

ولماذا لم يفعلها العلماء مع انسان ؟

الواقع ان نجاح نسبة من التجارب فى الضفادع يرجع الى اسباب : منها ان الضفادع لا تمتلك ارحاما كما هو الحال فى الحيوانات الثديية ــ بما في ذلك الانسان بطبيعة الحال ، فمن المعروف أن أنثى الضفدع تضع بويضاتها فى الماء ، وفيه تخصب وتنمو وتتشكل وتخرج من بويضاتها على هيئة حيوانات جد صغيرة تضرب بذيولها أو أذنابها فى الماء ، ولقد كان لوفرة بويضات الضفادع ، وكبر حجمها بالنسبة لحجم بويضات الحيوانات الثديية ،



شكل (٩)

تبدأ البويضة الملقحة فى سلسة من الانقسامات المتتالية ،وتتحول الى خلايا متشابهة لا يمكن التمييز بينها (الخلايا الأربعة الى اليسار) ، لكنها فى مراحل تالية تتميز الىبدايات خلايا مختلفة (الصورة التى الى اليمين وهى لطور من اطوار الانسان عمره ما بين ٥ ــ ٦ أيام) ، ثم تتحول الخلايا الى انسجة متباينة ... فما الذى يشكلها ؟ (راجع الدراسة) .

ما ساعد العلماء على اجراء عملياتهم الجراحية الخلوية فيها .

لكن كل هذه الامور ليست ميسرة فى حالة الانسان علـى وجـه الخصـوص ، وهـى ــ بلا شـك ــ تصطدم بالعديد مـن المشاكل العلمية والتكنيكية والاجتماعية والعقائدية.. لكن الزمن وجهـود العلماء كفيل بتذليل تلك الصعاب ، فكم من امـور حسبنا الوصـول اليها خيالا ، فاذ بها تتحقـق ، وتصبح ملء سمع الناس وأبصارهم .

● ● ●

تصورات رديئة !

لكـن .. هـل تستحـق تلـك التجارب ــ تجارب اعـادة نسخ انسان بذاتـه ، او حيوان بعينه ــ كل هذه الاهتمامات ، آخذين فى الاعتبار كـل ما تتطلبه مـن جهـد ووقت وصبر ومال وامكانيات ؟

الجواب : ان ذلك قد يكون مفيدا فى حالة الحيوان دون الانسان ، فانتاج نسخـة مـن حصان لم يجد به الزمان من قبل أمر مرغوب فيه ، وكذلك يكـون الحال مـع ثور قـوى خصيب ، او فحـل جامـوس معتبر ليورث صفاته الحسنة الـى أجيال قادمة .. او ما شابه ذلك من خصال محمودة يجب المحافظة عليها « بطبع » نسخ طبق الاصل منها ، أسوة بما حدث مع الضفدع .

لكن اعادة طبع نسخة او نسخ مـن انسان سوف يحدث ثورة فكريةواجتماعية ونفسية وتشريعية وغير ذلك من امور لا تطرأ لنا علـى بال .. صحيح ان بعث نسخة طبق الاصل من انسان مدبر عن الحياة (يستوى فى ذلك الذكر او الانثى) سـوف تضعنا فى مآزق فكريـة رديئـة ، اذ كيف سيتعامل افـراد الاسـرة الواحدة مـع نسخـة مـن اب او ام في دور الطفولة ؟ .. وما مصير هذه النسخة بالنسبة للاولاد ؟ .. وهل سيتعامل معها على انها أحد الوالدين ، أو على انها اخت او اخ ؟ .. وما هـو حكـم الميراث الشرعى فى مثـل هـذه الحالات ؟ .. ثم ماذا سيكون موقف العائلة لو حدث الاستلطاف بين نسخة جديدة من الاب ونسخة جديدة مـن الام ؟ .. وما هـو حكم الشريعة لو حدث التزاوج بينهما ؟ .. وكيف سيكون حال ذريتهما ؟ .. وما صلـة القرابة بينهم وبـين افراد العائلـة التى جاءت من النسختـين القديمتـين (اى الاب والام الكهلين) ؟ .. الى آخر هذه الاسئلة العويصة التى تنبع مـن تصورات سخيفـة ، وأفكار رديئة !

ونعوذ بالله من حـدوث مثل هـذه الامور المفزعة فى المستقبل القريب او البعيد ، رغم ان البحوث اليوم قد نجحت فىضفدع ، وربما تنجح في البشر ، وعندئذ قد لا تبقى فىالتقاليد المتوارثة ولا تذر !

ومع انمثل هذهالبحوث اليولوجية الخطيرة قد نشرت فى المجلات العلمية ، الا انها مع ذلك لم تثر زوبعة ولا اعتراضا كتلك الزوبعة التى نشهدهـا الآن فى مجال نقـل وزرع احـدى مكونات النواة من خلية ، الى مكونات النواة فى خلية اخـرى ، اذ ان ذلك سيكـون بمثابة تخطى الحدود التى رسمها الله لحفظ الانواع المختلفة من الخلط والتبديل والتغيير ، ولقد فعلها الانسان ، ومن هنا قامت قيامة بعـض العلماء والهيئات والحكومات منددة بخطر قد يكتسح الارض اكتساحا ، والىهنا قد يتحقق القول الفصل « **حتى اذا اخذتالارض زخرفها وازينت ، وظـن اهلها انهـم قادرون عليها ، اتاها امرنا ليـلا او نهارا ، فجعلناها حصيدا كان لم تغن بالامس** » (**سورة يونس،آية ٢٤**)

ومع ذلـك ، دعنا نتعرض لآخـر مرحلـة دقيقة من مراحل البحـوث البيولوجية التى

تتسم بالعمق والاصالة والصقل والتطور ، لنرى لماذا يعترض بعض العلماء على هذه البحوث رغم علمهم انها ستطور معارفنا لفهم اعمق وادق لكثير من أسرار الحياة التى لا زالت صعبة المنال .

•••

بداية بحوث اغرب واخطر

قبل ان نلج فى هذا الموضوع ، الهام نرى انه من الاوفق ان نستعرض سريعا التصورات والانجازات التى راودت الانسان من قديم الزمن ، وما تحقق منها حتى الآن .

فى البداية تصور الانسان مخلوقات اسطورية تجمع بين أجزاء مختلفة من حيوانات معروفة ، ثم يجىء على الانسان عصر يتوصل فيه الى تطعيم نبات على نبات ، ويتلوه عصر آخر ينجح فيه فى نقل عضو من انسان الى انسان (زراعة الاعضاء) ، واخيرا استطاع ان ينقل نواة من خلية جسدية ويزرعها في خلية جنسية مفرغة من نواتها ، فتعطي نسخة طبق الاصل من الحيوان القديم ، وكأنما هو يبعث من جديد ، ثم فى الوقت ذاته ينجح علماء النبات فى انتاج نباتات من خلايا خضرية (أو جسدية) معزولة من بعض النباتات ، وبمعاملتها بمواد كيميائية خاصة تعطي نباتات طبق الاصل من النبات الاول ، وهذا يعني انه لاول مرة فى التاريخ ينتج العلماء نباتات عن طريق خلايا جسدية بدلا من زراعة البذور التقليدية ، واخيرا نجح العلماء فى نقل صفة محددة من كائن ، وزرعها في كائن آخر ، ليكتسب صفة جديدة لم يعرفها طيلة حياة نوعه الذى ربما ظهر على الارض منذ مئات الملايين من السنين .

ولكي نوضح مغزى نقل الصفات الوراثية بين الانواع المختلفة متخطين فى ذلك كل الحدود الفاصلة بين الانواع ، كان علينا ان نتعرض لاول محاولة تمت فى هذا المجال .

ففى صيف عام ١٩٧١ ، وفى أحد المعاهد الامريكية الخاصة ببحوث السرطان ، كان العالم الشاب **روبرت بولاك** يحاضر عن كيفية تداول الفيروسات المسببة للسرطان فى البحوث الجارية بطريقة سليمة ومأمونة العواقب ، وبعد ان انتهى من محاضرته ، سمع من عالمة زائرة للمعهد أن رئيسها البروفيسور بول بيرج بالمركز الطبي بجامعة ستانفورد ينوى القيام بتجربة مثيرة ورائدة فى هذا المجال ، فهو يعد العدة لكي يزرع الفيروس المعروف باسم س ف ــ ٤٠ فى داخل ميكروب يعيش عيشة تعاونية ومسالمة فى امعاء الانسان والحيوان ، وهذا الميكروب يعرف باسم **البكتريا القولونية (ايشيريشيا كولاى** Eschicherichia coli) اما الفيروس المراد زرعه فى الميكروب ، فهو واحد من الفيروسات التي ثبت انها تسبب نوعا من السرطان في حيوانات التجارب .. صحيح إن الفيروس قد عزل من القرود ، وصحيح انه لا يسبب لها اوراما سرطانية فى بيئتها الطبيعية ، الا ان الامر يختلف فى حالة حقن هذا الفيروس فى حيوانات المعامل ، اذ أنه ــ فى هذه الحالة ــ يحدث فيها أوراما سرطانية ، اضف الى ذلك انه يستطيع ان يصيب خلايا الانسان المعزولة والمزروعة في الدوارق والانابيب المعقمة ، ويحولها الى خلايا سرطانية ، رغم انه لم يثبت ــ ولو مرة واحدة ــ ان هذا الفيروس يمكن ان يسبب اوراما سرطانية فى الانسان ، علما بانه كان يدخل مع اللقاحات المضادة لشلل الاطفال بطريق الخطأ ، ولو كان فيه ضرر ، لظهرت آثاره بعد ذلك على البشر .

ولقد ذعر بولاك عند سماعه هذا الخبر ، وطافت بعقله الهواجس عن احتمال نجاح مثل هذه التجربة ، وما قد تتمخض عنه نتائج او اضرار لا يعلم مداها ــ فى الوقت الحاضر احد ، ومن ثم طلب جامعة استانفورد على الهاتف ، ليتحدث شخصيا مع البروفيسور بيرج ليتأكد بنفسه من الخبر ، وتمت المكالمة واستمع البروفيسور الى الشاب باهتمام ، وهو

يسرد عليه مخاوفه من جراء اجراء مثل تلك التجارب ، وعندئذ طمأنه الأستاذ ، وأسر اليه انه لا داعى للخوف أو القلق ، فمنذ سنين طويلة ، ومعامل العالم اجمع تتداول هـذا الفيروس دون أن يسبب للانسان اية اعراض تذكر .

ثم يذهب الأستاذ الى أبعد مـن ذلك ، ويشرح للشاب وجهة نظره ، ذلك أن اختياره لزرع الفيروس فى الميكروب يرجع الى اسباب: منها ان هذا الفيروس بالذات بسيط التركيب جدا ، وانه يحتوى على عدة مورثات (جينات) قليلة ، وان هـذه المورثات قـد درست بالتفصيل ، وامكن قراءة شفرتها (الكود Code الوراثى) ، ثم يبدو من نتائج التجارب التى حصل عليها العلماء أن هذا الفيروس يحوى جينة محددة ، وانها قد تكون المسئولة عن تحويل الخلايا المعزولة (من القرود ومن البشر) والمزروعة فى الدوارق الى خـلايا سرطانية ، وان نجاح زراعة هذا الفيروس فى ميكروب ، ثم دراسة سلوكه مع الميكروب ، قد يوضح لنا المزيد من اسرار هذه المورثة ، وربما يقربنا ذلك الى تفهم أعمـق لبيولوجيـة السرطان ، وفوق كل ذلك ، فقد يؤدى مثل هذا الكشف المثير الى تطوير علومنا البيولوجية،ولا يستبعد أن يحـوز على اعظم جائزة عالميـة متمثلة فى جائزة نوبل للعلوم الطبية أو ما شابهها !

وبدأ خبر هذه التجربة ينتشر ، وتناقش العلماء فيها وفى مغزاها ، فمنهم من ايدها ، ومنهم من اعترض عليها وجافاها ، وعندمـا احس بيرج بأن التيار فى غير صالحه ، وشعر بأن مثل هذه التجارب يمكن ان تجر اموراً قد لايحمد عقباها ، تخلى عن القيام بها ، وهجرها هجرا جميلا .

ويرجع سبب تخوف العلماء المعترضين على مثل تلك التجارب ــ تجارب زرع فيروسات او جينات فى خلايا لم تعرفها قبل ذلك ــ يرجع تخوفهم الى احتمال حدوث تغـير وراثى فى الميكروب المسالم ، وقد يكون هذا التغير فى غير صالح اجسـامنا واجسـام الحيـوانات الأخرى ، خاصـة وانه يعيش فى امعائنـا ، ويعتبرها بيئة فى صالحه وصالحنـا ، فماذا لو تغير وقلب علينا الموائد ، وعندئذ قد لا يبقى فى الحياة ولا يذر ؟

بين اشرطة الحياة واشرطة البشر !

ولقد لزم العلماء جانب الحذر ، لكن يبدو ان الكشوفات البيولوجية الهامة كانت تدفعهم دفعا لارتياد آفاق اعمق واخطر ، اذ حدث ــ بعد ان ألغى بيرج تجربته المثيرة ــ أن باحث بعض الخلايا الحية بأسرارها التى سال لهـا لعاب العلمـاء ، وعندئذ بدات سلسلة مـن التجارب البيولوجية كانت أدهى وأمر !

وقبل ان نتعرض لمثل هذه الأمور العلميـة العويصة ، كان لزاما علينا ان نمهـد لذلـك بشىء من واقع عالمنا ، فنحن نعرف جميعا أشرطة التسجيل ، ثم اننا اذا أردنا انٍنسجل شيئا على شريط ، فلابد ان يكون التسجيل امينا ومتقنا وكاملا بدون شوائب أو تداخل أو ما شابه ذلك ، سواء كانت المادة المسجلة محاضرة قيمة ، أو سيمفونية خـالدة ، أو ذكريات غالية ، أو اغنية محببة .

وفى جهاز التسجيل الذى يدور عليـه الشريط يوجد « عداد » ليحدد لك اول مقطع الاغنية ، أو بداية الحديث ، كما يحدد لك نهايته ، ثم بداية الاغنية التالية وهكذا .

لكن قد يحدث أن يأتى من يريد ان يداعبك مداعبة ثقيلة ، فيأتى بموسى وبشريط لاصق ثم يقطع من شريطك المسجل جزءا من اغنية، أو شطرا من حديث ، ويدس جزءا من مقطع اغنية اخرى ، أو حديثا لشخص آخر ، أو قد يلصق تسجيلا لنهيق حمار ، أو صيـاح ديك .. أو ما شابه ذلك ، وقد تستمع بـ

الى هذا الشريط المزيف ـ دون سابق علم بما حدث ، وعندئذ قد تفزع لما تسمع ، وتسخط على من فعل !

واحيانا ما تقوم ادارة المخابرات فى بعض الدول بعمليات تمويه غريبة فى الاشرطة المسجلة وبحيث يضاف اليها عبارات بصوت من يريدون اتهامه ، أو تحذف منها كلمات أو عبارات لتدين الانسان البرىء ، وعند اعادة تشغيل مثل هذا التسجيل المموه على اسماع من يريدون اتهامه ، يصعق بما جاء فيه ، فهو يعلم تماما انه برىء مما يدعون .. هذا رغم ان الصوت صوته ، والاعتراف اعترافه ، ولكنها البراعة فى التزييف والاتهام .

هذا التغيير او التمويه او الخلط المقصود أو الاعتباطى في أشرطة التسجيل التى نديرها على اجهزتنا يماثل بالضبط الخلط الذى بدأ العلماء يجرونه الآن على « أشرطة » تسجيل الحياة التى طبعت عليها الشفرة الوراثية بجزيئات كيميائية .

والواقع أن أشرطة الحياة دقيقة غاية الدقة ، ومع ذلك فهى تحوى من المعلومات الوراثية ما يملأ عشرات من المجلدات الضخمة فلو اننا فحصنا اية خلية جسدية من خلايا الانسان (عدا كرات الدم الحمراء) ، لوجدناها تحتوى على نواة .. النواة تحتفظ فى داخلها بثلاثة وعشرين زوجا من الأمشاج أو الكروموسومات ، جاء ثلاثة وعشرون منها من الخلية الذكرية (الحيوان المنوى) ، والثلاثة والعشرون الاخريات من الخلية الانثوية (البويضة) ، وعلى كل كروموسوم تتراص آلاف الجينات أو المورثات على هيئة عقد ، وكل جينة تحتوى على شريط محدد ومعلوم من جزىء ح د ن (وهو الحامض النووى أو الوراثى الذى سبق أن أشرنا اليه) ، وكل شريط يحتوى بدوره على آلاف النيوكليدات او الشفرات الرمزية (أ ، ث ، ج ، س التى قدمناها قبل ذلك ـ انظر ايضا شكل ٤) ،

ولو تصورنا اننا قد أوصلنا هذه الأشرطة الوراثية الموجودة فى نواة خلية واحدة ، لبلغ طولها حوالى المترين ، لكن سمكها لا يتجاوز جزئين اثنين من مليون جزء من المليمتر .. وهذا يعنى انك لو طويت هذا الشريط الوراثى ، فانه لن يظهر ، حتى ولو نظرت اليه بالميكروسكوبات العادية ، ورغم ذلك فهو يحتوى على أكثر من ثمانية آلاف مليون شفرة وراثية ، وهذه هى التى تحدد كل صغيرة وكبيرة فى صفات الانسان البيولوجية والوراثية !

وطبيعى أن هذه الاشرطة الكامنة فى جيناتها تعمل في تناسق وتفاهم تام ، ولولا ذلك لدبت الفوضى فى الاجسام ، ثم ان تحديد صفاتنا يتوقف على انتظام الشفرات فى أشرطتها بطريقة خاصة ، وان اى تلاعب فى هذا النظام ، أو أى تغيير فيه بالحذف او الاضافة ، سوف يؤدى حتما الى نتائج خطيرة .

ولاشك ان الحديث عن هذه الاشرطة العظيمة سوف يتشعب ويطول ، ولكن يكفى هنا ما قدمنا فأوجزنا ، ولنعد الآن الى الحديث عن كيفية تلاعب العلماء بهذه الاشرطة ، وكيف زوروا فيها !

●●●

فصل ((المشارط)) الكيميائية من ((جسد)) الخلية !

علينا ان نعود فنذكر أن المهيمن على القدر الوراثى لكل كائن حي على هذا الكوكب ـ صغر شان هذا الكائن أو كبر ـ هو شريط أو عدة أشرطة سجلت عليها الشفرة الوراثية ، وان كل كائن قد جاء بسجلاته التى حفظت له فيها صفات نوعه ، ولقد اكتشف العلماء ان لهذه الاشرطة ـ فى بعض أنواع البكتيريا ـ « مقصات » تقصها فى مواقع محددة ، وما

هذه المقصات الا خمائر أو انزيمات تعـرف **باسم الانزيمات القاصة او القاطعة للجزيئات الوراثية** Restriction enzymes

ووظيفتها ان تهاجم أشرطة الجزيئات الوراثية الغريبة ، وتقطعها الى اجزاء ، وبهذا تبطل عملها ، وفي الوقت ذاته تنقذ نفسها من كل دخيل (والدخيل يتمثل لنا فى الفيروسـات الأدق التى تهاجم البكتيريا وتقتلها) . . الا انه من المثير حقا ان هـذه البكتـيريا تحمى اشرطتها من هذه « المقصات » أو « الامواس » الكيميائية بوضع موانع من جزيئات صـغيرة على المواقع التى يمكن أن يحدث منها الهجوم والتقطيع ، فاذا جاء الانزيم ليشطر ، وجـد الباب فى وجهه موصدا !

ولقد استطاع كل من **هاملتون سـميث وتوماس كيلى** الباحثـين فى مدرسـة الطب التابعة لجامعة جون هوبكنز ببلتيمور أن يعزلا احد هذه الانزيمات بحالة نقيـة من بعـض سلالات من البكتيريا المعروفة **باسم هيموفيلاس انفـلونزا** Haemophilus influenzas

واستطاعا ان يحددا المواقع التى تستخدم فى القص او الفصل ، ثم تبعهما عالمان آخـران من المركز الطبى بسان فرنسيسكو والتـابع لجامعة كاليفورنيا (وهما هربرت بوير وهوارد جودمان) فى فصل انزيم آخر مختـلف من البكتيرة التى تعيش في امعاء الانسان والحيوان وجاء كل من دانيال ناثانز وكاثلين دانا مـن جامعة جون هوبكنز أيضا ليدرسا فعل هـذا الانزيم القاطع او البتار على الفيروس المعروف باسم س ف ـ ٤٠ ، وهو نفس الفيروس الذى كان بول بيرج ينوى زراعته فى احدى الخلايا الميكروبية ، ثم قامت فى وجهه زوبعة ، فالغى تجاربه (وهذا ما سبق ان اوضحناه) المهم أن هذين العالمين قد أوضحا ان هـذا الانزيم قد استطاع ان يقص الشريط الوراثى للفيروس الى احدى عشرة قطعة محددة ، فى حين أن مجموعة أخرى من العلماء قد جربوا فعل الانزيم الآخر على الفيروس ذاته ، فتبين انه لم يقطعه الا فى موقع واحد محدد ، فبـدلا من وجود الفيروس على هيئة حلقة ، قطعـه الانزيم وحوله الى شريط له بداية ونهـاية (هذا ويبلغ طول ذلك الشريط حوالى جزء من الف جزء من الملليمتر ، وبه حوالى ٥٠٠٠ نيوكلبتدة أو شفرة) .

والى هنا شعر العلماء بأنهم قد وضـعوا أيديهم على عائلة من الانزيمات الغريبة ، وان كل انزيم منها يسـتطيع أن يقـطع الاشرطة بطريقة تخالف طريقة الانزيم الآخـر ، وانه بالامكان استخدام هذه الادوات البيولوجيـة الدقيقة فى تفكيك الاشرطة الوراثية الى اجزاء محددة ، ثم دراسة كل جزء منها على حدة ، للتعرف على شفرته أو « لغته » المكتوبة ، وكيفية تحويل هذه اللغة الى امر كيميائى ، أو الى خطة عمل !

• • •

علم جديد اسمه هندسة الوراثة !

ثم يجىء كشف آخر اعظم واهم ، فبينمـا العلماء منكبون على دراسة الانزيمات القاطعة أو الحادة ، تظهر لأول مرة عائلة أخرى تسمى الانزيمات الرابطة او الواصلة ، وهذه يطلق عليها **اسم خمائر الليجيز** Ligase enzymes والغريب انها اكتشفت في وقت واحد فى خمسة معامل مختلفة ، وهذا ينبئك بأن هناك تنافسا شديدا بين العلماء فى كشف اسرار الخلية ، ومن لا يسارع منهم بنشر ما اكتشف ، ضاعت عليه ثمرة اكتشافه ، واصبحت من نصيب غيره !

والى هنا تساءل العلماء : اذا كنا الآن قد حصلنا على السر الذى تصل به الخلية مـا تقطع من اشرطتها الوراثية ، فلماذا لانستخدم هذه الانزيمات الجديدة فى وصل قطع مختلفة من اشرطة وراثية جاءت من خلايا متباينة ؟

وتركزت على هذا التساؤل بحوث كثيرة وعميقة ، اذ ليس التطبيق ميسرا كهذا الكلام، ثم ان « لحام » شريط بشريط يتطلب عمليات بيولوجية على درجة هائلة من الدقةوالتنظيم، ولابد ـ والحال كذلك ـ من معرفة تفاصيل ما يجرى فى الخفاء ، فليست اسرار الحياة بالامر الهين .

فهناك بعضالجينات او المورثاتأو الوحدات الوراثية المراد نقلها من خلية الى اخرى ، والتى توجد على هيئة حلقات مغلقة أو مقفلة، ولقد اكتشفت مثال هذه المورثات فى الفيروسات وتسمى **بالاحماض النووية الفيروسية الدائرية** circular viral D N A واكتشفت ايضا فىداخل خلايابعض الميكروبات واطلقوا عليها اسم **البلازميدات** Plasmids (شكل ١٠) ، وطبيعى انه لايمكن لحم هذه بتلك ـ طرفا بطرف ـ الا اذا شطرنا الحلقة ، ليتحرر طرفاها ، ثم وصل الاطراف فىاشرطة أطول ، ثم ارجاعها الى حالتها الاولى ـ اى الى حلقات اكبر ، تحمل صفات جديدةمختلفة (شكل ١١ أ ، ب) .

والبتر والوصل ، او القطع واللحم ليسا بالمشكلة العويصة الآن ، لان العلماء يملكون الآن الوسائل او الانزيمات التى تقوم بتلك العمليات ، وبهذا يستطيعون ان يحصلوا على خطوط تشغيل وراثية ، اسوة بخطوط التشغيل التى نراها مثلا فى تجميع قطع الآلات والسيارات فى المصانع الكبيرة .

ومن هذا المنطلق الحديث فىدراسةالصفات الوراثية للكائنات ، وتجميع خططها فى اشرطة جديدة ومختلطة ، ثم تشغيل هذه الخطط ، وتحويلها الى مخططات كيميائية أو صفات وراثية مكتسبة ، ثم التلاعب بهذه الاشرطة بين الكائنات المختلفة ، وبحيث تضاف اليها ، أو تحذف منها (كعمليات الاستئصال أو الزرع العضوى الذى نعرفه فى عالم الجراحة الآن) صفات بعينها .. كل هذا وغيره قد تمخض عن علم حديث جدا قائم بذاته .. هذا العلم يطلقون عليه **اسم علم الهندسة الوراثية** Genetic Engineering ، وهو تعبير له ما يبرره ، ذلك ان بعض صفات الكائنات الوراثية قد بدأت تخضع ـ من خلال أشرطتها ـ للنقل والقطع واللحم والتشغيل والتداول على « خطوط » جديدة ، لانتاج صفاتمبتكرة لم تعرفها الحياة فى كائناتها حتى الآن .

ومن المستلزمات الاساسية لكى تنجح هندسة الوراثة ، وتصبح سلاحا رهيبا فى ايدى العلماء ، ان تقوم على اربعة اعمدة هامة:

اولها : تشغيل طريقة لقطع ولحام الاشرطة الوراثية .

وثانيها : وسيلة نقل لحمل هذه الاشرطة الجديدة ، أو الصفات المبتكرة ، ثم لابد من دفعها للتكاثر ، وتكوين نسخ من ذاتها .

وثالثها : طريقة لزرع الشريط او ادخاله فى جسم الخلايا .

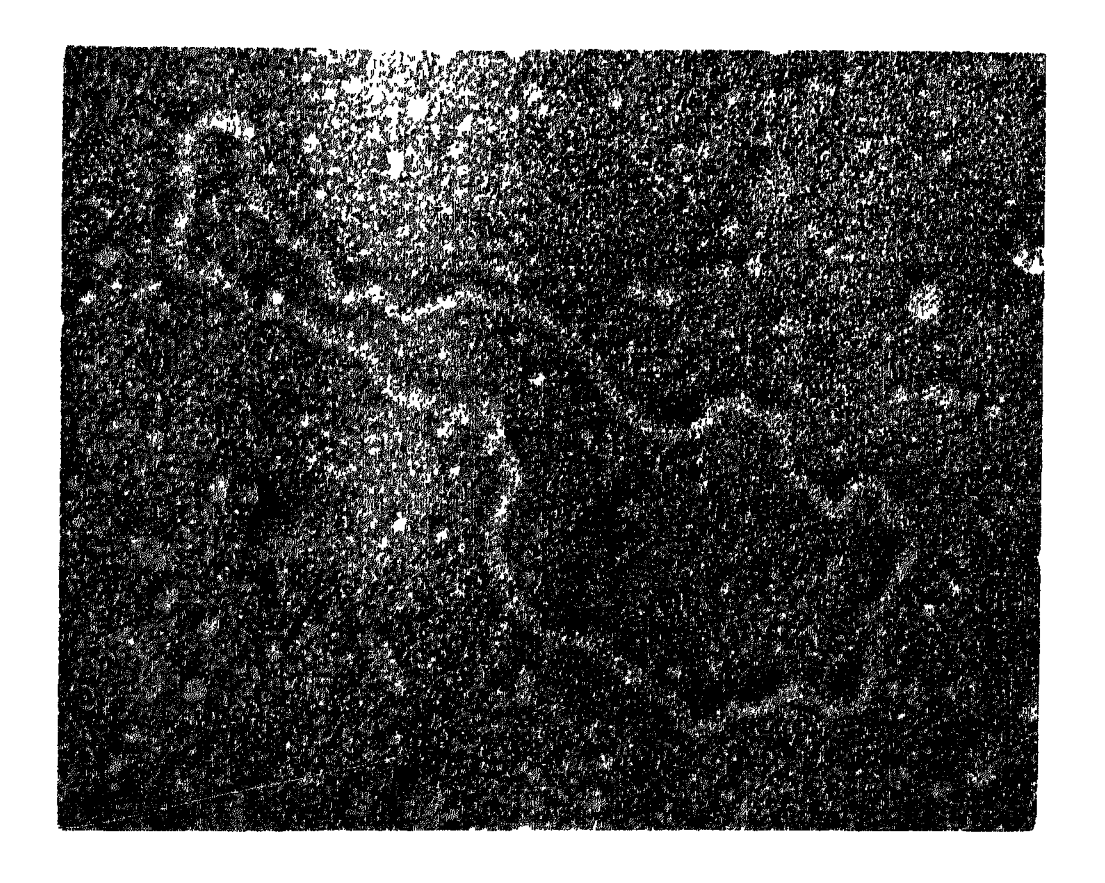
ورابعها : انتقاء الخلية التى تقبلت زراعة الشريط الوراثى الغريب ، وعبرت عنه وراثيا بصفات جديدة لم تعرفها من قبل .

ولقد تحققت كل هذه الخطوات الاساسية بالفعل فى غضون عدد من السنوات لايتعدى عدد اصابع اليد الواحدة ، او على اكثر تقدير عدد اصابع اليدين !

كائنات جديدة معدلة !

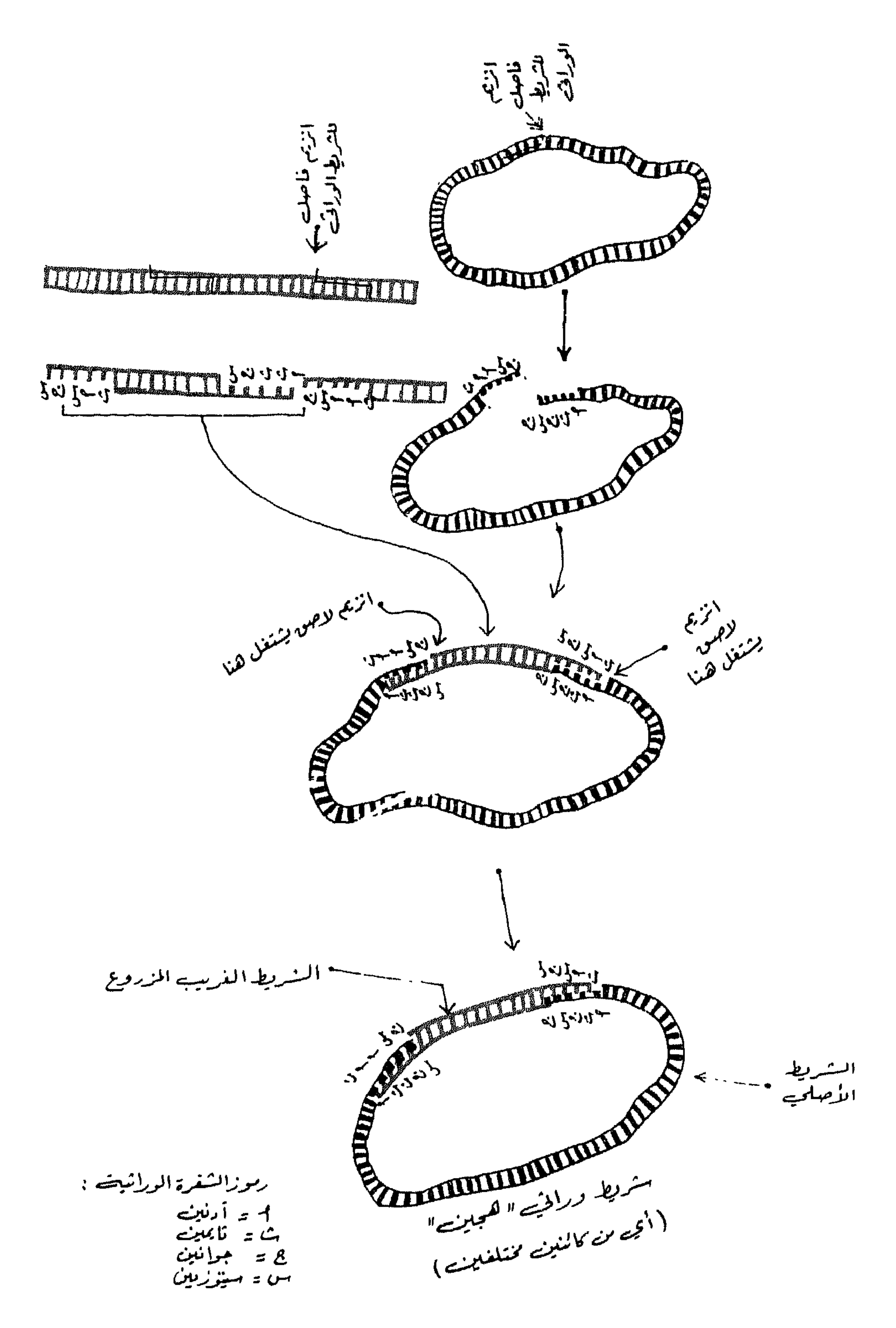
وتتوالى بعد ذلك الانجازات العلميةالمثيرة.

ففى عام ١٩٧٣ نجحت مجموعة من علماء مدرسة الطب بجامعة ستانفورد فى انتاج أول شريط وراثى « هجين » ـ اى يجمع بين



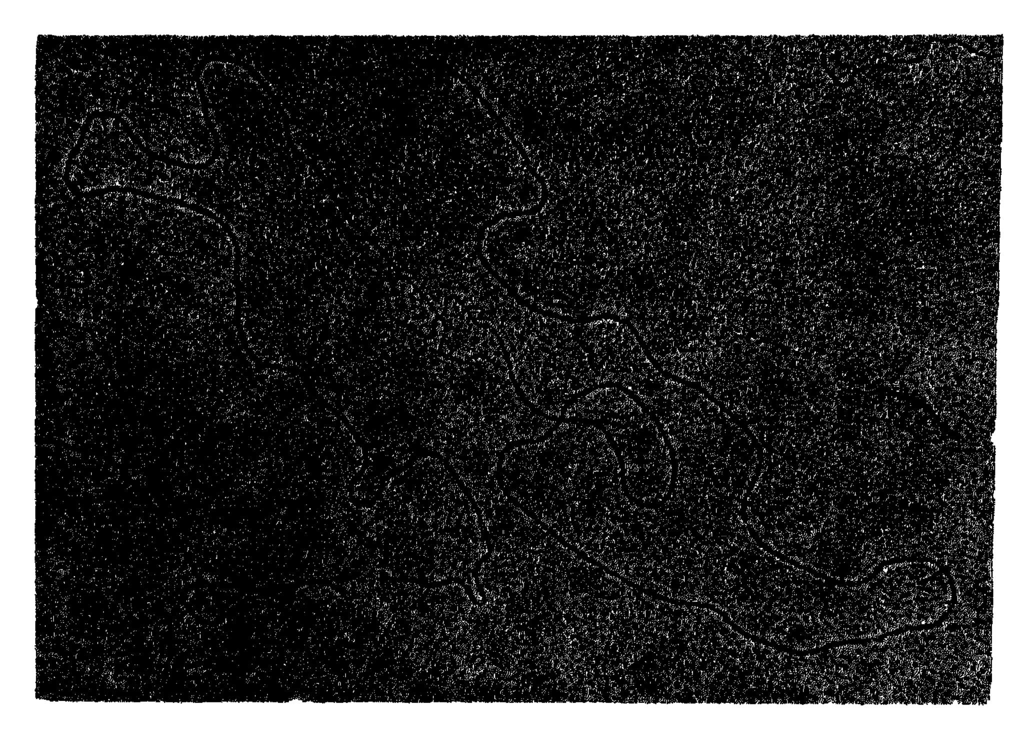
شكل (١٠)

أحد الاشرطة الوراثية الحفيفية أو المغلقة (البلازميد)التى فصلت من بعض الميكروبات ، وهى هنا مكبرة حوالى ٢٣٠ ألف مرة .



شكل (١١١)

رسم توضيحي يبين كيفية قطع الاشرطة الوراثية في أماكن محددة بخمائر أو انزيمات خاصة ، ثم كيف توصل باشرطة غريبة بانزيمات اخرى ، لتنتج اشرطة هجينة ، فتكسب الكائنات صفات لم تعرفها من قبل .



شكل (١١ ب)

صورة بالميكروسكوب الاليكتروني لشريط ح دن الـذي تقبل في كيانه قطعة من شريط وراثي لكائن آخر (المشـار اليها بالسهم ، والمبينة في رسم توضيحي مرافق) .

شريطين مختلفين من الكائن البكتيرى الذى يعيش فى امعاء الانسان والحيوان (وهو بكتيرة ايشيريشيا كولاى التى سبق أن اشرنا اليها قبل ذلك واصبحت الآن بمثابة الكائن المفضل لمثل هذه التجارب الرائدة) ، ولقد تمت هذه التجربة في أنابيب الاختبار ، ثم أمكن زراعة الشريط المزدوج فى الخلية البكتيرية ، وعندما انقسمت الخلية الى ملايين الخلايا فى عملية التكاثر السريعة التقليدية (من المعروف أن هذا الكائن أو غيره من كائنات البكتيريا يستطيع أن يعطى ذرية تقدر بالملايين فى غضون ساعات) ، انقسم الشريط الهجين ايضا مع كل انقسام خلوى ، وتكاثر جنبا الى جنب مع الخطة الوراثية الاساسية للخلية البكتيرية ، ثم عبر عن نفسه بانتاج صفات وراثية كيميائية لكل من الشريطين أو المورثتين الملتحمتين فى شريط واحد !

ثم بدات خطوة اخرى اجرأ ، وحاولت المجموعة نفسها نقل جينة او مورثة من كائن بكتيرى الى كائن بكتيرى آخر مختلف ، ولقد تمت هذه المحاولة بنجاح ، وعبرت الجينة المنقولة فى الكائن البكتيرى الذى احتضنها عن نفسها ، وانقسمت معه ، ومنحت ذريته صفة وراثية مكتسبة لم يعرفها « الآباء ولا الاجداد » منذ ملايين السنين !

ثم ينجح العلماء بعد ذلك في نقل جينة من ميكروب يعيش فى امعاء المواشى الى الميكروب الذى يعيش فى امعاء الانسان ، والمعروف ان هذه الجينة المنقولة هى من ذلك النوع الذى يحمل الخطة الوراثية لصناعة بروتين على هيئة خميرة أو انزيم يستطيع ان يحلل مادة السيليلوز الموجودة فى النباتات التى ترعاها الحيوانات ، ثم يحولها الى مادة سكرية ، تمتصها امعاؤها ، وهذا يعنى ان نقل هذه الجينة الى الميكروب الذى يعيش فى امعائنا ، معناه ان الانسان قد يستفيد من أكل الالياف النباتية مستقبلا كما تستفيد بها الحيوانات المجترة ، وطبيعى انه ممنوع — فى الوقت الحاضر — تداول هذه الميكروبات التى اجريت عليها بعض التعديلات الهندسية الوراثية ، ولا خروجها من معاملها بأية حال من الاحوال ، وسبب ذلك المنع سنتعرض له في حينه .

ومن بعض الميكروبات التى فقدت حساسيتها للمضادات الحيوية، عزل العلماء بعض الجينات من ساحتها الخلوية ، وتبين ان هذه الجينات هى من ذلك النوع الحلقى المغلق ، وهو الذى اطلقنا عليه قبل ذلك اسم **البلازميدات** . .

صحيح ان هذه البلازميدات لا تحدد ولا تتدخل فى الخطة الوراثية للميكروب ، ولكنها تحذو حذو هذه الخطة فى التكاثر والانقسام والتركيب والنظام الجزيئى ، كل ما فى الامر انها معلومة وراثية محددة ، تضع خطة مقننة لصناعة انزيم أو خميرة معينة ، وبهذه الخميرة تستطيع ان تدمر المضاد الحيوى الذى يتعاطاه الانسان للقضاء على ميكروب مسبب لمرض من الامراض وبهذا يفقد الدواء مفعوله ، ونقول وقتها : ان هذا الميكروب بالذات قد أصبح ذا مناعة ضد مضاد حيوى معين .

وطبيعى ان كثيرا من الميكروبات قد اكتسبت هذه المناعة ، وسر مناعتها يكمن فى خطتها المحددة على جينتها الحلقية المنتشرة فى مادتها الحية ، ولكل مضاد حيوى خميرة تحطمه ، أو انزيم يبطل مفعوله . . المهم ان العلماء قد عزلوا بعض هذه الجينات التى تحيل الميكروبات المسالمة الى كائنات مستأسدة او خطرة ، واستطاعوا زراعتها في الميكروب المسالم الذى يعيش فى امعائنا ، فاذ به يستأسد — من خلال هندسته الوراثية التى منحه العلماء اياها — ويصبح منيعا ضد مضاد حيوى بذاته.

ومن الممكن — بطبيعة الحال — ادخال الجينات الفيروسية المسالمة او الممرضة الى بعض الكائنات البكتيرية ، وزراعتها فيها ، لتصبح جزءا من جهازها الوراثى ، فتتكاثر معها اذا تكاثرت ، وتسكن اذا سكنت ، وتعبر

عن نفسها بمرض قد يصيب الانسان والنبات والحيوان ، هذا اذا كانت الجينة المزروعة من ذلك النوع الذى يسبب الامراض لهذه الكائنات ولقد تم زراعة بعض هذه الجينات الفيروسية، الا أن ذلك يحدث فى أضيق الحدود ، وفى معامل جد قليلة تناسب مثل هذه الهندسة الوراثية الخطيرة .

●●●

امكان نقل شيوعية الصفات بين كل الكائنات!

لكن .. هل من الممكن نقل جينة او مورثة من حيوان اوانسان ، لتوضع فى خط التشغيل الوراثى للميكروب ، او العكس ؟

الواقع ان هذه التجربة قد تمت بالفعل ، وانها قد نجحت منذ ثلاث سنوات مضت ، واشترك فيها عدد كبير من الباحثين ، وعلى رأسهم ستة من أكفأ العلماء فى هذا الزمان ، وينتمون الى عدة معاهد وجامعات امريكية مشهود لها بالاصالة وعمق البحوث المنشورة فى هذا المجال ، وبدون الدخول فى التفاصيل العلمية نقول ان هؤلاء العلماء قد اختاروا عدة جينات مناسبة من نوع من الضفادع يعرف باسم **زينوباس ليفيس** Xenopus laevis . وامكن اقحامها فى البكتيريا القولونية، فتقبلتها قبولا حسنا !

ولقد تمكن بعض العلماء البريطانيين حديثا من تهجين مكونات خلية حيوانية بمكونات خلية نباتية .. صحيح ان هذه التجربة سابقة لاوانها وصحيح انها لايمكن ان تنتج ـ على الاقل فى الوقت الحاضر ـ كائنا جديدا يجمع بين صفات الحيوان والنبات أو بين صفات الحيوان والانسان ، أو الانسان والنبات ، ولكنها تدل على أن العلماء قد بدأوا يكسرون الحواجز التى تفصل بين الخلايا المختلفة للانواع المتباينة من المخلوقات ، وكأنما هم يريدون انتاج « سبائك » وراثية مبتكرة ما انزل الله بها من سلطان !

ولقد بدات تجارب الهندسة الوراثية تنمو وتتطور وتتشعب وتنتشر فى معامل كثيرة ، وكأنما قد جن جنون العلماء بهذه اللعبة الخطرة ، وتسابقوا فى زراعة الجينات ، ونقلها دون ضوابط او روابط بين الانواع المختلفة من الكائنات ، واصبح الآن من المبادىء المسلم بها أنه من الممكن نقل صفة بذاتها من خلية كائن الى خلية كائن آخر لا ينتمى اليه من قريب أو بعيد .. بداية من الفيروس والميكروب والنبات ، الى الانسان سيد الكائنات !

على ان اهم هذه الانجازات العظيمة التي تمخضت عنها الهندسة الوراثية اخيرا هو ما نشرته حديثا مجلة « العالم الجديد » البريطانية New Scientist **بعدديها الصادرين فى ٢ يونيو ، ١٦ يونيو عام ١٩٧٧ عن محاولة العلماء نقل الجينة المسئولة عن صناعة جزىء الانسولين الى البكتريا القولونية ، بغرض دراسة خطة التشغيل الوراثية لفهم اعمق لهذه العملية التي تؤثر في صحة نسبة كبيرة من البشر المصابين بداء السكر ،** وهي ـ على اية حال ـ محاولة جريئة قد تتمخض مستقبلا عن اصلاح الجينات المسئولة عن تصنيع الانسولين فى بنكرياس البشر .. صحيح أن جينة الانسولين المنقولة كانت من احد خلايا بنكرياس أحد أنواع الفئران ، لكن قد تكون اليوم فئران ، وغدا قد يأتي الدور على الانسان .

فماذا هناك حقا من أنباء أخرى عن هذا الموضوع الهام ؟ !

نقل جينة الانسولين من حيوان الى ميكروب !

فى جامعة كاليفورنيا بدات التجربة تأخذ مجراها على أيدى مجموعة من العلماء تحت

اشراف كل من البروفيسور ويليام وهوارد جودمان ، وبالفعل نجحا فى عزل الجينات الخاصة بصناعة هرمون الانسولين لاحد الفئران ، وزراعتها فيالبكتريا القولونيةالمعزولة من أمعاء انسان او حيوان ، وتعتبر هذه الخطوة من الخطوات الهامة المؤدية الى امكان دراسة تكوين الانسولين خطوة خطوة في الخلايا البكتيرية اثناء تكاثرها وانقسامها بسرعة لا يجاريها فيها اى كائن حى آخر ، ثم ان نجاح هذه الزراعة ، وما قد يتبعها من تشغيل جينات انتاج الانسولين فى أجسام البكتيريا قد يؤدى الى انشاء صناعة هامة لهذا الهرمون الذى يحتاجه ملايين البشر ، وسيكون المنتج الاساسي فيها هو هذه البكتيريا الجديدة التي تعمل بخط تشغيل هندسي وراثي من ابتكار الانسان العظيم !

ويعلق البروفسور بول بيرج استاذ البيولوجيا بجامعة ستانفورد ــ وهو الذى سبق ان أشرنا اليه ، واعتبرناه الرائد الاول فى هذا المجال ــ يعلق على هذه التجربة المثيرة بقوله « لقد تحققت نبوءة ظلت تراود عقول العلماء طيلة السنتين الماضيتين » ... ثم يضيف بيرج : لكن لابد ان نشير الى ان هناك العديد من الخطوات والمشاكل العويصة التي تحتاج الى حلول جذرية قبل ان تشتغل هذه الجينة بكفاءة فى بيئتها الجديدة (وهو يعني جسم البكتريا الدقيقة) ، ثم انه يعتقد ان حل هذه المشاكل سوف يحتاج الى فترةأطول من الشهور الستة التي حددها رواد هذه التجربة الكبيرة (وكان روتر قد صرح انه وزملاؤه سوف يسيطرون على هذه الجينة لانتاج الانسولين قبل نهاية عام ١٩٧٧) .

ويتطلب نقل الجينة الى البكتيريا عدة خطوات هامة : أولهما : عزل الجينة او الجينات المسئولة عن تصنيع الانسولين من بين مئات الالوف من الجينات التي تحتويها نواة خلية البنكرياس ، وقد تحقق ذلك * . **وثانيها** : تركيب هذه الجينة فى الجينة المعزولة من البكتيريا والتي عرفناها قبل ذلك باسم البلازميد الحلقية ، وقد تم ذلك عن طريق اجراء عملية فك ولحام لكل من الشريط الوراثي فى جينة الانسولين وجينة البكتيريا (البلازميد) ، وفي ايدى العلماء الانزيمات اللازمة لاتمام هذه العملية الهندسية على مستواها الوراثي .. **وثالثها** : ايجاد سلالة او طفرة من البكتيريا القولونية تقبل هذه الزراعة وقد وقع الاختيار على طفرة يطلقون عليها « س ١٧٧٦ » ، وهي من الطفرات التي جهزها العلماء خصيصا للاستعانة بها فى بحوث هندسة الوراثة ، فلكي يدخلوا الجزء المراد زرعه فى « جسد » البكتيريا الدقيق ، كان لابد من تعريضها لصدمة حرارية ، مع معاملة كيميائية بمحلول خاص .. فيؤتى بالبكتيريا فى انبوبة اختبار ، ومعها تخلط الاشرطة الهجينة او الملتحمة ، وتوضع البكتيريا فى محلول مثلج من ملح كلوريد الكالسيوم ، ثم تسخن فجأة وبسرعة ،فيؤدى ذلك الى فتح ابواب او منافذ دقيقة فى « جلد » البكتيريا ، لتسمح بمرور الشريط الجديد الى الداخل ، وبعد فترة ، تغلق المنافذ ، وتعود البكتيريا الى طبيعتها .

ونحن الآن فى انتظار ما تأتى به الايام !

(*) الواقع ان العلماء قد استطاعوا ان يعزلوا الامرالكيميائى الذى يحمله « الرسول » الوراثى (ح د ن ــ الرسول Messenger - R N A ــ الذى اشرنا اليه) ..وهو امر مطبوع او جزيئات كيميائية مبعوثة من الشريط الاصلى الذى يحمل الخطة في جينته (ح د ن ــ او الحامض النووى) ، واستطاعوا بعد عمليات دقيقة وعويصة ــ ان يتوصلوا الى عمل « طبعة » عكسية من هذا الامر الكيميائىف انبوبة الاختبار ، اى طبع شريط اصلى من الشريطالبعوث، مع بعض تحويرات بسيطة يعرفها العلماء حق المعرفة ، ولقدتم ذلك فى سبع خطوات طويلة متتابعة .

بداية فرض القيود على هندسة الوراثة !

ومع ان بحوث الهندسة الوراثية تبشر بآمال عريضة ، ومع انها ستفتح لنا آفاقا واسعة ، وانها ستقودنا الى تفهم أعمق لاسرار الحياة ، الا انها لا تسير وفق ما يأمل العلماء المتحمسون لها ، اذ ـ لاول مرة ـ تصطدم البحوث العلمية بالعديد من السلاسل والقيود التي تشلها عن الانطلاق بحرية تامة ، ولاول مرة ايضا لا يرحب فريق من العلماء بأبحاث فريق آخر من التخصص ذاته في المضى في هذا الطريق المحفوف بالمخاطر ، وكانما ، وكانما نحن مقبلون على ((**قنابل**))**وراثية** اخطر بكثير من القنابل الذرية ، ومن اجل هذا عقدت المؤتمرات ، وقدمت الاقتراحات ، وانهالت الاعتراضات ، وسنت القوانين والشرائع ، وقدمت نماذج جديدة لتشييد انواع خاصة من المعامل وحرمت تجارب ، وامتعض العلماء من تدخل من لايفقهون شيئا في تفاصيل بحوثهم ، وكانما هم قد اصبحوا تحت وصايتهم ، او كانما يعيشون في جو قريب من جو العصور الوسطى ، حيث كانت الكنيسة تتدخل في شئون العلماء ، فلاتدعهم يبحثون في شيء يتعارض مع ما وقر في عقول البابوات والناس !

على انه ينبغي علينا هنا أن نقدم بعض آراء العلماء الضالعين في مثل هذه البحوث ، والمدركين لمعظم جوانبها العميقة ، لان ذلك ـ بلاشك ـ يوضح الأهمية التي سوف تتمخض عنها بحوث هندسة الوراثة !

يقول دكتور روبرت شينشايمر

R. Shinsheimer رئيس قسم البيولوجيا بمعهد كاليفورنيا التكنولوجي « لقد وصلنا في عصرنا الحاضر الى نقطة حاسمة في مسالة تطور الحياة على الأرض ، ولهذا السبب فانني اعتقد انه يجب علينا ان نفكر طويلا وجديا في طبيعة عملية التطور التي سنتدخل فيها عنوة من خلال هندسة الوراثة ، وذلك قبل ان يحيق بنا ـ في غفلة منا ـ دمار رهيب ، اننا ندرك جميعا أن هناك عمليات خلط ناجحة بين جزيئات الوراثة في الفيروسات والبكتيريا ، وان هذه الخطوات لازالت متواضعة بالنسبة لمستقبل سيكون فيه خلط المورثات بين النباتات المختلفة ، والحيوانات اللافقارية والفقارية ـ وبدون شك أيضا في الانسان ـ أمرا محتوما ومتطورا .. انني لست معترضا على هذه البحوث ، بل انني على يقين ان هناك نتائج باهرة سوف نحصل عليها في مجال هندسة الوراثة ، وان بعض هذه النتائج ستكون ضرورية من اجل رفاهية كوكبنا واستمرار الحياة فيه ، لكنني لازلت ارى جانبا آخر مظلما من جراء هذه البحوث ، لهذا فان التحفظات التي وضعتها هيئة المعاهد القومية للصحة (في الولايات المتحدة) على تلك البحوث ليست كافية للحد منها ومن اخطارها !

وسر تشاؤم شينشايمر وتخوفه يرجع الى اعتقاده ان هذه البحوث ستتطور الى الدرجة التي يتحكم فيها الانسان في اصول الوراثة على مستوى كل الكائنات ، فيغير فيها ويبدل كيف يشاء ، فاذا كان العلماء قد حصلوا على هذا الكنز العظيم من المعلومات الوراثية في غضون ربع قرن فقط ، فما بالنا بما سيفعله العلماء في القرون المقبلة ؟

ويذهب شينشايمر الى شرح وجهة نظره ، ويذكر أن كل انواع المخلوقات التي نراها الآن هي ثمرة حتمية لعملية تطور طويلة .. طويلة ، وانها اخذت من عمر هذا الكوكب حوالي ثلاثة آلاف مليون عام لتضع كل مخلوق في مكانه ، ولقد حافظت الطبيعة على « المخزون » الوراثي لكل نوع من الكائنات ، وحمته من التلوث أو « الدنس » او الخلط مع « المخزون » الوراثي لأي نوع آخر ، ثم ان نشأة الأنواع وتطورها كانت تأتي هينة لينة ، وعلى خطوات جد بطيئة ، ولقد كان للطبيعة وسائلها الفعالة

والمعقدة لتأمن وتضمن عدم الخلط فى المادة الوراثية بين الانواع المختلفة .

واخيرا يجيء الانسان بتحدياته ، ويتخطى الحدود ، ويقتحم سنن الحياة اقتحاما ، ويخلط ما يشاء له الخلط بين جينات من نبات وحشرة ، أو بين عفن (فطر) وانسان ، أو أى مخلوق يشاء ، صحيح أن بعض هذا الخلط سيكون عشوائيا ، لكن بالتجارب المرسومة والمقننة ، سوف يتوصل الى تصميم كائنات تدمر ، واخرى تعمر ... » الخ .

بحوث هندسة الوراثة . تؤجج نيران النقاش !

ومن جهة اخرى كتبت دكتورة ماكسين سنجر Maxine Singer رئيسة قسم خمائر الاحماض النووية فى المعهد القومى لبحوث السرطان بالولايات المتحدة دراسة عن هذا الموضوع الشائك فى منتصف عام ١٩٧٧ ، وتحت عنوان **« العلماء وانضباط العلم »** تقول « عندما كنت اشارك فى رئاسة مؤتمر جوردون الخاص بالأحماض النووية (شفرة الوراثة) فى عام ١٩٧٣ قلت لزملائى المجتمعين : اننا جميعا نتقاسم الحماس والاعجاب بما ذكره متحدث الامس عندما اشار الى ان البحوث التى القيت فى هذا المؤتمر سوف تسمح لنا بوصل اجزاء من الأحماض النووية (اشرطة الوراثة التى سبق ان تحدثنا عنها) ، وان هذا سيؤدى الى نتائج مثيرة ، وكان سبب تحمسنا ان تلك البحوث ستطور أولا معارفنا عن هذه الجزيئات المدهشة وعن بيولوجيتها المذهلة ، وسوف تقودنا ثانيا الى استنباط وسائل هامة لكى نصلح بعض الامراض الوراثية التى تصيب الانسان ، ورغم ذلك ، كان لابد ان نكون مدركين ان هذه التجارب سوف تثير العديد من القضايا الاخلاقية والادبية والاجتماعية نتيجة للاخطار المحتملة التى قد تتولد عنها .. ولكوننا — نحن معشر العلماء — نقوم بهذه التجارب ، ولكوننا نعرف ماذا تعنى ، كان الواجب علينا ان نتحمل مسئولياتنا فى حماية جميع المشتغلين فى هذه البحوث من العلماء الشبان والفنيين وعمال المعامل ، ثم هى مسئولياتنا ايضا نحو عامة الشعب .. وعلينا ان نبدأ بها من الآن » !

ولقد كان هذا المؤتمر — مؤتمر جوردون الذى عقد فى ١١ — ١٥ يونيو عام ١٩٧٣ — بداية الشرارة التى اشعلت النار ، وامتدت حرارة المناقشة الى الهيئات العلمية المعنية ، والى الكونجرس ، ثم الى رئاسة الدولة هناك ، وانطلقت عبر المحيط حتى وصلت الى أوروبا ، ومما زاد الطين بلة ان اجهزة الاعلام قد تدخلت فى الأمر ، وكتب عن هندسة الوراثة مقالات مثيرة ومتسرعة ، وبها شحنت رجل الشارع ، وهيأت له المناخ لكى يطالب بأخذ رايه فيما يجرى بين جدران المعامل ، لانه اولا واخيرا هو دافع الضرائب ، وهو الممول لهذه البحوث .

ففى أوروبا — وعلى سبيل المثال — عقد اول مؤتمر فى دافوس بسويسرا فى الاسبوع الثانى من شهر اكتوبر عام ١٩٧٤ لمناقشة الاحتمالات التى ستؤدى اليها بحوث هندسة الوراثة ، وفى بداية افتتاح هذا المؤتمر وقف دكتور ماكس ببرنستيل Birnstiel من معهد بحوث الجزيئات البيولوجية وقال : **« اننا الآن على حافة انفجار علمى فى التحكم الجينى » (اى وحدات الوراثة) .**

ولم يكن سبب عقد هذا المؤتمر فى سويسرا ان دول اوروبا قد خاضت هندسة الوراثة ، أو توصلت فيها الى نتائج تدعو الى المناقشة واقتراح ورقة عمل للمستقبل ، بل كان السبب — فى المقام الاول — هى تلك الزوبعة التى أثيرت فى الولايات المتحدة حول تلك البحوث ، ولقد حضر هذا المؤتمر بول بيرج الذى تزعم — بادىء الامر — فى امريكا فكرة الهندسة الوراثية ، ثم هجر معمله طوال أشهر ستة . طاف فيها معظم معامل العالم المتقدم داعيا الى تقييم هذه البحوث

على المستوى العالمي ، وليس على مستوى الدول ، واتخاذ قرار حاسم بشانها ، لكنه فوجيء بأن المؤتمر لم يناقش الموضوع من جوانبه العلمية ، بل انقلب ـ على حد تعبير مجلة نيوساينتست New Scientist البريطانية الى مؤتمر اخلاقى عقائدى دينى ، وكأنما مسائل العلم قد تحولت فيه الى دعوات دينيه مثل العلماء فيها دور رجال الدين، وظل الناس ورجال الصحافة يرقبون ويتعجبون ، ولا يستطيعون ان يدلوا فى الموضوع برأى ناضج !

ولقد اراد ببرج ان يلفت نظر اعضاء المؤتمر انه لم يات ليناقش موضوعا عقائديا او أخلاقيا او اجتماعيا ، بل ان الامر ينصب على مناقشة الاخطار التى يمكن ان تتمخض عنها هذه البحوث ، واثرها على مستقبل الجنس البشرى خاصة ، وحياة الكائنات الاخرى عامة .

ويعلق تشارلز وايزمان من معهد بحوث بيولوجيا الجزئيات الوراثية بزيوريخ على ما جاء فى اشارة ببرج ويذكر ان البحوث الاساسية هى التى تبحث دائما عن الحقائق ، وان الحقائق ليس لها دلالة او مفهوم اخلاقى او عقائدى ، ثم ان الاخلاقيات ـ على حد قول وايزمان ـ تتغير بالوقت ، لكن الحقيقة لا تتغير ، وان ما يجرى فى هذه القاعة من مناقشات (ولقد كان حوالى ٢٥٪ من المشتركين فيها من غير العلماء) سوف يعطى انطباعا سيئا لدى الناس عن طبيعة هذه البحوث . هذا ومما يذكر ان الحكومة السويسرية قد شطبت جزءا كبيرا من الميزانية التى خصصتها قبل ذلك لبحوث هندسة الوراثة ، عندما تسرب الى علمها ان مثل هذه البحوث تحمل بذور الشر للبشر ، كما ان الحكومة الامريكية او الهيئات التى تمول معامل هندسة الوراثة بدأت بدورها فى التقتير فى ميزانياتها .

ولقد تعمد البروفيسور هنرى هاريس العالم البريطانى الشهير (من جامعة اكسفورد) الا يحضر هذا المؤتمر عندما علم ـ فى آخر الامر ـ ان الصحافة والناس سوف يدسون انوفهم فيه ، وانهم ـ اى غير العلميين ـ قد لا يدركون ابعاد هذا الموضوع العميق ، وقد يشوهون ما يسمعون ، او قد يتدخلون فى ما لا يعرفون ، مما قد يسبب ضياع الوقت والجهد ، ويعوق اتخاذ القرارات العلمية المناسبة ، فمثل هذه المؤتمرات تعقد اساسا ليتحدث فيها العلماء الى العلماء ، ولقد صدقت توقعات هاريس ، لان المناقشات طالت وتفرعت وتمزقت دون التوصل الى نتائج ايجابية لها وزنها !

بداية التشريعات المنظمة لبحوث هندسة الوراثة .

والحق ان موضوع هندسة الوراثة قد لقى من الاهتمام والمناقشات وعقد المؤتمرات والاجتماعات مالم يحظ به اى موضوع علمى آخر ، كما ان العلماء لم يختلفوا على شىء مثلما اختلفوا فى هذا الموضوع ، ونحن لانستطيع ان نتعرض للآراء التى تسانده أو تعارضه لضيق المجال ، ولكنه يعيد الى اذهاننا الجدل الذى ثار بين العلماء والناس حول نظرية التطور لداروين فى القرن الماضى ، مع الفرق بين مضمون هذا وذاك ، فسواء اصابت نظرية داروين او لم تصب ، فان ذلك لن يؤدى الى نتائج تؤثر تأثيرا مباشرا فى حياة الناس ، لكن ان يغير الانسان فى طبيعة المخلوقات ، دون ان يدرى شيئا عما يمكن ان يحمله المستقبل من مفاجآت ، فهذا يتطلب ان ان نعالج الموضوع بدقة وحذر .

ولقد تمخضت الدراسات والمؤتمرات والمناقشات الساخنة التى درات بين العلماء والعلماء ، أو بين العلماء والهيئات والحكومات والناس على مدى سنوات اربع عن تقييم لمدى خطورة تلك البحوث ، ولقد وضعت كل دولة الشروط او الخطوات التى يجب على العلماء اتباعها أثناء القيام بهذه التجارب ، وهى ـ

وان اختلفت فى بعض التفاصيل — الا انها تتفق فى المضمون .. هذا وتنوى هيئة الصحة العالمية ، والهيئة الاوروبية للبيولوجيا الجزئية (وبالتحديد جزئيات الوراثة) والمجلس العالمى للاتحادات العلمية فى التعاون بفرض تقديم برامج محددة لتلتزم بها الدول التى تنوى الاضطلاع بمثل هذه البحوث .

ولقد قامت الهيئات العلمية الامريكية بتصنيف التجارب التى يقوم بها العلماء الى درجات أربع :

أولها : تجارب عادية ، وهى التى تقوم بدراسة التركيب الوراثى للميكروبات والخلايا دون اقحام مكونات هذه وتلك فى بحوث هندسة الوراثة ، ويستلزم ذلك بعض الحرص الكائن في معامل الميكروبيولوجيا التقليدية (اى معامل الكائنات الدقيقة كالبكتريا والفطريات والفيروسات) ، ويكفى اجراء هذه التجارب فى المعامل القائمة من قبل .

وثانيها : تجارب الدرجة الثانية ، وهى أكثر من عادية ، وتحتوى على بعض الخطر ، ولهذا تستلزم درجة أكبر من الحذر ، فلا يسمح لهذه الكائنات بالانتشار داخل المعمل أو خارجه ، ولابد من عمليات تطهير أو تعقيم كلما لزم الامر .

وثالثها : تجارب الدرجة الثالثة وهى أخطر من سابقتها ، ولابد من معامل خاصة تصمم على أن يدخل الهواء اليها ، ولا يسمح له بالخروج منها ، خشية أن تتسرب احدى الكائنات التى أجريت عيها عمليات هندسية وراثية ، فغيرت طبائعها .

ورابعها : وهى أخطرها على الاطلاق ، وهذه تستلزم كل مافى هذا الكوكب من حرص وحذر ، ولابد ان تشيد لها معامل ليس فيها ثقب واحد يسمح بمرور الهواء من الداخل الى الخارج ، وتستلزم ان يغير الباحثون ملابسهم كلما خرجوا او دخلوا ، وان يرتدوا ملابس معقمة خاصة ، وبعد الانتهاء من عملهم ، يذهبون الى حمامات بها « أدشاش » ترش عليهم وابلا من الماء المختلط بالمواد المطهرة ، ومنها يخرجون عن طريق مسالك خاصة الى حجرات تغيير الملابس ، وفى داخل المعامل — حيث تجرى التجارب — توضع احتياطات شتى ، فلا يسمح للعامل أو الفنى الباحث بأن يمسك شيئا من الادوات او الدوارق أو الانابيب ، بل عليه أن يتناولها بمقابض خاصة ، وان يتم ذلك داخل « كابينة » صغيرة معزولة عزلا تاما عن المعمل وعن العالم الخارجى .. وفى هذه المعامل — معامل الدرجة الرابعة — يتم زراعة الفيروسات فى الميكروبات ، أو نقل الجينات بين نوع ونوع ، أو دراسة الجينات الخطرة أو الممرضة ، ثم فصل شرائطها الوراثية وتقطيعها ثم لحمها وزرعها .. الخ ، وفي هذه المعامل تنتج كائنات غريبة وجديدة لم تعرفها الارض قبل ذلك أبدا !

● ● ●

تصميم ميكروب مناسب للتجارب !

لكن الحذر أيضا يبلغ منتهاه عندما يتخوف بعض العلماء من امكان تسرب بعض هذه الكائنات خارج المعامل ، نتيجة لخطأ غير مقصود ، أو لانفجار فجائى يؤدى لانتشارها فى الهواء والتربة والماء ، ومنها الى امعاء الانسان ، فتستعمرها وتعيش فيها كما تعيش الميكروبات الاخرى متوازنة ، أو قد تقلب التوازن ، فلا تبقى فينا ولا تذر .

وما يدرينا ان امعاءنا صالحة لها ، أو أن بيئتها — أى الامعاء — توافق مزاجها ؟

لان الميكروبات التى يختارها العلماء لهذه التجارب واسعة الانتشار جدا فى الطبيعة ، وان الاختيار يتم على أساس أن هذا الميكروب قد درس اكثر من غيره دراسة وافية ، وان المعلومات الوراثية التى جمعها

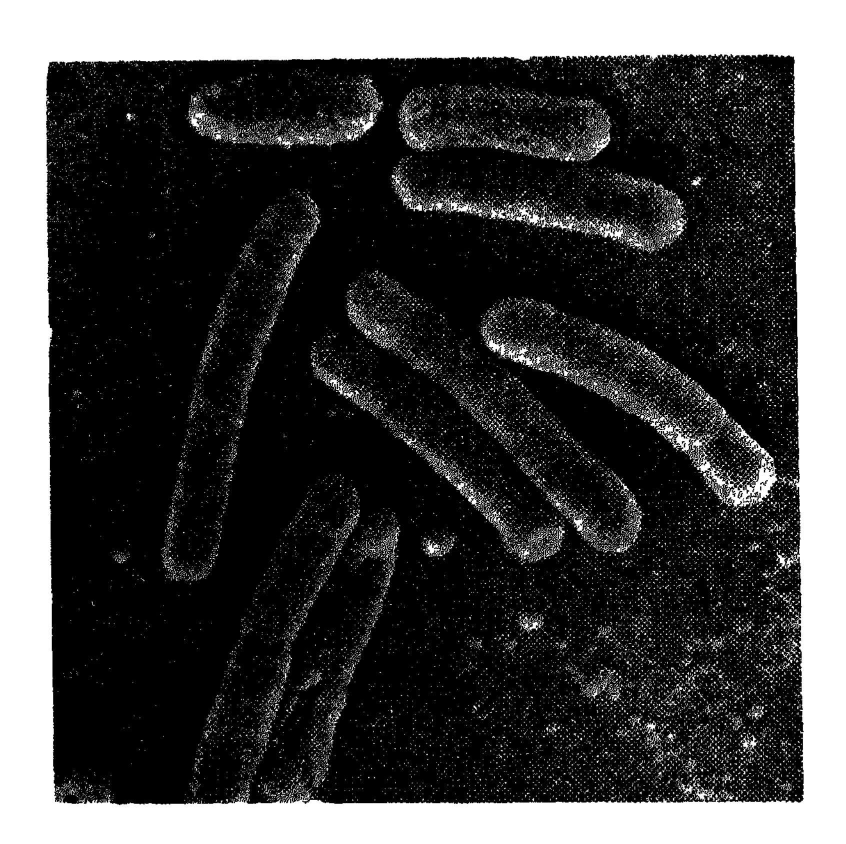
عنه العلماء من قبل تمهد لهم سبل البحث والتجربة، والانسان ـ بطبعه ـ يختارمايعرف ويترك ما لا يعرف ، هذا ، ولم يحظ أى ميكروب بالدراسة والتحليل الدقيق قدر ماحظى الميكروب الذىيعيش فىامعائنا وامعاء الحيوانات ذات الدم الحار (وهو ميكروب أيشير يشياكولاى الذى سبق أن أشرنا اليه.. شكل ١٢) ، ثم ان جزءا من خريطته الوراثية، أو خط التشغيل البيولوجى الكامن على اشرطته قد عرف ، فبعد ثلاثين عاما من الدراسة والتحليل والبحث العميق استطاع العلماء فى جميع بقاع العالم ان يفكوا ثلث رموز الشفرة الكائنة على كروموسومه الوحيد ، وسوف يحتاجون الى سنواتطويلة قادمة لمعرفة باقى التفاصيل !

وقد تنتابك هنا حيرة وتساؤل : هل بعد كل هذه السنين الطويلة من البحوث المتقدمة لم يتوصل العلماء الا لفك ثلث الشفرة الوراثية لميكروب واحد .. ميكروب دقيق لاتكاد العيون تراه ؟ .. واذا كان الامر كذلك مع كروموسوم وحيد فى ميكروب صغير، فهل يعنى هذا ان فك الشفرات الوراثية للانسان سوف تحتاج الى زمان طويل ؟

نعم .. ربما مئات السنين. وهذاينبئك بالخبر اليقين ، خبر أن أسرار الحياة على مستواها الدقيق ليست بالامر الهين ، كما ان ميكروبنا هذا يحتوى في كروموسومهحوالى اربعة آلاف جينة أو مورثة أو « خطة عمل » مسجلة على الشريط ح د ن ، لتشرف على تصنيع وتسيير وتوجيه ما يزيد على أربعة آلاف عملية كيميائية حيوية هى التى توجه دفة هذا المخلوق فى الحياة .. وعلى ذلك الشريط ـ الذى لا يتجاوز طوله ملليمترا واحدا ـ يتراص اكثر من سبعة ملايين رمز شفرى Genetical Code ، فى حين ان طول شريط الفيروس لا يتجاوز جزءا من ألف جزء من الملليمتر ، وعليه ١٧٠ الف رمز شفرى وراثى تكفى لصناعةمئات الانواعمنالبروتينات المختلفة التى يغزو بها الفيروس الخلايا (شكل ١٣) .. اضف الى ذلك ان الفيروسات ضئيلة غاية الضآلة ، لدرجة أن الملليمتر المكعب الواحد يحتوى على ١٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ فيروس (أى مائة مليون مليون !) وهذا يعنى ببساطة شديدة ان العلماء يتعاملون مع عالم يقع فيما وراء حدود الاحاسيس والخيال ، وهم أيضا لا يرون الاشرطة على حقيقتها ، بل هناك اجهزة تحلل وتقدر وتريهم مالا عين رأت ، وعلى هذا العالم غير المحسوس تجرى تجارب هندسة الوراثة ، فربما يساعدنا ذلك على فهم ما يجرى فى خلايانا ، اذ ليس هناك شك الآن فى أن أساس الحياة واحد ، وشفرتها التى تتعامل بها مع كل الكائنات واحدة ، والفكرة بينها جميعا موحدة ، ولهذا فلا فرق بين ميكروب وثعبان وانسان من حيث المبدأ، بل تتجسد الكائنات كما نراها من خلال « كتبها » المكتوبة .. نعنىطريقة انتظام شفرة الحياة على تلك الشرائط !

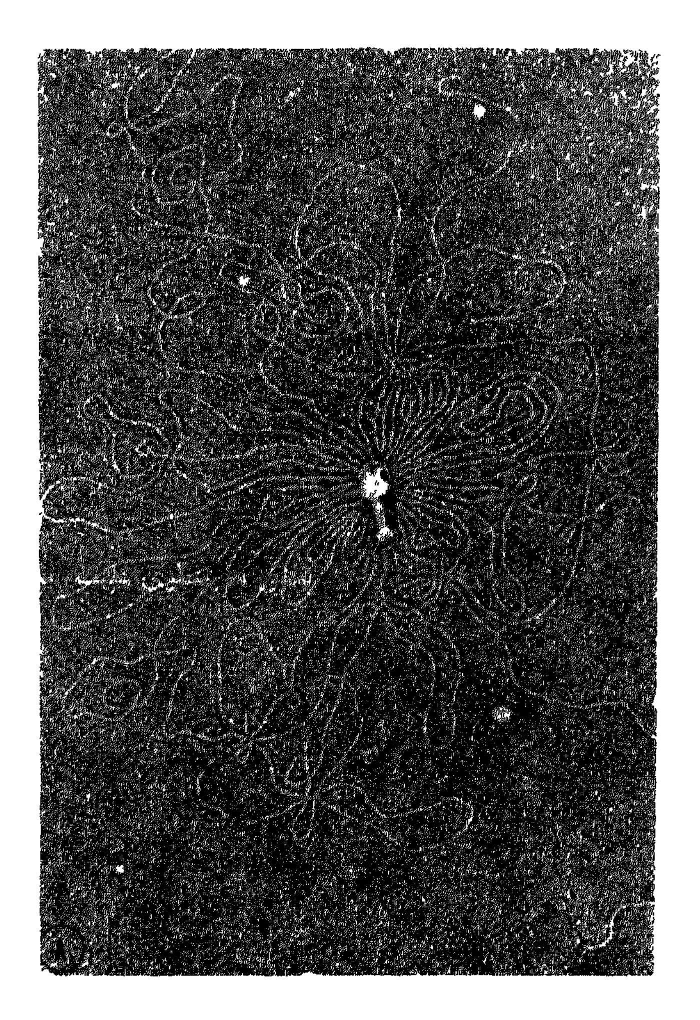
لكن .. لا علينا من كل ذلك ،فالحديث فيه قد يتشعب ويطول ، ولنعد الىميكروبنا الذى يعيش فى امعائنا ، والذى عزله العلماء ودرسوه أكثر من غيره ، ثم اتخذوه بمثابة « حيوان تجارب » في بحوث هندسة الوراثة، ولقد برزت بعض تساؤلات فى أحد المؤتمرات التى عقدت بغرض التوصل الى وسائل كفيلة بمنع انتشار الميكروب « المعدل » هندسيا ، اذ ربما يؤدى بتصميمه الوراثى الجديد الى وباء مدمر ، وتساءل عالم الوراثة روى كيرتس Curtiss : هل يمكن اجراء تغيير وراثى فى « خريطة » الميكروب بحيث نجعله لا يستطيع مقاومة الحياة خارج معامل العلماء ، وعندئذ نضمن عدم انتشاره فيالطبيعة او امعاءالانسان والحيوان ؟

ولقد تحقق ما رمى اليه كيرتس ، اذ أمكنه ـ بمساعدة زملائه ـ من تخليق ميكروب



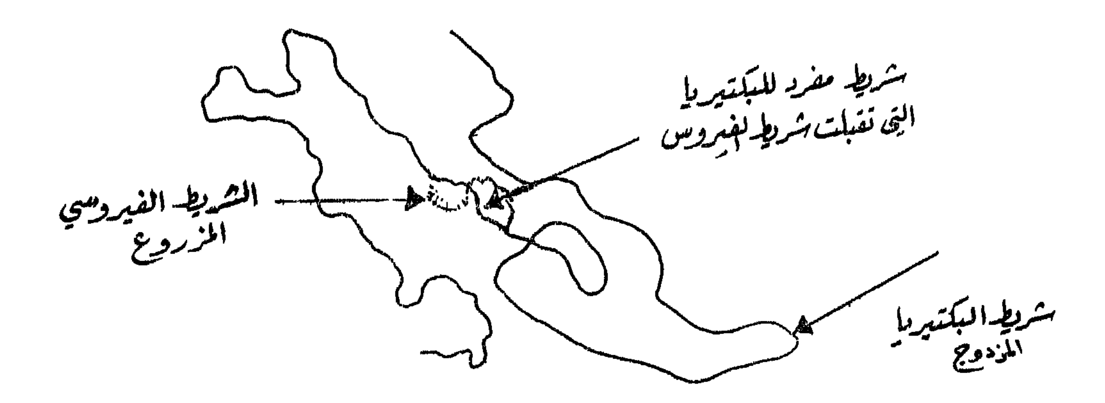
شكل (١٢)

بكتيرة القولـون (ايشير يشيا كـولاى) كمـا يظهرهـا الميكروسكوب الالكترونى .



سكل (١٣)

بوسيله علميه ذكيه أمكن تحطيم (رأس) هذا الفيروس ،فخرج ((مخه)) أو شريطه الوراثى كخيط واحد طويل ، لكنه لا يزيد فى عالمه عن جزء من ألف جزء مـن المليمر (التشفرهالوراثيـة لا تظهر هنـا لأنهـا تقـع فيمـا وراء حـدود الميكروسكوبات الاليكترونيه) .



جديد من الميكروب الاصلى ، واجريت عليه التصميمات الوراثية المناسبة بحيث يدمر نفسه فى أية بيئة جديدة غير البيئة التى ارتضاها له العلماء في معاملهم ، ولقد نفذ كيرتس فكرته بخطة ذكية ، ففى المركز الطبى التابع لجامعة آلاباما جرت البحوث على اساس الا « ينسج » الميكروب لنفسه « رداء » سليما يحمى به مادته الحية من التشتت والضياع ، ولقد توصل الى تحديد الجينة ، أو المورثة الحافظة للخطة المسئولة عن تصنيع مادة كيميائية محددة لبنائها فى جدار الميكروب ، وبهذا تعطيه قوة وصلابة وحماية ومناعة (**والمادة اسمها حامض داى امينوبا يميليك** Diamino Pimelic acid) .. ولكى يعيش الميكروب المخلق بهذه الصفة الجديدة ، كان لابد من امداده فى المعامل بالمادة الناقصة التى لا يستطيع لها تصنيعا (بعد تدمير جينتهالمسئولة عن هذا التصنيع)، وبهذا يأخذها ويكمل بها جداره ويعيش ،فاذا فرض وتسلل الميكروب الى خارج المعامل لاى سبب من الاسباب ، فانه لن يستطيع مواصلة الحياة ، ذلك ان احدا لن يمده بما ضاع ، ولهذا يكتب عليه التمزق والانفجار والموت .. فميكروب بغير جدار بقية ،كانسان بغير جلد يحميه !

الميكروب يتحدى العلماء ويقاومهم !

وفرح العلماء بهذا الانجاز العلمى كثيرا، لكن فرحتهم لم تدم طويلا ، اذ من خلال عمليات الطفرة (التغير) التى تحدث فى الميكروبات سريعا (نظرا لتكاثرها تكاثرارهيبا)، استطاع الميكروب ان يطفر ليعطى سلالة جديدة (يكفى لذلك ميكروب واحد من آلاف الملايين) تستطيع بدورها ان تعيد الى كيانها ما هدمه العلماء بهندسة الوراثة .

ولم يفقد كيرتس وزملاؤه الامل ، فتمكنوا من اكتشاف جينة جديدة ، فأوقفوا خط تشغيلها ، وجاءت ذريتها بالملايين والبلايين دون ان تظهر بينها طفرة وحيدة ترمم ما تهدم !

وفرك العلماء أيديهم فرحا ، لكن ذرية الميكروب المعدل كانت اكثر حيلة وعنادا وتشبثا بالحياة ، اذ استطاعت أن تعيش وتتكاثر حتى ولو لم يمدها العلماء بالخامة التى تبنى بها جدارها ، هذا رغم انها لم تستطيع ايضا ان تصنع هذه المادة بنفسها .

اذن .. كيف عاشت وتكاثرت بدون جدار يحميها ؟

لقد اوقع الميكروب العلماء فى حيص بيص ، الا ان الشاب دينيس بيريرا Pereira ـ وهو خريج حديث يعمل تحت اشراف كيرتس فى هذا الموضوع بالذات ـ قد اكتشف ان الميكروب يسلك سلوكا مثيرا لكى يحمى مادته الحية من التشتت .. اذ كانت الملايين والبلايين منه تتجمع وتلتصق وتتماسك عن طريق مادة هلامية لزجة تحيطها وتحميها ، ولقد أمكن معرفة هذه المادة (اسمها حامض كولانيك Colanic acid) ، وامكن أيضا حرمان الميكروب من خط التشغيل الوراثى المسئول عن صناعتها ، وبهذا فقد اخر خطة وراثية يملكها لاتمام تشييد جداره، ليس هذا فحسب ، بل ان الميكروب أصبح حساسا للاشعة فوق البنفسجية ، ومجرد تعريضه لضوء الشمس يفقده حياته ، وهذا هو المراد حقا !

ثم ظهرت في الافق مشكلة جديدة ،ولابد لها من حل جذرى ، حتى لا «يتزاوج » الميكروب المخلق مع الميكروب الطبيعي ، اذ من المعروف انه تحت ظروف خاصة تمتد بين الميكروبين قناة تزاوج جد دقيقة ، ومن خلال هذه القناة تنتقل المادة الوراثية من احد الميكروبين الى الآخر ، وفى هذه العملية المختلطة ، تنتج « سبيكة » وراثية جديدة

تحمل صفات الكائنين معا ، (وهـو يماثل عملية التزاوج في الكائنات الارقى بما فيهـا الانسـان بطبيعـة الحال) وهـذا يعنى ان الميكروب الضعيف المنهك الهارب من المعامل لا يزال يشكل خطرا ، اذ قد تواتيه الفرصة لان يتحد مع ميكروب سليم ، حتى ولو كان الهـارب فى « رمقه » الاخـير ، اذ مـا دام التزاوج قد تم ، فلابد ان تحمـل الـذرية القادمة « بذور » الشر التى زرعهـا فيهـا العلماء .

على العلماء اذن أن يصمموا ميكروبا ـ من خلال هندسة الوراثة ـ بحيث لا يستطيع ان يكون جدارا ، ولا ان يلتحم بغيره ليحمى نفسه بمادة لاصقة ، ولا أن يتـزاوج مـع ميكروب سليم ، ولقد تم الشرطـان الاولان بنجاح ، وتبقـى مسـالة تخليـق الميكروب « العنـين » .. اى الـذى لا يستطيـع أن يتزاوج ، ولا يزال كيرتس ومعاونوه يضـعون الخطط لطمس الجينة أو الجينات التى تقوم باعطاء الامربصناعةمركب الثايمين (أو«ث» .. وهو أحد القواعد الاربع التى تشـكل لغـة الحياة على الشريط الوراثى كما سـبق أن المحنا ، فاذا تم ذلك ، عاش في المعمل (لانهم يمدونه بالمركب المذكور جاهزا ، واذا خرج من المعمل ، لم يستطع تزاوجا ، ولو استطاع فلن تقبل الخلية الاخرى مادته الوراثية التى جاءت مختلة ، وسيكون مآله الموت سريعا لا محالة !

ومع ذلك ، فبين يدى العلماء الآنمزارع ميكروبية فصلت جيناتها تفصيلا ، لتكـون مناسبة لهذه البحوث الجديدة التى يطلقون عليها اسم بحوث هندسة الوراثة ، وهىبحوث بدأت تشـق طريقها بصعوبة ، بعد أن توقفت زهاء سنتين حتى يؤذن للعلماء بالسير فىطريق اكثر امنا وسلامة ، وبميكروبات أقل ضررا !

●●●

ما بين الطفرةالطبيعية وهندسةالوراثة.

بعد هذه الجولة السريعة فى اهمواخطر ما يجرى فى بحوث علوم الحياة (البيولوجيا) فى وقتنا الحاضر ، آن لنا ان نتساءل :ما هى الآفاق المحتملة التى يمكن ان تؤدى اليها هذه البحوث ؟ .. ولماذا يخشاها الناس وبعض العلماء حقا ؟ .. وهل من فائدة ترجى من ورائهـا ؟ .. ثم ماذا يحمل لنا المسـتقبل القريب او البعيد من مفاجآت ؟

الواقع اننا تعرضنا قبـل ذلك لشرح **بعض ما تنطوى عليـه بحوث هندسة الوراثة** من اخطار ، ونضيف الى ذلك ان بعضالعلماء ـ وكثيرا من الناس المعنيين بالموضوع خارج نطاق المعامل والبحوث ـ يخشون انتشـار بعض الميكروبات (« المعدلة » أو « المحورة » وراثيا بطريق الخطأ او الصدفة أو التلوث او ربما عن طريق حادثة غير متوقعة ، فـلا احد يضمن شيئا من الاحتياطات التىيتخذها العلمـاء فى معاملهم ومـع ميكروبـاتهم التى «فصلوها» تفصيلا لتناسب بحوثهم الجديدة.

ونحن قد نذهب بدورنا الى أبعد مـن ذلك ونقول : ان بعض الميكروبات التى عايشت الانسان من قديم الزمن ما زالت تعيش بيننا ، وتضرب ضربتها المباغتة دون ان نستطيـع القضاء عليها ،صحيحانجهود العلماءوالهيئات الصحية في العالم قد جعلته من بعض الاوبئة اثرا بعد عين (كالطاعون والتيفوس والجدرى الذى ينتشر الآن فى اضيق الحدود) ، الا ان ميكروبات الكوليرا والتيفود والانفلونزا وشلل الاطفال ... الخ ، ما زالت جميعهـا تعيش بيننا ، دون ان نستطيع القضاء عليها قضاء مبرما .. اضف الى ذلك أن اجسام البشر من قديم الزمن لم تستطع ان تكتسب مناعة تامة ضد بعض انواع الميكروبات والفيروسات.

ففيروس الانفلونزا مثلا لا يضرب ضربته الباغتة القوية ، ويجتاح العالم كله كوباء يمرض مئات الملايين كل بضع سنين ، لا يفعل ذلك الا بعد ان يغير قليلا في شفرة حياته ، ويتحول الى طفرة جديدة لم تتعامل معها اجسام البشر من قبل ، ولهذا يستأسد الفيروس ويشتد ، ثم بعد عدة اسابيع أو شهور تنحسر موجة الوباء ، بعد ان تكون الاجسام قد تعلمت كيف تقاوم هذا البلاء ، ولكي ينتشر من جديد كان لابد ان يغير الشفرة مرة ومرة ومرات ، وهذا ما نعرفه علميا باسم الطفرات ، أو باسمائها الدارجة كفيروس هونج كونج ، أو الانفلونزا الآسيوية أوانفلونزا الخنازير .. الخ .

فاذا كان حال اجسامنا هكذا مع هذا التغير الطفيف فى الفيروس ، فما بالنا اذا قلب الانسان امور التوازن الوراثى في الكائنات ، وتخطى الحدود التى أوجدتها الحياة لتحافظ على الانواع من عمليات خلط قد تؤدى الى فوضى ليس لها من قرار ؟

ثم ان هذا التغير الجذرى السريع قد يؤدى الى قلب الموائد على رءوسنا ، فلا تستطيع الاجسام ان تتصرف حيال كائنات لم تتعامل معها من قبل بهذه الصورة ، وكأنما هى كائنات قد جاءتها من كوكب آخر ، وهنا قد تحل لعنة الحياة على من تلاعبوا بسنن الحياة ، وعلى من لم يقاوموا هذا التلاعب !

ومن البحوث التى تشكل نوعا من الخطورة تلك التى تتناول وصل فيروس بفيروس لانتاج فيروس هجين ، أو زرع أنواع خاصة من الفيروسات فى الميكروبات المعدلة المعزولة من امعائنا ، وبعض هذه الفيروسات له اتصال وثيق بحدوث طرز من السرطان فى أنواع خاصة من الحيوانات .. صحيح أن هذه الفيروسات لم يثبت أنها تسبب أوراما خبيثة فى الانسان ، الا ان انتشارها ، ثم غزوها لامعائنا (فى حالة ما اذا استأسدت السلالة الميكروبية وخرجت من ضعفها ، وانتشارها فيها ، قد يؤدى الى طفرات جديدة الله اعلم بها ، فلا احد يستطيع ان يتنبأ مقدما ما اذا كانت الطبيعة ستضرب ضربتها لتدخلنا فى شئونها ، أو انها ستتغاضى عن ذلك وتترك الامور تجرى على علاتها ، ولا نظن ذلك ، لان أى خلل في التوازن الطبيعى او الفيزيائى أو الحيوى وما شابه ذلك ، سوف يؤدى الى خلل فى نظمها التى جاءت بها متوازنة من قديم الزمن (كالخلل الذى أصاب البيئة مثلا نتيجة لتلوث مائها وهوائها وترابها) .

كائنات منفصلة قد تقلب التوازن الطبيعى

ولكى نوضح جانبا آخر من تخوف العلماء من الخلط الموجه بين السلالات والانواع ، كان لابد ان نعود الى التجربة التى نجح فيها دكتور اناندا شاكرا بارتى Ananda Shakrabarty الذى يعمل فى مركز جنرال اليكتريك للبحوث والتنمية بنيويورك .. فبعد سلسلة من التجارب توصل الى عزل الجينة المسئولة عن هضم السيليلوز فى امعاء الحيوانات من البكتريا التى تعيش فيها ، وزرعها فى الميكروب الذى يعيش فى أمعائنا ، وبعد ان تمت التجربة بنجاح ، تخوف من امكان انتشار هذا الميكروب المعدل فى امعاء البشر ، وقد يؤدى ذلك — كما يظن بعض العلماء — الى اصابة الامعاء باسهال مزمن ، أو قد يكون مميتا !

ويذهب البعض الى أبعد من ذلك ويقول : ان هضم السيليلوز في امعائنا سوف يؤدى الى نواتج قد لا تستطيع امعاؤنا أن تمتصها ، وعندئذ ستعيش على هذه النواتج ميكروبات اخرى ، وتحولها الى غازات كثيرة ، ويعنى هذا قلب امور التوازن الطبيعى والميكروبي الذى عرفته امعاؤنا من قديم الزمن ، ثم ان تناول أى نوع من انواع الخضروات (وهى تحتوى جميعا على نسب متفاوتة من السيليلوز) سوف يؤدى الى تحول امعاء الانسان الى مخزن معتبر للغازات ، ولابد من التخلص

منها أولا بأول ، وهذا امر لا يدعو الى الراحة أو الاحترام !

من اجل هذا ــ وكما يقول شاكرا بارتي ــ وبدون ان اتحقق تجريبيا من ثبوت هذه الظنون ــ قمنا بتدمير هذا الكائن الجديد حتى لا نتحمل وزر ما قد تاتي به الايام (وقد تم القضاء على هذا الميكروب بالفعل منذ سنتين ــ أي عام ١٩٧٥) .

ولقد بدات بعض المعامل في عزل الجهات المسئولة عن تكوين السموم في انواع خاصة من الميكروبات ، واراد وا زرعها في الميكروب المعزول من امعائنا ، وعندئذ ارتفعت الاصوات منادية بضرورة وقف مثل هذه التجارب الخطرة ، وبالفعل قد أوقفت ، وحسن انها اوقفت ، اذ لو انتشر هذا الميكروب بسمومه ، فان بيئته الطبيعية ستكون امعاء الانسان ، ولا يمكن لامعاء او انسان ان يعيش والسموم القاتلات تنتشر في داخله ليل نهار !

ثم ان امثال هذه البحوث ستكون بمثابة بذرة لادوات تدمير «شيطانية» في بعض معامل انتاج الميكروبات المستخدمة في الحروب البيولوجية .. صحيح ان بعض المعامل قد توقفت الآن بفضل معاهدات دولية ، لكن احدا لا يستطيع ان يضمن مثل هذه المعاهدات على المستوى العالمي ، وما أكثر ما نقض منها ، ولو تم « تفصيل » ميكروب جديد (كما يفصل الناس الملابس على المقاس) ، لاستخدامه في الحروب ، فان ذلك سيكون اشد دمارا في الأحياء من دمار القنابل النووية وما يصاحبها من اشعاع .

ومما يؤيد انتشار هذه البحوث ــ ربما على جميع المستويات ــ ان الشركات الكبرى ــ لتصنيع الادوية قد اسرعت الى تبني بحوث انتاج ميكروبات « مفصلة » لاستخدامها في انتاج سريع وميسر لبعض المشتقات الدوائية الصعبة المنال ، فهناك احصائية تشير الى وجود اكثر من ١٨٠ معملا لبحوث تخليق كائنات جديدة بطريقة هندسة الوراثة المستخدمة ، وان كل هذه المعامل موجودة في الولايات المتحدة وحدها ، وان ميزانياتها تربو على ٢٠ مليونا من الدولارات ، ولا أحد يدري ان كانت كل هذه المعامل والمصانع قد استحدثت الامكانيات الكفيلة بعدم انتشار هذه الكائنات الغريبة في كوكبنا ، أو انها لم تستحدثها .

مزيد من الخوف والقيود القاسية !

ولقد صعدت هذه المخاوف وغيرها الموضوع برمته الى أعلى المستويات ، حتى وصل الى الكونجرس الامريكي ، والى الرئيس جيمي كارتر ، **ولقد تشكلت هيئة برئاسة السناتور ادوارد كيندي لتضع مشروع قانون يحد من حرية العلماء في بحوث هندسة الوراثة** ، ومن المعروف الآن ان هذا القانون سيصدر بعد عدة اسابيع قليلة بعد ان تنتهي الهيئة من وضع لمساته الاخيرة ، ولقد احس العلماء انهم قد اصبحوا لا يملكون التفكير ولا التعبير عن تفكيرهم ونظرياتهم بالتجارب الهادفة .. والا فما فائدة ان تفكر دون ان تعبر او تجرب ، اللهم الا اذا كنت تعيش في مجتمع رهيب يضع الحدود على أفكار الخيرة ممن يملكون زمام العلم وتقدمه ؟ .. وهل هي ردة أو نكسة كالتي اصابت العلم والعلماء في عصور الظلام ؟

ومما زاد الطين بلة ان هذا القانون القاسي سوف يضع القيود الصارمة على نوع التجارب القادمة ، فلا يستطيع معمل او عالم او هيئة ان يجري بحثا الا اذا اخذ ترخيصا من الهيئة العليا المشرفة على هذه البحوث ، واذا حصل على الترخيص ، فلا بد من خضوعه لحملات تفتيشية لترقب ما اذا كانت التجارب تتبع اللوائح بحذافيرها ، واذا ثبت غير ذلك ، فان الغرامات سوف تصل الى عشرة آلاف دولار عن كل يوم انتهكت فيه التشريعات المقيدة لتلك البحوث !

ولاشك ان هذه اول مأساة يتعرض لهـا الفكر العلمى فى عصرنـا الحالي ، وطبيعى ان العلماء لم يقفوا مكتوفى الايدى ، فكان ان دعوا الى مؤتمر عاجل لينا قشوا امورهم ، وانعقد هذا المؤتمر بالفعل فى الاسبوع الثانى من يونيو الماضى (١٩٧٧) ، وكان ذلك المؤتمر نفسه ـ مؤتمر جوردون ـ قد عقد قبل ذلك بأربـع سنوات ليتحدث العلماء الى العلماء عن آفاق هندسة الوراثة ، وما يمكن ان يكـون لها او عليها ، وهم بهذا يعرفون ما لهم وما عليهم ، وانهم يتعاملون مع ضمائرهم ، ولا يفرطون في الامانة الملقاة على عاتقهم ، ويدركـون كيفـ يتخذون السبل الكفيلة بعدم الاضرار بشعوبهم دون وصاية من أحد ، او نصيحة من مخلوق بل هم أوصياء على أنفسهم ، ولابد ان تنبع النصيحة منهم .

لكن هذا المؤتمر ـ مؤتمر جوردون ايضا ـ المنعقد فى نيوها مبشاير من ذلك العام يختلف عن سابقه ، ففيه يحاول العلماء الافلات مـن قبضة من يريدون تنصيب انفسهـم اوصياء عليهم ، ويطالبون بحريتهم فى بحوثهم ، مـع التزامهم بشرف مهنتهم ، وانتهى المـؤتمر ـ بعد مناقشات ساخنة ـ الى كتابة صيغـة خطاب مفتوح الى الكونجرس الامريكي (وقد نشر ايضا فى مجلة العلم الامريكية وانتقل منها الى المجلات العلمية الاخـرى ، وايضا الـى الصحافة) ، وقد وقعه ١١٠ عالما من المائـة والستين المشاركين فى هذا المؤتمر (وفى نهاية المؤتمرات ينصرف البعض لارتباطهـم بمهام اخرى ، ولهذا فان عدد غير الموقعين لا يدل على عدم موافقتهم ، بل لانصرافصهم) .

ولقد كان هوارد جورمان (وهو الذي وضع جينة انسولين الفأر في البكتريا بغرض انتـاج الانسولين كما سبق ان اوضحنا) هو المحرك الاول للمؤتمر ، وهو الذي اوعز الى المجتمعين ان يرسلوا الى الكونجرس خطابا شديدا ، فكان ان تكونت هيئة تضم دكتور والي جيلبرت ، ودكتور ديفيد بوتستاين ، وكلاهما من معهد ماساشوسيتس التكنولوجي ، ودكتور فريد بلانتر من جامعة واشنطن ، مع دكتور هوارد جوردون (الذى أشرنا اليه) ليكتبوا صـيغة الخطاب ، هذا فى الوقت الذى كان فيـه ١١ عضوا منتخبين من قبل الرئيس الامريكـي كارتر يضعون قانون تقييد تلك البحوث منهم ستة خبراء فى مجالات الطب والقانون والاخلاق والشئون الاجتماعية المختلفة ، وليس لهم المام بشئون بحوث جزئيات الوراثة ولا يتبعـون الهيئات الممولة لتلك البحـوث ، والخمسـة الباقون من العلماء ، لكن ليس مهما ان يكونوا من المشاركين فى الوراثة) .

ولقد جاء فى الخطاب المفتـوح الـذي اقره مؤتمر بحوث الوراثة الاخير ما يلي : « اننـا قلقون لان الفوائد التي ستتمخض عنها بحوث اعادة جمع » « حدن » (وهو اختصار لاسـم جزئيات الوراثة .. اي حامض دي أوكس ريبونيوكليك) سوف تنكرها الدولة وتحرمها من خلال تشريع قاس لا داعى له . فمنذ أربع سنوات مضت كان اعضاء مؤتمر جوردون ـ الخاص بمناقشة موضوع الاحماض النوويـة عام ١٩٧٣ ـ هم أول من أثاروا اهتماما عامـا بالاخطار الممكن حدوثها من جراء بحوث اتحاد جزئيات حدن ، ولقد تمخضت المناقشات التي دارت فى هذا الاجتماع عن ورقة عمل وضعتها المعاهد القومية للصحة في عام ١٩٧٦ لرسـم الخطوط العريضة لهذه البحوث » .

« اننا نحن اعضاء مؤتمر جوردون عام١٩٧٧ لبحوث « حدن » قلقون من جراء التشريـع الذي قد يوافق عليه الكونجرس أو الولايات أو السلطات المحلية ، اذ ان هذا التريع سيكون غير عملى وصعب التطبيق ولا يمكن التنبؤ بما جاء به ، مما سيشكل خطورة بالغة على تثبيط البحوث فى هذا المجال ،ثم اننا نشعر ان الحافز لمثل هذا التشريع هو التهويـل او المبالغة فى الاخطار الافتراضية الناتجة عنذلكالتشكك» .

« ان هذا الاجتماع قد اوضح امكان بزوغ الكثير من المعرفة الحقة الناشئة عن اتحاد جزيئات حدن . ثم ان الخبرة التي مارسناها طوال السنوات الاربع الماضية قد اعطتنا المؤشر بانعدام وجود اي خطر حقيقي . لهذا فان القيود التى فرضت على العلم الآن والتى لم يسبق لها مثيل لا مبرر لها » .

« واننا نطالب الكونجرس بالحاح ان يضع هذه الآراء فى الاعتبار ، واذا رأى الكونجرس ان التشريع ضروري ، فعليه ان يكون متسقا بحيث لا يعوق تقدم مثل هذه البحوث » .

صعوبة لغة الحياة وتصحيح مفرداتها !

والواقع ان معظم العلماء حريصون على الاستمرار فى بحوث هندسة الوراثة ، فاذا كانت هناك اخطار ، لكانوا اول ضحاياها ، فهم اقرب الناس حقا ـ بحكم عملهم ـ لهذه الاخطار ، وان يخاطر الانسان بنفسه من اجل الوصول الى الحقيقة ، فذلك ـ بلا شك ـ يدعو الى الاكبار لا الى الانكار ، فهم ـ أي العلماء ـ يشعرون بمرارة من هؤلاء الذين ينكرون عليهم معرفة قد تنطوي على فوائد كبرى لمستقبل الحياة على هذا الكوكب .

فمعرفة لغة الجينة تؤدى الى معرفة الخطأ الذى قد تقع فيه .. فمرض السرطان الرهيب ليس معروفا حتى الآن ، لاننا مازلنا نجهل لغة الحياة المسجلة على شرائطها الوراثية ، وكلما عرفنا تفاصيل اكثر ، وضحت امامنا الحقائق اعظم .

وفى الحديث الشريف « من تعلم لغة قوم امن شرهم » .. صحيح ان هذا الحديث ينطبق على البشر ، ولكنه ينطبق ايضا ـ بمفهومنا الحديث ـ على الخلايا التي لا تصدر منها همسة ولا كلمة ولا شىء مما يدور في عالمنا ، ولكنها تحتوي على اعظم قاموس وراثي كيميائي .. قاموس به لغة ذات حروف اربعة متراصة بنظام بديع ، ولا يقرأ هذه اللغة العجيبة الا نفر قليل جدا من العلماء الذين وهبوا انفسهم وحياتهم ليفكوا **الف باء** الحياة .. صحيح انهم قد يقضون سنين طويلة ، او ربما العمر كله فى لغة « فقرة » كيميائية فى جينة ، لكي يعرفوا منها امر البروتين ، ولقد توصلوا ـ فى هذا المجال ـ الى فك شيفرة عشرات البروتينات المختلفة ، ومنها جزىء الهيموجلوبين الموجود فى الدم ، فهذا وحده يتكون من ٦٠٠ حامض اميني مختلف (عدد انواع هذه الاحماض عشرون ، وهي تؤلف « حروف لغة » البروتينات) ، والذي يجمعها فى هذا الجزىء العملاق اكثر من ١٨٠ شفرة وراثية مرصوصة على شريط غير منظور، ولنتصور التيه الرهيب الذي يعيش فيه العلماء وهم يقراون سطرا او شريطا عليه كل هذا العدد غير المنظور .. وطبيعي ان اجسامنا تحتوي على اكثر من مائة الف نوع مختلف من البروتين ، ولكل منها شريطه .. ثم ان اى خطأ فى ترتيب الشفرة الكيميائية ، او استبدال حرف بحرف (اي شفرة وراثية محل اخرى) ،سوف يؤدي حتما الى مرض وراثي .. هذا ولقد اكتشف العلماء حتى الآن أكثر من الف مرض وراثى بسبب هذه الاخطاء التي تتعرض لها الجينات ، وكأنما وهم يتعمقون في فهم لغة الجينات ، او معرفة خط تشغيلها ، يريدون ان يصلحوا للحياة اخطاءها ، أو يصححوا لها هفواتها ، أو يجرون ادق عمليات جراحية لاحلال الصحيح محل الخطأ ! .

لكن المتاهات الضخمة جدا فى خلية الانسان تمنع تشغيل هندسة الوراثة فيها ـ الآن على الاقل ، أو ربما تمنعها لاجيال طويلة قادمة ، فصعوبة التطبيق فوق ما نتصور ، وطبيعي ان أمل العلماء لا يتركز الآن على الانسان ، بل يريدون اولا ان يتعلموا اللغات البسيطة ،وهذه ميسرة وموجودة فى الكائنات الدقيقة ، وعلى هذه الكائنات بدأت البحوث حقا .

ومع ذلك فالعلماء يأملون في دراسة هندسة الوراثة في الخلايا السرطانية ، والخلية السرطانية كانت في الاصل خلية عادية عاقلة ، لكنها اصيبت بالجنون ، والجنون في البشر والحيوان يتركز في المخ ، وكذلك الحال مع الخلية ، فمخها هو نواتها ، وفي النواة تحفظ الشرائط الوراثية ، ولا بد ان يكون احد هذه الشرائط قد تعرض لشيء من التبديل ، والتبديل أمر جد خطير ، اذ قد يؤدي الى اعطاء أوامر خاطئة تفقد الخلية توارثها ، فيصيبها جنون التكاثر دون ضابط او رابط ، فيظهر على اساسها ورم خبيث .. وطبيعي ان البحوث في هذا المجال ليست سهلة كهذا الكلام ، بل هي في الواقع اكثر غموضا من الغاز السماء او اي شيء آخر في الكون .. لكن البداية تكون دائما متواضعة ، ثم تتطور الى الاحسن دائما .

أي ان غاية القصد من هذه البحوث هو انقاذ الانسان من عذابه وآلامه الناتجة من خطأ في احدى شرائط حياته ، وهندسة الوراثة — حتى ولو بدأت على الميكروبات المطعمة ببعض جينات الانسان — كفيلة بارتياد هذه الآفاق المجهولة لمعرفة طوفان زاخر من الاسرار التي لا تنتهي أبدا .

● ● ●

آفاق عظيمة تفتحها هندسة الوراثة .

لكن العلماء يأملون فيما هو انفع واجدى ، اذ من خلال هذه البحوث يستطيعون عزل واختيار وزرع الجينات المحمودة من كائن الى كائن آخر يستطيع ان يعبر عنها نقل اليه بطريقة اكفأ واسرع واجدى .

ولكي نوضح نقول : ان هناك قلة قليلة من الميكروبات التي تمتلك خط تشغيل جيني لاصطياد النيتروجين الجوي وتثبيته في سلسلة من العمليات الكيميائية الهامة ، وهي تقوم بهذا العمل دون ضجة او اعلان او اشراف من أحد ، وهو نفس العمل الذي تقوم به بعض صناعات الاسمدة الضخمة ، لكن هذه الصناعات تتكلف طاقة وجهدا ومالا ، ومع ذلك فنحن في حاجة ماسة اليها لكي نمد محاصيلنا بما تحتاجه من سماد .

والى هنا تراود العلماء بعض الآمال فيتساءلون : لماذا لا ندرس الجينات المسئولة عن صناعة السماد في الميكروبات ، ونعرف هندسة خط التشغيل الوراثي فيها ، فننقله الى معظم الميكروبات التي تسكن الثرى ، او تنتشر في مياه البحار والمحيطات ، فيعم الخير ، ويتضاعف الطعام ، ليسد بلايين الافواه الجائعة التي سيزدحم بها هذا الكوكب في الاجيال القادمة)

ولو تم ذلك دون مشاكل جانبية ، لكان هذا بحق اضخم واروع هدف يحققه العلماء منذ بدء الخليقة حتى الآن .. ذلك أن معظم ميكروبات الارض والبحار سوف تتكفل بتسميد هذه الرقع الهائلة تسميدا يجعل الناس يحمدون الله على ما آتاهم بفضل هؤلاء العلماء ، اذ مما لا شك فيه أن الانسان خليفة الله على الارض ، والعلماء هم حاملو راية هذه الخلافة بحكم سعيهم الدائب نحو الحقيقة ، وما تتمخض عنه غالبا من خير ورفاهية وتيسير لامور الانسان .

فعدد انواع الكائنات الدقيقة التي «تصطاد» النيتروجين الجوي وتثبته لصالحها ولصالح النبات والحيوان والانسان قد لا يزيد على عشرة انواع ، هذا وهناك عشرات الالوف من الكائنات غير المنظورة التي تعتمد على غيرها في نيتروجينها لبناء بروتينها ، اذ ان النيتروجين هو اساس البروتين الذي تقوم عليه كل صور الحياة ، ولو امكن السيطرة على تشغيل عدد لا بأس به من الميكروبات في تثبيت النيتروجين الجوي عن طريق وصل خط تشغيلها الوراثي بخط التشغيل الوراثي (أو الجينات) المعزول من اترابها (اي الكائنات الطبيعية التي تثبت

هذا الغاز) ، لتضاعف انتاج السماد ، ولاغلقنا كل المصانع التي انشأها الانسان لهذا الفرض، وعندئذ تصبح هندسته وآلاته شيئا بدائيا ومتواضعا بالنسبة لهندسة الوراثة، يريد السيطرة عليها وتوجيهها لصالح الحياة !

ان احدا ـ فى وقتنا الحاضر ـ لا يستطيع تسميد البحار والمحيطات ، حتى ولو اشتغلت لها اضعاف ما يملك الانسان من مصانع السماد ، ذلك ان هذه المسطحات الهائلة من المياه اكبر مما نتصور ، فيها اكثر من ١٤٠٠ مليون طن من الماء ، وتركيز النيتروجين فيه لا يتعدى نصف جزء فى المليون فقط ، ولهذا كان ذلك الغاز الهام (أو مركباته) من العوامل التي حدت من خصوبة البحار ، ولو أمكن مضاعفتها من خلال خطوط التشغيل الوراثية المنقولة الى بعض الميكروبات السائدة فى تلك المياه ، لتضاعفت تبعا لذلك خيرات البحار ، ولأعطتنا باليمين وباليسار .

الفكرة بلا شك جميلة وجذابة وتدعو للانبهار ، وتبشر أيضا بآمال عراض ،الا اننا تحفظا وحيدا نسجله هنا لما قدتأتي به الايام.. فزيادة خصوبة المياه من خلال الكائنات الدقيقة المزمع تخليقها قد يؤدي على المدى القصير او الطويل الى خلخلةفيالتوازن الطبيعي والحيوي الذي عرفته الارض منذ آلاف الملايين من السنين ، وقد ينتج عن ذلك ان تتحول البحار الى « شوربة » غريبة لا يفوح منها الا كل ما هو كريه وفاسد ، ذلك ان زيادة العناصر عن مقنناتها المضبوطة (وخاصة مركبات النيتروجين) ، سوف يؤدي الى تغيير لا يعلم مداه الا الله،فلوا اشتغلتالميكروبات الجديدة، وزادت تبعا لذلك العناصر الغذائية ، فان المستفيد الاول بها ستكون الصور الدقيقة للحياة ، وسوف تتكاثر هذه دون رابط او ضابط ، وكلما زادت العناصر الغذائية ، زادت تبعا لذلك أعداد هذه الكائنات ، وهنا نقول ان الانسان قد لوث البحار بما ليس فيها ، فالتلوث يقود الى اخلال التوازن ، واخلال التوازن يؤدي الى التلوث .. أي ان هذا ينبع من ذاك ، وعندئذ قد يقول الانسان ، فلندع ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر .. لكن قد يقولها بعد فوات الاوان،وعندئذ لا تنفع صلوات ولا دعوات لاصلاح خلل جسيم لا يقدر عليه الانسان .

الا ان هناك فكرة اخرى ـ فى هذا المجال ـ قد لا تنطوي على اخطار جانبية ، فبدلا من زراعة جينات خطوط تصنيع السماد فى الميكروبات،لتمد بها ـ اي الميكروبات ـ غيرها من كائنات لا تستطيع تصنيعه ، بدلا من ذلك ، قد يمكن تحقيق زراعة هذه الجينات راسا فى النباتات التي نمدها من عندنا بالسماد . بمعنى اننا قد نختار نبات القمح او الذرة أو الارز أو اية شجرة من أشجار الفواكه ... الخ ، ونحاول « غرس » جينة او اكثر فى خططها الوراثية ، من خلال خلية معزولة من اي من هذه النباتات ، ثم نحاول دفع هذه الخلية الجسدية الى التحول الى نبات يافع ليزهر ، فينتج بذوره وثماره التي تحتوي بدورها على الخطة الوراثية المتكلفة بتصنيع السماد من نيتروجين الهواء ، فاذا زرعنا هذه البذور ، فقد تكون البداية الحقيقية لنباتات يافعة قوية غنية بالبروتينات ،وفوق كل هذا لا تحتاج الى سمادنا ، بل هي تسمد نفسها بنفسها ، وفى الوقت ذاته تسمد ارضنا من خلال ما يعود الى هذه الارض من بقايا تلك النباتات ، اسوة بما يحدث الآن مع النباتات البقولية ، فهذه تستطيع ان تعيش عيشة تكافلية مع بعض انواع البكتريا التى تصنع السماد من نيتروجين الهواء ، فهى ـ اى البقوليات ـ تكفل لها حياتها بامدادها بالسكريات التى لا تستطيع لها تصنيعا ، والبكتريا تكفل لتلك النباتات الخضراء مددا من سماد يظل ساريا ما دامت حياتهما قائمة معا، فاذا وصل النبات الى نهاية حياته ، توقفت عملية التكافل ، وتتحلل بذلك جذور النباتات بما عليها من عقد بكتيرية غنية بالمواد

النيتروجينية ، فتستفيد به الارض كسماد لمحصول قادم .

لكن ان ننقل هذه الفكرة وراثيا داخل تكوين النباتات ذاتها عن طريق بحوث هندسة الوراثة الحالية ، ليتكفل كل نبات بنفسه ، دون الاعتماد علينا ، لو حدث ذلك لكان فاتحة لعصر يختلف فى جديته واثارته عن كل العصور الماضية ، وسيكون ذلك اكثر فائدة من اصلاح الاخطاء الوراثية فى الانسان ، كما انه سيكون ــ نسبيا ــ اسهل منالا ، واعظم عطاءا .

يكفى ان نذكر هنا ان واحدة من الحسابات التى اجراها بعض العلماء تقول : انه بحلول عام ٢٠٠٠ فان ارضنا الزراعية سوف تحتاج الى سماد تصل قيمته الى اكثر من مائة الف مليون دولار ! .. وعلينا ان نقارن ذلك بمائة مليون دولار فقط ــ هى تكلفة بحوث هندسة الوراثة لتطبيقها بكفاءة فى النباتات ، والاختيار هنا امر سهل ، فانتاج نباتات « مفصلة » على الجاهز لتصنيع سمادها ، اوفر واكفا حتما من انتاج سماد المصانع المكلف .. هكذا يعلق دكتور جيمس دانيللى رئيس قسم البيولوجيا النظرية بجامعة نيويورك !

● ● ●

اداة لتصنيع الدوائيات والفيتامينات والهرمونات

على ان هناك آمالا اخرى تتعلق بكثير من الصناعات ، فتصميم المصانع والآلات وهندسة الانتاج التى ظهرت مع ظهور عصر الصناعات الثقيلة والآلية هى من عند البشر ، وتصميم « آلات » الحياة الجزيئية الدقيقة هى من عند الله الذى اتقن كل شىء صنعا ، وطبيعى انه لا وجه للمقارنة بين هذا وذاك ، ولهذا لجأ العلماء الى ما صنع الله ، ففيه كنوز لا تفنى ، لكن هذه الكنوز لا تنفتح الا للعقول التى تبحث عن اسرار الخالق المبدعة ، ثم انها لا تفصح عن مكنونها من اول طرقة ، ولا تستجيب الا لكل باحث دقيق صبور ، فسر الجينة او الجينات هو حجر الاساس فى كل المخلوقات لان كل جينة ــ كما سبق اوضحنا مرارا ــ مسئولة عن كل صفة تظهر بعد ذلك فى المخلوقات ، والجينة لا تشتغل بذاتها ، ولا تكفى ، بل لا بد من معرفة دقيقة ايضا « بالمفاتيح » الكثيرة التى تفتح فيها مراكز تشغيل ، وتغلق اخرى .. مثلها فى ذلك كمثل شريط التسجيل فى عالمنا ، فالشريط بذاته لا قيمة له ، ولا كذلك لما هو مسجل عليه ، ولكى نوضح مضمونه ، فلا بد من آلة التسجيل المعقدة لتظهر ما خفى فيه !

ومن خلال طوفان هذه الاسرار العويصة والمتداخلة والمعقدة يأمل العلماء فى الاستعانة بما خلق الله فى كائناته ، ليخلقوا بها صناعات جديدة لم تظهر على الارض قبل الآن (يستثنى من ذلك طبعا الكائنات الحية) ، ولكى تنجح اية صناعة من الصناعات ، فلا بد من اخذ سرعة الانتاج وتكلفته فى الحسبان ، ثم انتقاء الجينة المناسبة ، لوضعها فى الكائن المناسب ، لتشغيلها فى البيئة المناسبة فى تجهيزات صناعية من ابداع الانسان ، وهذا يعنى ان هناك هندستين : هندسة وراثية وهى الامر الاصعب والابعد منالا ، وهندسة ميكانيكية وانشائية ، وهى الاسهل !

وليس كالميكروب اداة حية فى سرعة التشغيل والانتاج ، ذلك انه ــ اى الميكروب ــ لو وجد البيئة المناسبة ، فان ذريته تتضاعف كل نصف او ثلث او حتى ربع ساعة ، وهذا بلا شك سيؤدى الى انتاج كميات خيالية من المادة الحية فى اليوم الواحد ــ كميات قد تصل بلايين فوق بلايين من الاطنان ، اذ كلما اردت محصولا اكثر ، فعليك ان تمدها بغذاء ميسر .

لكننا لا نريد مادة الميكروبات العضوية (اللهم الا اذا كان ذلك بغرض انتاج محصول

وافر من البروتين والدهون وما شابه ذلك لتحويله الى علف للحيوان ، او طعام غنى بالبروتين للانسان) .. بل نريد بدلا منها مركبات كيميائية محددة من الصعب تصنيعها فى المعامل ، او تصنع بصعوبة ، مما يؤدى الى ارتفاع اسعارها ، لكنها ـ اى هذه المركبات الغالية ـ تصنع فى الكائنات الحية بسهولة قد نحسدها عليها ، فهى من قديم الزمن تمتلك شرائط وراثية تطبع منها نسخا او خطط عمل خاصة لتصنع فيها تلك المركبات ، ولهذا فان لعاب علماء هندسة الوراثة يسيل على تشغيل هذه الخطوط من خلال تحكمهم فيها بعيدا عن الكائنات الحية ، اذ ان الكائن الحى يصنع هذه المركبات بحساب ومقدار ، وغالبا ما يحتاج منها كميات جد ضئيلة ، فبعض الهرمونات والفيتامينات والمركبات المسيطرة على اطلاق الاشارات العصبية فى امخاخنا .. الخ ، قد لا يزيد تركيزها عن عدة اجزاء من الف جزء من الجرام ، او ربما من مليون جزء من الجرام ، ثم ان اجسامنا بدورها لا تستطيع ان تصنع بعض هذه الفيتامينات ، ولا بد ان تحصل عليها من الطعام .. اضف الى ذلك ان استخراج بعض هذه المركبات من مصادرها يتطلب عمليات كيميائية عويصة فيها ضياع الجهد والمال .

ومن هذا المنطلق يامل العلماء فى العثور على هذه الجينات فى كائناتها ، ثم عزلها منها ، ووصلها فى الشريط الوراثى لميكروب ، فاذا انقسم انقسمت معه بسرعته الكبيرة المعهودة ، وهذا يعنى اننا سنحصل فى نهاية الامر على بلايين النسخ من الجينة المطلوب تشغيلها ، لكن هذه النسخ ـ رغم نجاح زراعتها وتكاثرها ـ قد لا تجود بانتاجها ، ولا بد ان يهيىء العلماء لها الجو المناسب ، او « الملحقات » الكيميائية التى تسيطر على تشغيل الخطة واعطاء الامر لانتاج المادة الكيميائية المطلوبة ، او قد يتوصلون الى السر الكامن وراء تشغيل الخطة او ايقافها فى خلاياها الاصلية (اى دون اللجوء الى نقلها الى الميكروبات) ، وعندئذ يستطيعون « الضغط » على «زرارها» لتنطلق العمليات دون توقف ، وبهذا يدوم الانتاج كما يشاء العلماء ، لا كما تشاء الخلايا ، اذ ـ من خلال هندسة الوراثة ـ سيصبح الامر بيد الانسان ، لا بيد الحياة !

ولو سيطر العلماء على هذه العمليات حقا ، فسوف تعيش الارض فى خيرات قطوفها دانية ، ولن يشكو الناس فقرا ولا مسغبة ، ولكى نوضح ذلك اكثر كان لا بد ان نتعرض لاضخم واعظم عملية تتوقف عليها حياة كل الكائنات على هذا الكوكب .

التحكم فى عملية التمثيل الضوئى :

لا شك ان النبات الاخضر هو المستفيد الاعظم بالاشعة الشمسية ، وهو القادر على استغلال طاقتها ، وتحويلها الى طاقات كيميائية مختزنة فى الجزيئات العضوية التى تتكون فى كل الكائنات الحية ، وعندما تحترق هذه الجزيئات او تتفكك الى وحدات جزيئية اقل ، فانها تطلق طاقاتها داخل الخلايا والمخلوقات لتستفيد بها فى ادارة كل عملياتها البيوكيميائية .

وعملية تحويل الطاقة الشمسية الى طاقة كيميائية فى النبات الاخضر يطلق عليها اسم التمثيل الضوئى او الكلوروفيلى .. وهى اضخم واكبر عملية حيوية على الاطلاق ، اذ يدخل فيها سنويا مئات الالوف من ملايين الاطنان من غاز ثانى اوكسيد الكربون مع مئات الالوف من ملايين الاطنان من الماء ، لانتاج كل صور المادة العضوية فى جميع الكائنات الحية .

ولقد درس العلماء هذه العملية بالتفصيل ، وما زالت بعض اسرارها غامضة حتى الآن ، ويأمل العلماء فى معرفة تفاصيل لغة الجينات التى تسيطر على تصنيع جزيئات الكلوروفيل فى النباتات ، وهم يأملون ادخال هذه العملية

تحت بنود بحوث هندسة الوراثة الجزيئية ، ليزيدوا من كفاءتها وسرعتها وتمثيلها ، اذ ان النباتات لا تستطيع الآن ان تستفيد باكثر من نصف بالمائة من الطاقة الشمسية ، ولو ضاعف العلماء ـ بطريقة او بأخرى ـ استفادة النباتات بهذه الطاقة ،لتضاعف انتاجها تبعا لذلك ، ولاعطت ثمارا وحبوبا وانتاجا يسر الناظرين.

او قد يدفع العلماء النباتات ـ من خلال بحوث هندسة الوراثة ايضا ـ الى الاسراع فى معدلات نموها ، بمعنى ان يختصروا الفترة التى يمكثها النبات فى الارض (لكى يجود بمحصوله) الى النصف او الثلث او الربع ، وبهذا يمكن زراعة الارض باكثر من ثمانية او عشرة محاصيل سنويا .. كل ما هنالك ان يتعمقوا فى الضوابط التى تسيطر على خط التشغيل الوراثى ، ومن هنا قد يفتحون العيار على اخره،اسوة بما يحدث فى السرعات المختلفة التى يمكن ان تنطلق بها اية آلة او سيارة ، فان شئت اسرعت بها ، وان شئت ابطات ، فلكل امر هنا تحكم آلى هندسى ، وهكذا ربما تتطور بحوث هندسة الوراثة ، وتسرع بعمليات الكائنات ، او تبطىء فيها من خلال خطوط تشغيلها .

والواقع ان هناك كثيرا من الآمال المعقودة على هندسة الوراثة .. صحيح ان الصعاب التى تكتنفها ليس لها حدود ، وان تداخل العمليات الحيوية المعقدة قد يصيب اعظم العقول بالحيرة والغثيان ، لكن حماسة العلماء، وجاذبية اسرار الحياة ، والتنافس العظيم الكائن بين معامل البحوث والجامعات ، والميزانيات الكبيرة التى ترصدها الدول الغنية لبحوث الحياة .. كل هذا وغيره كفيل بالاسراع فى تحصيل كنوز هائلة من المعرفة لكى نغزو بها هذا العالم المثير ، ومما يشجع على ذلك ان ما ينشره العلماء الآن من بحوث في سنوات ، يساوى كل ما نشره الاسبقون فى عشرات او ربما مئات السنين ، وهذا قد ينبئك بأن مفاجآت المستقبل القريب أو البعيد قد تكون اغرب من تصورات البشر وخيالهم ، فكل شىء يتطور الآن بسرعة مذهلة ، « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » !

هندسة الوراثة قد تحور فى انسان المستقبل !

على ان هذه البداية المثيرة والعظيمة فى بحوث هندسة الوراثة ، ثم استجابة بعض الكائنات لمساعى النخبة الممتازة من علماء هذا الزمان ، ثم النجاح المبدئى الذى تحقق،فشجع الرجال على خوض جميع التحديات .. كل هذا وغيره قد اثار فينا بعض الخيال ، ورب فكرة تكون اليوم خيالا ، فتصبح حقيقة فى المستقبل القريب او البعيد ، فما اكثر الافكار الخيالية التى تحققت بالمساعى العلمية الحميدة.

اذن ـ فماذا يدور فى العقل من تصورات ؟

ان النفس تراودنى ، والعقل يحاورنى ، والخيال يداعبنى بان بحوث هندسة الوراثة قد تذهب ـ بعد مئات السنين ـ الى ابعد مداها ، وتحاول التلاعب بجينات الانسان ، وتفصلها حسب هواها ، فتضيف اليها ، او تحذف منها ما تشاء ، على اساس ان تبقى للانسان صفاته الطبيعية ، بالاضافة الى صفات اخرى نقلت اليه من كائنات شتى ، ليصبح مخلوقا يجمع صفات الانسان والنبات ، او بعض صفات حميدة من الحيوانات !

فانسان المستقبل الناتج من تشغيل خطوط وراثية اخرى قد لا يلتهم اللحوم ولا الدهون ولا النشويات ولا اى نوع من انواع الاطعمة الصلبة ، وقد ينظر الى تاريخنا وعاداتنا الماضية ، بعد ان نكون قد انقرضنا كنوع رمام يعيش على اجساد غيره من نبات وحيوان .. قد ينظر الينا ويقول : كم كانوا متوحشين هؤلاء الذين عاشوا فى القرون الماضية !

فانسان القرون القادمة قد يتحول الى انسان كلوروفيلى او اخضر اللون ، هذا لو تصورنا مثلا ان العلماء قد وضعوا فى خط

تشغيله الوراثى الجينات المسئولة عن صناعة الكلوروفيل ، وانه من خلال بحوث عميقة وطويلة ومضنية قد امكن تشغيل هذه الجينات، لتنتج المادة الخضراء التى تنتشر على بشرتنا، جنبا الى جنب مع مركبات الدماء ، وما على الانسان لكى يشبع الا ان يعرض جسمه للشمس قليلا او كثيرا ـ يتوقف ذلك على درجة جوعه، فاذ بهواء زفيره يتحول الى مركبات سكرية، وهذه قد تختزن على هيئة نشا حيوانى او دهون .

وماذا اذن عن البروتين او اللحوم ؟

قد ينجح العلماء فى نقل الجينات التى تستطيع تحويل الاملاح النيتروجينية الى مركبات بروتينية ـ تماما كما يفعل النبات ، ولهذا يكفى هذا النوع الانسانى الجديد (او الانسان الاخضر) مشروب خاص مضاف اليه تلك الاملاح او هذا السماد الانسانى ، مع مزجه بمواد ذات نكهة طيبة ليكون المحلول لذة للشاربين !

وقد تأتى السلالات البشرية بروائح عطرية طيبة ، فبدلا من هذا العرق الذى يظهر على جلودنا ، وقد يتحول ـ بالاهمال ـ الى روائح فيها بلاء للمستنشقين ، بدلا من ذلك قد يعرق الجسم بنفسجا او وردا او ياسمينا .. الخ ، والفضل فى ذلك يرجع الى هندسة الوراثة التى استطاعت ان تزرع جينات الروائح العطرية ـ كلا على حدة ـ فى الخلايا البشرية!

اننا بلا شك مقبلون على عصر قد تتحقق فيه امور لا تطرأ على عقل بشر ، ولقد وضع الانسان الحالى البذرة، وسوف ترعاها الاجيال القادمة بالتهذيب والصقل والتطوير ، حتى تؤتى ثمارها ، وانا لمنتظرون ، ونرجو الا يطول الانتظار ، لنرى تحقيق بعض هذه الامال الكبار ، ولنعلم ان كل شىء يسير بحساب ومقدار ، ولا يدرك ذلك تمام الادراك، الا كل من بحث فجمع فأوعى فعرف فقدر الله حق قدره . . **« وما قدروا الله حق قدره »** ، فابداع خلقه يمتد امام عقولنا وعيوننا بغير حدود ، « ولكن اكثر الناس لا يعلمون » .

* * *

المراجـــع

١ ـ دكتور عبد المحسن صـــالح : « اليـــوم ضفدع وغداً انسان » ، آفاق عربية (العراق) عدد ٧ (١٩٧٦) .

2. Bennet, W. and Gurin, J.,; "Public and Science Regulation". The Atlantic (Monthly) Febr. 1977.

3. Cohen, S.W. „The Manipulation of Genea". sci. Amer. Vol. 233. No. 1. 1975.

4. Ched, G., „Genetic Engineers discuss and our Future". New Sci. Vol. 65 No. 939 1975.

5. „Threat to U.S. Genetic Engineering". New Sci. Vol. 71 No. 1007 1976.

6. Davis, B.D. and Wald G. „Genetic Engineering Debated by a Spirited Pair". Sci. Dig. Vol. 81 No. 6 1977.

7. Hogness, D.S. „Human Use of Genetica", In The Great Advernture. Perennial Labr. 1974.

8. Holliday, R,., ‚Should Genetic Engineering be Contained? New Sci. Vol. 73 No. 1039 1977.

9. Hyde, Margaret. The New Genetica. Pub, Franklin Vette, New York, 1974.

10. Jones, A. and Bodmer, W., Our Future Inheritance : Choice or Chance? Oxford University Press 1974.

11. Lewin R., „The Future of Genetic Engineering". New Sci. Vol. 64 No. 919, 1974.

12. "U.S. Genetic Engineering in a Tangled Web". New Sci. Vil. 73 No. 1043 1977.

13. „Scientists blacklash against U.S. legislation on DNA" New Sci. Vol. 74 No. 1057 1977.

14. Michael W. Berns. "The Carbon-copy world of cloning". Encyc. Brit. Yearbook of Science and the Future 1975.

15. Shinsheimer, R. "An Evolutionary Perspective for genetic Engineering". New Sci. Vol. 73 No. 1035 1977.

16. Singer, Maxine " Gemetic Engineering. Four Year on Scientists and the Control of Science. New Sci. Vol. 74 No. 1056, 1977.

17. Time Special Report : Tinkering with Life. Vol. 109 No. 16, 1977.

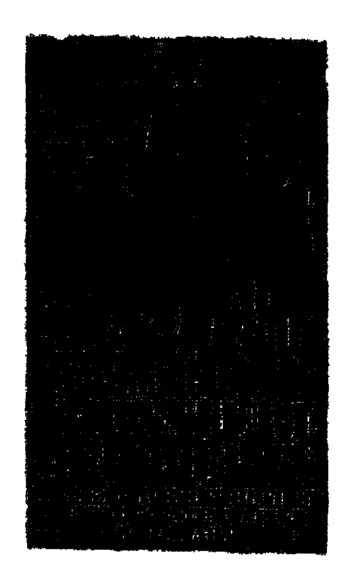
18. Tooze, J. "Genetic Engineering in Europe" New Sci. Vol. 73 No. 1642, 1977.

13. Wade, N. „Hazzards and Restraints in Genetic Engineering" Science Vol. 195 1977.

20. Ziff, E. „Benefits and Hazzards of Manipulating DNA", New Sci. Vol. 60 No. 869, 1973.

★ ★ ★

عرض الكتب



طبيعة الفقر

عرض وتحليل : الدكتور يحيى فايز الحداد

على الرغم من العنوان المضلل الذى يحمله هذا الكتاب الا أنه يقدم لنا دراسة تفصيلية للتغير الاجتماعي والاقتصادى الذى تعرضت له قرية افريقية من قرى جامبيا خلال الفترة الواقعة بين ١٩٤٧ و ١٩٧٤ . لقد شاركت مؤلفة هذا الكتاب فى دراسات ميدانية اجريت فى هذه القرية عامى ١٩٤٧ و ١٩٦٢ ، أما الدراسة التى يتضمنها هذا الكتاب فقد قامت المؤلفة باجرائها عام ٧٣ ــ ١٩٧٤ . ومما يعطى لهذه الدراسة نوعا من التفرد والتميز هو استخدام المؤلفة لنفس الفريق الميدانى الذى اشترك معها فى الدراستين السابقتين ، وكذلك اتباع طرق القياس الكيفية والكمية التى استخدمتها فى دراستها الاستطلاعية عام ١٩٤٧ .

ان صورة التغير الذى تلقى هذه الدراسة الضوء عليها هى صورة قاتمة وكئيبة ، فالتغير التكنولوجى الاساسى الذى تم احداثه خلال ربع قرن هو استخدام الماء كمصدر للطاقة وتطوير الحصول على الطاقة الحيوانية ، هذا بالاضافة الى الطاقة الانسانية التى يمتلكها المجتمع . وبينما كان يفترض ان يؤدى ذلك ــ من حيث المبدأ ــ الى زيادة كبيرة فى كمية الطاقة الجديدة المكتسبة نظرا لتعاظم الامكانيات المتوفرة لانتاج هذه الطاقة ، الا ان الشواهد الامبريقية التى اكدتها هذه الدراسة تشير الى استمرار فقدان الرأسمال الانسانى القادر على الانتاج نظرا للاهمال الشديد الذى تتعرض له هذه الطاقة الانسانية ، وظهور طبقة جديدة فى القرية تتحكم بالمجتمع وبموارده . فالارصدة المتوفرة أصبحت تنفق ــ وبشكل متزايد ــ لتمويل أشكال جديدة من الحاجات الاستهلاكية بدلا من استخدامها فى مجالات الاستثمار ، كما أضحى الفقر مقننا Institutionalised . فالخوف من الجوع قد اختفى الى حد بعيد الا أن الفقر بمعناه العام ــ العجز بأن نعيش حياة

مشبعة ـ هو الذى يولد الخوف اليوم. فشباب القرية الذين حالفهم الحظ ونجوا من مرض عضال او عجز جسماني سوف يحاولون بلا شك الهرب من ظلمة وكآبة حياة القرية الى اضواء المدينة المتلألئة ، وذلك في بحثهم اللامنتهي عن الهوية والاشباع .

ويبدو أن مدى الضرر النفسى الذى تتعرض له نسبة كبيرة من سكان المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية نتيجة لانخفاض انتاجها الزراعى ، ذلك البلاء الذى مصدره بلاشك المجتمعات الغنية (لسيطرتها الشاملة على موارد الغذاء العالمية وعدم اكتراثها المبكر للمؤشرات التى تنذر بقرب حلول كارثة فى كمية الغذاء العالمى المتوفر) . يصعب الآن تقديره وتحديد النتائج المترتبة عليه . ان أول ضحايا مخططات التنمية الغربية (برامج المعونة الغذائية والعجز عن الادراك بأن شعوب البلاد الاكثر فقرا ليست جموعا عاجزة عن الحركة والانتاج ولكنها نماذج بشرية قادرة على الاستجابة للحوافز الشخصية) هى بلاشك حكومات ومجتمعات الدول الاكثر تخلفا وفقرا .

لقد شكلت الممارسات الزراعية التقليدية طريقة لحياة المواطنين الريفيين الذين يخضعون للعزلة النسبية ، فكان عليهم تكييف نشاطاتهم الاقتصادية بما يتلاءم ودورة فصول السنة ، والقبول بنموذج من اقتصاد الوفرة والندرة فى الموارد الغذائية يخضع للتقلبات الجوية التى لا سيطرة لهم عليها .

ولكن تدخل الوكالات الدولية وكفاحها من أجل الحصول على مزيد من مساعدات التنمية التى تقدمها الدول الغنية لما يسمى بالدول الفقيرة قد دفع العديد من الحكومات الوطنية فى دول العالم الثالث الى اتباع المسار المضلل للنمو . وبسبب بطء عملية النمو فى سوق العمالة الحضرية فان الاعداد الضخمة من السكان الريفيين الذين تزخر بهم حاليا مجتمعات الدول النامية سوف تتزايد خلال العقود المقبلة بصورة مضطردة ومطلقة . هذا ولن تفلح ضغوط مايسمى « بالبروليتاريا الفلاحية » فى التمكن من اقامة مجتمع استهلاكى شبيه بذلك المجتمع الذى تتمتع به الصفوة الحضرية ، وذلك بسبب مواصلة انغماس هذه البروليتاريا فى انتاج المواد الغذائية التى تكفل لها البقاء على قيد الحياة .

وهكذا فان مانلاحظه اليوم من احتجاج شعبى صاخب على نقص الغذاء العالمى لايعدو عن كونه تقنين للفقر Institutionalisation of Poverty واقرار به ، فى الوقت الذى يطبق فيه الجهل فى القطاعات الريفية للمجتمعات النامية بدوافع الانتاج وحوافزه .

استمرارية النماذج القديمة فى ظل التنظيمات الجديدة :

ان الشواهد التى تقدمها هذه الدراسة عن حياة مواطنى هذه القرية ـ عبر ربع قرن من الزمن ـ تعزز الآراء التى اشرت اليها سابقا ، حيث أن ما تتعرض له من نقص فى كمية الغذاء المحلى المتوفر لديها فى عام ١٩٧٣ هو نفس النقص الذى كانت تعانى منه فى عام ١٩٤٧ ، وما استجد الآن هو تدخل تلك السلسلة المتصلة من العوامل الخارجية ـ سياسية ، اجتماعية ، اقتصادية ـ والتى تأثرت بها العلاقات الانسانية ومصادر الطاقة البشرية .

وهكذا لا يجوز القول بان النقص الحقيقى فى كمية الغذاء العالمى ـ الذى تعانى منه البشرية الآن ـ ظاهرة عالمية ناجمة عن الاعتماد الكلى للانسان على العوامل المناخية . ان تخوف

الانسان المستمر من امكانية التعرض للخطر وبحثه الدائب عن الطمأنينة يشكل فى حد ذاته أبرز الخصائص الانسانية سيطرة واكثرها تحكما فى سلوكه وتصرفاته . وتتمثل هذه الخاصية فى ادنى مستوى لها فى حاجة الانسان الى الأمن وسعيه الدائب لتأمين احتياجاته الاساسية من أجل البقاء : الماء ، الغذاء والمأوى . ان ما تعرضت له الطاقة البشرية فى دول العالم الثالث من اهمال قد نجم عن الزيادة الحاصلة فى انتاجية الوحدات الزراعية للدول التى تبنت التكنولوجيا الحديثة واستخدمتها بنجاح ، ولقد أتاحت شبكة المواصلات الحديثة الفرصة لنقل الفائض الغذائي المتراكم لدى تلك الدول الى المجتمعات التى تعانى نقصا فى تلك المواد الغذائية .

ولايبدو أن هذا الاتجاه السائد ـ تحويل الفائض الغذائي الى الدول المحتاجة ـ منذ عام ١٩٣٥* هو الذى أدى الى احداث تغيرات فى قيم وتنظيمات تلك المجتمعات التى اعتمدت على هذا الفائض . فمزارعو تلك المجتمعات يفتقرون الى التقاليد أو الخبرة فى العمل التعاونى ـ الا على المستوى المحلى الضيق ـ ، ويبدو أن اهم ما تعرضت له تلك المجتمعات الريفية من تكاثر عدد التجار المحليين وزيادة عدد أصحاب المحلات الصغيرة واستحداث شبكة مواصلات افضل ، حيث يقوم هؤلاء التجار واصحاب المحلات فى مواسم الحصاد بشراء فائض المحاصيل الزراعية بأسعار زهيدة ، كما يمنحون القروض للمزراعين فى أوقات الضيق بفوائد مرتفعة . فالاهمية المترتبة على وجود التجار المحليين يمكن تبينها من مدى اعتماد المزراعين على التجار فى تأمين حاجات العيش والبقاء ، فالمشترى المحلى مهم جدا كمصدر للسيولة النقدية اللازمة للحصول على المواد الغذائية وغيرها من الحاجات الشخصية .

ويمكن اقتفاء اثر هذا النموذج من التعامل فى المجتمع التقليدى على الرغم من تغير وسائل التبادل ، ان عملية الحصول على المعونة والمساعدة فى تلك المجتمعات التقليدية تقوم على مجموعة من قواعد السلوك المتفق عليها ضمن اطار سلطة العائلة الممتدة . ففى ظل اقتصاد مغلق يعتمد كليا على المجهودات الذاتية لافراده من أجل توفير احتياجاته من الغذاء ، يكون فى مقدور الفرد الذى تتعرض مزروعاته لموسم حصاد سيء الاعتماد على أقربائه لمساعدته فى تجاوز هذه المحنة على أساس السداد العينى فى موسم الحصاد التالى . ويترتب على استخدام هذا الاسلوب من التعامل فى مجتمع يقوم على الاقتصاد النقدى أسوأ النتائج . فالصفقة التى تتم بين المزارع او التاجر الصغير والدائن تؤدى الى ربط ذلك المزارع او ذلك التاجر بحلقات متصلة من الديون التى يعجز عن الايفاء بها والتخلص من ربقتها . وفى مجتمع تغزو البضائع الاستهلاكية أسواقه ويشجع أبناءه على شرائها ، فى حين ان دخلهم الذى يعتمد على الانتاج الزراعى ـ المنخفض المردود المادى ـ لايتيح لهم فرصة الحصول على هذه البضائع، فى هذا المجتمع تسود صورة من الحاجة الدائمة ـ الفقر الدائم ـ تؤدى الى التوقف عن الانتاج (لسوء الحالة الصحية وانخفاض الكفاءة والفعالية) مما يترتب عليه خسارة للمجتمع وهدر لطاقاته .

* فى عام ١٩٣٥ قامت عصبة الامم بتنبيه الحكومات لاول مرة ـ الى مشكلة النقص فى كميات المواد الغذائية وسوء التغذية الذى تعانى منه بعض المجتمعات الانسانية .

فلسفة الاقتراض من أجل الغذاء

The Philosophy of " Borrow and Eat"

تعتمد الزراعة فى المجتمعات البدائية على الحرث اليدوى ، ونظرا لانخفاض مستوى انتاجية اراضى تلك المستوطنات فان كمية الغذاء المنتجة تكون محدودة وهامشية ، مما يؤدى بالضرورة الى الاقتراض المتبادل للغذاء بين الأسر المختلفة ضمن اطار سلطة العائلة الممتدة . وعندما تتعرض هذه المعادلة للخلل نظرا لتدخل عوامل جديدة واستخدام مصادر اخرى للطاقة ، مما يؤدى الى تحطيم القيود الموسمية وتجاوز امكانيات الطاقة البشرية ، فان ذلك قد يعنى بالضرورة زيادة فى الانتاج الزراعى تؤدى بدورها الى توفير احتياجات المجتمع الغذائي وتحقيق درجة عالية من الاشباع والطمانينة لدى أبنائه .

ولكن طالما يتجاهل رجال التكنولوجيا ، من ناحية ، الفائدة المترتبة على استغلال تلك الطاقة البشرية الكامنة والقادرة علىالاستفادة من استخدامات التكنولوجيا الحديثة والتى تستهويها البضائع الاستهلاكية التى تغمر الاسواق ، فى حين تقوم التعاونيات الممولة والمدارة من قبل وكالات الحكومة ، من ناحية اخرى ، بتشجيع المنتجين لأخذ القروض لتغطية احتياجاتهم المعيشية فى مقابل رهن محاصيلهم . وما يمكن تسميته فى هذه الحالة تقدما ، ليس هو فى الحقيقة والواقع الا فقر مدقع ومقنن . وتزداد خطورة هذا الموقف عندما تشرعغالبية المزراعينفى وضعالتشريعات والقوانين التى تكفل لهم مصدرا « رخيصا » لقروض منظمة ، باعتبارها واحدة من الوسائل الرئيسية التى تؤمن الحصول على الخبز اليومى ، وهذا يعنى ضمنا السماح للاستهلاك بأن يفوق الانتاج فى القطاع الزراعى الذى يعانى من نقص التمويل الاستثمارى . ولكن طبيعة هذه المصروفاتالاستهلاكية والتى تبدو كمعيق للتنمية هى فى الواقع جزء لا يتجزأ من فلسفة اقترض وكل Borrow and Eat .

ان النتائج المترتبة على استخدام الادارة العصرية فى تعبئة الموارد وزيادة الانتاج لاتفوق من حيث الأهمية ذلك الرأسمال البشرى الذى يمتلكه ذلك الشعب . والخطوات التى كان مأمولا تنفيذها لتنمية الموارد خلال ربع القرن الأخير لم تتعرض فقط للتباطؤ الشديد فى تنفيذها دون مشاركة حقيقية من السكان المحليين ، وانماتركزت الجهود أيضا على العمل لزيادة سرعة النمو الاقتصادى باستخدام الاختراعات التكنولوجية التى استهدفت تحديث القطاع الزراعى ، مهملة فى ذلك أى مشاركة ممكنة للعنصر البشرى فى هذه العملية الانتاجية ، مما أدى الى ضعف هذه الطاقة الانسانية نتيجة تعرضها لامراض فتاكةومزمنة وعجزها عن القيام بدورها الانتاجى فى القطاع الزراعى . ان الاقتصاد الذى يقوم على عمالة تنتشر الامراض المزمنة بين افرادها انما يتعرض لضغوط شديدة تتمثل فى النفقات الاضافية اللازمة لتوفير الدواء والحصول على التعويذات (السحر) لحماية الجسد ، والمساعدات اللازمة لتخفيف العناء والشقاء الانسانى ، وتأمين المواصلات للحصول على المعالجة الطبية ،وتوفير الصابونوالمساحين التى تحقق النظافة الصحية ، هذا بالاضافة الى توفير السجاير والمشروبات المسكرة (الروحية) .

لقد تلاشى اليوم لدى معظم شعوب المناطق الزراعية ذات الدخل المنخفض ذلك الخوف من الجوع ، الى حد بعيد ، وذلك نتيجة للدور الذى يقوم به الوسطاء الدوليون ، والسهولة

الكبيرة التى تتم بها تعبئة الفائض المحلى ونقله الى اى بقعة علـى الكرة الارضيـة فى سرعـة متناهية . لقد زالت ظاهرة الاحساس بالخوف من عدم امكانية توفيرالمواد الغذائية الاساسية، وذلك بسبب الثقة الساذجة لدى أفرادالمجتمع بحتمية قيام الحكومة بتوفير هذه الحاجـات بطريقة ما ومن مكان ما اذا ما اقتضت الضرورة ذلك . وقـد أدى ذلك الـى اختفاء فلسفـة (اقترض وكل) التى لاتستند الى أى تبرير اقتصادى .

اعادة صياغة تعريف ((الفقر Poverty)) :

ان الفكرة السائدة والقائلة بسيطرة الطبيعة وتحكمها فى حياة الانســان ومعيشتــه ، قـد اغفلت على مايبـدو المرونة التـى يتمتع بهـا الانسان فى تعامله مع مختلف التغيرات التـى تتعرض لها البيئة الطبيعية ، حيث يذكرنـا جروف Grove مثلا بأن« دور الانسان فى ارتياد الصحراء والتغلب على قساوة الحياة فيهـا قديم جدا ، لقد عرف الانسان كيفية الحصول على النار منذ العصور القديمة ، وقام منـذ عشرة آلاف سنة برعى حيواناته على أطراف الصحارى ، كما قام باستغلال المناطق الاكثـر ملاءمة للزراعة ، وأقام المستوطنات الكبيرة ، واستخدم اخشاب الاشجار التى قام بقطعها للحصول على الوقود وتشييد الأبنية . (١)

فالكوارث والنكبات كانت ملازمة للانسان دوما ، كما انه سيستمر وقوعها بفعل العوامل المناخية والطبيعية . ولكن عندما تستخـدم الوكالات الدولية حدوث مثل هذه الكوارث او تنبئها بامكانية حدوثها كمبرر للقيام بعمليات اغاثة وبرامج تنموية ضخمة فان ذلك سيهدد ذلك الميكانيزم الحساس لقدرة الانسان على البقاء بالانهيار التام . كمـا ان طبيعة الفقر تتحدى ذلك التعريف القائل بحدوث الفقر عند تلـك النقطة التى ينعـدم فيها التوازن بين حاجات الانسان وانتاجية الارض ، حيث لن يكون بمقدور الانســان ان يستمر فى اعتماده على الخصوبة الطبيعية للأرض من أجل بقائه.

ولقـد أوضـح لاوتون Lawton (٢) بأن « هناك عاملا اساسيا ومهما فى تطور وتقـدم المجتمع الانسانى المعقد ، الا وهو قدرة عدد قليل من افراده على تأمين الحاجات الغذائية لاعداد كبيرة من السكان » ، ولكن هذه الانظمة التى ابتكرناها لتوفير الغذاء باهظـة التكاليف وتعتمد كليا على مصادر الطاقـة الجاهـزة (الخارجية) التى تقود هذا النظام وتتحكم فيه . ويحذر لاوتون من ان التنظيم الحالى للمراكز الحضرية المعزولة عن مواقع الانتـاج الفعلية للمواد الغذائية وتعيل أعدادا سكانيـة ضخمة ، لايمكن الحفاظ عليه بدون استمرار توفر طاقـة كبرى تغـذى النظـام الانتاجى الزراعى لهذا المجتمع مصدرها باطـن الارض (فحم ، بترول ، غاز) والتى قد لايدوم أو يسهل توفرها . فطبيعة الفقر فى هذا السياق يمكن ان تعرف بأنها تلك الحالـة التى تعجز

---

(١) Grove, A.T. "Desertification in the African Environment, African Affairs, Vol. 73 (1974), P. 145

(٢) Lawton, J.H., The Energy Cost of "Food Gathering", in B. Benjamin, P.R. Cox and J. Peel (eds.,) Resources and Population (London, 1973), pp. 59-75

فيها الطاقة المتوفرة عن تلبية حاجات المجتمع بنفس المستوى الذى اعتاد عليه سابقا .

وتؤكد الشواهد الامبريقية لهذه الدراسة على أن الاستخدامات البسيطة للطاقة المستخرجة من الماء وتسخير العمالة الحيوانية بالاضافة الى استغلال تلك الطاقة البشرية المتوفرة لانتاج الغذاء تمثل التقدم التكنولوجى الحقيقى فى مجتمع كامل التريف ، لانها استراتيجية منخفضة التكاليف نظرا لارتفاع كمية الطاقة المكتسبة اذا ما قورنت بالطاقة المبذولة لانتاجها ، وهى بذلك تفوق فى فعاليتها عملية استخدام الطاقة المستخرجة من الارض والطاقة البشرية للحصول على المواد الغذائية نظرا لارتفاع نسبة نفقات الطاقة المبذولة اذا ما قورنت بقيمة الطاقة المنتجة فى هذه الحالة.

فمن هذا المنطلق يصبح تعديل التعريف السائد للفقر فى هذه المجتمعات أمرا لامفر منه ــ فى اطار الوضع الجديد من انخفاض كثافة الطاقة المطلوبة وانخفاض تكلفة هذه الطاقة ــ ففى ظل النموذج الجديد لاستخدام مصادر الطاقة فان نسبة الطاقة المنتجة (المواد الغذائية) تفوق الطاقة المبذولة فى ظروف كل من الزراعة « الجافة Dry » التى توظف عمالة انسانية وحيوانية ، والزراعة « الرطبة Wet » التى توظف عمالة انسانية وتستخدم المياه للرى . وفى هذه الحالة يمكن تخزين الفائض المتراكم لتأمين عملية تموين منتظمة من المواد الغذائية لتوفير احتياجات المجتمع على مدى شهور السنة ، ولامداد غير العاملين فى القطاع الزراعى ، والذين نحن فى حاجة لاستغلال مهاراتهم فى مجالات أخرى . واذا لم يتم الوصول الى هذه المرحلة من التوازن بعد اجراء التغييرات اللازمة فى مصادر الطاقة ونمطها، فان الفشل قد يكمن فى عدم تخصيص الاستثمارات اللازمة للحفاظ على صحة الانسان وتحقيق رفاهيته ، وعلى وجه الخصوص صحة الاطفال الصغار الذين يشكلون اجيال المستقبل وبناته .

الحاجة لسياسة موجهة لرفع مستوى الخدمات فى المناطق الريفية :

لقد أوضح هتبر وفورستر Hutber and Forster (٣) ــ فى دراستهما عن مصادر الطاقة ومدى كفايتها لحاجات الانسان ــ بأنه منذ عام ١٩٤٥ فقط بدأ مستوى استهلاك النفط فى المملكة المتحدة يزدادارتفاعا سنة بعد اخرى بشكل ملحوظ . ان نمو الحاجة للطاقة وازدياد الطلب عليها لا يشكل بحد ذاته ضرورة حيوية من اجل بقائنا أو للاحتفاظ بسلامتناالجسمية والعقلية فحسب وانما يعبر بشكل رئيسى عن مواصلة السعى لاقتفاء أثر ذلك المفهوم الغامض « مستوى معيشى أعلى Higher Standard of Living والذى تسبب فى تلك الحياة المأساوية لشباب مجتمعات الدول النامية الذين تدفقوا على المنطقة الحضرية ملتحقين بوظائف غير منتظمة أو متدنية الأجر ، وذلك نظرا لما يحدثونه من اختلال واضطراب فى خدمات المدينة غير المهيأة

(٣) Hutber, F.W., and Forster, C.I.K., "Sources of Energy and their Adequany for Man's Needs, in B. Benjamin, P.R. Cox and J. Peel (Eds.), Resources and Population (London, 1973)

لاستقبالهم ، كالمواصلات والاسكان والصحة العامة والوقائية .

ولا شك أن اهمالنا لمشاكل البيئةالانسانية فى القطاع الريفى فى الوقت الذى نكثف فيه الجهود لحل المشاكل التى يتعرض لها القطاع الحضرى ، ان هى الا سياسة قصيرة النظر . . فالقطاع الريفى قادر على الانتاج اذا تهيأت له الظروف لذلك .

لقد تبين أن أبرز الثغرات وضوحا فى برامج التخطيط للدول النامية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية هى اقامة تلك السلسلة من المبانى المتلاصقة والشوارع الضخمة وخطوط المواصلات السريعة التى تربط بين النقاط المركزية وتفتقر الى الروافد الفرعية لتغذيتها . فالسهولة العصرية التى تمكن المسؤولين ورجال الاعمال والخبراء الدوليين من الانتقال من مدينة الى أخرى ، مستخدمين مثل هذه الشبكة من الطرق والشوارع الواسعة ، لعبت دورا ملموسا فى العزلة الكلية للقطاع الريفى عن نظيره الحضرى . ولم يعد يتوجب على المسؤولين الاهتمام بالطرق الفرعية أو التربية التى تدخل ضمن حدود المناطق الريفية ، كما لم تعد القرى تحظى بأى اهتمام لاقامة المنشآت الفندقية أو الاستراحات الليلية فيها ، فقد أضحى ممكنا قطع مسافة ١٠٠ كم أو أكثر عبر الريف خلال ساعات الصباح في وسيلة نقل مريحة والعودة الى المدينة فى الوقت المحدد للغذاء دون الاضطرار للاعتماد على أى من الخدمات فى المناطق الريفية التى تخترقها طرق المواصلات السريعة ، ودون مشاهدة أى من الظروف والاوضاع الريفية المتخلفة . ولكن قد يتساءل البعض عن السر الذى يكمن فى تلك العجلة التى تحكم سلوك أولئك الذين يستخدمون هذه الطرق السريعة ؟ ؟ ألا يوجد هناك أى مخرج على هذه الطرق الرئيسية يقود الى أماكن تشجع المسافرين على ارتيادها ؟ ؟

ان مرور الزمن لم يغير كثيرا من تلك الحوافز التى تتحكم بالسلوك الانسانى « كالخوف من التورط Fear of Involvement فما زالت القاعدة السائدة اليوم تقوم على أساس تجاهل وتجنب ما لم تقع أعيننا عليه اذا كان ذلك يجلب لنا التعاسة أو اذا كنا لسنا بحاجة اليه . وقد تختلف تلك الاسباب التى تحفز الانسان على عدم التورط أو تقديم التضحيات ، فقد أوضح ويتز Weitz أنه « لكى نرفع مستوى الخدمات فى المناطق الريفية فاننا نحتاج الى قوة عمل مؤهلة لادارتها والاشراف عليها ، الا أن عناصر قوة العمل هذه لا تتوفر لديها الرغبة للاقامة فى القرية بسبب انخفاض مستوى الخدمات المتوفرة فيها » .

ويؤكد مكريجور McGregor على ضرورة اعطاء الاولوية للعلاج الوقائى والاجتماعى ، لأن الوقاية من تلك الامراض المستوطنة يمكن ان تتحقق من خلال وضع الخطط وتوفير الامكانيات والوسائل التى تضمن تطبيقها ، وهذه الخطط ترتبط الى حد بعيد بالعادات الغذائية والنظافة الشخصية ونظافة البيئة ، ولا يمكن طبعا استثناء الدور الذى تلعبه العوامل المناخية . الا انه كما يشير هيتشينسون Mutchinson فان « الانسان ليست لديه القدرة على السيطرة أو احتمالات السيطرة على الاشعاعات الشمسية ، ونمط توزيع الحرارة ، وطول الليل والنهار ، وانما عليه أن يقبل كل ذلك ويتعايش معه كما هو » .

ان الشواهد الامبريقية التى تتضمنها هذه الدراسة تعتبر فريدة ومتميزة من حيث منظورها الزمنى، لانها تحذر من تلك الخسارة الكبيرة في أثمن موجودات هذا العالم ، الا وهو « الرأسمال الانسانى » ، وذلك عندما تهمل صيانته باعتباره مصدرا للطاقة لا أمل فى تحويلها الى الوضع المرغوب فيه . وتزداد فى هذه الايام الحملة القائلة باحتمال استنزاف ونضوب المصادر الرئيسية للطاقة الانسانية والتى تكمن فى العطاء التقليدى للارض ومنتجاتها، ويستطرد دعاة هذه الحملة فى القول بأن الامكانية لتجديد هذه المصادر ـ التى تزعم التكنولوجيا الحديثة توفيرها ـ انما تكمن فى مدى الاستعداد الذى تبديه الشعوب لقبول المعرفة المستوردة من الخارج واستخدامها .

ان مساهمة الاختراعات التكنولوجية في زيادة الحاصلات الزراعية لجماعة تتسم باللامبالاة ، بددت معظم طاقاتها الداخلية بفعل عوامل خارجة عن سيطرتها تبدو ضئيلة. فالعالم قد انتهى به الأمر الى القبول بحتمية وقوع تلك الكوارث التى تتعرض لها المجتمعات الانسانية بفعل العوامل المناخية ، ولم يكن العالم مهيأ على الاطلاق لاتخاذ خطوات عاجلة للتخفيف من حدة ويلات هذه الكوارث . ولكن عدم الانتظام ـ بالمقياس الانسانى ـ فى المجرى الطبيعى للحياة والناجم عن فرص ومساعدات مقدمة من مصادر ووكالات أجنبية ـ حيث بامكان عدد قليل من السكان الاستفادة منها بسبب غياب سلسلة مكملة من الخدمات التى تحد من التفاوت القائم فى توزيع الدخل ، وتزيد من فرص الاستفادة منها من قبل أفراد المجتمع ككل ـ لم ينظر اليها باعتبارها تحد من نشاطات وجهود أولئك المهتمين بالسياسة الزراعية ، فى حين ترك أولئك المناضلون ، فقراء الريف الشجعان ، باسم التقدم التكنولوجى ليدافعوا عن بقائهم فى ظل ظروف غاية فى القسوة والشراسة .

الارادة « السياسية » لوضع التشريعات التى تكفل القدرة التنموية للاجيال القادمة :

ان الحرية السياسية التى تتمتع بها الشعوب حديثة الاستقلال لها معنى خاص ، فأولئك الذين يمسكون بمقاليد الامور تكبلهم أحداث الماضى وسياسات الادارات السابقة بدرجة أو بأخرى ، ومثل هذه الظروف تستدعى وجود قيادة قوية وشجاعة لتعبئة كافة قطاعات المجتمع في معركة البناء .

ان الدرس الذى نستقيه من هذه الدراسة الامبريقية هو أن الاكثرية المثلة بالضعفاء ـ التى تعيش على الكفاف ـ قد أجبرت على قبول ظروف حياتية فرضتها عليها الاقلية المثلة بالاقوياء التى ورثت واكتسبت الثروة المادية ، بالاضافة الى تمتعها بالصحة الجسمانية وتطوير قدراتها العقلية .

وهكذا فان التغير الاجتماعى والاقتصادى قد أدى الى خلل فى تنسيق الخدمات وسوء فى توزيع الموارد ، مما يؤكد مدى الحاجة الى وضع التشريعات اللازمة التى تكفل المقدرة التنموية للمجتمع الحالى والمستقبلى وتحميها. فتطوير استخدامات الطاقة الحيوانية مثلا ، يتطلب تشريعا يضمن اتباع الممارسات السليمة للزراعة الحيوانية (تربية الدواجن) ، فاذا كنا نستهدف الحصول على انتاجية افضل فان ذلك يتطلب اشكالا مكثفة من عمليات الانتاج . « فمع وجود الادارة السيئة والتغذية الرديئة تلعب الامراض والطفيليات دورا مهما

فى احداث الفوضى التناسلية فى قطاعات الماشية فى تلك المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية»(٤) وامتلاك قطاعات الماشية ، باعتبارها موجودات رأسمالية ، دون الاهتمام أو معرفة وسائل وطرق التعامل معها والعناية بها ، يشكل في النهاية خسارة للمجتمع تثقل كاهله ويعجز عن تحملها .

وكذلك فان عدم وجود تنسيق فى عملية استخدام الاراضى واستغلالها ، فى الوقت الذى نحصل فيه على الابتكارات التكنولوجية ويزداد فيه الضغط السكانى يشير الى الحاجة الملحة لاتخاذ اجراءات تشريعية لاقامة نظام مناسب لتسجيل الاراضى وتحديد طريقة استعمالاتها .

ويؤكد دوسلدورب Dusseldorp (٥) الى أن هناك علاقة قوية بين مجمل مخططات التنمية لمنطقة زراعية وظروف الحياة والمعيشة فيها . واذا ما توفر لدى المخططين بعد النظر هذا ، فانه أهمية خاصة سوف تعطى لعملية تخطيط المستوطنات البشرية وتصميم منشآتها ووحدات الخدمات فيها ، فالظروف المعيشية لمنطقة ما تقررها الى حد بعيد كمية ونوعية وطريقة توزيع وحدات الخدمات الاجتماعية والاقتصادية المنتشرة فى هذه المستوطنة .

الخاتمة :

على الرغم من أهمية هذا التحليل الذى تقدمه لنا هذه الدراسة لاسباب التخلف والفقر الذى تعانى منه الدول النامية ، الا أن هذا التفسير المحافظ لظواهر التقدم والتخلف والنمو فى ضوء مقولات فكرية وقيمية وسيكولوجية تركز على قضايا النظام والتوازن والتساند داخل النسق ، وترجع ظواهر الفوضى والتخلف الى افتقاد القيادة القادرة على الضبط والتنظيم والتحكم ، ان هذا التفسير يعجز عن تحقيق الفهم السوسيوتاريخى المتكامل لابعاد التخلف ، وبالتالى لا يسهم فى مساعدة مجتمعات الدول النامية في نضالها ضد هذا التخلف واطلاق حركة النمو الذاتى داخلها بطريقة فعالة ومؤثرة . ولعل هذا هو ما يحتم على الباحثين فى هذه الدول معالجة قضية التخلف والتنمية من مدخل مختلف قادر على مواجهة الاهداف والتطلعات القومية والمحلية .

ان الفقر الذى تعانيه مجتمعات الدول النامية يرجع تحليليا الى مختلف العوامل التاريخية المتشابكة المتفاعلة ، ويتطلب اسلوبا مختلفا فى المواجهة يستند الى تصور مختلف عن الانسان والمجتمع ، ووظيفة الدولة فى الحياة الاجتماعية وعن العلاقة بين الفرد والمجتمع وعن التزامات المجتمع تجاه الفرد .

وهكذا لا تتمثل التنمية فى مجرد اعادة صياغة العلاقات بين المتغيرات الاقتصادية الصورية ، ولا تقتصر على محاولات استحداث تغيرات فى انساق القيم والاتجاهات ومجالات الاهتمام ، فهى في الدرجة الأولى تجمع بين كل هذه التصورات أو المتغيرات الى جانب أسلوب ومسارات التوجيه .

(٤) Payne, W.J.A. Cattle Production in the Tropics, Vol. I (Longman, 1970), P. 298.

(٥) Van Dusseldorp, D.B. W.M., Planning of Service Centres in Rural Areas of Developing Countries, International Institute for Land Reclamation and Improvement (Wageningen, 1971).

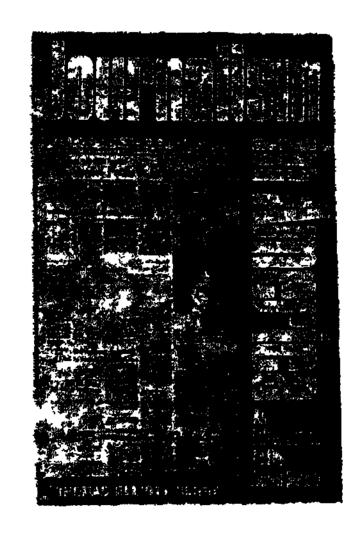
وفى ضوء هذا الفهم يمكن القول بأن مختلف عمليات التنمية فى الدول النامية تتمثل فى تلك العمليات المخططة التى يتحول من خلالها المجتمع من نسل اجتماعى يعكس شكلا معينا من أشكال التنظيم الاجتماعى والاقتصادى والسياسى الى نسق آخر يعكس شكلا مختلفا يحقق التقدم الاجتماعى لجماهير المجتمع فى اطار من العدالة الاجتماعية .

والواقع أن التحليل الموضوعى للتخلف ، يجب أن يتجنب النظرة المسحية الوضعية السطحية ، وأن ينبثق من اطار نظرى يتسم بالشمول والتكامل ، مع أخذ البعد التاريخى فى الاعتبار ، كبعد محورى فى صياغة التخلف، وكمنطلق فى رسم سياسة التنمية . ان أى تحليل موضوعى يجب الا يعزل تلك الدول ، عند دراسة ظواهر التخلف ، ليجعل منها شيئا فى ذاته ، بل على العكس يجب أن يضعها فى شبكة علاقات التبعية والاستغلال التى تعرضت لها تاريخيا ، والتى مازالت واقعة فى شراكه وان تغير الشكل ، والتى يجب ان تتخلص منها لانطلاق اقتصادياتها القومية من أسر التبعية والاستغلال .

فلقد وقعت الدول النامية خلال مرحلة تاريخية معينة في شرك التبعية السياسية أو تبعية المستعمرات . ومن خلال هذه التبعية وظفت كافة أنواع النمو الاقتصادى والتربوى والادارى ... الخ لصالح القوى الخارجية . ان بطء نمو القوى الانتاجية فى الدول النامية، ظاهرة ملحوظة نتيجة لتجميد البناء الاقتصادى، ويرجع التجميد الى عوامل خارجية بفعل قوى خارجية كالاستعمار والاحتكارات ... الخ ، والى عوامل داخلية مثل ضعف التراكم وسوء توجيهه ، وبعض العوامل الاجتماعية كالانفاق البذخى Conspicious Consumption وارتباط البرجوازيات الوطنية بالاحتكارات العالمية . يضاف الى هذا بعض العوامل الثقافية مثل سيادة الروتينات الجامدة ، والتحجر القيمى ، وضعف الشعور بالمسؤولية ، ونظم التعليم والتدريب المتخلفة .

وبوجه عام نستطيع القول أن الدراسة الموضوعية لقضايا التخلف والنمو تتطلب منا تبنى مدخل متعدد النظم ، حيث نحلل هذه القضايا من جميع الجوانب الاقتصادية والسكانية والثقافية ، فى اطار السياق التاريخى الملائم . ولعل ما يتمخض عنه هذا الفهم من نتائج يمكن أن يسهم اسهاما ايجابيا فى رسم خطة المواجهة .

***



الصحافة في أمريكا (١)

مدخل الى وسائل الاعلام

عرض وتحليل : الأستاذ ياسر الفهد

للصحافة دور كبير معروف في حياة الأمم وتأثير هائل فى أفكار الناس وقيمهم ومعتقداتهم . ولاريب أن الصحافة ، بصورة عامة ، أكثر رقيا، فى البلدان المتقدمة منهـا في وطننا العربي . لذلك فان اطلاعنا على الصحافة الاجنبية ، وفتح المنافذ والكوى علـى آفاقها ومنجزاتها يوفر الفرص أمام تطور صحافتنا . ومن هنا كان اهتمامنا بكتاب أجنبي جديد صدر باللغة الانجليزية خـلال عام ١٩٧٦ عن دار نشـر هيستنجس هاوس فى الولايات المتحدة . قام بتأليف الكتاب الدكتور توماس اليوت بيرى Thomas Elliott Berry الذى ظل يعكف على تدريس فن الصحافة لمدة (٢٦) عاما . وكان بيرى قد الف ١٢ كتابا آخـر فى وسائل الاعلام منذ أن نال شهادة الدكتوراة من جامعة بطسبرغ . ويعد الكتاب الذى بين أيدينا ويضم بين دفتيه ٣٨٠ صفحة من القطع الكبير ، مصدرا صحفيا هاما يتقصى أدوار كل مـن وسـائل الاعلام الرئيسية الأربع : (الصحيفة ـ المجلة ـ الراديو ـ التلفزيون) وأسس الكتابة اليها . وهو بترتيبه وتنظيمه الفريدين ، واخراجه الجميل ، ومعالجتـه العملية يمثـل مرجعا لأولئك الذين ينشدون معرفة المزيد عن وسائل الاتصال واسـس الكتابة الصحفيـة المعاصـرة . ويستفيـد العاملون في سلك الصحافة ، بشكل خاص من الكتاب نظرا لانه يلقي الكثير من الاضواء على معظم جوانب مهنتهم العظيمة . يتناول الكتاب كلا من وسائل الاعلام الاربع بصورة مستقلة ، مبينا مدى تأثيرها الجماهـيرى ونفوذها لدى المجتمع الاميركى . اما الطالب الذى يعتزم دراسة فن الصحافة والاعـلام فيجد فيه مسارد وتمارين ترافق كل فصل من فصوله . وهكذا فهو يعد كتابا ثقافيـا وتعليميا فى آن واحد . ويشتمل الكتاب على مقدمة واربعة عشر فصلا .

---

(١) هيستنجس هاوس ، ٣٨٠ ص ، الولايات المتحدة، المؤلف توماس اليوت بيرى .

١ ــ الفصل الاول وعنوانه : الصحافة ــ نظرة عامة

ويعالج دوروسائل الاعلام وتأثيرهاوقيمتها وعلاقتها بالتثقيف الجماهيرى ، كما يتعرض للتطورات الحديثة فى الصحافة الاميركية .

٢ ــ الفصل الثانى وعنوانه (المشكلات الحديثة فى حقل وسائل الاتصال)

ويتعرض لقضايا الاذاعة والتلفزيون ومستقبل الصحافة اليومية ومسألة حرية التعبير .

٣ ــ الفصل الثالث وعنوانه (القصةالاخبارية)

ويتناول موضوع الاخبار وماهيتها والعثور عليها وطريقة تشويهها ، وكذلك القصة الاخبارية وكتابتها واسلوبها .

٤ ــ الفصل الرابع وعنوانه (المقابلةالصحفية)

ونقرأ فيه عن مستلزمات المقابلة الصحفية الناجحة، وأنواع المقابلات والمشكلات المتصلة بها .

٥ ــ الفصل الخامس وعنوانه (القصة الشخصية)

وهى على الاغلب قصة غير واقعية ، وفيها يظهر الاتجاه الشخصى بشكل واضح ، فينقل الكاتب آراءه الخاصة ومشاعره الشخصية والانسانية . وهذا خلاف ماهو عليه الحال في القصة الاخبارية حيث الجو باكمله غير شخصى ، فلا نجد فيها أى رأى أو اشارة خاصة أو تعبير انساني .

٦ ــ الفصل السادس وعنوانه (الصور فى الصحف)

ويعالج موضوع الصور ومصادرهاووسائل تحسينها .

٧ ــ الفصل السابع وعنوانه (تحرير المواد فى الصحف اليومية) .

ويتصدى هذا الفصل لمهام المحررين الذين يراجعون المواد المعدة للنشر ويدققونها ويصححون اخطاءها ويعدلون بعض أفكارها عند اللزوم قبل دفعها الى الطباعة . ونجد فى الفصل نفسه ايضا عرضا لتاريخ الطباعة بدءا من الطباعة بالاحرف المنضدة ، ومرورا بالاوفست ، وانتهاء بالوسائل الطباعية الحديثة ومنها طريقة أنبوب اشعة كاثود (CRT) وهى احدث طرق الطباعة واكثرها سرعة وكفاءة وتوفيرا .

٨ ــ الفصل الثامن وعنوانه (الاخراج الفنى)

ويتناول فن تنظيم المواد المنشورة على شكل أعمدة أو صفحات ، وترتيبها حسب اهميتها ومضمونهاوارفاقهابالصور والوسائل التوضيحية . وبينما يعد الاخراج فنا بالدرجة الاولى الا انه أيضا علم بالدرجة الثانية .

ان المحتوى الفنى اهم من المحتوى العلمى فى الاخراج ، لان الخلق الجمالى فيه الاساس كما الحال فى الرسم والموسيقى وغير ذلك من الفنون التى تعد فيها الناحية الجمالية عنصرا رئيسيا .

٩ ــ الفصل التاسع وعنوانه (السياسة التحريرية)

ويتعرض لسياسة الصحيفة او المجلة في التحرير ، وهى السياسة التى تمنحها

خصائصها الخاصة وتميزها عنباقى الصحف والمجلات ، كما يتعرض لمسؤوليات الصحافة والاعتبارات المختلفة التى تتدخل فى تقرير النشر وهى الاعتبارات التجارية والاجتماعية والعرقية والدينية والشخصية والمزاجيـة . (ومعظم هذه الاعتبارات واردة في الصحافة العربيةباستثناء الاعتباراتالعرقية والدينية، كماان الاعتبارات التجارية غير قائمة بالنسبة للصحف والمجلات التى تصدرها الدولة على نفقتها لان غايتها تثقيفية لا تجارية) .

١٠ ــ الفصل العاشر وعنوانه (الافتتاحية)

ويعالج ماهية الافتتاحية ,واهميتها وطريقة كتابتها وانواعها ، وكذلك الخطوط الارشادية التى يمكن الاستعانة بها عند كتابتها .

١١ ــ الفصل الحادى عشر وعنوانه (العمود)

وهو خاص بالنواحـى المتعلقـة بالعمـود المخصص لكاتبأو موضوع معين . وفى اميركا يعدتحرير العمود الخاص فى الصحيفةاليومية عملا هاما وممتعا له أسلوبه الخاص الـذى يختلف عن أسلوب المقال العادى وللمحرر أن يكتب فيه كما يحلو له . وينظر الـى هـذا العمل على أنه ابداعى من الدرجـة الاولـى ويتقاضى صاحبه لقاءه تعويضا كبيرا جدا . وللعمود عادة قراؤه الخاصون به .

١٢ ــ الفصل الثانى عشر وعنوانه (الصحيفة المدرسية)

ويدور حول الصحيفة المدرسية التـى تشكل جزءا من الحياة المدرسية ووسيلـة تعبير بالنسبة للطلاب المهتمين بالنشر .هناك ايضا الجامعية وهـى أرقى مـن الصحيفـة المدرسيـة ، وللصحيفتـين مبادئهمـا ومشكلاتهما .

١٣ ــ الفصل الثالث عشر وعنوانه (الكتابة للاذاعة والتلفزيون) :

ويعرض شرحا للمبادىء الاساسية التـى تدخل في اسس الكتابة للاذاعة والتلفزيون . ومن المسائل التى يتصدى لها : اعدادالتعليق ونشرة الاخبار ، وكذلك الفرق بين النشرة الاذاعية والنشرة التلفزيونية .

١٤ ــ الفصل الرابع عشر وعنوانه (الكتابة للمجلات)

وهو اكبر الفصول واهمهـا ، ويتنـاول المجـلات وانواعهـا وكتابها واشكال الكتابـة اليها . بعد هذا العرض السريع للخطـوط الرئيسية الكبرى فى الكتاب ننتقل الى تقديم بعض الملاحظات حوله ، ثم الى تناول أهـم الافكار الواردة فيه تناولا مفصلا :

يستمد كتاب الصحافة فى أميركا أهميته من ناحيتين :

أ ــ كون مؤلفه صحفيا ممتهنا تفرغ للعمل لفترة طويلة من الزمن لصالح واحدة من أهم الصحف اليومية الاميركية ، فى حين كان يمد عددا كبيرا من الصحف والمجـلات الاميريكية الاخرى بمقالات خارجية . وقبـل تأليـف الكتاب استأنس المؤلف بآراء عدد من كبـار الصحفيين الاميركيين واعتمد على نصيحتهم ومشورتهم . ثم اضاف الى كل ذلك خبراته كأستاذ جامعى فى كلية الصحافة .

ب ــ تأثر الراى العام الاميركى الى حـد كبير بالصحافة ووسائل الاعلام . وقد أظهرت

الاستفتاءات ـ وجاء هذا فى مقدمة الكتاب ـ أن ٩٨٪ من الشعب الاميركي يعتمد على أجهزة الاعلام للحصول على ٩٥٪ من المعلومات والحقائق المتعلقة بنشاطات حكومته والحكومات الأخرى . وهذه المعلومات هى التى يستخلص المواطنون في ضوئها النتائج حول الشؤون الداخلية والخارجية للبلاد . وتتعرض وسائل الاعلام فى أميركا الى النقد والمديح فى آن واحد ، فالتلفزيون مثلا يلقى الاستحسان لأنه يأخذ المشاهدين الى أقاصي العالم ، ويعرفهم بأحدث المكتشفات والمستطرفات ، ويطلعهم على شؤون العالم وأحداثه . ولكن كثيرا من المسؤولين ، من جهة أخرى ، يتضايقون منه ومن أجهزة الاعلام الاخرى بسبب تأثيرها الواسع فى الرأى العام ، ودورها في اثارة موجات الانتقاد وتحريك المشاعر ضدهم فى بعض المناسبات . وهناك آخرون يباركونها لأنها تعمل من أجل المصلحة العامة وتعبر عن مفهوم حرية الرأى .

وعلى الرغم من تأثير الصحف اليومية والاذاعة والتلفزيون فان للمجلات في أميركا دورا مهما بشكل خاص ، وهي تمثل الوسيلة الاعلامية التى تجذب أكبر عدد من الكتاب الطامحين الى الكتابة ، الهواة منهم والمتمهنين، الناشئين والمشهورين . ففى كل شهر يقوم هؤلاء بتقديم مجموعات هائلة من الاعمال الكتابية الى المجلات الاميركية تحدوهم الى ذلك الرغبة فى التعويض المادى او الشهرة أو القناعة الشخصية . ويعرف الكتاب الناشئون ان مجال النشر أمامهم ضيق فى هذه المجلات ولكنهم مع ذلك يستمرون فى دفع مقالاتهم الى المجلات . ويوجد في أمريكا (٧٠٠٠) نشرة دورية يمكن أن نطلق عليها اسم مجلة . وتتباين هذه المجلات تباينا كبيرا فى محتواها وأهدافها وأسلوبها . وبعض المجلات تقتصر على نشر الموضوعات التى ينتجها جهاز تحريرها الخاص مثل مجلة كومبانى Company وبعضها الآخر ينشر انتاج الكتاب الخارجين فقط ومثال عليها مجلة سكولارلى Scholarly وهناك زمرة ثالثة من المجلات تجمع بين نشر المواد من داخل جهاز التحرير وخارجه ومنها مجلة ستردى رفيو Saturday Review

وهذه الزمرة يدخل فيها أكبر عدد من المجلات . والكتاب الرئيسيون ، فى أهمها وأكثرها رواجا ، هم خبراء مشهود لهم فى مجالات اختصاصاتهم (كالطب والقانون والتربية ... الخ) وتتسم المجلات الاميركية بميزة هامة وهى التجديد والتبدل ، فهناك باستمرار اتجاهات جديدة فى السياسات التحريرية ، وكذلك زوايا وكتاب جدد ، كما أن هناك دائما مجلات جديدة تظهر الى الوجود، ومجلات أخرى تحتجب مؤقتا أو تختفى .

أنواع المجلات الاميركية

يمكن تقسيم المجلات الاميركية مبدئيا الى الزمر التالية :

١ ـ المجلات النوعية quality magazines

اى المجلات التى تتناول الموضوعات الفكرية والادبية والفنية الراقية ، وهى موجهة الى صفوة المفكرين الذين يهتمون بالظواهر الاكثر مغزى وأهمية فى الحياة . ومن الامثلة عليها :

مجلة أتلانتيك منثلى Atlantic Monthly
ومجلة هاربرز ماجازين Harper's Magazine
ومجلة السترداى ريفيو Saturday Review
ومجلة أتلانتيك ريفيو Atlantic Review

وهذه المجلات تشكل مصدر اغراء قوى للكتاب

الطامحين الى النشر بسبب ماتكسبهم من شهرة ، فالكاتب الذى ينشر في مجلة كمجلة اتلانتيك ريفيو يصبح شهيرا لأن اسمه يضاف الى الأسماء اللامعة التى اقترنت بها هذه المجلة أمثال امرسون وهولمز وثورو وسمث واتشيزون ... الخ . وتدفع هذه المجلات أجورا عالية تتناسب مع مكانة الكاتب وشهرته (واقرب نوع الى هذه المجلات فى الوطن العربي المجلات الثقافية المنوعة ومنها : عالم الفكر (كويتية) ، افكار (أردنية) ، الهلال (مصرية) المعرفة (سورية) ، الثقافة (جزائرية) الخ ...

٢ ـ المجلات المهنية Professional Magazines

وهى كما يدل عليها اسمها موجهة الى اعضاء مهن مختلفة . ومعظم مقالات هذه المجلات يكتبها متخصصون مهنيون امثال الاطباء والمحامين والمهندسين والمعلمين..الخ. ومثال عليها المجلة الطبية الاميركية American Medical Journal ومجلة الرابطة القومية للتربية National Education Association

٣ ـ مجلات العمل Business Magazines

بما أن العمل التجارى والصناعى بأشكاله العديدة يؤلف أساس النظام الاقتصادى الاميركي ، كان لابد من اصدار مجلات فى كل حقل من حقول العمل تقريبا كى توجه المختصين وتمدهم باخبار المهنة واحدث تطوراتها . ومن هذه المجلات مجلة Nation's Business (ويوجد فى الوطن العربي مجلات اختصاصية مهنية كثيرة) .

٤ ـ المجلات التقنية Technical Magazines

وهي تجمع بين خصائص المجلات المهنية ومجلات العمل وتنشر الاعمال التى تفيد المختصين ذوى التدريب العالى امثال المهندسين والعلماء والتقنيين . والكاتب الذى يريد الاسهام في الكتابة الى هذه المجلات يجب ان يعلم أن ذلك يستلزم دقة علمية خاصة . (وهناك مجلات عربية اختصاصية عربية شبيهة بهذا النوع من المجلات مثل مجلة المهندس الطليعى السورية . ومجلة نفط العرب الكويتية) .

٥ ـ المجلات الزراعية Farm Magazines

بما ان اميركا تعتمد اعتمادا قويا على الزراعة ، فمن الطبيعي ان نجد فيها عناية خاصة بهذا النوع من المجلات . ويوجد هناك حوالي (١٤٠) مجلة زراعية أشهرها المجلة الزراعية Farm Journal ، التى توزع حوالى ثلاثة ملايين نسخة من كل عدد . وهذه المجلات على نوعين : أ) الزراعية العامة ، وهى مجلة شبه منوعة يمكن ان تفيد جميع القراء على اختلاف مشاربهم ، ولكنها تركز تركيزا خاصا على نشر الاعمال المتصلة بالزراعة .

ب ـ الزراعية المتخصصة : وتختص كل منها بجانب معين من جوانب الزراعة (الالبان ـ الحبوب ـ القطن .. الخ) . وهذه المجلات قريبة الشبه بالمجلات المهنية .

٦ ـ مجلات الشركات Company Magazines

تصدر عن معظم المنظمات والشركات التجارية او الصناعية مجلة أو اكثر ، هدفها بناء علاقة سليمة بين الموظف ورب العمل . وفى معظم الحالات فان الشركة هى التي تعين رئيس التحرير وهيئة التحرير . اما الكتاب من خارج هيئة التحرير فان فرص النشر امامهم ضئيلة فى هذه المجلات .

٧ ــ المجلات المتخصصة

Special-interest Magazines

وهى المجلات التى تنشر موادا في حقل متخصص معين كالمسرح والرياضة والاذاعة والتلفزيون والسفر ، بطريقة شعبية يمكن ان يفهمها غير المتخصصين . ومن هذه المجلات : مجلة مرشد التلفزيون T.V. Guide ومجلة الفنون المسرحية Theatre Arts

٨ ــ المجلات الشعبية Popular Magazines

وهى موجهة الى القراء من الطبقة المتوسطة، وتنشر قصصا ومقالات واشعارا واحجيات ورسائل الى المحرر ، ورسوما كاريكاتورية . . اى انها مجلات منوعة بكل معنى الكلمة . ومن هذه المجلات ستردى ايفننج بوست Saturday Evening Post ومجلة ليبرتى وكوليرز Liberty and Colliers

٩ ــ المجلات النسائية Women's Magazines

وبما ان النساء فى اميركا يقرأن اكثر من الرجال فان المجلات النسائية هناك تجد رواجا كبيرا . وتهتم هذه المجلات عادة بشؤون الازياء والزينة والاثاث وتربية الاطفال . ومنها مجلة ليدزهوم جورنال Ladies Home Journal

١٠ ــ مجلات الرجال Men's Magazines

وهى تحتوى على موضوعات تهم الرجال فقط بوصفهم ذكورا ، ومنها مجلة بلييوى Play Boy التى توزع اكثر من مليون نسخة (وليس لهذه المجلات مثيلات عربيات) .

١١ ــ مجلا ت الاطفال والمراهقين

Children and Adolescents' Magazines

ومعظمها توزع فى المدارس . وتركز مجلات الاطفال بشكل خاص على القصص القصيرة ، لأن الاطفال يولعون عادة بهذا النوع من القصص . ومن مجلات الاطفال : تشلدرنز دايجست Children's Digest وتتسم الاعمال المنشورة فيها بقصر الجمل وسهولة المفردات وبالاسلوب التخاطبى المشوق (ولهذه المجلات مثيلاتها العربية مثل مجلة سعد الكويتية) .

اما مجلات المراهقين فموادها اكثر نضجا من مواد مجلات الاطفال . ومنها مجلة جاك وجل Jack and Jill ويقابلها مجلة تان تان المصرية العربية) .

١٢ ــ المجلات الحرة Free Magazines

ولا يمكن اعتبارها مجلات مخصصة لفئة ما من القراء لانها تغطي حقولا عديدة . وهى اقل مرتبة من المجلات ، واشبه ما تكون بالنشرات . وتوزع هذه المجلات عادة ضمن الشركات او الوزارات او المكاتب ، ولاتباع في الأسواق العامة .

كما انها على الاغلب لاتدفع اجورا للكتاب لانها تنشر مقالات مكررة سبق نشرها . ومن هذه المجلات وومنزدى Woman's Day

خصائص المجلات الاميركية

تتمتع المجلات الاميركية بعدة خصائص مميزة منها :

١ ــ ليس هناك مجلة اميركية تحتكر نوعا محددا من انواع الاعمال الكتابية أو مجلة يحظر عليها نشر اى نوع ، فالاتجاه نحو التنوع يزداد الآن اتساعا فى الصحافة الاميركية وهذا عكس الحال في المجلات العربية فهناك

عدد كبير جدا من المجلات الاختصاصية التي تنفرد بنشر لون واحد من الوان المعرفة دون سواه ، مقابل عدد ضئيل من المجلات المنوعة.

٢ ـ المجلات الاميركية اصبحت مجلات بصرية تكثر من نشر الصور والشروحات التوضيحية ، لذلك كثيرا ما يتقرر قبول مقال أو رفضه فى ضوء ارفاقه أو عدم ارفاقه بصور توضيحية .

(وهذا اتجاه سليم لان الصفحات المكتظة بالكلمات والجمل الجامدة تنفر القارىء وتسئمه ، أما تلك المزينة بالصور المشرقة الجذابة فتفتنه وتجعله يقبل عليها) .

٣ ـ ان سرعة القرن العشرين قد تركت بصماتها على المجلات الاميركية والقت بظلها على اتجاهاتها التحريرية ، فالحياة الحديثة تؤكد على الاختصار والوضوح . لذلك تجد المجلات في اميركا ترحب بالمقالات المقتضبة السريعة كتلك التي يمكن قراءتها فى الباص أو فى غرفة انتظار طبيب الاسنان أو ردهة الاستقبال في النادى (وهذا الاتجاه له مايبرره غير انه لابد من الجمع بين المقالات المنهجية المطولة والموضوعات القصيرة المقتضبة ، فكلا النوعين مكملا للآخر ولا يمكن الاستغناء عن احدهما لحساب الآخر) .

٤ ـ ان المجلات الاميركية الحديثة اصبحت تتجه نحو معالجة مشكلات الساعة اليومية بدلا من المعالجات الادبية التقليدية ونحو تبنى المادة العملية عوضا عن الموضوعات النظرية .

٥ ـ المجلات الاميركية تتأثر بالعامل التجارى ، فالتكاليف اللازمة لاصدار مجلة أو الاستمرار فى اصدارها كبيرة جدا ، الامر الذى يدفع بالمجلات الى التنافس لبيع أكبر عدد من النسخ ، لذلك تراها مضطرة الى التسابق على الكتاب الذين تروج مقالاتهم وتجد صدى أكبر عند القراء . وهى تدفع لهم اجورا عالية لقاء نشر هذه المقالات . وهذا التنافس هو فى صالح الكتاب طبعا .

(واذا قارنا هذا الوضع بالمجلاتالعربية نجد انه ينطبق في معظم الاحيان على المجلات الخاصة أما المجلات التى تصدرها الدولة على نفقتها فلا تهتم بالربح المادى طبعا لان اصدارها يدخل ضمن الواجبات الثقافية للدولة) .

عوامل النشر فى الصحافة الامريكية :

قبل أن يفكر الكاتب فى تدبيج مادة وعرضها على صحيفة أو مجلة ما فان أول ما يجب أن يهتم به مدى امكانية نشر هذا المادة . وتعتمد الصحف والمجلات الاميركية فىتقويمها للاعمال الكتابية المرشحة للنشر وتقريرامكانية نشرها على عدة مقاييس منها :

١ ـ قابلية رواجها ، فكل مجلة تحاول ارضاء فئة معينة من القراء ، وكذلك مدى انسجام مادة النشر مع الخطة التى تنتهجها المجلة .

والمحررون في أمريكا على نوعين :

أ ـ محررون يمدون المجلة بكتاباتهم

ب ـ محررون يقومون المواد المعروضة ويبتون بمدى صلاحيتها للنشر ، وهؤلاء يتمتعون عادة بحدس خاص حول سوق النشر والاعمال الكتابية التى تلقى قبولا أكبر عند القراء .

٢ ــ الجدة : فالمجلات تمنح أولويــة النشر للمقال الذى يحتوى على معلومات جديــدة ومبتكرة . فقد لاقي مثلا مقال عن انحــراف الاحداث نشرته مؤخرا احدى كبريات المجلات الاميركية رواجا هائلا ، فعلى الرغم من أن موضــوع المقال شائع وســبق أن كتب فيــه الكثير الا أن المعالجة فيه كانت جديدة كــل الجدة ومبتكرة فقد عالج الكاتب موضــوع انحراف الاحداث بطريقة طريفة وقدم مقترحات عملية أصلية لحلها ، لم يسبق أن قدم لها .

٣ ــ فاعلية التعبير : فالعمل الكتابي ينبغي أن يتسم بالوضوح والقوة ودقة المعلومات ، واذا كان المقال يتمتع بجودة كبيرة ولكن يفتقر الى قوة التعبير فان المجلة قد تشترى المقال وتدفع ثمنه ثم توعز الى محرريها كي يعيدوا سبكه وصياغته من جديد (ونعتقد أن هذا نهج ســديد حبذا لو ســارت عليه مجــلاتنا العربية التي كثيرا ما يصلها مقالات جيــدة المضمون بشكل غير عادى ولكن تعوزها حلاوة اللغة وتتناثر فيها بعض الاخطــاء اللغــوية والنحوية فتمتنع المجلة عن نشرها . والاجدى من ذلك أن يعمد جهاز تحرير المجلة الــى تنقيحه وتعديله ثم نشره . ولكن تبرز هنــا مشكلة ما اذا كان ينبغي نشر المقــال باسم الكاتب أم لا . والحــل الوســط المعقول أن ينشر المقال بالاحرف الاولى من اسم الكاتب لا باسمه الكامل الصريح .

٤ ــ شــخصية الكاتب .. من هــو .. ما أهميته .. ما اختصاصه .. ما مركزه .. هل هو كفؤ ؟ هل هو أهل للثقة ؟ وهنــاك كثير من المقالات تقبلها المجلات الاميركية وتوافق على نشرها فورا حتى قبل قراءتها فى بعــض الحالات لان أصحابها معروفون ومــوثوقــون لديها بدرجة كافية . وهذا لايعنى أن كــون الكاتب مغمورا يحرمه من فرصة النشر ، بل أن جــودة المقال وجدته يعوضان أحيانا عن عدم شهرة الكاتب . وفى الحالات التى يستطيع فيها شــخص عادى غير متمرس بالكتــابة تمرســا كافيا أن يكتشف حدثا هاما جديدا ، كما حدث بالنسبة لكاتب المقال الذى كشف النقاب عن حادث الاقتحام في ووترغيت ، فان محرر المجلة يقدم المقال مشيرا الى اسم مؤلفه الاصلى اشــارة عابرة ، أو ينشره باسم رمزى بعد تنقيحه وصياغته صياغة مقبولة .

اشكال الاعمال الكتابية فى الصــحافــة الاميركية :

ان الاشــكال الرئيسية للاعمال الكتابيــة هى القصة والمسرحية والمقالة والقصيدة .. ولكل شكل منها عدة أنواع . وبعض المجلات يهمها فقط مضمون المادة وأهميتهــا بصرف النظر عن الاســلوب اللغوى ، ولكن بعضــها الآخر يضع الاسلوب اللغوى فى الدرجة الاولى من سلم الاهتمام .

١ ــ القصة القصيرة : وهى الشكل الذى يجربه الكتاب الناشئون أكثر من باقى الاشكال . وتحظى القصة القصيرة بشعبية كبيرة بــين الكتاب بسبب شعبيتها بين القراء . وحسب تقديرات المحررين المقومين للاعمال الكتابيــة فان محاولات تأليف القصة القصيرة تزيد على المحاولات الادبية الاخرى جميعها بمعدل ١/٣ وبالطبع فان عددا قليلا جدا من قصص الكتاب الناشئين يتاح لــه فرصة النشــر . ولكتابة القصة القصيرة الناجحة لابد من توافر عدة شروط :

١ ــ الالهام
٢ ــ القدرة على الادراك

٣ ــ القدرة على التصوير .

اما الالهام فيرتبط بالرغبة ، فما لم يكن الكاتب شغوفا بالكتابة فانه لا يستطيع ان يأمل الا باحراز القليل من النجاح . ويجب أن تصل درجةتشوقه للتاليف الى الحد الذى يجعله يتحمل كافة المشاق المتصلة به . فاذا تمتع بعزيمة ماضية لا تثبط بسهولة امكنه عندئذ أن يحاول ويحاول ثم يعيد المحاولة الى ان يصيب النجاح ، متحملا جميع انواع النقد .

وأما القدرة على الادراك فتعنى القدرة على تعرف مادة القصة بدءا من خطوطها العريضة ثم دقائقها وعقدها . ويعتقد البعض أن هذه القدرة فطرية بينما يرى آخرون امكانية تطويرها بالممارسة ، وبالنسبة للقدرة على التصوير فان المقصود بها القدرة على ايجاد الكلمات والتراكيب والصور البلاغية الاكثر تأثيرا وفعالية ، وبتعبير آخر القدرة على اختيار احسن طريقة لرواية القصة ، وليست هناك قواعد لتعليم هذه القدرة الا أن من المؤكد انها تتحسن بالممارسة . والخطوة الاولى تجاه تطوير القدرة على تأليف القصة القصيرة أن يملك الكاتب حسا نقديا سليما تجاه هذا النوع من القصص . وعليه من أجل ذلك ان يبدأ بقراءة قصة ثم يتساءل : ما المميزات التى جعلت كاتب هذه القصة ناجحا ؟ ما نقاط الضعف والقوة فيها؟ ماالذى يجعل القصة من النوع العادى أو غير العادى؟ وعندما يتمكن الكاتب من الاجابة عن هذه الاسئلة بشكل مرض يكون قد دخل الطريق الى تطوير حسه النقدى . وفي أثناء هذه العملية يجب على الناشىء ان يتجنب الوقوع فى الشرك الذى كثيرا ما يقع فيه بعض زملائه ويتمثل بالاتجاه نحو تقليد انتاج الكاتب المشهور واسلوبه .

فقد اصبحت اعمال كبار الكتاب امثال ارنست همنجواى ووليام فوكنر وجيمس بالدوين وغيرهم مصائد لكثير من الكتاب الناشئين ، فتقليد هذه الاعمال من قبلهم يقتل فيهم اصالتهم ، ويودى بامكاناتهم الحقيقية ، ويحولهم من مبتكرين الى مقلدين. والقدرة على التصوير هى أصعب ما يواجهه الكاتب الناشيء . فهناك كثيرون يستوعبون الحوادث والخبرات ويتوقون الى الكتابة عنها ولكنهم يعجزون عن ايجاد الكلمات والتعبير عن انفسهم كتابيا .

ب ــ المقالة : وهى اكثر الاعمال الكتابية شيوعا فى المجلات الاميركية ، وتقسم من حيث الشكل الى نوعين :

أ ــ المقال الشكلى المنظم Formal essay ويتسم بالجدية والرصانة والتنظيم .

ب ــ المقال العابر informal essay وهو مقال عرضى غير جدى فى أسلوبه ولكنه هادف في محتواه ، ويكون أحيانا هزليا وساخرا .

ويتمتع هذا النوع من المقالات بشعبية ورواج كبيرين . وتقسم المقالات من حيث المحتوى الى :

١ ــ المقال التأملى (أو الخاطرة) reflective essayويعبر عن وجهة نظر الكاتب وانطباعاته تجاه حالة أو حادثة أو مشكلة .

٢ ــ الصورة الادبية الوصفية

Perconality sketch) ان أى شخصية مهمة ، سياسية كانت أم ادبية ام غيرها ، مرشحة لان تكون موضوعا لمقال .ويواجه كاتب الصور الوصفية عدة مصاعب ، ذلك أنه مامن كاتب يرقى الى مركز سياسي او علمي أو ادبى جديد حتى يدخل دائرة الضوءوتبدأ الاقلام بالكتابة عنه . فاذا اراد كاتب أن يدبج مقالة وصفية ناجحة عليه ان يكون البادىء فى الكتابة عن هذه الشخصية الكبيرة تجنبا للازدواجية . والصعوبة الثانية أن هذا النوع من الكتابة يستلزم من الكاتب أن يجرى لقاء مع الشخصية الجديدة ، مما يمثل مشكلة بالنسبة للكاتب غير المشهور لان الشخصيات البارزة تكره التعامل مع الكتاب المغمورين لعدم وجود ضمان لنشر الموضوع وللامانة في نقل الحقائق بدقة وتعاطف وموضوعية بعيدا عن أى تزوير أوتحريف.

٣ ــ مقالة الخبرة الشخصية :

personal experience account

ان القراء تسحرهم عادة النشاطات النادرة غير العادية التى يمارسها الآخرون ، فمثلا ان المواطنين المثقفين تبهرهم استكشافات الفضاء وتستحوذ على اهتمامهم ، وبخاصة منها محاولات الانسان غزو الكواكب الاخرى، لذلك تراهم يراقبون وسائل الاعلام لتتبع اخبار الفضاء ، ويهتم هؤلاء عادة بالخبرات الفعلية للابطال الذين يشتركون فى رحلات الفضاء ، فما الذى يخطر ببال رجل الفضاء عندما يجلس فى المركبة ينتظر اقلاعها ؟ ما شعوره حينماتغادر المركبة منصة الاطلاق ثم تحلق في اعالى الكون موغلة فى أقاصيه ؟ ما احساساته عندما يخطو خطواته الاولى على أرض القمر ؟ الجمهور يريد أجوبة لهذه الاسئلة من فم رجل الفضاء مباشرة مفضلا ذلك على الحصول عليها بواسطة ناقل آخر بعد تكثيفها أو تحريفها .

وتحظى الموضوعات التى تجىء على لسان أصحاب الخبرات النادرة مباشرة بشعبية عظيمة بين القراء .

٤ ــ المقالات المبسطة للحقائق :

Popularizing facts

ان حقل تبسيط الحقائق وجعلها فى متناول الجمهور العادى يمثل مصدرا غنيا للكتاب الاميركيين . ومرجع ذلك الى ان معظم القراء يجدون متعة كبيرة فى المقالات الشعبية التى تبحث في بعض النواحى الغامضة غيرالواضحة بالنسبة للرجل العادى فى حقل مثل الطب او العلوم أو الاقتصاد ، بطريقة مألوفة تقربها الى الاذهان ، وتجعلها واضحة نيرة لا تدق على الافهام ، ولا تستعصى على العقول .

٥ ــ المقالات العملية النافعة Utility article

وهذه المقالات تشرح كيفية القيام بعمل ما أو تطوير مهارة معينة (مثل : مقال كيف تلعب الشطرنج أو كيف تمارس السباحة بنجاح ... الخ وأهم شرط لرواج هذا النوع من المقالات هوالجدة فىالموضوعوالمعالجة،وكون صاحبه مرجعا موثوقا في مادة اختصاصه التى يكتب فيها . وسوف هذه المقالات رائج عند الذين يهمهم موضوع المقال لانهم يستفيدون من تطبيقه عمليا . وينجح المقال بشكل خاص عندما يبنى على معلومات مستقاة من مصدر خبير فريد من نوعه . مثال ذلك أن أحد الصحفيين الاميركيينالمغمورين أفلحفى الحصول على معلومات طريفة ومفيدة حول تزوير

التحف الفنية من أحد نجارى الموبيليا العريقين فى مهنتهم ، وكان هذا قد أوضح له كيف ان بعض الاشخاص الذين لا تتطرق اليهم الشكوك يتمكنون من صنع نسخ مزيفة عن التحف الاصلية . ونجح الصحفى فى بيع المقال بثمن مرتفع الى أحدى كبريات المجلات فلاقى بعد نشره اقبالا شديدا من القراء . ويعود الفضل فى ذلك الى أن المصدر الاصلى للمعلومات التى تكون أرضية المقال ، وهو نجار الموبيليا ، صاحب خبرة واسعة فى شؤون التزوير والتقليد ... أفليس اساس عمله خلق نماذج جديدة تشبه نماذج قديمة ؟

جـ ـ الشعر : وأهميته آخذة بالاضمحلال في المجلات والصحف الاميركية على عكس ماكان الحال فى الماضى .

عملية التاليف :

عندما يعتقد الكاتب أن فى جعبته ما يصلح للنشر عليه أولا أن يفكر بالشكل الادبى الذى يريد أن ينتجه فيقرر ما اذا كان سيؤلف مقالا أم قصة قصيرة أم غير ذلك ، حسب مقدرته وموهبته ، أما الخطوة الثانية فتتمثل بدراسة السوق الادبى وفرص النشر . أى أن على الكاتب أن يحدد الصحف والمجلات التى يمكن ان ترحب بنشر مقاله . فمن المعلوم ان المجلات لا تسير جميعها على منوال واحد بل ان لكل منها خطتها وطابعها الخاص بها . ومن الافضل للكاتب الا يبدد جهوده في ارسال مقالات الى مجلات لا تناسبها ولا تتوافق مع اتجاهاتها مما يؤدى الى رفضها وعدم نشرها . ان مسألة السوق الادبية مهمة جدا لدرجة ان بعض كبار الكتاب ينزلونها المنزلة الاولى من الاهمية ويرون انها تسبق جميع الاعتبارات الاخرى .

لذلك فان استكشاف هذه السوق يمثل أول خطوة يتخذونها فى عملية الكتابة . وهكذا فان على الكاتب أن يقرر اسم المجلة التى يمكن ان ترحب بنشر مقاله ثم يشرع فى الكتابة حتى لا يقع فى محظور احتمال اهمال مقاله بسبب عدم ملاءمته لخط المجلة . فمثلا أن مقالا عن الرياضة في المدارس الثانوية يصعب نشره فى مجلة مثل مجلة فيلد اندستريم Field and Stream الاميركية ، بينما يمكن أن توافق على نشره اى مجلة رياضية . وكذلك فان مقالا عن فن الطهى يصلح للنشر فى مجلة هاربرز ، ولكن المجلات النسائية هى أكثر استعدادا لنشره . والخطوة الثالثة في عملية الكتابة هى التخطيط الفعلى . وعلى الرغم من أن التخطيط يختلف باختلاف شكل الكتابة (مقال ... خاطرة .. قصة .. الخ) فان هناك عدة حقائق تجدر ملاحظتها وأولاها أن التخطيط يجب أن يكون شاملا ومغطيا جميع جوانب العمل الكتابى المقترح . اى أن على الكاتب ان يقلب الموضوع فى عقله من كافة وجوهه . وهذا التمعن الاولى ينطوى فى رأى الكثيرين على أهمية كبيرة . وبعد ذلك ينتقل الكاتب الى تدوين جميع الافكار التى تخطر له حول الموضوع دون اهمال اى فكرة مهما صغرت . وعندما تكتمل قائمة الافكار تصبح اساسا للخلاصة النهائية للموضوع .

وهكذا يتضح أن (كتاب الصحافة في أميركا) قد عالج مشكلات وامورا كثيرة تهم كل كاتب وصحفى . صحيح أن الصحفى الاميركي يستفيد من الكتاب أكثر من غيره ، الا أن أى عامل فى سلك الصحافة فى أى بلد كان لابد أن يعثر فيه على كثير من الحقائق التي تهمه فى ممارسة مهنته . وقد لاحظنا أن

الكتاب يتمحور بصورة رئيسية حول المجلات لان هذه هى الوسيلة الاعلامية الاكثر تأثيرا في الولايات المتحدة ، وقد انعكس هذا الاتجاه على عرضنا للكتاب فوجدتنا نتناول المبادىء الاساسية فى فصل المجلات بكثير من التفصيل.

ولابد لنا قبل اختتام هذا التحليل من ابداء ملاحظة بسيطة ,وهى ان المكتبة العربية تفتقر الى كتب ناجحة فى موضوع الصحافة ، ذلك أن معظم الكتب المتوافرة انما تدور حول تاريخ الصحافة . ونحن الآن بحاجة الى كتب من نوع جديد تنهج نهجا تقويميا نقديا وتقترح السبل العلمية السلمية لتطوير الصحافة وتخليصها من السلبيات التى تعوق مسيرتها.

★ ★ ★

من الكتب الجديدة

كتب وصلت الى ادارة المجلة ، وسوف تعرض لها بالتحليل فى الاعداد القادمة

1. Bluhm, William T., Ideologies and Attitudes, Modern Political Culture, Prentice Hall. Inc., Englewood Cliffs, N.J.
2. Currell, Melville, Political Woman & Littlefield, N.J., 1974.
3. Dickens, A.G., The Age of Humanism and Reformation, Europe in the Fourteenth, Fifteenth and Sixteenth Centuries, Prentice Hall, Inc., Englewood Cliffs, N. J. 1972.
4. Henderson, C. William, Awakening, Ways to Psychospiritual Growth, Prentice-Hall, Inc., Englewood Cliffs, N. J. 1975.
5. Tugwell, Franklin, Search for Alternatives : Public Policy and the Study of the Future, Winthrop Publishers, Inc., 1973.



العدد التالى من المجلة

العدد الاول • المجلد التاسع

ابريل ـ مايو ـ يونية ـ ١٩٧٨

قسم خاص عن

العلوم عند العرب

بالاضافة الى الابواب الثابتة

البلد	السعر	العملة	البلد	السعر	العملة
الخليج العربي	٥	ريالات	سوريا	٣	ليرات
السعودية	٥	ريالات	القاهرة	٢٥٠	مليمًا
البحرين	٤٠٠	فلس	السودان	٢٥٠	مليمًا
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس	ليبيا	٣٥	قرشًا
اليمن الشمالية	٤,٥	ريال	مسقط	٤٠٠	بايسة
العراق	٣٠٠	فلس	الجزائر	٥	دنانير
لبنان	٢,٥	ليرة	تونس	٥٠٠	مليم
الأردن	٢٥٠	فلسًا	المغرب	٥	دراهم

الاشتراكات :

للاشتراك في المجلة يكتب إلى : الشركة العربية للتوزيع - ص.ب ٤٢٢٨ - بيروت

مطبعة حكومة الكويت